النطْع والنِّطْع والنطع والنِّطع :

بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس . ج أنْطاع ونُطُوع .

النطع

الطبعة الأولى ٣٠٠٠/ ٢/ ١٩٨٨

طبع الكتاب في مطبعة الكندي
عدد النسخ - ٣٠٠٠
صمم الغلاف: نوار الجمالي
اخراج: ناصر الحجلي - فؤاد كمو

أشرف على الطباعة خليل داود

الناشر: دار الشيخ للدراسات والترجمة والنشر
دمشق - هاتف: ٧٢٠٢٧٦ - تلكس ٤١٢٥٤٦ - ص. ب ٦٠٥٩

جنكيز إيتماتوف

النطع

ترجمة الدكتور
ماجد علاء الدين



خلال اكثر من ثلاثين عاما من النشاط الادبى نشر الاديب القرغيزى المعروف جنكيز آيتماتوف (١٩٢٨)، عضو الاكاديمية الاوروبية للعلوم والفنون والاداب ، كمية كبيرة من التعليقات والنبذات والمقالات ، التى تنم جلية عن مسيرة فكره الفنى - بدءا من بحث مشكلات العصر الملموسة اليومية وانتهاء بطرح اهم قضايا الوجود الفلسفية .

القسم الأول

عقب لحظات قصيرة، مرت في منتصف النهار، لطيفة هادئة كتنفس الأطفال، فوق سفوح الجبال المقابلة للشمس، تغير الطقس على حين غرة، وهبت ريح الصقيع من الجبال، وتسرب عبر الشعاع شفق أرجواني، يجر خلفه سماء رمادية باردة تبشر بليلة ثلجية.

كان الثلج كثيراً في كل مكان، وعلى امتداد سلسلة تلال «إيسك ـ كول» تكدست الثلوج الكثيرة التي سقطت أثناء العاصفة الثلجية، التي عمت هذه المناطق قبل يومين، كحريق هب بعفوية، دون مقدمات. وبعد لحظات اختفت الجبال في ظلمة العواصف الثلجية، واحتجبت السماء، وانكمش العالم المرئي، ثم هدأ كل شيء، وصفا الطقس، ومنذ تلك الفترة التي هدأت فيها العواصف الثلجية، بدت الجبال مصلوبة بسدود ثلجية، يلفها صمت موحش،وانعزلت عن كل شيء في الدنيا.

وها هي طائرة مروحية ثقيلة، يتوضح صوتها، ويتعاظم تدريجيا مع اقترابها من شعاب «أوزون شات» وهي متجهة نحو المنحدر الجليدي «علا ـ مانغيو» الذي تغطيه سحائب الغيوم الرمادية.

تعاظم صوت الطائرة المروحية مع اقترابها تدريجيا، حتى عم الجوكليا، وسبحت بصوتها القوي فوق المناطق التي يصعب عبورها لأي كان، إلا للصوت والنور، وخاصة تلك الشعاب. والقمم، والذرى الجليدية. وعم صدى الدوي متعاظما، عدة مرات بين الصخور والمنحدرات، فوق الرؤوس بقوة مخيفة لا ترد، وبدا الأمر وكأن مصيبة رهيبة سوف تحل كالهزة الأرضية التي حدثت في وقت مضى...

حصـل هذا في وقت عسـير ، إذ تدحـرجت من أعـالي الجبـل الـذي اعـترتـه ريـاح العاصفة، جلاميد صغيرة، واستقرت في مكانها بعد أن اجتازتها الطائرة. واهتزت الحجارة الصغـيرة، حتى أن بعضهـا تدحـرج من فوق الـتر بة المنحدرة إلى الأسفل، وتعالى الغبار وتطـايـر الحصى كالقـذائف بين الحشائش ونبات البر باريس، ونفذت إلى طبقات الجليد، مخترقـة ايـاهـا، ووصلت إلى عرين الذئاب، تحت الصخور التي تغطيها النباتات، بالقرب من النهير الذي كاد يتجمد كليا.

قفـزت الـذئبـة أكبارا متراجعة إلى الخلف، أمام الحجارة المتدحرجة والثلوج المنهارة من الأعلى. وتحفزت كالنابض في ظلمة المغارة.

وقف الشعـر في غاربهـا، ونظـرت إلى الأمـام بعينـين مشتعلتين بوحشية في الظلمة، وكأن فيهـما فوسفـوراً يلمـع بشـدة وبدت جاهزة للعراك في أية لحظة، ولكن قلقها كان غير مبر ر، فالخطر واقع لو كانت الذئبة في السهل، حيث لا مفر من الطائرة المروحية، التي تحوم فوق الـذئـاب، وتخـرسهـا بصـوت الرصاص، وتقتلها بوابل مما تطلقه الرشاشات، خاصة عندما لا تجد الذئاب في هذا السهل مخبأ تلجـأ إليه أمام هذه الطائرات. ولا يوجد شق ما يحمي الذئب الجسور نفسه في حالة اليأس، والأرض بالطبع لن تنشق، لتحمي الذئاب المضطهدة.

في الجبـال تتم الأمـور على شكـل آخـر ـ هنا يمكن للفرد أن يختفي، وأن يبتعد عن الخطـــر، فالطـائـــرة المـروحيـة هنـا غير مخيفـة، بل على العكس فالجبـال هي التي تخيف الطـائـرات. ولكن الخـوف ما زال قائما، زد على ذلك أنه أصبح شيئًا معتادًا: فمع اقتر اب الطـائـرة، تحفـزت الـذئبة، منكمشة على نفسها، مجتمعة في كتلة واحدة، مخفية رأسها بين كتفيهـا، ولكن أعصـابهـا لم تتحمـل هذا طويـلاً، فخرجت عن طورها وعوت الذئبة أكبارا قوة، وقد تملكها الخوف الشديد، وأخذت ترتجف تزحف على بطنها نحو باب المغارة، وهي تصك أسنانها بشراسة، مجهزة نفسها للعراك دون أن تترك مكانها، لقد أرادت من تصرفها هذا، أن تخيف الغـول الحـديـدي العجيب، الـذي رافق ظهـوره في هذه المنطقـة، انهيـار الأحجار، وزعزعة الجليد، كما يحدث خلال الهزات الأرضية.

هب ذئبها ـ «تـاشينـار»، عنـدما سمع عواءها الشديد، إذ كان يقضي أغلب وقته، بعـد أن حملت ذئبتـه، خارج المغـارة، بين الشجـير ات. وتـاشينـار ـ (كسار الحجارة ـ هو الإسم الـذي يطلقـه السكـان المحليـون عليه لقوته، وصلابة فكيه اللذين يطحنان العظام طحنـا). هرع تاشينـار إلى مضجعهـا، وهو يخفف من هلعها ويهر بصوته الجهوري، وكأنه

يحمي جسدها من أي خطر كان. اقتربت منه واحتمت بجانبه وهي تتابع عواءها، كأنها تشكو السماء، غير العادلة، أو اية جهة مجهولة، أو مصيرها البائس نفسه. ارتجفت بكل أطرافها طويلاً، ولم تتمالك أعصابها حتى بعد أن غادرت الطائرة المكان، واجتازت نهر «علا ـ مانغيو» الجليدي، ثم اختفت خلف الغيوم.

في هذه المرة، ودفعة واحدة، كما يحدث بعد اختراق الصوت في الفضاء. أحست الذئبة في هذا الهدوء، وعلى حين غرة في أحشائها بحركات كائنات حية.هكذا كان الأمر عندما خرجت أكبارا في أول مرة إلى الصيد، واصطادت بوثبة واحدة أنثى أرنب،وأحست في بطن الأرنب بمثل هذه الحركات لكائنات اختفت عن الانظار، وأثار هذا الوضع الغريب استغراب وتعجب الذئبة الشابة، التي جلست رافعة أذنيها، وهي تنظر بارتياب إلى صيدها المرمي على الأرض، ولقد كان هذا غريباً، وغير مفهوم، حتى أنها حاولت، أن تبدأ اللعب مع هذه الكائنات غير المرئية،حتى بدت في لعبها كالقطة التي تداعب فأرا نصف حي. وها هي الآن، قد أحست بداخلها بحركات مشابهة، للكائنات التي في داخلها والتي ستعلن عن ميلادها بعد اسبوع ونصف أو أسبوعين، إذا كان كل شيء سيسير على ما يرام، أما هذه الكائنات التي لم تلد بعد فقد كانت متصلة برحم أمها، وكونت جزءاً من وجودها، ولهذا قد عانت هذه الكائنات من هذه الصدمة في حسها الباطني، كما عانت الأم بالذات، وهذه كانت أول صدمة بالنسبة لهم مع العالم الخارجي، مع الواقع المعادي لهم. ولهذا تحركوا في أحشاء أمهم، متعاطفين مع معاناتها.وكانت الصدمة مخيفة بالنسبة لهم أيضاً، وتسرب هذا الخوف الى قلوبهم عبر دم الأم.

أصغت أكبارا الى ما يدور في أحشائها رغماً عن ارادتها، فقلقت جداً. وتسارعت دقات قلبها، الذي امتلأ «قسوة وجرأة» للدفاع عما تحمل في أحشائها وحمايتهم لقد عصفت في عالمها الغريزة الطبيعية الكبرى في متابعة الذرية. وهنا شعرت أكبارا بموجة دافئة متدفقة من العطف قسري في كيانها، وتملكها شعور بالمحبة والحنان، وتخيلت العناية بالرضعاء المقبلين، وزدادت الرغبة في أن تعطيهم الحليب، وكأنهم قد أصبحوا الى جانبها، ان هذا كان حدسا بالسعادة المقبلة، فأغمضت عينيها، وانتشت من شعورها بالتنعم، في انتظار الحليب يملأ ثديها المنتفخ في صفين من الحلمات الحمراء البارزة بوضوح . وبهدوء امتدت مرتخية بكل جسمها بقدر ما سمحت لها المغارة أن تمتد، وسكنت أخيرا الى جانب ذئبها رمادي اللون تاشينار: كان قوياً، ذا جلد دافىء، سميك الشعر، جميل المنظر، وبدا تاشينار عابساً، إذ أدرك ما عانت منه الذئبة الأم وبحس غريزي، فهم ما دار في عالمها

وأحشائها، وتألم متعاطفاً معها، إذ يهمه الأمر كما يهمها. انتصبت أذنا تاشينار عالياً، ثم رفع رأسه الثقيل، ونظر نظرة واجمة من حدقتين باردتين، في عينيه الغارقتين عميقاً تحت جبهته، لاح فيهما ظل باهت لشعور خفي يبعث على الإطمئنان. وهرّ تاشينار بصوت أبح، ثم سعل بهدوء معبراً عن وضعه المريح. وعن شعوره بالرضى، وعن استعداده لأن يلبي، دون تردد رغبات ذئبته ـ زرقاء العينين، وأن يحميها، وأخذ يلحس رأس أكبارا وبدأب وثبة، وخاصة عينيها الزرقاوين الجميلتين وأنفها، مداعباً اياها بلسانه العريض، الدافىء، الرطب. أحبت أكبارا لسان تاشينار دائماً، وخاصة عندما كان يداعبها ويلاطفها متودداً لها، وهو يرتجف فاقد الصبر، ولسانه يتهيج من احتقان الدم الكثير فيه، ويصبح مطاطياً مرناً، سريعاً ومطواعاً، يتلوى كالأفعى. أنها أحبته على الرغم من أنها في بداية الأمر تظاهرت، أن هذا الأمر بالنسبة لها سيان، كما أحبته في لحظات الهدوء والارتياح بعد غداء دسم، عندما كان لسان ذئبها طرياً ـ رطباً.

في أسرة الذئاب هذه كانت أكبارا هي الأساس، وهي الأذكى، وهي التي تقرر وقت الصيد. أما تاشينار فقد كان وفياً لها تعتمد عليه اعتمادا كلياً، فهو ينفذ ما تطلبه منه دون تردد. ولم تتمزق هذه العلاقة بينهما يوماً. فقط ذات مرة، وقعت حادثة غير متوقعة، عندما غادر ذئبها قبل طلوع الفجر، وعاد ملطخاً برائحة ذئبة غريبة ـ رائحة مفرزات الحرارة الحيوانية الكريهة التي استقطبت الذئاب الذكور من مسافة بعيدة، كل هذا أثار حقد أكبارا وقلقها، فقاطعته، ورفضت استقباله، وغرست أنيابها عميقاً في كتفه، وعاقبته بالمسير خلفها عدة أيام. وأبقت هذا المجنون بعيداً عنها، ومهما حاول أن يتقرب منها، كانت ترفض مصالحته، وكأنه لم يكن ذئبها تاشينار، وكأنه لم يكن حيا بالنسبة لها، ولو حاول، وتجرأ أن يقترب منها، ليرغمها قسراً، كانت أكبارا تهب لمقارعته بالقوة، لهذا كانت هي الأساس، وهو حامي هذه الأسرة الرمادية.

أما الآن عندما استقرت أكبارا إلى جانب تاشينار العريض والدافىء، فقد شعرت بالامتنان لذئبها الذي هب لمساعدتها، وقاسمها الخوف، فأعاد اليها الثقة به، ولهذا لم تقاوم ولم ترفض عنايته بها، وبادلته شعور المودة، إذ لحست شفتيه مرتين، لتقضي على القلق، الذي ما زال مسيطراً عليها، ويبعث الهلع في نفسها. تمالكت أعصابها، واصغت الى حركات الجراء التي لم تلد بعد، واستسلمت للأمر الواقع، في وجرها، مع جو الشتاء القارس في الجبال، ومع ليلة الصقيع القادمة بهدوء.

هكذا انتهى ذلك النهار القاسي بالنسبة للذئبة. ولم تكن الذئبة لتخاف على نفسها،

بقدر ما تحكمت بها غريزة الذرية الطبيعية للأمومة، وخافت على الكائنات الحية في جوفها، والذين انتظرت ولادتهم في هذا العرين، الذي أسسته مع ذئبها في هذه المغارة العميقة تحت الصخرة العاتية، والتي يغطي بابها النبات المختلف، والأحجار المتدحرجة من الإعصار، هكذا تكوّن مأوى الذئاب هذا، لتستمر الذرية فيما بعد، ويكون هناك المكان،الذي تنتمي اليه هذه الذرية فوق الأرض.

كانت أكبارا وتاشينار غريبين في هذه المنطقة، فهما بالنسبة للعين الخبيرة يختلفان من حيث الشكل الخارجي عن اخوتهما الذئاب هناك في تجعدات الفرو الرمادي المنفوش فوق الرقبة والكتفين، وكذلك فوق الصدر، بينما كانت الذئاب القادمة من مناطق أخرى تميل الى اللون الأبيض كغيرها من الذئاب التي تعيش في السهول. ومن حيث طولها تختلف، إذ أن ذئاب منطقة جبال إيسك ـ كول تتسم بقامتها الطويلة. ولو تمكن أحد ما أن يرى أكبارا عن قرب، لاذهله جمال عينيها الزرقاوين الصافيتين ـ أنهما عينان فريدتان من نوعهما، وربما الوحيدتان، ولقد لقبها الرعاة المحليون بـ«أكدالا»، أي «بيضاء الرقبة»، ولكن وبعد فترة من تطور اللغة، أصبحوا يطلقون عليها لقب أكبارا ـ أي العظيمة، ولم يخطر ببال أحد أن في هذا الأمر عناية إلهية.

وقبل سنة لم تكن تعيش هذه الذئاب الرمادية العرف في هذه المنطقة، ولم يذكرها أحد. وبعد أن دفعها القدر إلى هذه المنطقة، حافظت على استقلاليتها بعيداً، وتجنبت الذئاب أي صدام مع ملاكي هذه الأرض الواسعة، حتى في الأراضي المحايدة التي لا تعود إلى ملكية الذئاب المحلية، وعاشت هذه الذئاب الغريبة بصعوبة، وهي تبحث عن طعامها. وتجنبت السطو على المناطق المأهولة بالسكان. وبقيت هذه الذئاب القادمة منفردة في حياتها، لا تقترب من جماعات الذئاب المحلية. كانت الذئبة زرقاء العينين ـ أكبارا، تتسم بحبها للاستقلالية الذاتية، وتأنف أن تلتحق بجماعات الذئاب، وتخضع لها، ولعاداتها المحلية.

الوقت يحسم كل شيء: مع مرور الأيام تمكنت الذئاب الرمادية عرف العنق أن تحافظ على وجودها عبر المعارك العديدة، التي نشبت فيما بينها وبين الذئاب المحلية، وانتزعت لنفسها أرضا بالقرب من جبال إيسك ـ كول، وأصبحت هذه الذئاب القادمة صاحبة أرض، والذئاب المحلية لم تعد تتجرأ الدخول معها في نزاع على الحدود. وهكذا جرت الحياة في مرتفعات إيسك كول عادية بالنسبة للذئاب الرمادية العرف التي ظهرت مؤخراً في تلك المنطقة، ولكن سبق كل هذا تاريخ خاص، ولو أن الوحوش تتمكن من تذكر الماضي،

لتذكرت أكبارا التي تتسم بذكاء خاص، ودقة لاستيعاب ما عانت منه في الماضي من آلام، ولربما كانت تتذكر أحياناً متأوهة وقلقة حتى الدموع.

في ذلـك العـالم السـابق، في براري موينكـوم البعيـدة، كانت تسـير حياة الصيادين العظيمة - في براري موينكوم الواسعة في مطاردة دائمة خلف قطعان «الظباء» الكثيرة، التي عاشت منـذ آونـة قريبـة في السهول والبراري والجبال الجليدية الأبدية القديمة قدم الزمن، وكانت المطية الوحيدة في تلك المنطقة هي الحيوانات الظلوفية التي لا تمل الركض، محدودبة الأنـوف، ذات المنـاخـر الواسعة التي تزفر الهواء بقوة من رئتيها، تقطع المسافات بكل حيوية ونشاط، كما تقطع الحيتان المسافات الطويلة في المحيط، أنها تستطيع بهذه القوة الخارقة أن تركض، دون استراحة من طلوع الفجر، وحتى مغيب الشمس - وهكذا بدأت الحركة في حياة الذئاب، عندما كانوا يختلفون مع جماعات الذئاب الأخرى، وهكذا تنسحب الغوغاء على جماعـة أخـرى، وثـالثة ورابعة، وعندها كانت الذئاب المنهزمة تأخذ معها في طريقها الجـماعـات الأخـرى الصغـيرة والكبـيرة. وعنـدما ركضت الظباء في براري موينكوم، وفي الجبـال، والهضـاب، والسهـول والـرمـال تكوّن وضع، كأنه الطوفان يعمُ الأرض، وبدت الأرض تنسحب إلى الخلف وتئن تحت وقع الأرجل، كما تهتز تحت وقع البرد الغزير في أيام الـربيـع وامتلأ الهواء بالحركات القوية المتناسبة، وتطاير الغبار الأبيض الكثيف، والشرر من تحت الحـوافـر، وانتشـرت رائحـة عرق القطعـان، وصخب السبـاق الجنوني ليس من أجل الحياة، بل من أجل الموت، وكانت الذئاب تعدو قدر جهدها إلى جانب بعضها، مقتفية أثر الظبــاء، وهي تحاول أن توجـه القطيـع إلى الحصـار ضمن سلطـة مخالبهـا. وهنـاك كانت بانتظـارهـا بين الأدغـال الذئاب القوية المجربة - تلك الوحوش التي كانت تثب من مكامنها على الظباء الضحية، فترميها وتعاركها، حتى تتمكن من قضم حنجرتها، واراقة دمها، ثم تتابع العدو من جديد خلف ضحية أخرى، ولكن الظباء كانت تعرف بطرقها الخاصة، أين تنتظرها الذئاب في مكامنها، وتتمكّن من تجنب المخاطر. وتعود المطاردة مرة أخرى، وبحنق ووحشيـة أكثـر، وسـرعـة خاطفـة: جميعهم مطـاردون وهـاربـون - حلقـة واحدة في الحياة القاسية، دخلوا في هذا السباق، كما في سكرة الموت، حارقين دمهم، ليعيشوا، ويعاركوا، والرب وحده قادر على أن يوقف هؤلاء والأخرين، المطاردين والهاربين. إن الحديث يجري عن حياة أولئك المتعطشين من الحيوانات للحياة على حساب الآخرين، وان أولئك الذئاب الذين لم يتحملوا ذلك النمط السريع من الحياة، فهم الذين لم يولدوا للسباق في الصراع من أجـل الـوجـود - في الركض - في النضـال، - وسقطوا في الطريق، وبقوا يلفظون أنفاسهم في

الغبـار، الـذي يرتفـع كالعـاصفـة في أثـر المطـاردة. وإذا بقي هؤلاء على قيد الحياة، فهم سيغادرون أرضهم إلى أماكن أخرى، يمارسون فيها السطو على قطعان الاغنام المسكينة، التي لم تحاول حتى الهـروب أمـام الـذئـاب. حقاً، أن هناك خطر خاص بها، أكبر خطر من الممكن أن يكون على حياتها، - فهناك عند قطعان الأغنام، كان الناس، آلهة الغنم، وهم عبيـد الأغنـام، أولئـك، الـذين يعيشـون، ولا يسمحـون للآخرين بالعيش بسلام وحرية، وخاصة لمن هم غير تابعين لهم، يرغبون في العيش كأحرار. . .

النـاس، النـاس - النـاس الآلهـة، النـاس أيضـاً، كانوا يتصيدون الظباء في براري موينكوم، كانوا يمتطون الخيول، يلبسون الفراء، ويزودون أنفسهم بالسهام، والأسلحة، يزعقـون ويصـرخـون، وينطلقـون على جيـادهم ذهـابـا وايابا، والظباء تركض في مختلف الاتجـاهـات جماعات ووحدانا، تختفي الظباء ويصعب البحث عنها بين الاشجار والنبات، مضت الأيـام، وأصبـح النـاس الآلهة ينظمون عمليات الصيد بواسطة السيارات،يطاردون الظبـاء بسيـاراتهم السريعة، حتى يدركونها، ويطلقون النار عليها. الذئاب تغرس أنيابها، والنـاس يطلقـون رصـاصهم، وتسقـط الظبـاء متمـرغة بدمائها، ثم أصبح الناس - الآلهة يطـيرون على متن الطـائـرات المـروحيـة، يبحثـون عن قطعـان الظباء في السهول وعندما يجدونهـا يطـوقـونهـا من السـماء في منـاطق محددة وينطلق القناصة على الأرض بسياراتهم، وبسـرعـة تزيـد عن المئة كيلومتر في الساعة عبر السهول حتى يدركو الظباء قبل أن تختبىء، بينما كانت الطائرات توجه مسيرهم نحو هدفهم من الأعلى، وهكذا، سيارات، وطائرات مروحية، وبنادق «اوتوماتيكية»، تقلب الحياة في براري موينكوم رأساً على عقب.

كانت الذئبة أكبارا زرقاء العينين في عز شبابها، أما عريسها الذئب تاشينار فقد كان أكبر منها بقليل، عندما حان الوقت لكي يخرجا لصيد الظباء. في البداية لم يتمكن تاشينار وأكبارا من أن يلحقا بالذئاب المطاردة، واكتفيا بتمزيق الضحايا الواقعة على الأرض وقتلا التي مازالت على قيد الحياة منها، ومع مرور الوقت تفوق تاشينار وأكبارا في عمليات الصيد على الـذئـاب المجـربة، وخاصة الكبيرة منها بالعمر. ولو سار كل شيء على مايرام في هذه الطبيعـة كان بإمكـان تاشينـار وأكبارا أن يصبحا قائدين في جماعتهم، ولكن، سار كل شيء على عكس ذلك. . .

الأعوام لا تشبه بعضها، وامتاز ربيع ذلك العام بكون الظباء قد تكاثرت تكاثراً ممتازاً إذ أنجبت الكثـير من الأمهـات توأمـين، ويعـود هذا، الى أن المـراعي كانت خلال فترة الإخصـاب في الخـريف الماضي جيدة للغاية، إذ هطل المطر بغزارة ونمت الأعشاب جيداً،

ومن هنا كان حمل الظباء موفقاً. زد عل ذلك أنه خلال فترة الولادة، ابتعدت الظباء في بداية الربيع إلى المناطق الرملية الخالية من الثلوج، إلى منتصف منطقة موينكوم، ـ وكان يصعب على الذئاب أن تقترب من تلك المنطقة، كما يصعب عليها مطاردة الظباء في التلال الرملية ـ اذ لا تنال منها شيئاً. فمن المستحيل أن تلحق الظباء في المناطق الرملية، إلا أن الذئاب قد حصلت على نصيبها في فصليّ الخريف والشتاء، عندما قام الرعاة بسوق ماشيتهم، وطردوا في طريقهم الأعداد الكثيرة من الظباء إلى المناطق شبه الصحراوية، والى السهول الفسيحة، عند ذلك، بدا أن الإله نفسه، قد سمح للذئاب أن تحصل على حصتها. وفي الصيف، وخاصة في الطقس الحار، كانت الذئاب لا تحبذ أن تمس الظباء، إذ كان بإمكان الذئاب أن تؤمن غذاءها بسهولة عن طريق افتراس المواشي من قطعان الأغنام، وانتشرت القواضم بأعداد كبيرة في السهول، محاولة أن تعوض ما فاتها خلال الرقاد الشتوي ، وكان عليها أن تعمل في الصيف، بقدر ما تفعل الحيوانات الأخرى والوحوش خلال سنة كاملة، وهكذا دارت حول جماعة القواضم أخطار محدقة. ولكن لكل كائن حرفته، ففي الشتاء يصعب على الذئاب أن تجد القواضم في أوكارها. ولهذا تصطاد مختلف الحيوانات والطيور والبط البري في أشهر الصيف، ولكن الصيد الأساسي للذئاب، كانت الظباء بدءاً من فصل الخريف، وحتى نهاية فصل الشتاء. وكما يقال، لكل شيء آوانه، وفي هذا كانت حكمة الطبيعة، وتكامل دورتها الحياتية في البراري، وعند ذلك كان بإمكان المصائب الطبيعية والانسان أن يحدثا خللا في مسار الحياة الاعتيادية في مقاطعة موينكوم . . .

ـ ٢ ـ

عند طلوع الفجر، هدأت الرياح في البراري نسبياً، وعند ذلك أصبح الأمر أسهل بالنسبة للحيوانات. وحلت ساعة الفصل بين النهار القادم، الذي يحمل وهج الحرّ في أعماقه، والذي سيحرق السهول. وفي هذا الوقت كان القمر يسبح فوق موينكوم ككرة صفراء، وهو ينير الأرض بنوره الثابت المائل للزرقة، ولم يكن المشاهد قادراً على رؤية بداية أو نهاية هذه الأرض. مازالت الأبعاد المظلمة تسيطر على المحيط، تلتحم مع النجوم عبر خيوط غير مرئية. كان الهدوء نسبياً، ربما لأن كل شيء في هذه البراري، عدا الافاعي، كان يسرح للتمتع بالرطوبة في هذه الساعة المبكرة من النهار، تحركت بين الشجيرات الطيور المبكرة، وزحفت القنافذ مسرعة، وكانت زيزان الحصاد تصفر طوال الليل بشدة، وها هي

الآن تزيد من صوتها مودعة الليل، وانتفضت القواضم، وهي تنظر من حولها، قبل أن تبدأ بجمع طعامها من الحبوب. وانتقلت من مكان إلى مكان كل أسر البوم الرمادية، وخمسة فراخ بوم مفلطحة الرأس نمت نسبياً، واكتست أجنحتها بالريش، وأخذت تطير كما تستطيع، دون أن تبتعد عن بعضها حتى لا تضيع. ومن هناك كانت تنطلق مختلف أصوات الحيوانات، ومختلف الوحوش في البراري، قبل طلوع الفجر...

بدأ الصيف، أول صيف من حياة أكبارا، زرقاء العينين وتاشينار المشتركة، وخلال هذه الفترة الماضية اكتسب كل منهما خبرة كبيرة في صيد الظباء، ودخلا في عداد أقوى الذئاب في منطقة موينكوم، ولحسن حظهما، ـ وفي عالم الحيوان أيضاً توجد أسر سعيدة، وأسر بائسة، ـ كان الاثنان، أكبارا وتاشينار يتسمان بعدة سمات منحتها اياهما الطبيعة، وأعطتهما مزايا هامة في عالم الوحوش في البراري شبه الصحراوية، ـ ردود الفعل السريعة، والتحرك الذي في الصيد، و«بعد النظر الاستراتيجي» والقوة الفيزيولوجية الصاعقة والهجوم والسرعة عند الركض، كل هذا أكد على أن هذين الزوجين سوف يتمتعان بقدرة كبيرة على الصيد، وستكون حياتهما مليئة بعمليات الصيد لتأمين الغذاء اليومي، وتتسم حياتهما بالجمال الطبيعي لعالم الحيوان. وحتى هذه الأيام لم تصادف هذين الزوجين أي مصاعب أو ازعاجات تذكر في حياتهما في سهول موينكوم، لأن وصول الإنسان لهذه المناطق لم يكن قد حصل بعد الا من باب المصادفة، ولم يحدث أن التقى هذان الزوجان وجها لوجه مع الانسان. ان هذا سيحدث بعد وقت قصير. وثمة سمة أخرى، ومن الممكن القول أنها ميزة جيدة منحتها الطبيعة لهما منذ نشوء الكون، أن تعيش هذه الحيوانات يومها، دون أن نفكر بيوم غد، وأن لا ترتعد خوفاً من المستقبل. إن الطبيعة المتكاملة قد حررت الحيوانات من هذا الثقل الحياتي المقيت، ناهيك عن أنه في هذه الميزة لعالم الحيوان، تنحصر تلك المأساة، التي حلت بقاطني سهول موينكوم. ولكن لم يفكر أحد من هؤلاء بهذا المستقبل القاسي. ولم يتمكن أي منهم أن يتصور أن هذه البراري التي تبدو لهم واسعة جداً وبلا حدود، ومهما بلغت من السعة، فهي بمثابة الجزيرة الصغيرة في قارة آسيا، ولا تعادل ظفر الأبهام، وتلون عادة باللون الأصفر الفاقع على الخارطة الجغرافية، هذه المساحة التي يستصلح الانسان من أطرافها مساحة بعد أخرى، مع تطور السنين وتحتضن أعداداً كبيرة من قطعان الحيوانات البيتية، التي تسرح بالقرب من الآبار الارتوازية، التي تم حفرها لتوسيع مناطق الرعي، وحفرت القنوات وشقت الطرق في مناطق الحدود القريبة من البراري القريبة جداً من خطوط الغاز الكبيرة التي تمر من تلك المنطقة، والناس يتابعون العمل بكل

نشاط وحيوية، متدخلين في هذه المناطق مسلحين بالأدوات والوسائل التكنولوجية الحديثة، متنقلين فوق العجلات والدراجات النارية، وهم يصطحبون معهم أجهزة اللاسلكي، واحتياطي الماء، ويتوغلون إلى أعماق أية صحراء أوشبه صحراء، بما في ذلك منطقة موينكوم. ولكن الذين يدخلون إلى هذه المناطق ليس العلماء المتخصصون، الذين يقومون باكتشافات هامة، يمكن أن يفتخر الأحفاد بها فيما بعد، بل أناس عاديون، يقومون بأعمال عادية، بإمكان أي انسان أن يقوم بها. زد على ذلك أن سكان منطقة براري موينكوم كانوا عاجزين عن معرفة الحقيقة التي تتضمنها أعمال الانسان، وجوهر الخير والشر في القضايا البسيطة، ولم يدركوا أن كل شيء في هذه الطبيعة مرتبط بالانسان، ومن أجل ماذا عليهم أن يسخروا هذه الأمور الهامة للانسانية: للخير أم للشر، إلى البناء أم الهدم. وأن تلك المسائل المعقدة لم تخطر ببال الحيوانات والوحوش وغيرها من الكائنات في براري موينكوم، والتي شكلت معضلة كبيرة للانسان نفسه الذي حاول معرفة نفسه منذ تلك الأونة، التي أصبح الانسان فيها كائنا مفكراً، هذا مع العلم أن بني البشر لم يتوصلوا منذ القدم إلى جواب عن مسألة: لماذا ينتصر الشر على الخير دائماً تقريباً. . . ؟

ان كل هذه الأعمال الانسانية من حيث منطق الاشياء، لم يكن بامكانها أن تمس وحوش موينكوم والحيوانات الأخرى، ربما لانها لم تمس عالمهم، وغرائزهم وعيشهم. وبشكل عام، وحتى الوقت الحاضر، لم يتغير أي شيء أساسي في نمط الحياة في هذا القسم العظيم من سهول آسيا، الممتدة فوق الهضاب الحارة، شبه الصحراوية، وفوق التلال التي نمت عليها الشجيرات ذات الأوراق الابرية، وهذه النباتات قريبة من الحشائش، ومن الأشجار بأن واحد، صلبة كالأحجار، مفتولة كأمواج البحر، كالرمال الصلدة، والحشائش القاسية، وأكثر من أي شيء آخر النبات القصبي ذو الأوراق السهمية. كل هذا الجمال الرائع في شبه الصحراء، ومن خلال ضوء القمر، وتحت أشعة الشمس، يجعل هذه الطبيعة تبدو وكأنها غابة ذهبية براقة، تتلألأ وكأنها في الماء الرقراق: يجلس كائن ليس أكبر من الكلب ويرى كل ما يدور حوله، دون أن يرفع رأسه، والجميع يرونه أيضاً.

في هذه المناطق بالذات تقرر مصير الذئبين الزوجين - أكبارا وتاشينار، اللذين أنجبا ثلاثة جراء تونغوشية في تلك المغارة التي اختارها الزوجان عرينا لهما. تحت الصخرة الكبيرة، وإلى جانب الشجيرات الصغيرة، حيث كان بالامكان أن تعلم الذئاب الصغار حياة البراري. وهناك تعلمت الجراء أن تنصب آذانها متحفزة، وأن تتعود على الطبيعة وقوانينها القاسية، وخلال اللعب كانت آذانها تتهدل ككافة الجراء، ومع مرور الزمن أخذ يشتد

عودها ، وتنتصب آذانها وأخذت الجراء تخرج بالتدريج تتبع آثار والديهم إلى الصيد الصغير والكبير .

ومنذ فترة وجيزة ، كانت إحدى عمليات الصيد للذئاب بعيداً عن العرين ولمدة يوم كامل ، وكادت أن تنتهي هذه العملية بالنسبة لهم نهاية مأساوية مفاجئة .

في ذلك الصباح قادت أكبارا أولادها إلى منطقة بعيدة في طرف براري موينكوم ، حيث نمت في السهول الفسيحة ، وخاصة في الوهاد البعيدة الأعشاب الغريبة ، ذات الروائح الجذابة ، والتي لا يوجد لها شبيه فاذا تنزه الإنسان طويلاً بين هذه الأعشاب الطويلة ، مستنشقاً عبيرها فانه يشعر في بداية الأمر بنشوة لا مثيل لها وهو يسير على وجه الارض ، ثم يظهر بعد ذلك ارتخاء في الساقين ، وميل إلى النوم . إن أكبارا تذكر هذه الأماكن منذ الطفولة ، وكانت تذهب إلى هذه الأماكن مرة كل عام ، خلال ظهور الزهر فوق الأعشاب . وخلال طريقها كانت تصطاد الحيوانات السهلية الصغيرة ، وكانت تحب أن تضطجع بين الحشائش الطويلة ذات الأريج ، وتعرض جسمها لحرارة الشمس ، وتتنعم بالدفء بعد المشي الطويل ، ثم تخلد للنوم .

في هذه المرة لم تكن أكبارا وتاشينار وحدهما : خلفهما كانت تسير الذئاب الصغار ـ الجراء الثلاثة ، ذات القوائم الطويلة ، وكانت مهمة الصغار تنحصر في التعرف على مناطق صيدهم ، واستيعابهم لطرق المنطقة الخاصة بذويهم ، وبهم فيما بعد ، ثم انتهى العالم الخالي ، وأصبح بالامكان مشاهدة الناس ، ومن تلك الجهة غير المرئية ، كانت تصل أصوات صفارات القطار كرياح الخريف ، وكان ذلك العالم معادياً لعالم الذئاب ، وإلى تلك الجهة سارت أسرة الذئاب بقيادة أكبارا . وخلف أكبارا سار تاشينار خببا ، والجراء كانت تركض بحيوية ونشاط ، حتى أنهم كانوا يسبقون والديهم إلى الأمام ، ولكن الذئبة ـ الأم لم تسمح لهم بتجاوز حدودهم ـ أنها كانت تراقبهم بصرامة ، حتى لا يتجرأ أحد أن يطأ الطريق أمامها .

قطعت الذئاب في البداية الاماكن الرملية ، وبين الحشائش والشيح الصحراوي ، بينما كانت الشمس ترتفع عالياً ، واعدة ، حسب عادتها ، بطقس جيد وحار . وحتى المساء كانت أسرة الذئاب قد وصلت إلى حدود البر اري . وصلت في الوقت المناسب . أما الأعشاب في هذه السنة فكانت عالية ـ تصل في الكثير من الأماكن إلى أعناق الذئاب الكبيرة ، وفاحت رائحة الزهور التي تعرضت لأشعة الشمس الحادة ، طوال النهار ، وخاصة في تلك الأماكن الكثيفة الأعشاب هنا ، وفي هذا المنحدر الصغير ، استراحت الذئاب

بعـد عنـاء الطـريق الطـويـل. أما الذئاب الصغيرة فقد أخذت تركض وتتنشق كل ما يثير فضـولهـا. كان بإمكان أسرة الذئاب أن تبقى في ذلك المكان طوال الليل، خاصة أنها كانت قد شبعت وارتـوت، وخلال الطـريق اصطـادت الـذئـاب عدة قواضم سمينـة، وأرانب والتهمت عدة أعشـاش، وارتـوت من ميـاه النبـع الـذي مرت بـه، - . لكن حدثـاً مفاجئاً واجهـهـم خلال استراحتهم هنـاك، أجبرهم على مغادرة المكان فوراً، وعلى الرجوع إلى عرينهم في أعماق البراري، واستغرق طريق عودتهم الليل كله.

حدث ذلـك عنـد الغـروب إذ سكرت أكبارا وتاشينار من عبق القنب، وتمددا في ظل الشجيرات، وفجأة سمع صوت انسان، إذ شاهدت الذئاب الصغار هذا الانسان، قبل ذويهم حين كانوا يلعبون في الأعلى. لم تعتقـد الـذئاب، ولم تفكر في أن الكائن الذي سمع صوتـه هنـا، هو- الانسـان. كان هذا الكـائن شبـه عار- لم يكن على جسمه الا «مايوه»، وخفـافـة ريـاضـة بلا جوارب، ويعتمر على رأسه قبعة، تغير لونها الأبيض حتى أصبحت باهتـه، أخـذ يركض هذا الانسـان فوق الأعشـاب. كان ركضه غريباً- لقد اختار الأماكن ذات الحشـائش الطـويلة، وكـان يركض ذهاباً وإياباً بسرعة وجدية، وكأن هذا يكسبه المرح والسعادة. اختبأت الذئاب الصغيرة في أمكنتها خائفة من هذا الكائن،الذي لم تره سابقاً. بينـما تابـع الانسـان ركضـه دون توقف كالمجنـون. تشجعت الـذئـاب الصغيرة، إذ دفعها الفضول إلى مباشرة اللعب مع هذا الكائن الغريب، الذي كان يركض عاري الجسد على رجلين اثنتـين فقـط، وبـدا لهم كوحش غريب. وهنـا لاحـظ الإنسـان تلك الجـراء. ومن الغـريب أن هذا الانسـان، بدلاً من أن يحترز، ويفكـر كيف ظهـرت هذه الجراء هنا، ومع من، - اقترب هذا الساذج من الذئاب الصغيرة، ومد يده مداعباً اياها.

- أنظـر!، ما هذا؟ - ردد في نفسـه، وهـو يتنفس بصعوبة ويمسح العرق عن جبينه، - أليست ذئـاب؟ أو انـه يبـدو لي ذلك من كثرة الدوران؟ لا، أنهم ثلاثة أحياء، وقد كبروا! آه، يا وحوشي الصغيرة! من أين أنتم، وإلى أين؟ ماذا تعملون هنا؟ ان حياتي هنا صعبة، ومـاذا جاء بكم أنتم إلى هذه السهـوب، إلى هذه الحشـائش الضارة؟ تعالوا، تعالوا إليَّ لا تخافوا! آه، يالكم من وحوش مجنونة!

هكـذا، اقـتربت الجـراء الغبيـة منـه، وهي تلوح بأذنابها، وتلعب، وتتدحرج على الأرض تارة، وتزحف تارة أخرى متجهة إلى الإنسان، راغبة أن تلعب، وتتسابق معه، وفي هذه اللحظة صحت أكبارا من غفوتها، وخلال لحظة سريعة، أدركت الذئبة حدود الوضع الخطر. فهبت من مكانها، واتجهت نحو الإنسان الذي بدا جسمه زاهياً تحت أشعة الشمس

قبل الغروب، وكان من السهل عليها أن تغرس أنيابها في حنجرته، أو في بطنه وتمزقه. ولكن هذا الشاب، الذي فقد ارادته أمام هذا المنظر المخيف للذئبة الغاضبة، جلس ملتصقاً بالأرض من الهلع، واضعاً يديه فوق رأسه، وهذا وحده الذي أنقذه، فخلال ركضها، وعندما شاهدته، قد جلس على الأرض، غيرت أكبارا رأيها وهي تعدو نحوه، فقفزت من فوق هذا الانسان ـ العاري، الذي لا حول له ولا قوة ـ والذي كان بامكانها أن ترديه صريعاً بضربة واحدة، وخلال عدوها نحوه، نظرت بعمق إلى سمات وجهه، والى عينيه اللتين جمدتا في مكانهما، دون حراك، وشمت رائحة جسمه، تجاوزته عدة خطوات، وعادت من جديد، فقفزت مرة أخرى من فوقه متجهة إلى أولادها، ودفعتهم نحو أبيهم، وهي تعضهم بألم، لتشعرهم بالخطر، وهنا التقت بذئبها تاشينار، الذي تجهم، ووقف شعر غاربه عندما شاهد الانسان، ولكن أكبارا ردعته عن الهجوم، وأعادته، وهكذا اتجهت أسرة الذئاب نحو الوهاد، واختفت كلمح البصر. . .

وعند ذلك، فقط، وقف الانسان العاري في مكانه، بعد أن عاد الى صوابه، وهرع راكضاً. . . ركض طويلاً، دون توقف، عبر السهول، ودون أن ينظر الى الخلف، أو يصدر أصواتاً عالية. . .

كان هذا هو اللقاء الاول بين أكبارا وأسرتها مع بني الانسان. . . ولكن من كان يعلم، الى ماذا سيقود هذا اللقاء. .

اقترب النهار من نهايته، مخففاً من حدة الشمس التي مالت للغروب: ومن لهيب الارض الحارة. الشمس والسهوب ـ كبائر أبدية: فمن خلال الشمس نقيس السهوب وسعتها، والمساحة المنارة بالشمس. والسماء فوق السهول، تقاس بقدر ارتفاع الحدأة. وفي تلك الساعة قبل المغيب فوق براري موينكوم، حلق سرب جداء ذات ذيول بيضاء عالياً. كانت تطير دون هدف ما، تسبح في الهواء، وهي تداعب نفسها بهدوء ورتابة، تطير من أجل الطيران، في تلك اللحظات الباردة، في العلياء الخالية من الغيوم، طارت الحداء واحدة تلو الاخرى في اتجاه واحد، عبر دوائر، وكأنها تعبر عن تلك الابدية التي تمتاز بها تلك الارض، وتلك السماء، حلقت الحداء دون أن تبوح بصوت، وكانت تتابع النظر بصمت الى ما يحدث في تلك اللحظات فوق الأرض، تحت أجنحتها، وكانوا بفضل حدة نظرها تشاهد كل شيء يدور تحتها على الأرض (السمع عندها في الدرجة الثانية) وهذه الطيور الجارحة الارسطوقراطية تسبح في السماء العالية للبراري، وتنزل إلى الأرض الآثمة للغذاء فقط، وللاستراحة خلال الليل.

كانت الأرض مرئيـة للطيـور في تلك اللحظـة رؤ يـة جيدة، وكان كل شيء مكشوفاً واضحاً تحتها، فشاهد الذئب، والذئبة، والجراء الثلاثة، الذين كانوا يفترشون بقعة أرض صغيرة بين الشجيرات، وسط الشيح البري. وهم يلهثون، مادين السنتهم من شدة الحر، دون أن يفكـروا، بأنهم مركـز اهتـمام الطيـور في السـماء.أخـذ تاشينار وضعيته المريحة جاثياً، واضعـاً يديـه كالصليب أمـامه، رافعاً رأسه، - كان يمتاز تاشينار بين الذئاب بعرفه الكبير، وعظمـه الخشن، وثقـل جسمـه، وإلى جانبه، .تجثو أكبارا الشابة جامعة ذيلها الثخين تحت جسمهـا، وكأنهـا تمثـال لا يتحـرك. تستنـد على قوائمهـا الصلبـة بثبـات. ومن الأمام بدا صدرهـا الأبيض، وبطنهـا المتهـدل قليـلاً بصفـين من ضُرعهـا التي ارتخت حلماتها وفقدت جمالها وصلابتها بعد أن أرضعت جراءها، ومن فوق وركيها بدت العضلات القوية البارزة، بينـما أخـذ الجـراء الـثلاثـة تلعـب، دون توقف بحيوية ونشاط، دون أن يزعجوا والديهم أو يقلقـوا راحتهـما، وكأن الذئب والذئبة ينظران بعين الرضى إليهم، وكأنهما يقولان: لندعهم يلعبون ويمرحون قدر استطاعتهم. . .

بينـما تابعت الحـداء طيرانها في السماء، - حسب عادتها، - تنظر بكل برودة أعصاب الى ما يحدث في الأسفـل، فوق أراضي موينكـوم عند مغيب الشمس. كانت الظباء ترعى في الغابات القريبة من الذئاب، وكان عددهم ليس بقليل، قطيع كبير كان يسرح بالقرب من الذئاب بين الشجيرات، وعلى مسافة وجيزة من هذا القطيع كان قطيع آخر أكثر عدداً، ولـو أن الحـداء كانت تهتم بالظبـاء السهليـة، لكـان من السهل عليهم، وهم ينظرون إلى البـراري من الأعلى أن يرقبـوا الأرض لمسـافـة عشـرات الكيلومـترات دون عنـاء يذكـر، ولتأكـدت الحـداء أن عدد الظبـاء لا يحصى في هذه المنطقة وخاصة أنها كانت تتكاثر في هذه المنطقـة المنـاسبـة لها جداً، كانت الظبـاء تنتظر حتى ينصرم حر المساء، وتتجه في الليل إلى منابع المياه النادرة والبعيدة في هذه البراري، وهكذا اتجهت جماعات كثيرة من الظباء، تحث المسير إلى تلك الينابيع. وكان عليها أن تقطع مسافة كبيرة.

أحـد القطعـان كان يسـير بالقـرب من الهضبـة، التي كانت تتـواجد فوقها الذئاب، وبـدت الظبـاء بوضـوح بين الحشـائش القصـيرة، وخـاصة عندما تتحرك بجوانبها المرنة، وظهـورهـا الـلامعـة، بينـما أحنت الـذكور رؤ وسها، حتى بدت القرون القصيرة من فوقها وتسير الذكور عادة حانية رؤ وسها إلى الأسفل، حتى لا تعاني من مقاومة الريح الاضافية، وكي تكـون جاهـزة للركض في أيـة لحظة طارئة. هكذا كونتهم الطبيعة خلال تطورها، وفي هذا تنحصـر أولـويـة الظباء، فبالركضِ السريع، تنقذ نفسها من أي خطر، حتى لو أنها لم

تتعرض لهجوم ما، وتسير في حالتها الطبيعية، فهي عادة تبقى متحفزة، دون ارتخاء أو تعب، ودون أن تسمح لغيرها من الحيوانات أن تسبقها خلال الطريق، والذئاب وحدها فقط هي التي تخيفها وتقطع طريقها.

أما الآن فها هي الظباء تسير بالقرب من أسرة أكبارا، المختفية بين الشجيرات مسرعة جداً، وتثير خلفها الغبار، والريح التي تحمل رائحة القطيع. ارتعبت الذئاب الثلاثة الصغيرة من قبيل الفطرة الغريزية. ووقف كل منها متحفزاً، رافعاً رأسه إلى الأعلى، يتنشق الهواء دون أن يفهم حقيقة الأمر، وكادوا أن يركضوا إلى تلك الجهة، التي جاءت منها رائحة القطيع. وأراد كل منهم أنْ يغوص بين هذه النباتات الغريبة راكضاً، والتي تبدو في وسطها حركات الكثير من الأجسام الراكضة. ولكن أكبارا وتاشينار لم يتحركا من مكانهما، ولم يغيرا من وضعهما، هذا مع العلم أنه لا يلزمهما الا وثبتين، حتى يكونا عند القطيع العابر، وأن يطرداه بكل وحشية وقسوة، في الاتجاه الذي يرغبان به، وتفر الظباء هاربة في صراع من أجل الحياة، وكان بإمكانهما أن يحصرا الظباء عند منحدر ما، وأن يصطادا زوجا منها، مثل هذا الهدف كان سهلاً جداً، ولكنهما لم يفعلا ولم يلحقا بالظباء، كي يحصلا على نصيبهما من الصيد، إذ لم يفكرا ببدء هذه العملية ـ هذا على الرغم من أن الصيد، كما يقال، سار بنفسه الى مخالبهما ـ فلم يحركا ساكنا، ولم يتحركا من مكانهما. لماذا؟! ـ لا بدّ أن سبباً ما منعهما انهما قد شبعا خلال الطريق، والركض في مثل هذا الحركان شيئاً لا يطاق، زد على ذلك أن الجري السريع وراء الظباء والمعدة مملؤة، مسألة تعادل الموت. ولكن الأهم ـ إن الوقت لم يحن بعد لاشراك الصغار في الصيد، وكان من الممكن أن تفشل وتنهزم حتى آخر حياتها، وخاصة إذا ركضت، وتعبت في الركض خلف الظباء المتمرسة، وقصرت في تحقيق هدفها، وعند ذلك سيكون من الصعب أن تحاول هذه الذئاب الركض مرة أخرى، وتفقد الذئاب الشجاعة. ففي الشتاء، وخلال عمليات الصيد الكبيرة، كان بإمكان هذه الذئاب أن تجرب نفسها، وكان بإمكانها أن تختبرها وتدرك مدى قدرتها على التحمل، أما الآن فلا يجوز أن تخسر اللعبة، ويجب انتظار الساعة المناسبة السعيدة!

اضطجعت أكبارا غير ملتفتة الى الذئاب الصغار الذين كانوا يتحفزون دون صبر للصيد، ثم نهضت من مكانها وجثت في مكان آخر، وهي تودع قطيع الظباء العابر تباعاً نحو مصادر المياه، وسارت الظباء جنباً إلى جنب مع بعضها بين النباتات الفضية، كالسمك السابح بين حشائش الماء في المياه النهرية ـ جميعها باتجاه واحد، حتى ليصعب تمييز بعضها

عن البعض الآخر، وبدت في نظرة أكبارا عقلانية مفهومها للاشياء: دع قطيع الظباء يسير كما يشاء الآن، وسيأتي اليوم الذي سيعلم فيه الجميع جميع من في البراري، أنهم لن يخرجوا منها مطلقاً، وبدأ الأب تاشينار يضجر تدريجياً من تصرف أولاده، وهم يحاولون إيقاظه، رغماً عن تجهمه.

تذكرت أكبارا فجأة الشتاء في الصحراء الفسيحة، في يوم رائع، تكدست فيه الثلوج بكميات كبيرة، حتى غدت الأرض بيضاء، وكان هذا الثلج بمثابة الإشارة لتشرع الذئاب بصيدها الكبير. ومنذ ذلك اليوم أصبح صيد الظباء هو العمل الرئيسي في حياتها. ويأتي ذلك النهار! بكل ما فيه من ضباب، وصقيع قاس يلف الشجيرات البيضاء الحزينة، التي انحنت تحت عبء الحياة القاسية في البراري ـ تصورت الذئبة ذلك النهار، بكل وضوح، حتى أنها ارتعدت في مكانها، دون إرادة، وكأنها تنفست الهواء الجليدي، ووطأت الثلج المتراص جيداً، بذراته البراقة. وظهرت من خلفها وخلف الذئاب الصغيرة آثار وقع قوائمها على قشرة الثلج بكل وضوح، وكان من الممكن رؤية آثار أكفها، ذات الاغداق العاتية، وبراثنها التي تشبه مناقير الصقور البارزة من العش، كانت أكف تاشينار تختلف من حيث شكلها فوق الثلج، وعمقها فيه، لأن تاشينار قوي، وثقيل الجسم عند صدره، فهو قوة خارقة تعلو أجسام الظباء، وسكين حادة فوق رقبة كل ظبية كانت تظهر أمامه، كان يلون الثلج الأبيض في هذه البراري بدمها الأحمر القاني، من أجل أن تعيش كائنات أخرى، مثلها مثل الطيور الجارحة التي ترف بأجنحتها، وبين مخالبها فريسة مضرجة بالدماء الحمراء الدافئة. أو لأن هذه الكائنات تعيش على حساب كائنات أخرى ـ هكذا تكون الكون منذ بدايته، ولم يكن هناك إلا هذا، وهنا ليس من حكم على أحد، لأنه لا يوجد محقون ولا مخطئون، المخطىء هو ذلك الذي خلق دماً لدم آخر. (وفقط الإنسان الذي يختلف عن هذه الطبيعة كلها: انه يحصل على الخبز من خلال العمل، وينتج اللحم بالعمل، ويكون الطبيعة المناسبة له).

وهذه الآثار فوق الثلج الأول في منطقة موينكوم هي آثار أكف الذئاب الكبيرة والصغيرة، التي تسير إلى جانب بعضها في الضباب الكثيف، وتقف في العواصف الشديدة في ظل الشجيرات ـ هنا كانت تختبىء الذئاب، منتظرة صيدها الذي لن يفلت من براثنها. . .

وهذه ساعة الصيد قد أخذت تقترب ـ زحفت أكبارا على بطنها فوق الثلج، متحفزة، وهي تتربص بين الحشائش، حابسة أنفاسها، تقترب من الظباء الراعية عن

كثب، وترقب أعينها، التي لم تنتبه بعد، وتقذف نفسها على حين غرة، كالشبح، فوق ظبي كالقـدر الغـادر هكـذا تصورت أكبارا نفسها في صيدها الأول مع صغارها وسيكون الدرس الجيد للذئاب الصغيرة، وعوت أكبارا، دون إرادة، وبالكاد ضبطت نفسها في مكانها.

آه، كيف ستجـري المطـاردة العنيفة في البراري في بداية الشتاء! سوف تعدو قطعان الظبـاء بسـرعـة خاطفة، وكأنها تهرب من حريق،ويختلط الثلج الأبيض الناصع فوراً بالوحل الأسـود، وهـا هي أكبـارا، تحث العـدو في أثـر الظبـاء، ومن خلفهـا كانت تعـدو الـذئاب الصغـيرة، أولاد أكبـار، ثلاثـة ذئـاب شابة، هم ذريتها، وخلقوا في هذه الطبيعة من أجل استمرارية ذرية الذئاب، التي لا يمكن لها أن تستمر إلا إذا مارست مثل هذا الصيد، وفي المؤخـرة كان تاشينـار، الأب العـاتي، الـذي لا يجارى في الركض، وكان يهدف إلى شيء واحـد ـ أن يطـرد الظبـاء إلى منطقـة الحصـا . وبهـذا يلقن أولاده الدرس المناسب. نعم، سيكون العدو سريعاً خلف الظباء! وفي هذا الطموح، لم تشته أكبارا الصيد الدسم، بقدر ما كانت ترغب في حلول ساعة الصيد، عندما ستذهب مع أسرتها إلى سهول المطاردة، وفي هذا ينحصر معنى حياتها كذئبة...

هذه كانت أحلام الذئبة، التي أملتها عليها الطبيعة، فمن يعرف: من الممكن، أنها لم ترسل لها من الأعلى، فهذه الأحلام التي دغدغت مشاعرها، والتي ستتذكرها فيها بعد بمـرارة سوق تمزق قلبهـا، وتخطر لها في نومها، وتقض مضجعها... وسيكون عواء الذئبة أكبـارا ثمنـاً تدفعـه مقـابـل هذه الأحلام. ان جميع الأحلام تتطور هكذا في بداية الأمر تبدأ كفكـرة، ثم تنتهي في نهايـة المطـاف إلى نهايـات مأسـاوية، لأنها تتغلغل وتنمو بلا جذور، كالأعشاب والشجيرات الغريبة... هكذا تكون جميع الأحلام، وهي ضرورة مأساوية لا بد منها من أجل معرفة الخير والشر...

حل الشتـاء في موينكـوم. وذات يوم سقط الثلج كثيفاً للغاية، وعلى غير عادته ففي المنـاطق شبـه الصحراوية، ـ كان الثلج يكسو وجه الأرض لفترات قصيرة، بينما كان الثلج في ذلك الصباح كمحيط بلا شواطىء، تجمدت فيه الأمواج في أوجها، وانتشر الثلج وتراكم في منـاطق الـريـاح الشـديـدة، وفي المنحـدرات. وعمم الهـدوء أخيرا كما في الفضاء، وفي المنـاطق الـلامحـدودة، لأن الرمال قد تشبعت بالرطوبة، كما أصبحت الأعشاب طرية، بعد أن بلّلت جفافها... وقبل هذا حامت فوق البراري أسراب الوز البري عاليا، ثم اختفت بعيـداً نحـو غيـمالايف فوق براري موينكوم المسبحة، متجهة من بحار وأنهار الشمال الباردة نحو الجنوب الدافىء في مناطق إيندا وبراخما بتر لتجد المكان المناسب لها في الشتاء، وبالطبع

أن لكل كائن حي جنته الخاصة به . . . وحتى الحداء السهلية ، التي تحلق على إرتفاع عال ، تعرف كيف تتجه إلى الآماكن الأفضل بالنسبة لوجودها . . .

أما بالنسبة لأولاد أكبارا ـ الذئاب الصغيرة ـ فقد كبر وا بشكل ملاحظ ، وتجاوزوا سذاجة الطفولة ، وتحولت الجراء الثلاثة إلى ذئاب شابة ، تتمتع بحيوية خاصة ، ولكن كان لكل واحد منهم طباعه الخاصة به . بالطبع لم تتمكن الذئبة من تسمية أولادها : فالإله لم يمنحها هذه الموهبة ، وليس بمقدورها أن تتجاوزها ، ولكنها ، ومن خلال رائحة كل منهم ، ومن خلال تصرفاتهم الأخرى الخاصة بعالم الذئاب ، كان بإمكان أكبارا أن تميز بين أحدهم والآخر ، وتنادي كلاً منهم على حدة . فقد كان أكبر الذئاب الثلاثة ويشبه والده تاشينار من حيث القامة وعرض الجبهة ، ولذلك كانت تعامله الأم ككبير اخوته أما بالنسبة للأوسط ، فهو أيضاً كبير الجثة ، طويل القوائم ،وهذا سيجعل منه في عالم الذئاب ذئباً سريع العدو ، بإمكانه أن يلحق طريدته بسهولة ، ولهذا تعاملت معه الأم على أنه سريع الأرجل ، أما الثالث من بين الذئاب الصغار فكانت ذئبة ، زرقاء العينين تشبه الأم أكبارا كليا ، ولها بقعة بيضاء على وركها ، وكانت تحبُ مداعبة الأم أكبارا ، وعاملتها الأم كمدللة محبوبة ، لا منازع لها ، وكان جمال الذئبة الصغرى فيما بعد موضوع صراع كبير بين الذئاب ، وخاصة عندما حانت فترة تقرير حبها . . .

جاء الثلج الأول ، الذي سقط خلال الليل ، دون أن يحس به أحد ، وكان بمثابة العيد للجميع . وفي بداية الأمر ، كانت الذئاب الشابة تنكر رائحة ومنظر الأشياء غير المعتادة ، وخاصة الثلج الذي غير كل شيء من حول وجارهم . ولكن ، وفيما بعد ، أعجبهم هذا الشيء ، وتنعموا بالبر ودة المنعشة . وأخذوا يتسابقون فيما بينهم ويتدحرجون فوق الثلج : ينخرون ويقفزون من شعورهم باللذة ، هكذا بدأ ذلك الشتاء للذئاب الشابة ، والذي أنتهى بالنسبة لهم بفراق الذئبة ـ الأم ، والذئب ـ الاب ، والواحد مع الاخر : حيث تفرقوا ليعيش كل منهم حياته الجديدة .

حتى المساء سقطت كميات جديدة من الثلوج ، وفي صباح اليوم التالي ، وقبل بزوغ الشمس عم النور والصفاء السهول ، كما في منتصف النهار . وانتشر الهدوء والسكون في كل مكان ، وأدى البرد القارس الى أن تشعر الكائنات بالجوع الحاد . أخذت أسرة الذئاب ترهف السمع إلى ما يدور حولها ـ حان الوقت للقيام بمهمة الصيد ، للحصول على الطعام ، انتظرت أكبارا الذئاب الأخرى من قطعان الذئاب المجاورة لبدء رحلة صيد الظباء ولكن لم يبادر أحد للقيام بهذا . الجميع كانوا ينتظرون القادة الأوائل . وها هو الذئب

ذو الـرأس الكبـير، يجلس متحفـزاً وقد فقد الصبر، دون أن يعلم مدى صعوبات الصيد، واستعد سريع الأرجل لخوض التجربة، أما المحبوبة فكانت تنظر إلى عيني أمها الزرقاوين بثقـة وشجـاعـة، وإلى جانبهـا كان أب الأسرة ـ تاشينار، يسير متبختراً، وانتظر الجميع ما تأمرهم به أكبارا. ولكن كان يتحكم بهم قيصر آخر هو ـ قيصر الجوع، قيصر إشباع الشهوة الجسدية.

نهضت أكبارا من مكانها، وسارت في المقدمة، بعد أن فرغ صبرها، ثم سار الجميع على اثرها.

ابتـدأ كل شيء تقـريبـاً، كما توقعت الـذئبـة، عنـدما كانت الجراء صغيرة. وها هو الـوقت قد حان ـ وقت القيـام بعمليـات الصيـد الكبيرة في السهول. وبعد فترة قصيرة من الزمن، ستتحد الذئاب مع اشتداد الصقيع، ويتكون قطيع كبير من الذئاب، التي ستقوم بعمليات الصيد المشتركة حتى نهاية الشتاء.

في هذا الـوقت كانت أكبـارا وتـاشينـار قد أخـذا أولادهما للتـدريب في عملية الصيد الأولى على الظباء.

سارت الذئاب، بمحاذاة السهول، ببطء أحياناً، ومسرعة أحياناً أخرى، وهي تطبع على ذلـك الثلج الـذي لم يمسـه أحـد بعـد بصـمات أكفها الوحشية، التي تعبر عن القوة، والارادة المـوحـدة، وكـانت الذئاب تزحف بعض الأحيان لتمر من جانب الشجيرات، وفي أماكن أخرى، كانت تعدو كالسراب. أما الآن، فكل شيء مرتبط بهم أنفسهم وبالحظ...

صعـدت أكبـارا الى أحـد التـلال القـريبـة، ومن هنـاك نظرت من حولها مستطلعة الأفق، وجمدت في مكانها، وهي تنظر إلى الأفق بعينيها الزرقاويين وتستشف ما يحمله الريح إلى أنفها. استيقظت البراري العظيمة. وبنظرها الثاقب، شاهدت أكبارا، عبر الضباب الخفيف قطيعاً من الظباء ـ انه قطيع ضخم من الظباء الكبيرة مع الأولاد من السنة الماضية، والتي انفصلت في تلك الآونـة إلى قطيـع مستقـل، خاصـة أن ذلك العام كان عاماً غنياً في الولادة بين الضباء، وبالتالي سيكون هذا جيداً بالنسبة للذئاب أيضاً.

بقيت الـذئبـة واقفـة في ذلك المرقب، بين الحشائش العالية: كان من الضروري أن تخلص إلى نتيجة ـ أن تحدد من خلال الريح جهة الصيد، وفق اتجاه الرياح، دون أن تخطىء.

وفي هذه اللحظات بالذات سُمع دوي غريب من جهة بعيدة، ومن الأعلى عم هذا

الـدوي الأراضي والسهـوب، ولكن هذا لا يشبـه صوت العـاصفـة الـرعـديـة، كان ذلك الصـــوت غير معـروف نهائيـاً، وازداد، وازداد حتى لم يعـد يطيق تاشينـار الانتظـار، فهب صاعداً الى ذئبته، ووقف إلى جانبها يرتعد وإياها من الخوف ـ في السماء كان شيء غريب، هنــاك ظهـر طير عجيب، يثير الصخب في السـماء وعلى الأرض، وطـار هذا الطـير فوق البراري منحرف الجانب، وكأنه يريد أن يشق الأرض بأنفه، ومن خلفه، وعلى مسافة ما طار واحد أخر، بآلية كالطير الأول. ثم غاب الإثنـان عن النظر، وهدأ الصخب بالتدريج. كان هذان الطائران. . . حوامتين مروحتيين.

وهكذا، اجتازت الحوامتان سماء موينكوم، كما تجتاز الاسماك الماء، دون أن تبقي أثراً ما، لا في الأعلى، ولا في الأسفـل قد تغير شيء ما، اذا لم نحسب أن تلك المسألـة كانت عمليـة استطـلاع من السماء، وأنه، وعبر الأثير كانت تنتقل المعلومات التي يبثها الطيارون من الأعلى، ويخبرون فيهـا عما يرونـه في الأرض، وفي أية مربعـات، وأية طرقات ومعابر في براري موينكوم للآليات التي تسير في الأماكن الوعرة، والشاحنات التي تجرها الآليات المجنزرة. . .

أما الذئاب، فعليها أن تتقدم بعد الآن، فبعد أن عاشت اللحظة العابرة من الحيرة والخوف، نسي كل منها على الفور صورة الطائرات المروحية، وتـابعت الذئاب طريقها عبر السهـوب نحـو الأمـاكن التي تتـواجـد فيهـا الظبـاء، تتحكم بها غريـزتها في عالم الحيوان في الـبراري، وهي لا تدري أن مواقعهـا قد حددت على الخـرائـط، وفي مربعـات ذات أرقام خاصـة، وسـوف يحل بها عما قريب القتـل الجماعي، وأن التخطيط لقتلهم قد تم، وحدث تنسيق لذلك. وأن الموت يسير نحوهم على عدة آليات وعجلات. . .

فمن أين كان لهم ـ ذئـاب الـبراري ـ أن يعـرفـوا، أن الظباء التي يحاولون صيدها، والتي كان جدودهم يصطـادونهـا عبر التـاريـخ، أصبحت ضروريـة لدى المسؤولـين لتنفيذ الخطة من أجل توفير مادة اللحم للانسان. وأن الوضع في نهاية الربع الأخير في هذه «السنة الحـاسمـة» كان وضعـاً غير منـاسب ـ «أنهم لم يحققـوا الأرقـام المقررة في الخطة الخمسية». وأقترح أحـد الفاشلين في إدارة المنطقة البدء بالعمل على استغلال قدرات منطقة موينكوم اللحمية: ونص محتوى الفكرة على أن المهم ليس انتاج اللحم، بل تقديم الكمية الفعلية حسب الخطة، وهذا هو المخرج الوحيد، حتى «لا يتلطخ الوجه بالوحل أمام الشعب» وأمام الأجهـزة الإداريـة العليـا، وكيف يمكن للذئـاب الـبرية أن تعلم، أن الاتصالات الهاتفية كانت مستمرة من مركز القيادة في المنطقة؟ والمطلوب الآن ـ أن ينفذوا،.ولو من تحت الأرض ـ

الخطة الشهرية في تقديم مادة اللحم، يكفي التمهل في الأمر: هذه السنة هي السنة الأخيرة في الخطة الخمسية، فماذا نقول للشعب، أين الخطة، أين اللحم، أين تنفيذ المهمات الملقاة على عاتقنا؟

«الخطة سوف تنفذ دون شك، ـ هكذا طلبت اللجنة المنطقية، ـ في مدة أقصاها عشرة أيام. يوجد قوى احتياطية في مواقع العمل، سوف نضغط، سوف نطلب المزيد من العمل. . .»

أما الذئاب البرية في تلك الساعة، فلم تفكر بشيء، وكانت تحث الخطى باجتهاد، عبر الطرق المتعرجة إلى هدفها الذي رأته أكبارا بنفسها، والتي كانت تسير في المقدمة نحوه، فوق الثلوج دون ضجة تذكر. اقترب سرب الذئاب من المرحلة الأخيرة قبل التقدم نحو النتوءات العالية، واختفت بينها. مترقبة ما يحدث أمامها: من هناك أصبح كل شيء واضحاً، وكأنه على راحة اليد: هناك في الهضبة كان قطيع لا يحصى من الظباء: جميعها كانت من لون واحد كما كونتها الطبيعة، ذات جنب أبيض، وظهر كستنائي، مستمرة في الرعي مادامت لا تشعر بالخطر، في ذلك الوادي الغني بالحشائش البارزة من تحت الثلج الناصع، انتظرت أكبارا مع ذئابها حتى تجمع قواها قبل الهجوم، وتهب دفعة واحدة من مخبئها منطلقة كالسهم خلف الظباء، وعند ذلك، سوف تتصرف حسب تحرك الظباء. أما الذئاب الشابة فقد كانت تلوح بأذنابها، وقد نفذ صبرها، وانتصبت آذانها، وغلت الدماء في عروق تاشينار الصبور، الذي جهز نفسه وسال لعابه ليغرس أنيابه في صيده، ولكن أكبارا التي أخفت النار في عينيها، لم تعط الاشارة المناسبة للوثبة، انتظرت اللحظة المناسبة، التي سوف تحقق لها ولذئابها النجاح: ستنطلق الظباء خلال لحظة واحدة بسرعة فائقة، لا يجاريها بها أي نوع من الوحوش والحيوانات: يجب أن تتوقع الذئاب هذه اللحظة وتتصرف بموجبها.

وهنا سمع قصف الرعود في السماء ـ فقد عادت الطائرات المروحية من جديد، محلقة بسرعة غريبة هذه المرة، وهاجمت على مسافة منخفضة قطيع الظباء المستنفرة، التي انطلقت بسرعة جنونية خائفة من الهجوم العجيب. حدث هذا فجأة، وبسرعة غير متوقعة ـ كانت الظباء تعد بالمئات. وخلال لحظة جن جنونها، وفقدت قا ا القدرة على توجيهها نحو وجهة مشتركة، وتضعضع القطيع، وعمته الفوضى، وكانت هذه الحيوانات الآمنة غير قادرة على مقاومة التكنولوجيا المحلقة. وهكذا حققت الطائرات ا روحية ما تريده ـ لقد طاردت القطيع حتى اتجه نحو قطيع ظباء آخر كبير العدد، كان يرعى بالقرب منه. وهكذا

تجمعت، وتجمـع معهـا أعـداد كبـيرة من الظبـاء خلال الطـريق عبر الـبراري في منطقـة موينكـوم. خلق كل هذا جواً من القلق بين الحيـوانـات الظلفيـة المتواجدة في هذه المنطقة، وكـبرت المأسـاة فوق رؤوس الحيـوانـات المسـالمـة التي لم تشهد مثل هذه المشاهد من قبل، وليست الحيوانات الظلفية وحسب، بل حتى الذئاب، التي تعيش دائماً بالقرب منها، وتكن لها شعور العداء الدائم، فقد وجدت نفسها في هذا الظرف في وضع حرج للغاية.

عندما شاهدت أكبارا والذئاب التي ترافقها هذا الهجوم العنيف للطائرات المروحية، لم تعـرف كيف تتصـرف في بدايـة الأمر فالتزمت الهدوء ملتصقة بالأرض إلى جانب جذوع الشجيرات، دون أن تتحرك من الخوف، ولكنها لم تقدر على الانتظار طويلاً في هذا المكان فغادرته، إذ كانت ترغب أن تختفي بسرعة، وأن تتحرك إلى أي مكان آمن، ولكن هذا كان صعب التحقيق، فلم تتمكن الـذئـاب من الهروب بعيداً، فقد سمعت الصخب والقرقعة فوق الأرض، كما في العـاصفـة ـ كانت قطعـان الظباء التي تطاردها الطائرات المروحية عبر السهول إلى الجهة المحددة، تنهب الأرض بسرعة جنونية. وعلى حين غرة وجدت الذئاب نفسهـا أمـام السيـل العـارم من الظبـاء، التي بدت كغيمـة من الحيـوانات الظلفية، ولو أن الـذئـاب قد انتظـرت ثانيـة واحـدة، وتوقفت عن الركض، لكانت قد وقعت تحت أظلاف الظبـاء، وقُضي عليهـا في مثـل هذه السرعـة التي لا ترد لعفوية الحيوانات الهاربة. وفقط، وبفضـل زيـادة سرعـة الـذئـاب كُتب لها أن تبقى على قيد الحياة. أطبق الحصار عليهم في معمعـان هذا الهـروب العظيم، الـذي يصعب تصـوره وادراكه، ـ فاذا فكر الانسان بعمق لأدرك أن الـذئـاب قد أنقـذت مع ضحـايـاهـا، التي كادت أن تمزقها، وتتقاسمها فيما بينها قطعاً، أما الآن فها هي الذئاب والظباء تركض جنباً إلى جنب هاربة من الخطر المحدق، إذ أصبحـوا الآن متسـاوين أمـام المصير القاسي الذي لا يرحم. ومثل هذا المنظرـ أن تركض الـذئـاب والظبـاء هاربـة معاً ـ لم يشاهده الإنسان في براري موينكوم من قبل، حتى خلال الحرائق السهلية الكبيرة.

حاولت أكبارا أن تهرب من مجرى هذا السيل الظبائي العارم، ولكن محاولاتها كانت دون جدوى ـ أنهـا كانت تخاطـر بنفسهـا، وكادت أن تقع تحت أرجل مئات الظباء الراكضة جنبـاً إلى جنب، وفي هذا العَـدْو السـريع كانت ذئاب أكبارا تركض أيضاً، جنباً إلى جنب معها. وكانت أكبارا تشاهدهم لمحاً بطرف عينها ـ وها هم الآن بين الظباء، يتابعون الركض وتنظر أكبارا اليهم: ـ ها هوكبير الرأس، وها هوسريع الأرجل، وبالكاد تلحق بهما الحبيبة المنهكة من التعب، ومعهم الأب تاشينار الذي هرع مسرعاً في عاصفة موينكوم. فهل كانت

الحسناء أكبارا زرقاء العينين التي حلمت بعيد عظيم وفير ـ تفكر أن ينقلب الحلم إلى هذا الكابوس من الخوف والذعر، ومشاركة الظباء في هروبها، عاجزة عجز حبيبها تاشينار وذئابها الثلاثة عن القيام بممارسة صيدها المحبب. . . أمام هذا السيل الجارف من قطعان الظباء المذعورة! ! وها هم الآن مجبرون على متابعة العَدْو. . مثلهم في هذا، مثل الريشة فوق النهر. . . هوت في أول الأمر الذئبة «الحبيبة» تحت فوائم قطيع الظباء، فعوت بشدة، ثم خرس الصوت بسرعة تحت وقع آلاف الاظلاف. .

حلقت الطائرات المروحية ـ الصيادة، على جانبي القطيع، وجرت الاتصالات بين الطواقم باللاسلكي، ونسقوا فيما بينهم حتى لا يتفرق القطيع، وحتى لا يضطروا من جديد إلى مطاردة القطعان عبر البراري، وكانت هذه الطائرات تنخفض مطلقة أصواتاً أقوى وأقوى مهيبة بالظباء حتى تركض أكثر وأكثر. ومن الأعلى جاءت أصوات الطيارين الصيادين: «اسمعني أيها العشرون! الحق بهم جيداً! اقترب أكثر!» لقد كان يشاهد طيارو الحوامات ما يجري على الأرض، وخاصة فوق الثلج الأبيض، حيث يجري القطيع من الظباء الهاربة يهدر ويجري كنهر أسود. وجاءت الإجابة المتيقظة من الطيار الاخر: «جاهز للهجوم! ها، ها، ها، أنظر، أنظر بامعان، بينهم تركض ذئاب أيضاً! ياله من أمر عجيب! وقعتم في المصيدة! هكذا جزاؤكم! هذا ليس فلم «إحذر أيها الأرنب!»».

هكذا كانوا يقومون بالصيد عن كثب، كما كان معلنا، والحساب كان دقيقاً. وعندما وصلت الظباء المطارَدَة الى سهل فسيح، كان في استقبالهم مجموعة من الطائرات المروحية جهزت نفسها منذ الصباح الباكر. هناك كان الصيادون، أوبالأحرى الجزارون. في سيارات «واز» التي تجتاز المناطق الوعرة، وقف الصيادون في السيارات المكشوفة وطاردوا الظباء، وهم يطلقون النار عليها من الرشاشات، دون تحديد أو تصويب، وحصدوا الظباء حصداً، كما يحصد الحشيش في السهل. ومن خلفهم كانت السيارات الشاحنة، ورجال أقوياء يسيرون بمحاذاتها ويقذفون بالظباء المقتولة إلى متنها، وكأنهم يجمعون المحصول. أجاد الشبان مهمتهم الجديدة بسرعة، إذ أخذوا ينحرون الظباء التي لم تمت بعد، طاردوا الظباء المجروحة التي لم تقع، وقضوا عليها، أما الشيء الأساسي في عملهم، فكان ينحصر في أن يؤرجحوا الظباء المصروعة من قوائمها، ويقذفون بها دفعة واحدة إلى ساحة الشاحنة! هكذا قدمت البراري للآلهة الضحية، حتى تبقى محافظة على حريتها ونقاوتها، وفي عربات الشحن تكدست أكداس من جثث الظباء.

طالت المعركة. ولحقت السيارات بقطيع الظباء المرهقة من التعب والإعياء، والتي لم

تعـد قادرة على الـركض كالسـابق، وأخـذ الصيـادون يقتلون الظبـاء شمالاً ويمينـاً، وهم يريـدون من إطـلاق النـار، حتى وصل الرعب أعلى مراحله، وبدا الأمر للذئبة أكبارا التي أصمهـا إطـلاق النـار، أن كل العـالم من حولها قد أخرس صوته وأصم أذنيه، وأن الفوضى عمت كل مكان فيه. وأن الشمس التي ترسل أشعتها من الأعلى على الرؤ وس أخذت تبدو في تلك اللحظـات العصبيـة وكأنهـا مطـاردة أيضـاً في هذا الصيـد الجنـوني، وأنهـا تركض مسـرعـة، تبحث عن مخبأ لها، وأن الطـائرات المروحية قد خرست أيضاً، وأنها تطير دون دوي، ودون صفـير، وتـدور محلقـة فوق السهـوب الـواسعـة، وكأنَّ الحـداء السـريعة قد صمتت أيضـاً . . . أمـا الجـزارون ـ حملة الـرشـاشـات، فقد كانوا يحصدون الظباء وهم جُثيّ على الـركب، أمـا السيـارات ففد كانت تنطلق، دون صوت مسرعة فوق الأرض، تفقد صواب الظباء، فتتساقط صرعى تحت وابل نير ان الرصاص، وهي تروي الأرض بدمائها . . . وفي هذا السكون الأبدي بدا وحه إنسان للذئبة أكبارا. كان على مقربة منها، مما أثار في نفسها الخوف والرعب أكثر. فجن جنونها من شدة الخوف، وكادت تسقط تحت عجلات السيارات الـرهيبـة «واز» التي سارت إلى جانبهـا عن كثب، هذا الانسـان، كان يجلس في المقـدمـة، ويخـرج رأسـه من مقعـد القيـادة حتى نصفـه. يضـع على عينيـه نظـارة واقية من الرياح ووجهه أرجواني أزرق من شدة البر د، يمسك عند فمه الأسود مكبر صوت، يصيح فيه كلاما ما، وهو يقفز في مكانه، ولكن كلامه لم يكن مسموعا. وكما يتضح من مظره، أنه يقود عمليـة الصيـد، ولـو كان بإمكـان الذئبة أكبارا أن تسمع ساعتها الضجيج والأصوات، ولو كانت تفهم لغـة الانسـان، لكـانت قد سمعت أنـه كان يقول في المكبر: «أطلقوا النار على الأجنحه! لا تقتلوا في الوسط.» أنه كان يخاف أن تدوس الظباء الراكضة، جثث الظباءالتي تسقط في الوسط وتغرقها في الثلج . . .

وهـا صرخ الـرجـل الذي يمسك مكبر الصوت إد شاهد الى جانب السيارة، وإلى جانب الطباء الراكضة ذئباً يعدو، وخلفه تركض عدة ذئاب، فصرخ الرجل بشدة، بصوت أبـح، يملؤه الحقـد الساخر، قذف المكبر من يده، وأمسك ببندقيته، وصوب نحو الذئاب وهو يلقمها، لم يكن بامكان أكبارا أن تفعل شيئاً، فهي لم تفهم ما في الأمر، ولم تدرك أن هذا الإنسـان في واقيـات عينيـه الـزجاجية يصوب إليها، وحتى لو فهمت حقيقة الأمر، فهي لا تستطع أن تفعل شيئاً ـ فطوق الصيد الذي فُرض عليها، وعلى ذئابها، جعلها عاجزة عن الهروب أو الوقوف في مكان ما، بينما تابع الانسان تصويبه نحوها. وعلى حين غرة، تعثرت أكبـارا في عدوهـا، فتدحرجت على الأرض، وهبت مسرعة، حتى لا تدوسها الظباء، وفي

اللحظة التالية شاهدت، كيف قفز إبنها ـ كبير الرأس في الفضاء، والدماء تنزف من رأسه، ثم هوى إلى الأسفل بهدوء، واستقر على جنبه، وهو يمد قوائمه المرتجفة. ربما صدرت منه صرخة ألم، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكن الأم لم تسمع أي شيء، أما الانسان ذو النظارة الزجاجية فقد صرخ رافعاً بندقيته الى الأعلى، وهو يهزها فرحاً، وفي اللحظة التالية اجتازت أكبارا جسد إبنها ـ كبير الرأس الخامد فوق الأرض، ومن جديد عادت لتتفاعل مع الأصوات للعالم المحيط بها ـ الأصوات الغريبة، صخب الصيد، أزيز الرصاص الذي لم ينقطع، أبواق السيارات القوية، صراخ الصيادين، شخير الظباء الجريحة، دوي الطائرات المروحية فوق رأسها . . . ومن حولها تسقط الظباء الكثيرة وتتخبط بدمائها، ثم تستقر على الارض طريحة، ترفس بأظلافها، عاجزة عن الحراك، والكثير منها سقط من ضيق التنفس، أومن توقف القلب. كان الجزارون من المشاة يقطعون رؤوسها، يلوّحون بأرجلها قبل أن تقطع أنفاسها ويقذفون بها إلى الشاحنة التي امتلأت حتى أعلاها. كان منظر هؤلاء الرجال الذين تضرجت ثيابهم من الأعلى حتى الأسفل بالدماء، منظراً مخيفاً . . .

ولو أن عيناً ما، قد نظرت من أعالي السماء بيقظة وتمعن إلى هذا العالم، كان بإمكانها أن ترى كيف جرى هذا الصيد، وكيف تغير كل شيء في براري موينكوم، ولكن حتى هذه العين، كانت عاجزة عن إدراك نتائج هذا كله، وعما سيحدث فيها بعد . . .

انتهى الصيد في موينكوم عند المساء فقط، عندما عجز الجميع ـ المطاردون والمطارَدون ـ في هذه السهول عن متابعة السير في الظلمة. وكان من المخطط أن تذهب الطائرات المروحية لتعبئة الوقود، وأن تعود في الصباح لمتابعة عملية الصيد هذه. كما كان من المتوقع أن يدوم العمل هنا مدة ثلاثة أو أربعة أيام، إذا صح القول أنه في القسم الرملي الغربي من منطقة موينكوم يوجد العديد من قطعان الظباء التي لم تدرك الخطر بعد) حسب شهادة طياري الحوامات، ويسمون هذه المنطقة رسمياً ـ بالمنطقة الاحتياطية غير المكتشفة. وبما أنه تتواجد مناطق إحتياطية غير مكتشفة، كان من الضروري العمل على إدخال هذه المنطقة في الخطة، من أجل المصلحة العامة، هذه كانت الحجج الرسمية «لحملة» موينكوم، ولكن، وكما هو معروف، خلف أية معلومات رسمية، توجد ظروف حياتية، تحدد مسيرة التاريخ. والظروف ـ هي في نهاية المطاف من صنع الناس، بكل معتقداتهم، وشهواتهم، وعيوبهم، وطبائعهم الخيرة والشريرة، بكل ما يتسمون به من حيرة واضطراب وتناقض، ومن هذا القبيل، لم تكن مأساة موينكوم، بمثابة الحادث النادر، في تلك الليلة: كان هناك أناس ـ أرادوا أم لم يريدوا ـ قد نفذوا هذا العمل الشرير.

أما الذئبة أكبارا وذئبها تاشينار، فقد نجوا عنوة عن كل الذئاب، وابتعدوا عبر السهول، محاولين تجنب أمكنة الصيد. كان من الصعب عليهما أن يتحركا بسرعة: كل وبرهما، تحت البطن، وبين قوائمهما وحتى الذيل كان قد تبلل بالأوساخ والوحل، وكان كل تلامس بين قوائمهم المجروحة والمرهقة والأرض يثير الألم الشديد في جسدي أكبارا وتاشينار. وتملكتهما الرغبة، أكثر من أي شيء آخر، في أن يعودا الى وجارهما، وأن ينسيا ما حل بهما من مصيبة.

ولكن الحظ لم يحالفهما: خلال مسيرهما نحو وجارهما، قد التقيا فجأة بأناس من جهة الوهاد التي يعيشان فيها، ينحنون إلى عجلات السيارات الشاحنة، بين الشجيرات. وهناك سُمعت أصوات بشر يتحدثون وهم وقوف حول تلك السيارات الكبيرة. توقف الذئب والذئبة قليلا، وغيرا اتجاههما إلى السهوب الفسيحة. ولسبب ما، وفي تلك اللحظة بالذات اخترق نور مصابيح السيارات القوي أستار الظلمة. وعلى الرغم من أن هذه المصابيح كانت متجهة إلى الجهة المعاكسة. فقد كان النور كافياً لإضاءة المكان كله. انطلق الذئبان يعرجان، ويقفزان نحو جهة مجهولة، أما أكبارا فقد كانت تقع بين الحين والآخر لضعف قائمتيها الأماميتين. . . ثم تستريح قليلا حتى تريح أرجلها المرهقة والعاجزة عن السير المتواصل. كانت تختار الأمكنة، التي ما زال يقبع فيها ثلج الصباح. وإلى الخلف كان يمتد أثرهما حزيناً ومراً، عبر الثلج. فالذئاب الصغيرة قد ماتت. ومن خلفهما بقي الوجار الذي ألفوه، وقد قُطع الطريق إلى هناك نهائياً، إذ انتشر الصيادون الجزارون، ولم يعد لهما مكان يأويان اليه. . .

كان عددهم ستة أشخاص بمن فيهم السائق كيبا. ستة أشخاص شاهدوا ما حدث، إذ كانوا يحملون الظباء المقتولة في البراري في ذلك اليوم. وباتوا في هذا المكان ليتابعوا في اليوم التالي عملهم مع الصباح الباكر،وليجمعوا أكبر عدد ممكن من الضحايا ـ نصف روبل عن كل ظبي. وبغض النظر عن أنهم حمّلوا يوم البارحة ثلاث سيارات شاحنة، فإنهم لم يتمكنوا من جمع كل الظباء المقتولة أو المدهوسة خلال عملية الصيد، قبل أن يعم الظلام. وفي الصباح كان عليهم أن يبحثوا عن الظباء المقتولة المتبقية، ويقذفوا بها إلى الشاحنة التي ستحملها إلى القاطرات المغطاة، لتنقلها بدورها خارج حدود منطقة موينكوم.

في تلك الأمسية طلع البدر فوق الأفق، وقد استكمل شكله الدائري، وبان من جميع الجهات شاحباً، وخاصة فوق تلك الأراضي،التي مازالت مكسوة بالثلج. كان نور

القمر يشع أحياناً، ويختفي أحياناً أخرى فوق الأشجار والوهاد، وتلال البراري. ولكن الشبح الهائل للسيارة الشاحنة الكبيرة، كان منظراً غير معتاد في هذه الأماكن الخالية من الناس، وحمل إلى قلبَيْ الذئبة أكبارا والذئب تاشينار الخوف والهلع غير المحدودين: كانا ينظران إلى الخلف، بين الفينة والأخرى، وفي كل مرة كانا يخفضان ذيليهما، ويزيدان من سرعتهما. وعلى الرغم من ذلك، كانا يتوقفان، وينظران من جديد متهالكين أعصابهما، وهما يحاولان أن يدخلا في جوهر ما يجري، ـ ماذا يفعل الناس حول مأواهم السابق. ولماذا توقف هؤلاء في ذلك المكان، وهل ينوون البقاء هناك مع هذا الشبح الهائل الذي يخيفهم جداً. وكانت هذه السيارة من نوع «ماز» ـ التي تسير في الأماكن الوعرة، وتقوم بمهام عسكرية، وهي مغطاة بمشمع، ولها عجلات قوية للغاية، بإمكانها أن تعمل مئة سنة، دون أن تنال منها السنوات أي شيء. وفي قاطرة السيارة، وبين عشرات الظباء المقتولة، التي جمعت للارسال في اليوم التالي، كان يضطجع رجل، يداه موثوقتان، وكأنه أسير. كان يشعر، كيف كانت جثث الظباء تبرد تدريجياً وتتصلب، ورغم كل ذلك كان وبر الظباء يمنحه الدفء، والا لكان وضعه قد ساء من شدة البرد. ومن خلال نافذة المشمع، فوق قاطرة الشاحنة بدا القمر، فأخذ الرجل ينظر إلى البدر الكبير، وكأنه ينظر إلى فراغ ما، وعلى وجهه ارتسمت لوحة العذاب القاسي.

إن حظه الآن مرتبط بالبشر، الذين قدم معهم إلى هذا المكان، عاقدين العزم أن يكسبوا بعض النقود في عمليات الصيد هذه في موينكوم. . .

من الصعب أن يحدد الفرد ماهية الحياة الانسانية. وعلى كل حال، إن تعدد أوجه العلاقات الانسانية اللانهائي، وتعدد السمات والطباع وتعقيداتها، أكبر من أن تحصى بواسطة أي حاسب حديث، إذ سيكون هذا الجهاز عاجزاً كلياً عن رسم وضبط الخطوط البيانية للطباع الإنسانية العادية، وهؤلاء الستة، وبالأحرى الخمسة ـ لان السائق كيبا، كان يختص بقيادة السيارة، وهو الانسان الوحيد بينهم الذي يرتبط، ارتباطاً متيناً بأسرته، هذا على الرغم من أنه لا يختلف كثيرا من حيث الطباع عنهم ـ وبكلمة، أن هؤلاء الستة، كان بإمكانهم أن يكونوا خير مثال لما يحدث في حالات معاكسة، عندما لا يحتاج الانسان الى استخدام الحاسب الالكتروني، وأن يكونوا مثالاً، لإختلاف التفكير عند تناول أي ظاهرة إجتماعية غير مدروسة سابقاً في وسط أقل الناس تعقيداً وهذا يعني، أن الإله أراد كذلك؛ أن يكون هؤلاء الستة من صنف واحد، ويفكرون بطريقة واحدة على الأقل منذ اللحظات الأولى، التي اتجهوا فيها إلى منطقة موينكوم. . .

فقبل كل شيء، كان هؤلاء الناس بلا بيوت، قراصنة أرض، ـ عدا كيبا بالطبع: ثلاثة منهم طلقتهم نساؤهم، وكانوا جميعهم ـ وبدرجات مختلفة ـ غير محظوظين، وبالتالي، كان أكثرهم حاقداً على العالم. وكان من الممكن استثناء أصغر واحد بينهم، يدعى باسم غريب ـ هو «أفدي» ورد ذكره في الإنجيل، في الكتاب الثالث للممالك، ـ ابن ديكون، من مواليد قرية بالقرب من بسكوف، دخل بعد وفاة والده المعهد الديني، واضعاً نفسه في خدمة الكنيسة، ولكنه طُرد، بعد سنتين بسبب ارتداده، وها هو الآن يضطجع في قاطرة الشاحنة «ماز» موثوق اليدين في انتظار العقاب على محاولته القيام بشغب في رحلة الصيد ـ حسب ما أفاد أوبير.

جميعهم ـ عدا أفدي ـ كانوا متحمسين للصيد، أو كما يصفون أنفسهم، مدمنون، محترفون، وهنا أيضا كان من الصعب أن نحسب كيبا معهم، اذ كان عليه أن يتجنب الخمرة كسائق،إضافة إلى ذلك أن زوجته كانت تمنعه وتؤنبه بقسوة على هذا. أما الآن في موينكوم، وفي تلك الليلة، فقد شرب حتى الثمالة، ليس أقل من الآخرين. أما أفدي فقد رفض أن يشرب، والتزم الحياد، وهذا ما أثار السخط الأكبر، والكره من جانب أوبير.

أما بالنسبة لاوبير فهو الذي طلب، أن يناديه رفاقه هكذا «أوبير» للاختصار، وليشعر الرجال التابعون له بأهميته، اذ تعني هذه الكملة «العريف»، وهو في حقيقة الامر، كان قبل التسريح من الجيش ملازماً أول في فوج نظامي، وعندما سرح من الجيش نظر الطيبون الى هذه المسألة، وكأن أوبير قد عزل من الجيش لشدة تمسكه بالنظام. حسب ظنه، وكان يشعر بالحسرة تمزق أحشاءه، اثر هذا العقاب من القيادة «غير العاملة» ولكن أوبير كان لا يتكلم نهائياً عن السبب المباشر، الذي أدى لطرده من الجيش. وبالطبع ليس من الهام الكلام عن هذا، فالأمر قد انتهى. وفي حقيقة الأمر كانت كنية أوبير الأساسية «كاندالوف»، وربما خاندالوف، ولكن هذا لا يهم أحداً، ـ أوبير، فليكن أوبيرا، بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

الشخص الثاني في هذه العصابة ـ، هكذا اتفقوا على تسمية فريقهم، والوحيد الذي اعترض على هذه التسمية كان هملت ـ غالكين، الذي كان يعمل ممثلاً في المسرح المنطقي الدرامي، إذ كان يقول: يا لهذه التسمية «عصابة»! أنا لا أحبها، اننا أيها الزملاء ذاهبون للصيد، فلنكن رحالة! «ـ ولكن لم يستمع أحد إلى اقتراحه: إن كلمة «رحالة» كانت أضعف بكثير من كلمة «عصابة». وهكذا، ان الشخص الثاني في العصابة كان «ميشاش»، واسمه الكامل ميشكا ـ شاباشنيك، شخص، يجب القول، أنه من ذوي

الطبـاع الفظـة. وكـان بإمكـانـه أن يشتم أي إنسـان، حتى أوبـير نفسـه. وكـان ميشاش يستخـدم الكلمات النـابيـة إذ يضـع كلمـة «شر. . .» بين كل كلمتين، ولم يكن بإمكانه أن يستغني عنهـا، فهي بالنسبـة له كالشهيق والـزفـير. وكـان هو صاحب الاقتراح بربط يدي أفدي، وقذفه إلى قاطرة الشاحنة. ونفذت العصابة طلبه هذا على الفور.

أمـا الشخص الثـالث الـذي شغـل مكاناً بسيطاً في العصابة، فقد كان الممثل هملت ـ غالكين، الذي أدمن شرب الخمرة، وخرج من المسرح قبل أن يصل إلى الشهرة، وأخذ يشتغل بأعمال مختلفة. وها هو الآن يعمل في عمليات الصيد هذه، في تحميل الظباء المقتولة إلى الشاحنة، وكان يقبض مقابل عمله هذا مبلغاً يعادل ما يتقاضاه الإنسان، خلال شهر كامـل، كما كان أوبـير يعطيـه من المكـافأة الاضافية، من حساب مجموع الدخل ـ صندوق فودكا لكل الأخوة. وأخيراً، أبسط إنسان بين الجميع ـ مواطن من سكان المنطقة القريبة من موينكوم، يدعى أوزيوكباي أو أبوريغن. وكان فيه العديد من السمات الرفيعة، فهو لا يحب نفسه، وبعيد، كل البعد عن الأنانية، وكان يوافق على كل ما يؤمر به، ولا يطلب الكثير، فمقـابـل زجـاجـة فودكـا، بإمكـانـه أن يذهب إلى القطب الشـمالي. وقصة حياة أبوريغن أوزيـوكبـاي القصـيرة هي التـاليـة: سابقـاً كان سائق جرار، ثم أخذ يشرب الخمرة، دون انقطـاع، ترك الجـرار في منتصف الليـل على الطـريق العـام، مما أدى إلى اصطدام إحدى السيـارات به، وقتـل انسان، سجن أوزيـوكباي سنتين، وهجرته زوجته مع أولادها. إلى المـدينـة، وهنـاك أخـذ يعمـل حمالاً في أحـد المحلات الاستهلاكية، ولكنه تابع شرب الخمرة، كلما وأينما سنحت له الفرصة، وفي أحد الأقبية التقى أوبير، وسار خلفه، دون أن يفكر إلى أين يصطحبه، ودون أن ينظر إلى الخلف، وفي واقع الأمر لم يكن هناك ما يلتفت إليـه. . . زد على ذلـك أنـه كان من الصعب أن يرفض الفرد طلب أوبير ـ كاندالوف ـ فهو يتسم بسمات اجتماعية جذابة.

هكـذا اتفق الأربعـة بزعـامـة أوبـير كانـدالوف، وهكذا اتجهوا إلى براري موينكوم للصيد. . . وإذا أردنا الكلام عن المصير والمصائر، وعن مختلف الظروف الحياتية التي تحدد الأحـداث، فإن الإلـه وحـده يعـرف أنّه لا يوجد عند أوبير كاندالوف أي اهتمامات أخرى تجمـع بينـه وبـين الطـالب الفاشل أفدي، ولو كان بإمكان أفدي أن يكمل دراسته وخدمته حتى يصبـح إنسـاناً فعالاً ـ فزملاء أفدي في المعهد الديني، كانوا في فترة ماضية بسطاء، لا يهمهم أي شيء في الـدنيـا كغيرهم من الطـلاب، وعنـدما اختاروا طريقهم في الدراسة، اتضـح أنهم أكثـر جديـة منـه، والأهـم، أنهم أكثـر حكمة من أفدي، إبن المرحوم ديكون،

وبعد انتهاء المعهد الديني وتفوقهم أصبح هؤلاء الشبان يتقدمون بسرعة في مجال الكنيسة. وقد كان أفدي في بداية الدراسة من المتفوقين بين زملائه، ومن المحبوبين من قبل المعلمين القساوسة ولو تمكن وقتها من متابعة الدراسة لكان الأمر على خلاف ذلك، التقى أوبير كاندالوف أفدي في يوم من الأيام، خاصة وأن أوبير كان يعتبر أن القساوسة أناس قاصرون عن فهم عصرهم، ولم يدخل في يوم من الأيام عتبة الكنيسة حتى من باب الفضول.

لو كان بالإمكان استشفاف المستقبل... ولكن من كان بإمكانه أن يعرف، ماذا سيحدث. لو كان بالإمكان!.. لما طلب من أفدي أن يملأ الإستمارة، عندما قرر الرفاق السفر سوية، وطلبا لكسب العيش، إن هذا يشبه، الى حد بعيد، مساهمة الفرد مع جماعته في جني محصول البطاطا. وهنا في الصيد كان عليهم أن يجمعوا الظباء المقتولة... ولو علم أوبير ـ كاندالوف، أن هذا الشخص المتسكع ـ أفدي «الذي التقى به في المحطة ـ هو انسان مجنون، لكان قد غيرّ رأيه، ولما أخذه معه إلى براري موينكوم، حيث سبب له الإزعاج، ولما عانى من مسألة كيف سيتخلص منه دون عواقب سيئة... من هذا الإنسان البربري، الذي كاد أن يخرب كل خطط له بجهد كبير، محاولا بهذا أن يرمم ماضيه. ومن يعتقد، أنه، وبهذه الطريقة الخاطئة، والساذجة من يمكنه الوصول لعقدة واحدة؟! ومن خلال هذه الأفكار أراد أوبير كاندالوف أن يشرب الخمرة.. ويقال عادة أنه يشرب حتى الثمالة، وهذا ما كان يجيده جيداً ـ إذ يشرب نصف الكأس جرعة واحدة، ثم نصف الكأس الآخر، ثم نصفاً ثالثاً.. ويشرب ويشرب حتى لم يعد أمامه أي شيء من المشروب، ويطرد الوعي كلياً... ثم يوجه ذاك البربري لأفدي ضربه على دماغه... ولكنه كان يخاف أن يفعل، لانه كان يدرك، كيف سيكون الأمر صعباً فيما بعد...

ومن أين جاء هذا الـ«أفدي» ليحل المصيبة على رأسه! وثانية، لو جرى الحديث عن المصير والمصائر، عن مختلف الظروف الحياتية التي تحدد أسباب الأحداث الأخرى، لكان قد وجد حلاً منذ أمد بعيد، وبعيداً من هنا...

إن أفدي المفصول من المعهد الديني كمرتد عن الأفكار الدينية أخذ يعمل في تلك الآونة كمراسل غير رسمي لصحيفة الكومسومول المركزية. وقد اهتمت أسرة التحرير بمقالاته، التي وجدت اهتماماً بين القراء وخاصة تلك المواضيع الجديدة، التي كان يطرحها، فبعد أن كان مخلصاً للكنيسة أخذ ينشر الكثير من الكتابات التي يفضح فيها تصرفات بعض المتدينين، المزيفين، ولقد اهتم هذا الانسان الذي لم تعجبه التعاليم في المعهد الديني، اهتم بالنشر في صحافة الشبيبة، وكتب في المواضيع الأخلاقية المحببة اليه. واطلع القراء على

الأفكار، التي نشرها على صفحات الجريدة، ووجدوا فيها أشياء جديدة، غير معتادة. وقد اهتم بكتاباته ـ بالاضافة إلى الشباب ـ بعض القراء الكبار، الذين أرادوا أن يطلعوا على أشياء جديدة في الصحافة المحلية، وهكذا تكوّن اهتمام متبادل بين الكاتب والقراء. ولكن القليل منهم كانوا يعرفون، عدا شخص واحد، إطلع على حقيقة الأمر، وعرف الأفكار الأولية التي يدعو لها هذا المجدد الشاب: أمل أفدي كاليستراتوف مع الزمن، ومع تمتين وتدعيم قاعدته الصحفية، أن يجد الصيغة المناسبة، والمجال الايديولوجي المحدد، اللذين يسمحان له أن يعبر عن القضايا الحياتية الملحة، من وجهة نظره، ويتمركز حول الأفكار المعاصرة، والتصورات الآنية، حول الإله والانسان في الوقت المعاصر، ويفضح الأفكار الجامدة المؤمن بها دينياً، وينحصر العجب كله في أنه كان يعاني من مسألتين متناقضتين، تقفان أمامه وتعتمد قوتها على أسس ثابتة لا تتزعزع، وعلى شمولية غير قابلة للتحقيق، فمن جهة ـ قدرة وإمكانية الزمن، وألاف السنين من سيادة النظريات الدينية، التي عمل أصحابها جاهدين من أجل الحفاظ على نقاوة المعتقدات الدينية، حتى من أي أفكار تحمل سمة التجديد المفيد، ومن جهة أخرى ـ في جذر منطق النظرية العلمية الإلحادية التي ترفض الديانة كما هي، أما هو، فكان حائراً يائساً بين هاتين المسألتين، وكأنه بين رحى حجري طاحون. ورغم هذا التناقض، فقد كان يتأجج في نفسه نور خاص. يتقد انطلاقاً من أفكاره، وهو «تطور فكرة الإله حسب الزمن، وعلاقتها بالتطور التاريخي للإنسانية» وأمل هذا المرتد أفدي كاليستراتوف ـ عاجلاً أم آجلاً ـ انه ستيمكن من الكشف عن أفكاره للناس، وتوقع أفدي أن الناس أنفسهم ـ حسب اعتقاده ـ سوف يعملون من أجل معرفة علاقتهم بالإله في عصر التطور الصناعي العاصف، عندما تبلغ عظمة الانسان مرحلة رفيعة من النمو. ولم تتسم أفكار أفدي، حتى هذه اللحظة بطابع الثبات الفكري أمام المناقشات، ولكن مثل هذه الحرية في الفكر كانت مسألة غريبة على الاوساط الدينية الرسمية، التي لم تعفُ عنه، عندما رفض أن يعتذر عن أفكاره الجديدة المعارضة للتعاليم الدينية، وطردته إدارة المعهد الديني منه.

كان أفدي كاليستراتوف، كغيره من الناس في هذه السن، يرسل شعر رأسه على سجيته حتى وصل إلى كتفيه، وبالاضافة إلى ذلك ترك لحيته الكستنائية تنمو بكثافة، دون أن يقص منها شيئاً، فأكسبت وجهه سمات خيرة، دون أن تزيد من جماله. أما عيناه الرماديتان، فقد كانتا تلمعان من حين لحين، معبرتان عن القلق الروحي والفكري، الذين كان يعاني منه، كل هذا حمل له الشعور بالرضى عن انجازاته الخاصة، ورغم الكثير

من العذاب،الذي عانى منه من الناس المحيطين به، والذين كان يتعامل معهم بمودة . . .

اعتاد أفدي أن يرتدي قميصاً ذا خطوط مربعة، ودرّاعة وبنطالا من قماش الـ«جينز» وفي البرد الشديد، كان يلف نفسه بمعطف ويعتمر قبعة فروعتيقة، كان قد ورثها عن والده وبهذه الثياب جاء إلى براري موينكوم . . .

جالت أفكاره، عندما كان يضطجع في قاطرة الشاحنة، موثوق اليدين حول عدة قضايا مرَّة واحدة. ولكن الشعور بالعزلة كان يعذبه أكثر من أي شيء آخر في هذه الرحلة. وتذكر مقولة، كاد ينساها لأحد الشعراء الشرقيين يقول فيها: «بين جمهور يعد بالآلاف - أنت وحيد، وفي عزلتك - أنت وحيد». وهو في هذا الوضع. أخذ يفكر بمرارة وعذاب بتلك الإنسانة، التي أصبحت بالنسبة له ومنذ فترة، أقرب كائن في الوجود، دائماً توافقه في أفكاره، وأصبحت كظل لروحه، - وفي أنه حتى تلك الساعة لم يتمكن من الانفراد بإفكاره عنها، أو أن يبعدها عن مخيلته، بل اندفع يفكر بها، بكل مشاعره ومعاناته، واذا كان يوجد في العالم انسجام وتوافق بين المشاعر فوق العادية لاناس متقاربين في الذات، وفي وضع مضطرب، فهي لا شك قد عانت في تلك الليلة من إنهاك روحي غريب، وحدس بالمصيبة . . .

وها هو أفدي الآن يؤمن بعدالة مقولة الشاعر، والتي كان يسخر منها سابقاً، ولم يصدق تلك المقولة القاسية: «دع ذلك الانسان لا يحب، من يكون مستعداً للحب فعلاً. . . » يا لهذا الهراء! وها هو الآن يبكي صامتاً، يفكر بها، مدركاً انه الآن لا يعرف شيئاً عن حياتها، وأنه قد أحبها بكل أبعاد الحب، كما يحب الانسان حياته قبل الموت.آه ما أعظم هذا الألم الشديد المعذب، وهذا الشوق، وهذه الرغبة القوية الجنونية القاتلة، حبذا لو كان بإمكانه أن يتحرر من قيوده الآن، ويركض إليها في وسط الليل، عبر البراري الفسيحة بين القارات، إلى الخط الحديدي، إلى محطة جالباك - ساز، حتى يسافر إلى هناك، حيث بيتها، ويبقى نصف الساعة أمام باب ذلك البيت الصغير عند حدود الصحارى العظيمة، إلى هناك حيث تعيش. . . ولكنه كان عاجزاً عن التحرر. فشتم أفدي إخلاصه لها، والذي ربما لا تحتاجه - فمن أجلها قد عاد مرة أخرى إلى هذه المنطقة الآسيوية، وأتى إلى هنا، إلى موينكوم، حيث يضطجع الآن موثوق اليدين مهاناً وذليلاً، ولكن مشاعره نحوها كانت أقوى من مقاومة الرغبة في رؤيتها، وكلما ازداد شعوره بالعزلة، كلما فتحت هذه المشاعر أمامه كل الحقيقة، حقيقة الاندماج الكلي مع الإله، وكأن الإله قد أظهر نفسه من خلال الحب، فدعا الانسان أن يقدم نفسه وقلبه المحب إلى إنسان آخر ليشعره بأسمى

سعـادة في الـوجـود، وعطـاء الإله هنا غير محدود، كمسيرة الزمن، ولا تتكرر مشاعر الحب وخصوصيتها في مختلف الحالات، وفي كل البشر. . .

ـ المجـد! ـ همس وهـو ينظر إلى القمر، وفكر: «لوكانت تعلم، كم هي عظيمة رحمة الإله، عندما يبعث الحب في قلب الانسان. . .».

وفجأة سمـع وقـع خطى الى جانب السيـارة، ثمـة شخص ما، سعـل وعطس، ثم صعـد إلى المقطـورة. كان ذلـك ميشـاش، وعلى أثـره ظهـر رأس كيبـا، يبـدو أنهـما شربا الفودكا، حتى أخذت تدغدغ أنفيهما.

ـ كيف حالـك أيهـا العـاهـر؟ قف على رجليـك، أيها القس الورع، ابن الزانية ان أوبير يطلب حضورك إلى السجادة، سوف يربيك من جديد، ـ قال ميشاش، كالدب في وجره، وهو يطأ فوق جثث الغزلان في المقطورة.

أضاف كيبا، وهو يقهقه بدوره:

ـ لا توجد سجادة هنا، ستجلس على مؤخرتك، فوق أرض موينكوم، دون دلال.

ـ سنحمل له سجادة بعد كل هذا، ـ قال ميشاش ساخراً، وهو يتجشأ، ـ لقاء هذا، يجب إرسال الشر. . . إلى سيبيريا! أراد أن يضحك علينا، يا له من. . . أراد أن يجعل منا ناسكين، لقد أخطأت العنوان أيها الـ. . . . !

ـ ٤ ـ

خلال هذه المدة أرسل أفدي كاليستراتوف إلى إينغا فيدوروفنا عدة رسائل إلى محطة جالبـاك ـ ساز، وأجـابتـه إلى مركـز الـبريد في المدينة، لانه لم يكن لديه عنوان دائم. وكان أفـدي قد فقـد والـدته منذ الصغر، أما والده ديكون كاليستراتوف، الذي بقي أرملاً، فقد صرف كل وقتـه، ومشـاعره الخيرة، وثقافته، وتعاليمه الدينية لتربية إبنه وابنته، التي كانت أكـبر من أفـدي بثـلاث سنـوات. سافـرت فارفارا ـ أخت أفدي الوحيدة للدراسة في لينينغراد، وأرادت أن تتابع دراستها في معهد التربية، ولكنها لم تقبل هناك كأبنة لأحد الكهنة، حتى لا تؤثـر في أبنـاء المـدارس. وعنـد ذلـك انتسبت إلى معهـد التكنولوجيا، وهكذا استقرت في لينينغـراد تزوجت هنـاك، وانخـرطت في حياة الأسرة، وعملت في الرسم الهندسي في معهد البحـوث العلميـة. أمـا طريق أفـدي فقـد مرعبر المجال الروحي حسبما أراد هو، وكما أراد والده، خاصة بعد محاولة دخول إبنته فارفارا إلى معهد التربية. وعندما باشر أفدي الدراسة في المعهد الديني، تباهى ديكون كاليستراتوف جداً، وكان يسير في المدينة مفاخراً بابنه وفرح

جداً لأن أحــلامــه قد تحققت، وأن أعــمالــه لم تذهب سدى، وأن وعظـه قد لقي تأثـيره المناسب، وأن الإله قد استجاب إلى دعواته على عجل، ولكنه توفي، وربما قد حالفه الحظ في هذا، لانه كان سيعاني، معاناة لا توصف من ارتداء ابنه أفدي عن الطريق، الذي رسمه له، بعد أن اهتم بالأفكار الجديدة على أساس الديمومة الأبدية لوجود العالم، وعبادة الإله والتعاليم المنزلة مرة واحدة وإلى الأبد، دون الشك بقدرة الإله الثابتة.

عندما أخذ أفدي كالستراتوف يعمل في الصحيفة المنطقية للشباب، أخذت الكنيسة تطـالب بتلك الشقـة الصغـيرة التي عاش فيهـا ديكـون كاليسـتراتـوف مع أسـرته سنوات عديـدة، وأرادت الكنيسـة أن تعطيهـا لخادم الكنيسـة الجديد، وطالبت الكنيسة من أفدي كاليستراتوف المطرود من المعهد الديني أن يخلي الشقة على عجل، كشخص ليس له علاقة بالكنيسة.

أرسل أفدي لاخته فارفارا رسالة يطلب منها الحضور فوراً، حتى تأخذ ما ترغب فيه من ورثـه والـديها وخاصة الايقونات القديمة، واللوحات كذكرى من الأهل، وأبقى أفدي لنفسه كتب والده. وهذا اللقاء بين أفدي وأخته، كان اللقاء الأخير ـ فقد كان لكل مصيره الخـاص، ولم يلتقيـا بعـد هذا، رغم أن علاقتهـا كانت طبيعيـة، ولكن طرق الحيـاة كانت مختلفـة. ومنـذ تلك اللحظـة أخـذ أفـدي يعيش في شقق بالإيجـار: في البـدايـة أخـذ غرفاً مستقلة، ثم بالاشـتراك مع بعض زمـلائـه. لانـه لم يتمكن من استئجار غرفة كاملة، ولهذا بالذات كانت إينغا ترسل له الرسائل الى مركز البريد.

في هذه الفـترة بالـذات تقـررت أول رحلة لأفدي كاليستراتوف إلى آسيا الوسطى، مبعـوثـاً من أسـرة تحرير الصحيفة الكومسمولية المنطقية. والسبب الرئيسي لهذا كان إقتراح أفـدي أن يدرس عن قرب، ويصف طرق ووســائـل انتشـار بعض المخـدرات من نبـات الحشيشـة بين الشبـاب في المنـاطق الأوروبية من البلد، وهذه الأعشاب كانت تنمو في أسيا الوسطى، وفي سهول تشويسكي، وموينكوم. كأعشاب برية، تحتوي أوراقها، وأزهارها، وغبار طلعها على أشياء تؤثر تأثيراً فعالاً على عقل الانسان، ويحلق الانسان الذي يدخنها في عالم الأوهام والأحلام والخيال، ومع زيادة الكمية يزداد الضغط على أعصاب الانسان، ويصبح عدوانياً وخطراً بالنسبة للمحيطين به.

وصف أفدي كاليستراتوف قصة رحلته هذه على وجه الدقة في مذكراته وانطباعاته، ووصف كيف التقى في السهــل وجهـاً لوجـه مع أسـرة ذئـاب، ووصف مشـاعـره في تلك اللحظات ـ وتكلم بحماسة وقلق، كشاهد وكمواطن يقلقه انتشار المخدرات. ونشرت هذه

المقـالات التي كان يكتبهـا وقـوبلت بترحيب كبير في البداية، ووضعت بعض العراقيل فيما بعد أمام نشرها، ثم توقفت كلياً.

كتب أفـدي كاليسـتراتـوف عن معـاناته وقلقه إلى إينغا فيدوروفناءالتي حسبها هدية ـ رائعـة من القـدر، وأقـرب إنسان بالنسبة له، ـ فهي كانت كالنهر، تحييه وتبعث فيه الحياة اليومية من جديد، ولقد أدرك أن المراسلة مع إينغا فيدوروفنا ـ هو المعنى الرئيسي في حياته، وربما هو الشيء الأهم، الذي يبرر وجوده، ومتابعة حياته.

كان يبعث بالرسالة اليها، ثم يأخذ بمراجعة ذاكرته، مفكراً بماكتبه، وبما سيكاتبه في رسالته القادمة. هذا شكل غريب للتفاهم عن بعد، وهو الاشعاع الدائم في الزمان والمكان لروحه المعذبة.

«. . . ثم فكـرتُ عدة أيـام قلقـاً، ربما صدمتكم كلماتي الأولى في الرسالة: «باسم الآب والابن، والـروح القـدس!». لقد كتبتها لانني قد تربيت على هذه التقاليد، وكانت هذه العبارة تتردد على لساني أمام أي عمل، أوحديث جاد، وأنا أستعد للقيام بالصلاة. ولم أغير هذه العادة، على الرغم من أنني. . . وهنا لا بد لي أن أذكركم ـ مرة أخرى ـ أنني ترعرعت في وسط ديني ودرست في المعهد الديني. نعم، أن علاقتي بكم تضطرني للتصريح لكم بكل شيء يخصني عن قريب أم بعيد.

وفكـرت لماذا أخـاطبكم بلغـة الجمـع، رغم أننـا افـترقنـا ونحن نتكلم بلغة المفرد، فاعذروني، لقد حصل شيء ما معي، رغم أنني لم أفارقكم إلا منذ مدة وجيزة. وعلى أي حال أن المجانين يحاولون دائماً أن يجدوا حججاً واهية، والآن، اسمحوا لي أن أخاطبكم عن بعـد بصيغـة الجـماعة. هكذا أشعر براحة معنوية تجاهكم ولو قدر لنا أن نلتقي، وأن تتحقق هذه الأحـلام (بـدت لي هذه الأحـلام كالأطفـال، الذين أربيهم تدريجياً، ولم أعد أقدر أن أسعـد بدونهم، وأتصـور الآن كم هي السعـادة عظيمـة، عنـدما يحب الانسان أولاده، كما أحب أحلامي) هذه الأحلام التي ولدت كطموح للروح، إلى الكمال الإلهي، إلى السمو اللامتنـاهي، وبفضل هذه الأحلام لم أفكر بالخطر القادم من العالم الآخر. ومن الممكن أن هذا قد حصل معي لان الحب هو ضد الموت، ولهذا أرى أن الحب هو نقطة إرتكاز هامة في الحيـاة بعـد الـولادة.إنني اكـرر كل هذا راجياً أن نلتقي قريباً، وأعدكم أنني خلال اللقاء لن أكلفكم أي عناء كان، وأعدكم أنني سوف أخاطبكم بصيغة المفرد. . . وما دمنا على هذه الحالة، يوجد لدي الشيء الكثير، الذي لم أخبركم به. . .

أنكم تذكـرون، يا إينغـا فيـدوروفنـا، اتفـاقنا، أنه عندما تظهر مقالاتي الأولى التي

أتيت من أجل اعدادها إلى منطقتكم في الصحافة، سوف أرسلها اليكم عبر البريد الجوي. ولكن، وللاسف، لست على ثقة أن مقالاتي عن الشباب المراهقين، وعن الراكضين خلف جمع أعشاب المخدرات، وكل ما يرتبط بذلك من لوحات سيئة في أيامنا سوف تظهر إلى النور في الزمن القريب. أقول في أيامنا، لأن أعشاب المخدرات ظهرت في هذه الاراضي، كأعشاب ضارة، ومنذ فترة قصيرة، وبالضبط منذ خمسة عشر عاماً ـ أنتم شخصياً تعرفون بذلك، وليس لي أن أحدثكم، وأنتم الاختصاصيون في هذا المجال، ولكن اعذروني، فانني سوف أحدثكم، على أي حال يا إينغا فيدوروفنا، بالضبط أنتم. وفقط الآن أصبح هذا يتسم بأهمية خاصة، نعم، فمنذ خمسة عشر عاماً، كما يؤكد السكان المحليون، لم يفكر أحد أن يجمع هذه «الأعشاب الشريرة»، لأي غرض، غير التدخين، ومن المعروف أن هذا الشر قد ظهر منذ آونة قريبة، وتحت تأثير الغرب، إلى حد بعيد. والآن يقترحون عليَّ أن اكتب مقالاتي بصفحات محدودة ـ ان هذا لا يعقل نهائياً. أفهم جيداً، أن هذا حديث خاص، فان الوصف الكاذب، حول موضوع انتشار المخدرات بين الشباب، سوف يثير الاهتمام الكبير، وبالأحرى، بين قسم من الشباب قليلي الوعي. وان هذا سوف يسيء لسمعتنا، وسوف يثير الغضب والضحك. ان هذا نوع من طرق النعامة... ومن هنا بدأ كل شيء ـ انكم قد صدقتموني من الكلمات الأولى،التي قلتها لكم، وفتحتم أمامي مجالاً جديداً في الحياة.

اليوم كنت، مرةأخرى في مقر أسرة تحرير الجريدة لبحث موضوع المواد التي قدمتها، وكان كل شيء، كما كان، دون أي تغيير، ولا يوجد أي أمل. ولا يقدر أحد أن يشرح الحقيقة، ولماذا أصبحت مقالاتي عن البراري، والتي وجدت الاهتمام الجيد من أسرة التحرير، لا تحظى الآن بالاهتمام ذاته، بعد أن قوَّمها النقاد تقويماً ايجابياً، ولماذا يتجنب سكرتير التحرير الآن أي لقاء معي، ويصعب عليَّ الاتصال به، وتقول السكرتيرة، أنه مشغول جداً ـ أوعنده إجتماع، أو يبحث الخطة، أو طلبته القيادة، وتجيب على هواها، حسب أهمية درجة القيادة.

وأغادر من جديد وحيداً في الشوارع المعروفة، وكأنني إنسان غريب، قدم إلى هنا مصادفة، وكأنني لم أكن هنا منذ ولادتي، وعانيت من الفراغ والغربة في عالمي. وبعض معارفي لا يسلمون عليَّ ـ فأنا بالنسبة لهم مجرد إنسان طرد من الكنيسة، ومن المعهد الديني وغيره، وغيره، فقط شيء واحد يبعث الدفء في روحي، تلك الرغبة الدائمة في عالمي ـ وهي رسالتي. حيث أسير وأفكر عن ماذا سأكتب إليكم؟ هل أكتب عن كل شيء يبدو لي

ممتعاً. وكل ما يخولني أن أتقاسم معك بكل أفكاري. ولم أعتقد في يوم من الأيام، أن التفكير بالمرأة الحبيبة وكتابة الرسائل لها، سوف يصبح جوهر حياتي. وأنني أنتظر وأحلم بالسفر إلى تلك الأماكن التي كنا نلتقي فيها سابقاً! أسير وأفكر بهذا. ربما، أن الآخرين من البشر قد مروا بمثل هذه الايام، عندما كانوا يجدون في الحب، ولفترة ما، المعنى الحقيقي لحياتهم، وكانوا سعداء بهذا الحب، ولكني، وعلى خلافهم، سوف أتابع الحب حتى الموت، ومعنى وجودي في هذه الحياة، ينحصر في هذا بالذات...

وها هي أوراق الخريف تتساقط على الطرقات. وكل ما كتبت عنه سابقاً، كان قد حدث في بداية الصيف. وكانت أسرة التحرير آنذاك تشجعني على الكتابة، وتحثني على تقديم المواد. ولم يكن يخطر لي على بال، أنني، عندما، أقترب من الموضوع الرئيسي سوف تتنكر أسرة التحرير لي. انني لم أفكر مطلقاً أن المبدأ الغريب - أن ننشر في الصحافة الجماهير ية كل ما هو جيد، وغير قابل للنقد، - قوي لهذه الدرجة.

وفي تلك الأيام، كنت منشغلاً بالرحلة الطويلة التي سأقوم بها إلى المناطق المجهولة في البر اري، في المناطق الجنوبية. وكانت المهمة تنحصر في أن أسافر إلى هناك ليس كمراقب لا يهمه الأمر، بل كأحد الباحثين عن الحشيشة وأن اندس في هذه الجماعة السرية. كنت أكبر منهم سناً، ولكن ليس أكبر بكثير، وفارق السن بيننا لا يثير قلقهم. واقترحوا عليّ في أسرة التحرير أن أرتدي بنطالاً من «الجنز» العتيق، وخفافة قديمة، واذا حلقت ذقني، سوف أظهر كانسان بسيط. وهكذا قد فعلت - فحلقت لحيتي قبل السفر. ولم أصطحب معي أية دفاتر لكتابة المذكرات، واعتمدت على ذاكرتي. كان عليّ أن أتسلل إلى ذلك الوسط، وأن أتعرف إلى واقع الامر، وحقيقة السبب الذي شجع هؤلاء الشباب أن يذهبوا إلى تلك الأماكن، وما الذي دفعهم، عدا التهريب وكسب المال، كان عليّ أن أدرس من داخل هذه الجماعة النواحي النفسية الخاصة، والأسباب الإجتماعية والأسرية لهذه الظواهر.

جهزت نفسي لهذه الرحلة. وكان ذلك في شهر آيار. ففي هذا الوقت تبدو الحشيشة مزهوة بزهورها، وفي هذه الأيام يبدأ الرجال الذين يقصدون سهول موينكوم وتشويسكي بالعمل سعياً وراء جمع هذه الزهور. ولقد أعلمني بهذا كله صديقي مدرس مادة التاريخ في إحدى مدارس مدينتنا فيكتور نيكيفوروفيتش غوروديتسكي. وعندما كنا نبقى واياه على إنفراد، كنا نبحث مختلف القضايا، وينادیني من باب المزاح بـ«الأب أفدي» وكان المعلم فيكتور شابا، من جيل أختي فارفارا التي تكبر ني قليلا. وها هو ابن أخته الشاب «باشا»

يدخل فيما بعد في عداد الجماعة، التي تبحث عن الحشيشة دون أن يعلم والده أو والدته أو فيكتور نيكيفورو فيتش بهذا التصرف الشاذ من قبله.

ذات مرة طلب باشا السماح من والديه، كي يسافر إلى جده في مدينة ريزان، إذ كان يسافر إليه كثيراً، وبعد خمسة أيام من السفر استلم فيكتور نيكيفوروفيتش برقية من قاضي التحقيق في مجال المواصلات جاسليبيكوف، المقيم في محطة بعيدة في كازاخستان. وجاء في البرقية، أن ابن أخته باشا موقوف قيد المحاكمة، إذ اعتقلته السلطات بتهمة نقل المخدرات في القطار.

أدرك فيكتور نيكيفورو فيتش، لماذا أرسلت البرقية له وليس لوالدي باشا. كان باشا يخاف من أبيه - الانسان القاسي والشديد. سافر فيكتور نيكيفورو فيتش على عجل إلى ألما - آتا* ومن هناك سافر في القطار مدة يوم كامل حتى وصل إلى المحطة المذكورة. فوجد فيكتور ابن أخته باشا في وضع لا يحسد عليه. اذ كان عليه أن يمثل أمام محكمة فورية ويمكن أن يحكم - في أحسن الحالات - عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات في معسكر عمل شديد النظام. كانت المحكمة الزامية، وأدلة الجريمة موجودة، وحاول فيكتور نيكيفورو فيتش قدر استطاعته أن يدافع عن ابن اخته، ولكن لم يكن بمقدوره فعل أي شيء أمام القانون الذي يفرض العقاب على الجريمة. ونصح ابن أخته أن يكون متزناً أمام المحكمة، ولقنه ما يجب قوله ووعده أن يشرح الموقف لوالديه، كما وعده أن يزوره في معسكر العمل. كل هذا كان يجري بوجود القاضي جاسليبيكوف. وفجأة قال الأخير:

- أيها الرفيق فيكتور نيكيفورو فيتش، اذا تقدمتم بكفالة، تتعهدون فيها أن ابن اختكم لن يقوم بمثل هذه الجريمة في المستقبل، فإنني سأطلق سراحه على مسؤوليتكم. ويتضح لي، أنكم قادرون على إعادة هذا الشاب إلى الطريق القويم. واذا ما قبض عليه مرة أخرى، وهو يقوم بنقل الحشيشة فسوف يحاكم محاكمة عرفية كانسان قد كرر الجريمة. هذا هو قرارنا، ولكم أن تتصرفوا حسبه.

انفرجت أسارير فيكتور نيكيفورو فيتش، ووقع على كفالة ابن أخته شاكراً المحقق، فقال جاسليبيكوف:

- أريد منكم يا فيكتور نيكيفورو فيتش، أن تساعدنا هناك في مكان عملكم. فحاولوا أن تطرحوا هذا الموضوع في الصحافة طرحا جدياً. أنت معلم وتعرف جيداً، أننا نحقق في الجرائم عندما تقع، أو خلال وقوعها. ولكن مَنْ؟! ، ومن أجل ماذا يرسل البعض هؤلاء الشباب الصغار إلى المناطق الخالية من السكان، إلى وسط العناصر المجرمة، التي ارتكبت

الجريمة أكثر من مرة، ونحن لا نعلم حقيقة الأمر، ونعاقب هؤلاء الشبيبة، ونحن مكرهون على معـاقبتهم. ومن المهم جداً، أنكم قدمتم إلى هنـا، ولبيتم الـدعـوة، وبهـذا قدمتم المسـاعـدة لي شخصيـاً، ولكن الكثير من الأقـارب ـ وهم كثـر ـ لا يحضرون إلى هنا، ولا يلبون دعواتنا. وهكذا يدخل بعض الشباب الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم الى المعسكـرات ذات الانظمـة القـاسيـة. ومـاذا يحصـل معهم هناك؟، وماذا يتعلمون؟ إنهم يخرجون من هناك أناساً يعابون على فعلتهم طوال الحياة، ولا يصلحون لأي عمل حكومي هام. وأنتم تعرفـون هذا جيـداً: السجن ليس سهلاً، وأقول لك يا فيكتور نيكيفوروفيتش أنني أعاني من هذا الموضوع، وإنني قلق للغاية. هل تصدقون أنه خلال الموسم الماضي، قد حاكمنا في محطتنا هذه أكثر من مئة شاب، هذا مع العلم أننا لم نتمكن من القاء القبض على الجميع، وهم قادمون من مختلف المناطق ـ من أرخانغيلسك وحتى كامشاتكا. يهجمون كما يهجم السمك على الطعم. وكم من الممكن اجراء محاكمات؟! وليس بالإمكان الحكم على الجميع. لقـد تكـونت عندهم صنعة كاملة. ومن بينهم يوجد مرافقون للقطارات ـ محليون وغـير محليـين ـ وهم الذين يقودونهم إلى أماكن نمو الحشيشة، ونحاكم هؤلاء أيضاً. وماذا يفعلون بالقطـارات؟ يوقفـونها في وسط الطريق، وخاصة القطارات الخاصة بنقل البضائع، ولا يجرؤ ون على إيقـاف قطـارات الـركـاب، إذ يخافـون من الإعتقـال فيهـا. وثمـة أناس يزودونهم بمُـركبـات خاصـة تشبـه المسـاحيق في حال رشها في الليل فوق العوارض، وعلى السكـك الحـديـديـة، ينعكس من خلال ضوء القطـار شيء وهمي، وكأن الطريق مشغول بقطـارات أخـرى. وكأن العـوارض تحترق، والسكـك تحترق، وفي هذه الحـالـة يضطـر الميكـانيكيـون الى إيقاف القطار ـ ففي السهول من الممكن أن يحدث أي شيء خطر، وهنا يهرع الطـاقم إلى الخـارج، فلا يجدوا أي شيء يحترق، ويتأكـدون أن كل شيء على ما يرام، ويستغـل مهـربـو الحشيشـة الفرصة فيصعدون إلى العربات وهم يحملون حقائبهم، وصـررهم هذا مع العلم أنـه يبلغ طول عربات القطارات الحالية أكثر من كيلومتر، فحاول أن تراقب كل هذه المسـافـة، وهكـذا يصعـد المهـربـون إلى القطـار حتى المحطـة، وهناك يشترون بطاقات. وكما تعلم أن عدد المسافرين كبير! فجرب أن تعرف الجميع. وفي الآونة الأخيرة، قد دربت الشرطة الكلاب الخاصة للكشف عن مهربي الحشيش. وهكذا تمكنت إحدى الكلاب هذه أن تلتقط إبن اختكم...

ولقـد عرف فيكتـور نيكيفورو فيتش الأشيـاء الكثـيرة في تلك الأمـاكن. وحـدثني بالتفصيـل عن هذه المسـائـل، زد على ذلـك، انني كنت جاهـزاً لمثـل هذا الحديث. ولقد

عذبتني الفكرة ـ أن أجد الطرق غير سالكه الى عقول أترابي ، ولقد أيقنت أن مهمتي تنحصر في البحث عن الخير . ربما كانت مهمتي أكبر من قدرتي ، ولكني كنت أرغب في تحقيق ذلك من كل قلبي ، وربما يعود الفضل في ذلك إلى تربيتي . فكتبت في بعض مقالاتي ، مستخدماً بعض التعميم ، عن أضرار الإدمان على تعاطي المخدرات والكحول بين الشباب مستشهداً بتجارب الغرب على ذلك . ولكن كل ذلك ، كان في واقع الأمر ، نقلا عن أناس آخرين ـ من أجل كتابة موضوع هام ، فمن الضروري جمع المعلومات الأولية ، حول بعض ظواهر تعاطي المخدرات ، والتي تجنبها الكتاب كما يتجنبون مرض الطاعون وبرزت بعض حوادث تعاطي المخدرات بين الأحداث ، وأدت هذه الحوادث إلى نتائج أليمة . ـ بدءاً من تحطيم المستقبل الذاتي ، وحتى عمليات القتل السادية ، ـ وهكذا ، فلمعرفة جوهر هذه القضايا من الداخل كان عليّ أن اجتهد في البحث . وهنا استمعت باصغاء إلى فيكتور نيكيغوروفيتش غوروديتسكي،الذي تعرف الى هذه الظاهرة عن كثب ، عن طريق ابن أخته ، وقرر أن يتقاسم معي أفكاره ويشاركني انزعاجه النفسي ، حتى يتمكن من عزل باشا عن أصدقائه القدامى ، الذين حدعوه بعملية جمع الحشيش . وعلى إثر ذلك انتقلت كل الأسرة ـ الأب والأم والأولاد من مدينتهم إلى مكان آخر ، رغم أن الشقة التي انتقلوا إليها كانت أصغر من تلك التي كانوا يعيشون فيها . حدثني فيكتور نيكيغوروفيتش عن كل هذا بالتفصيل ، بحسرة ومرارة .

وهذا ما دفعني إلى المباشرة في هذه العملية .

وصلت إلى موسكو ، وهناك كان عليّ أن أتجه من محطة قازان إلى سهل القنب ، ويعود الأمر في ذلك إلى أنه هنا في محطة قازان ، تكونت أول جماعة من «السعاة» الذين أتوا من مختلف مدن الشمال والبلطيق ، وأكثر النقاط حيوية كانت أرخانغيلسك وكلايبيدا ، وكان ذلك لأنه من الممكن أن تباع الحشيشة في تلك المناطق للبحارة ، الذين يبحرون من تلك الشواطىء مدداً طويلة ، ومن أجل إيجاد الأثر الأول لهؤلاء السعاة ، كان عليّ أن أجد في محطة قازان الحمال ، الذي يحمل على صدره رقم «٨٧» ويلقب بـ«أوتيوك» (المكواة ـ م) أو «أوتيا» وأنقل له التحية من قبل أحد أصدقائه السابقين ، الذي ذكره باشا . كان يملك أتيوك الكثير من المعارف في أمكنة قطع التذاكر ، إذ يؤمن البطاقات لقاء مكافأة قليلة ، ولكن لم أتمكن من معرفة المنظم الأول ، لأن هذه السلسلة كانت مترابطة بصورة سرية .

وهكذا ، قام أوتيا بتنظيم المغادرة لجماعة السعاة ، وكان عليه أن يحصل على بطاقات لكل الجماعة في رحلة واحدة ، وعلى قطار واحد ، ويُفضل أن يكونوا في مقطورات مختلفة .

تعرفت إلى بعض السعاة، وعلمت أن المبدأ الأساسي لكل المشاركين في جمع الحشيشة كان ينحصر في أنهم، في حال فشلهم لن يخونوا بعضهم البعض مطلقاً، ولهذا كان عليهم أن يقللوا من الحديث مع بعضهم أمام الناس.

هذه هي الساحة، المعروفة بساحة المحطات الثلاث، التي كنت أمر عبرها في كل مرة، أصل فيها إلى موسكو أو أغادرها. يالذاك الازدحام العجيب! خاصة في المترو وفي صالات المحطات، إذ يصعب المسير، دون أن تزج نفسك بين الناس، وكان يبدو كل انسان في هذا السيل العارم من البشر، كقطعة خشب يجرفها السيل إلى ساحة المحطات الثلاث، وعلى أي حال، كنت أحب السفر إلى موسكو، وأحببت أن أتجول في مركز المدينة، واتنعم بشوارعها وساحاتها الواسعة، وأسير طويلاً في الشوارع، وأدخل إلى مخازن الكتب المكتظة بالناس، وأن أقف أمام لوحات برامج السينما والمسارح، واذا سنحت الفرصة كنت أذهب إلى متحف تريتيكوف أو متحف بوشكين.

في هذه المرة. عندما خرجت إلى محطة ياروسلافسكي من القطار الكهربائي، وسرت مع جمهور الناس الغفير نحو محطة قازان، خطرت على بالي فكرة، كم هو شيء جيد، أن يعيش الانسان كما عشت سابقاً دون أي قيود في الزمان والمكان، ودون أي مشاغل، أتجول في شوارع موسكو. أما الآن فالوقت هام جداً إذ عليَّ أن أجد في خضم هذا البحر من البشر ذلك الانسان الحمال الذي يعتبر حلقة الوصل، والذي يلقب بـ«أوتيوك» وعلى صدره إشارة «٨٧». آوه يا إلهي! كم هم كثر هؤلاء الحمالون، أو بالأحرى أولئك الذين يجرون العربات الخاصة بالحقائب، حقاً إنهم كثر هنا في محطة قازان. واذا كان رقم ذلك الشخص «٨٧» ـ فبالطبع سيكون عددهم ليس أقل من المئة. وكان من الصعب جداً أن يجده الانسان ضمن هذا الإزدحام الكبير. أضعت نصف ساعة، على أقل تقدير، وأنا أنتقل من موقف الى آخر متفحصاً صدور الحمالين، وأخيراً وجدته على رصيف موقف القطار المسافر الى طشقند. كان يودع انساناً ما، وينزل الحقائب والكرتونات عن العربة، ويضعها في القاطرة، ويتحدث بسرعة مع الآخرين، ويمازح مرافقي القطارات، ويكرر عبارات يستخدمها عمال المحطات عادة: «إذا كان هناك دراهم ـ سأسافر الى قازان، وإلا ـ سأسافر إلى «تشيشما»». انتظرت قليلاً، حتى أنهى عمله، ودخل المسافرون الى المقطورات، بينما إصطف المودعون يحدقون في نوافذ المقطورات الزجاجية، ليلوحوا بأيديهم لأصدقائهم وذويهم. وهنا خرج أوتيوك من باب المقطورة، وهو يدس النقود في جيبه. كان شاباً أشقر، طويل القامة، إنه قط محتال، ذو عينين متراقصتين، وكدت أن أرتكب خطأ ـ واخاطبه

بصيغة «الجماعة»، وأعتذر أمامه عن الإزعاج. إلا إنني أحجمت عن ذلك وقلت مجاملة، وبعيداً عن الرسمية:

ـ مرحباً يا أوتيوك، كيف الأحوال؟

ـ الأحوال كما في بولونيا: من يملك عربة، فهو سيد السادة ـ أجاب أوتيوك بـ وكأنهما يعرفان بعضهما من مئة عام.

ـ هذا يعني أنك سيد، ـ قال له، مشيراً الى العربة.

ـ وهل فكرت غير ذلك؟! نحن، أيها الأخ، نعرف أيضاً، الشخص الذي دراهم كثيرة. وأنت ماذا تريد؟ هل تريد أن تنقل شيئاً؟ قل إذا أردت شيئاً، ولا تـ

ـ لست بحاجة إلى مساعدتك، فأنا قادر على نقل حوائجي، ـ قلت له مـ يوجد عندي كلام أقوله لك.

ـ قل، ماذا تريد، وأي مسألة عندك؟

ـ تعال، نبتعد، كما تريد.

سرنا سوية عبر الرصيف الطويل إلى بناء المحطة. تحرك قطار طشقند، ومر امتد خط نوافذ المقطورات، وتعاقبت الوجوه خلف الزجاج، وعلى الطريق المجاو قطار آخر، وصل لتوه من مكان آخر، توقفت القطارات في عدة خطوط، والناس يتـ كالنمل، كلٌ مسرع إلى جهة، ومن خلال مكبر الصوت كان المذيع يعلن عن القطارات المسافرة والقادمة.

عندما وصلنا الى صالة المحطة، وضع أوتيوك العربة في الزاوية، في مكان تـ الناس، وهناك، نظرت من حولي، وأوصلت له التحية من صديق باشا، الذي إيغور، ولكن السعاة كانوا يسمونه الفيل البحري. لماذا فيل بحري، لا أحد يعلم

ـ وأين الفيل البحري الآن؟ ـ سأل أوتيوك.

ـ انه مريض، ـ أجبت بهدوء، ـ يتعذب من قرحة في معدته.

ـ لقد حزرت هذا، ـ قالها أوتيوك مع بعض الأسف، وبنبرة الواثق، وهو على جبهته، ـ لقد قلت له، أيها الصديق، قلت له في المرة الماضية، أترك الجنون يـ ولا تزج نفسك بلا معنى. إنه كان يشرب «الإكسترا» يبدو أنه قد أفرط. وهكذا بالقرحة.

تصنعت منظر الحزن، رغم أنني، بصراحة، لم أفهم ماذا يعني بكلمة اكستر كان يقصد «الفودكا» أم شيئاً آخر، والحمدلله، لم أسأله عما يقصد. وكما علمت فيـ

أنه كان يقصد بكلمة «اكسترا» معجوناً من غبار زهر الحشيشة مصنوعاً على شكل معاجين الأطفال، وتعتبر هذه المادة أغلى مادة خام من الحشيشة (وبخصوص هذه المعجونة، عرفت هذه المعلومــات من فيكتـور نيكيفورو فيتش). وتشبـه هذه المعجـونـة، من حيث أهميتهـا مخدرات الأفيـون. هذه كانت الـ«اكسـترا». وفي المخـابر الكيميائية كان من الممكن تحويل الإكسـترا إلى مسحـوق، ويعطى كحقن مثـل الغـيراين. ولكن هذه المسـاحيق لم تكن في متنـاول «الفيـل» وغـيره من «السعـاة»، ولكن، كان بإمكـانهم لورغبـوا في هذا أن يتنـاولوا اكسـترا ـ إذ يضعـونهـا تحت ألسنتهم، يعلكـونها، ويشربون بعدها الفودكا، ويبتلعونها مع الخبـز. وتعـاطي الإكسـترا، كان يسمى في مجتمعهم، بـ«الضـرب على الـدمـاغ»، ولكن أبسط، وأسهل الطرق لتعاطي المخدرات، هو تدخين الحشيشة ـ وكل كما يستطيع ـ إما في شكلها الطبيعي، وإما مخلوطة مع التبغ، ومن المحتمل أن هذا، ليس أسوأ، من «الضرب على الدماغ» مع العلم ان تأثير الدخان، أسرع من الطرق الأخرى.

علمت كل هذا، وأشيـاء أخـرى من حيـاة السعـاة تدريجياً، وخاصة عندما كنت في «خالخين ـ غول». وتعبير «خالخين ـ غول» يدل حسب أحاديث السعاة الى المكان، الذي تنمو فيه الحشيشة. وهنا كدت أرتكب خطيئة.

ـ وأنت، أيها الصديق، أيضاً، تريد إلى «خالخين ـ غول»؟ ـ سأل مستفسراً، أما أنا ففي البداية، لم أفهم ماذا يريد من تعبير «خالخين ـ غول».

ثم استدركت، وقلت له:

ـ طبعاً. إنني أرغب في ذلك، والا لماذا قدمت. . .

ـ عنـد ذلـك، إسمعني جيـداً! بالنسبـة للبطـاقات لا تقلق أيها الصديق، كل شيء سيكـون على ما يرام، أمـا البـاقي ـ فسيكـون عنـدما ترجعون مع العشب، فان «الدوغ» سوف ينظر بالموضوع. وهذا ليس من شأني.

من هذا «الدوغ»، الذي كان يؤمن لنا البطاقات؟ وفي أي شيء كان عليه أن ينظر فيها بعد؟ لم أعلم، ولم أفهم ذلك حتى النهاية.

ومن خلال الحديث مع أوتيوك، تبين أن موعد سفرنا إلى «خالخين ـ غول» لن يكون قبـل اليـوم التـالي. والسبب الـرئيسي، أنـه لم يتم حضور جميع السعاة. وكان من المقرر أن يصـل إثنـان من الجـماعـة من مورمانسك في قطار الليل. وواحد لم أعلم من أين سيصل في صبـاح اليـوم القـادم. إن هذا التأخير لم يقلقني، فسوف أبقى يوماً اضافياً في موسكو، وهذا شيء هام بالنسبة لي.

ودعني أوتيوك على أن نلتقي نهار الغد، وأكد عليَّ أن أحضر في الساعة المحددة إلى محطة قازان. (ومـاذا كان يكلفني أن أذهب إلى المحطـة، عنـدما كان عليَّ أن أنام هناك)، وسالني أوتيوك، هل يوجد لديّ قِمْطر مسافر، وأكياس نايلون، من أجل جمع العشبة (أي الحشيشة). فأجبته أن القمطر وأكياس النايلون موجودة في حقيبتي. واقترح عليَّ أن أبحث في المخـازن عن زجـاجة أو علبة بلاستيكية، محكمة الإغلاق، كي أجمع فيها كمية غبار الطلع من زهر الحشيشة، الذي يصنع منه المعجون.

ـ اذا كنت ذكياً ونشطاً، فسوف تجمع قطعة معجون، رغم أن هذه المهمة غير سهلة وتـابـع شرحـه لي، ـ وأنـا لم أسـافر، ولا مرة واحدة، ولكني سمعت كثيرا عن ذلك. أعرف شخصـاً إسمـه ليخـا «قـد جمع خلال موسمـين ثمن سيـارة «فيـات» ويتنـزه في موسكـو كما يرغب... والعمل هناك لا يزيد عن عشرة أيام...

بعد هذا افترقنا. وضعت حقيبتي في مستودع الأمانات وخرجت أتنزه في موسكو.

كانت الأيام الأخيرة من شهر أيار. وأتصور، أنه ليس هناك أي وقت أفضل من هذه الأيام بالنسبة لموسكو في بداية الصيف، هذا على الرغم من أن أيام فصل الخريف الاولى تمتـاز بنقـاوة الهـواء، وتلون الأوراق بلون الـذهب، ويصبح كل شيء رائع الجمال، ولكنني أحبذ أيام ما قبل الصيف في موسكو ـ إذ يكون الجو في ساعات ما قبل الظهيرة في الشوارع رائعاً، وفي الليل تكون السماء صافية، ويعم نور الفجر الهادىء المدينة حتى الصباح.

أسـرعت للخـروج من المحطـة إلى الهـواء الطلق، ولكن ما أن تذكرت أن التنقل في مركـز المـدينـة أسهـل وأسـرع بواسطة قطارات المتر و، حتى عدت أدراجي، وانخرطت في صفـوف البشـر المتجهـة إلى محطـة المـتر و. كان الـوقت ما زال مبكراً، ولم تحن ساعة انتهاء العمل في الدوائر والمصانع. وهكذا وصلت إلى مركز المدينة بعد أن تناوب النور والظلام في نفق المـتر و العميق. نظـرت بامعان إلى الحديقة الجميلة في ساحة سفيردلوف، واستمتعت برؤ يتهـا، حيث بدت كالجـزيـرة الخضـراء وسـط محيـط من الحـركة الدائمة، وأمواج البشر العابرة. اتجهت إلى الساحة، دون إبطاء ـ معتقداً، أنه يوجد معرض ما في صالة المعارض، ولكن القاعة كانت مقفلة، عند ذلك مررت من جانب بناء جامعة موسكو القديم، ثم بيت باشكوف متجهاً نحو فولخانكا، ومن هناك إلى متحف بوشكين، ولا أعلم السر الذي يكمن في داخـلي ويبعث المسرة في نفسي ـ ربـما كان ذلـك بفضـل جو شوارع موسكـو الهادىء نسبياً، قبل حلول ساعة الازدحام، ومن خلال النظر إلى جدران الكرملن القرميدية، وإلى الأبنية داخله، والتي تشبـه سلسلة جبـال، يصعب إجتيـازهـا في هذا المكـان من المـدينة. أخذت

أفكر: «كم شاهدت جدران الكرملن من أحداث، وكم سترى؟ «واستغرقت في التفكير، وأنا أجتاز الشارع تلو الآخر، ونسيت أنني قبل فترة قد حلقت لحيتي، فأخذت أتلمس ذقني الملساء بين لحظة وأخرى، ونسيت لبرهة من الزمن، ما حاولت أن أعرفه عن ذلك العش الشرير الذي نسجه المهربون في محطة قازان.

إنني من أنصار المصير، الذي يحدد العلاقات الطيبة، والشريرة، وكان لذلك الحدث أن يحصل، دون أن أفكر به وأنا اتجه إلى متحف بوشكين، فكنت أسير وأفكر عسى أن يكون هناك معرض للوحات جديدة، وحتى لو لم تعرض أشياء جديدة، لكنت قد تجولت في الصالات وأحييت انطباعاتي القديمة. وهناك، أمام المتحف وإلى جانب الحديقة، استوقفني رجل ترافقه إمرأة، وسألني:

ـ اسمع، أيها الشاب! ألا تلزمك بطاقة دخول؟ ـ اقترح الرجل الذي يضع ربطة عنق خضراء، وينتعل حذاء بنياً فاتحاً، يبدو أنه جديد، ويضايق قدميه. وبدت على وجهه، وعلى وجه مرافقته علائم الملل والضجر.

ـ ألا توجد بطاقات في الكشك؟ ـ سألت مستفسراً، اذ لم يكن أي إزدحام أمام كوة قطع التذاكر.

كلا، وهاتان البطاقتان لحفلة «الكونسرت» اليوم، فخذها.

ـ أي «كونسرت»؟ ـ سألت بهدوء.

ـ لا أحد يعرف، ما وراء هذا «الكونسرت»، يقولون، «أوركستر» كنائسي.

ـ في المتحف؟! ـ سألت باستغراب.

ـ ستأخذهما أم لا؟ أبيعك البطاقتين مقابل ثلاث روبلات فقط، فخذهما.

أخذت البطاقتين، وأسرعت الدخول إلى المتحف. فلم أسمع من قبل، أن حفلات الكونسرت كانت تقام في متحف بوشكين. وتبين، كما شرحت لي المديرة، أنه ومنذ فترة أصبحت تقام في المتحف بعض الحفلات الموسيقية الكلاسيكية، ومختارات من الموسيقى العالمية، وبمشاركة الموسيقيين المشهورين. وفي هذه المرة حصل شيء غير متوقع ـ ففي الصالة، التي تسمى بالقاعة الإيطالية، كان من المقرر أن ينظم كونسرت غنائي قديم يعكس الطقوس الدينية البلغارية. وهذا ما كنت أعجز عن الحلم به! فهل سيتاح لي أن أستمع اليوم إلى غناء أب الغناء البلغاري والسلافي يوحنا كوكوزيل؟ وللأسف لم تحدثني المديرة عن التفاصيل لأنها لا تعرف شيئاً بعد. ولكنها قالت، إن ادارة المتحف تنتظر ضيوفاً رسميين، ولربما سفير بلغاريا. وعلى الرغم من أن هذا لا يخصني، فقد قلقت وفرحت بأن

واحد، لانني كنت قد سمعت من أبي عن أغاني الطقوس الدينية البلغارية. وها هو يحالفني الحظ - هدية رائعة أمام الرحلة الخطرة بالنسبة لي. بقي لبداية الحفلة الموسيقية نصف ساعة، فقررت أن لا أتجول في صالات المتحف، بل أن أخرج إلى الشارع، وأتنفس الهواء الطلق، وأهدأ قليلاً.

آه يا موسكو، يا موسكو، ها أنا أقف فوق إحدى المرتفعات السبع، بالقرب من نهر موسكو، في نهاية يوم رائع من شهر أيار! كل شيء جميل وله معنى رائع، عندما تنعم الروح، دون أي هموم، وتسود ميلوديا الحياة القصيرة. كنت أتنفس بحرية، وعمق. السماء صافية من فوقي. والدفء يعم الأرض، أخذت أسير ذهاباً وإياباً إلى جانب السور،الذي يحيط بالحديقة، أمام المتحف.

أسفت جداً، لأنني لا أنتظر أحداً، - ربما لأنه توجد لدي بطاقتان. ولكان الأمر مفهوماً وطبيعياً لو كان عليها أن تظهر من دقيقة لأخرى، مسرعة حتى لا تتأخر، ولو شاهدتها على الطرف الثاني للشارع، وهي تحاول أن تقطع الشارع. خائفة من أن تتأخر عن الموعد، وأنا إذ أضطرب قلقاً على تلك الإنسانة الرائعة غير الحذرة والغبية، أشير لها، بحركات يائسة حتى لا تقطع الشارع نهائياً - فالشارع مليء بالسيارات، والناس في كل مكان، وهي وحدها، بين كل الناس حملت السعادة التي فقدتها، ولابتسمت لي، إذ كانت ستقرأ أفكاري، من خلال تعابير وجهي. عندها، كان بإمكاني أن أركض نحوها إلى الجهة الثانية من الشارع، أنا لا أخاف على نفسي فأنا حاذق، وسأقطع الشارع محذراً إياها،ناظراً إلى عينيها، وأمسكها من يدها. تصورت هذا المشهد حالماً دون مقدمات، وشعرت في حقيقة الأمر بالشوق إلى الحب، وفي كل مرة كنت أفكر: إنني وحتى الوقت الحاضر، لم ألتق الانسانة، التي خصني بها القدر، والتي ستكون حبيبتي. وهل هي موجودة حقاً كما كونتها في خيالي. تُرى هل أخذت أعقد الأمور السهلة؟ كنت أفكر كثيراً بهذا، وفي كل مرة كنت أخلص إلى نتيجة أليمة، مفادها، أنني قد أخطأت في كل شيء، - وكأنني أطلب الأشياء الكثيرة، أو انني إنسان غير مقبول بالنسبة للفتيات. وعلى كل حال، أن أبناء جيلي، كانوا في هذا المجال أكثر حظاً وتدبيراً الشيء الوحيد، الذي كان يمكنني من إقناع نفسي، أن المعهد الديني كان يحول دون أن أعيش حياة الشباب. وحتى بعد خروجي من هذا المعهد، فإنني لم أعوض ما فقدته في هذا المجال. لماذا؟ ولو ظهرت الآن، تلك، التي بإمكاني أن أحبها، سأقترح عليها فوراً: تعالي نسمع أغاني الطقوس الدينية، ونمتع أنفسنا في ذلك. ولكن، وبعد لحظات دخل الشك في نفسي. فكيف سيكون الأمر لو كان هذا مملاً وغير ممتع

بالنسبة لها، بل غير مفهوم، فالترتيل الديني في المعبد، هو شيء، وفي متحف راقٍ يحتوي على جمهور متنوع ـ هو شيء آخر. ألن تكون النتيجة، كما لو غنى كورس باخ الموسيقي في صالة الألعاب الرياضية، أو كما في ثكنة المجندين المظليين، الذين اعتادوا على ايقاع المسير العسكري؟ وصلت إلى متحف بوشكين الكثير من السيارات الرسمية، وباص خاص بالسواح. هذا يعني، أنه حان الوقت. وعند مدخل الصالة الإيطالية ازدحم عدد كبير من الناس ـ كانوا يشبهون بعضهم، ويوجد شيء مشترك بين الرجال، وأشياء مشتركة بين النساء ـ هذا ما يحصل عادة، عندما ينتظر بعض الناس مجتمعين حدثاً ما. وبالقرب مني، كان ثمة انسان يسأل عن بطاقة زائدة، فقدمت لهذا الشاب القريب مني بطاقة، فبدا وكأنه بخيل، وتغيرت ملامحه: أخذ يبحث عن نقوده بين هذا الجمهور المزدحم، فسقطت قطعة نقود منه فأخذ يبحث عنها. انزعجت من هذا الموقف، وطلبت منه عدم دفع ثمن البطاقة، وقلت له أن البطاقتين قد قدمتا لي كهدية، وأنا أهديك إحداهما، ولكنه لم يقتنع، وعندما دخلنا الى الصالة، دس في جيبي تلك النقود المعدنية. بالطبع لم تكن تلك النقود زائدة عن حاجتي، إذ كنت أعيش، ـ كما يقال ـ على الكفاف فقط، ورغم كل ذلك. . . لقد خجلت جداً، فالناس في العاصمة كانوا يرتدون الألبسة الأنيقة، وأنا كنت في بنطال جنز عتيق، وسترة مسافر، وحذاء ثقيل، ولحية حليقة لتوها، وهذا كله جعلني في وضع حرج، وكأن شيئاً ما ينقصني، ـ فأنا قد جهزت نفسي لطريق بعيد، إلى السهول البعيدة، الخالية من السكان، مع جماعة من الباحثين عن الحشيشة ولكن كل هذا لم يكن بذي أهمية. . .

في الصالة الإيطالية العالية، المكونة من طابقين، كل شيء بقي في وضعه، حتى اللوحات الفنية، وفي وسط القاعة وضعوا صفوفاً مكتظة من الكراسي، حيث شغلها الناس، دون خشبة مسرح، وبلا مكبرات صوت، وبلا ستار. وهناك، في المكان الذي كان مخصصاً للقادة، توجد طاولة غير كبيرة. وخلال دقيقتين شُغلت كل الأماكن، وثمة أناس كانوا يقفون عند المدخل. ويبدو، أنه، وبين الحاضرين، كان عدد غير قليل من الناس الذين يعرفون بعضهم، اذ كانوا يتبادلون الحديث فيما بينهم بحيوية، أما أنا فجلست وحيداً، صامتاً.

بعد لحظات خرجت من جانب القاعة إمرأتان، احداهما كانت موظفة في متحف بوشكين، تقدمت خطوة، وعرَّفت بالأخرى قائلة: أن ضيفتنا البلغارية هي زميلة من متحف صوفيا، وتعمل في معبد الكسندر نيفسكي. خيم السكون على القاعة. أما البلغارية، فكانت إمرأة شابة، صففت شعرها بإتقان، لها ساقان متناسقان رشيقان،

وتنتعــل حذاء أنيقــاً. لم أدر كيف لاحظت هذا على عجـل. نظـرت البلغـاريـة بعينين سوداوين كبـيرتـين إلى الجمهور، وحيتنا بلطف، وتكلمت بلغة روسية ذات لكنة بسيطة، وتحدثت، أنه، وبالاضافة إلى عرض التحف الثمينة من ممتلكات الكنيسة، والمخطوطات النفيسـة، ونـماذج الايقـونـات الشهـيرة وبعض نماذج الفنـون المعـمارية، فهم يعرضون في متحفهم في «كـريبت» في القـاعـات السفلى للمعبـد في الكـونسـرتـات المسائية - كما قالت مبتسمة - بعض التحف الحسية، أي التراتيل الكنائسية في القرون الوسطى. ومن أجل هذا، قدمنا إلى هنا بدعوة من متحف بوشكين مع كورس «كريبت».

فليتفضلوا - قالت مرحبة، وهي تدعو الفنانين.

خرج المغنـون وأخـذوا أمكنتهم فوراً، إذ كانوا يقفون بالقرب منا، إلى جانب الباب الذي دخلنا منه، كان عددهم عشرة أشخاص، وجميعهم من الشباب، من أترابي تقريباً. يرتـدون ثيـاب موحـدة ذات لون أسـود، خاصـة بالحفلات الفنية، مع ربطات عنق، فوق قمصان بيضاء ناصعة، والجميع كانوا ينتعلون الأحذية السوداء اللامعة. لم يكن في أيديهم أدوات موسيقيـة، ولا مكـبرات صوت، ولا أي شيء مما يثـير الصخب في حفلات الغناء، حتى لم تكن هنـاك أي خشبـة مسـرح، ولا أضـواء ملونـة. كان كل ما فعلوه - أنهم خففـوا الضوء قليلاً في الصالة.

وعلى الرغم من أنني كنت على ثقة من أنه قد اجتمع هنا مستمعون مطلعون على طبيعـة الغنـاء الكنـائسي، فقـد كنت قلقاً للغاية على وضع المغنين، فلقد إجتمع هنا عدد غفير من الناس، ومن الشباب الذين اعتـ[illegible]ـر على سماع مكبرات الصوت الإلكترونية، أما هنا فقد بدا هؤلاء المغنون كالجنود في ساحة الحرب بلا سلاح.

وقف المغنـون إلى جانب بعضهم، كتفاً إلى كتف، مشكلين نصف دائرة صغيرة. كانت وجوههم هادئة، يركزون على اللحن، دون أن يخافوا أويضطربوا. كما لاحظت شيئاً غريباً آخـر - فقد كانوا يشبهون بعضهم البعض. ربما، لأنهم كانوا في تلك الساعة يهتمون بقضيـة مشـتركـة، ولـديهم استعداد واحد، واندفاع روحي واحد. وهم في هذه اللحظات الهامة مصممون كما يصمم كل واحد في حياته العادية على تحقيق النصر - وكأنهم جميعاً أمام معركة وجميعهم يفكرون، كيف من الممكن أن ينتزعوا النصر.

وبنفس الوقت، كانت تلك الشابة، التي قدمت المغنين تحتفظ بوقارها وهي تنظر من خلال نظـارتيهـا القاتمتين قليلاً. وقدمت قبل أن يبدأ الكونسرت لمحة موجزة عن خصائص الكنيسة البلغارية، التي تملك جذوراً مشتركة مع البيزنطية، من حيث خصائصها وميزاتها.

توقفت المُعرفة عند بعض المسائل الخاصة بطبيعة الغناء الوطني البلغاري، ثم أعلنت عن بدء الأمسية.

كان المغنون جاهزين. صمتوا قليلاً، وهم يعدون أنفاسهم، ورصوا أكتافهم بقوة أكثر، وهنا هدأ الجو، وعم الصمت، وكأن القاعة قد فرغت كلياً: وبرز فضول لدى الجميع ماذا بمقدور هؤلاء العشرة أن يفعلوا، مهما اجتهدوا وحاولوا، وبماذا يأملون ومع بدء إنطلاق صوت الإنسان الثالث، الواقف من الجهة اليمنى - يبدو أنه قائد هذه الفرقة - انطلق الكورس بالغناء. وصدحت الأصوات. . .

بدا من خلال ذلك الصمت، وكأن العربة الإلهية الطائرة، قد تحركت من مكانها، والشرر يتطاير من عجلاتها، وغرقت في أمواج غير مرئية، خارج حدود الصالة، وأبقت الأصوات البهيجة خلفها أثراً رائعاً سيدوم طويلاً، فهوينبعث كل مرة من الاحتياط الروحي الذي لا ينضب.

ولقد اتضح منذ بداية الغناء، أن هذه الفرقة قد حققت نجاحاً كبيراً، وانسجاماً رائعاً في الإيقاع والأصوات، كان من الصعب ان يحققه عشرة أشخاص مختلفين، بغض النظر عن القدرات والمواهب التي يتمتعون بها، وحتى لوأن هذا الغناء كان يتم بمرافقة ايقاع مختلف الأدوات الموسيقية العصرية، فان مثل هذا البناء الرائع، الذي يقوم على عشرة أعمدة كان سيتصدع .. ومن النادر جداً أن يكوِّن المصير مثل هذه الأعجوبة - أن هؤلاء العشرة الذين نتكلم عنهم، قد وُلدوا في وقت واحد تقريباً، ووجدوا بعضهم البعض، وشعروا بشعور واجب الأبناء أمام قضية أجدادَهم، الذين لم يعانوا منها سابقاً، - فمن هذا وحده كان بالإمكان أن يظهر مثل هذا الغناء الغيور الذي لا يتكرر، وفي هذا بالذات تنحصر قوة فنهم، وحرارته، والحبور، وقوة الأصوات المجلجلة، والمشاعر المكنونة، عندما يكون حفظ النصوص الدينية الإلهية بمثابة الحجة فقط، والتوجه الشكلي نحوه وفي جوهر الأمر، نجد هنا الطبيعة الإنسانية الطموحة إلى أعالي قمم العظمة الذاتية.

لقد أعجب الحضور إعجاباً كبيراً، وانغمسوا في التفكير، أن كلاً منهم سنحت له الظروف أن يتعرف إلى تلك النواحي التي تكونت عبر القرون في ضياع تراجيدي، وفي تنوير العقل، الذي يبحث دائماً عن نفسه في العالم المحيط، وبنفس الوقت كانت تصل كل كلمة مضاعفة عشرة مرات، بقدر عدد الأرواح المشتركة في لفظها، وبنفس الوقت فإن التصور قد استقطب الحاضرين إلى عالم المجهول، الذي يتوق اليه الإنسان حتى الألم، والذي يتكون من الذكريات الخاصة، الحزن، الخوف، تأنيب الضمير، الأفراح،

والأتراح، وكل ما يصادفه الانسان في طريق حياته الطويل.

لم أفهم، وفي حقيقة الأمر، لم أكن أرغب بمعرفة كل شيء، يجري في تلك الساعة، وكأن شيئاً ما قد ثبت أفكاري ومشاعري بقوة خارقة تحت تأثير هؤلاء المغنين العشرة، فمن حيث المنظر، هم أناس مثلي ولكن الأغاني والأناشيد التي غنوها، كانت تنطلق من كياني، من قناعتي الخاصة، من الآلام المتجمعة، ومن الإضطراب والإعجاب، التي لم تجد في عالمي مخرجاً، ولقد توصلت إلى التحرر من هذه الأفكار، والتنور بالأفكار الجديدة والناضجة من خلال الفن، الذي قدمه هؤلاء الفنانون عن الجوهر الحقيقي للتراتيل الكنائسية - هذا هو صراع الحياة، صوت الإنسان الذي يرتفع عالياً، ويتكلم عن الظمأ الأبدي، ويؤكد نفسه على أرض الواقع، ويسهل مهمته، حتى يجد نقطة إرتكاز في المجالات الفسيحة للكون، ويردد دائماً بصورة تراجيدية، أنه يوجد بالإضافة إلى ذاته، قوى سماوية تساعده دائماً في هذا. إنه ضياع لا حدود له! آه، كم هي عظيمة طموحات الإنسان حتى تُسمع كل نداءاته في الأعلى! وكم كان عليه أن يصرف من الطاقة من أجل ذلك! وكم وضع من أفكار في مسألة الاقتناع. والاعتراف، والحمد مجبراً نفسه من أجل هذا كله على التوبة، والخضوع وعدم الاعتراض، رغماً عن حرارة الرفض في دمه، ورغماً عن عفويته التي تحلم دائماً بالرفض والتمرد، والتوق إلى التجديد، ونبذ القديم. آه، كم كان ذلك صعباً ومعذباً له. المناجاة، والبسملة، الدعوات والتراتيل، وتضرعات التوبة! وكم رُددت عبر القرون الصلوات والتعاويذ، دون نهاية، ولو كانت هناك نتائج ملموسة لكل هذا، لأغرقت معها الأرض، كما فعلت المحيطات ذات المياه المالحة - المرة عندما خرجت بعيداً عن شواطئها. وكم كان الأمر صعباً، أن يولد في الإنسان أشياء انسانية . . .

واستمر هؤلاء العشرة بالغناء، ملتصقين ببعضهم بقدرة الإله، من أجل أن نغرس في أنفسنا، وفي خلفية وعينا بعض الشكوك وأن نبعث في أنفسنا الماضي، والروح والحزن والتعاطف مع الأجيال الغابرة، وحتى يصعد هؤلاء فوق أنفسهم، وفوق العالم، وأن يجدوا الجمال والمعنى الحقيقي لوجودهم الإنساني، - كل ما يظهر يومياً في الحياة، حتى يحب تكوينها العجيب. غنى هؤلاء العشرة على خير وجه، وكما يليق بالإله - ربما أنهم لم يروا ذلك التأثير الذي يخلقونه، - مما يثير في الأرواح نزعات إنسانية عالية، نادراً ما تعم الناس في حياتهم العادية، بين المعاناة اليومية والانشغال الدائم، ونتيجة ذلك تمتع الموجودون في هذه القاعة بالغنى الروحي، وقلقت وجوههم، ولمعت في عيون بعضهم قطرات الدموع.

كم كنت سعيداً، وكم شكرت الحظ الذي قادني إلى هنا، لأتنعم بهذا العيد الرائع،

عندما شعرت وكأن وجودي قد خرج عن طور الواقع، وأصبحت بعيداً عن الزمان والمكان، عندما اختلطت، وبشكل عجيب كل مشاعري وأحلامي، - في الذكريات عن الماضي، في إدراك الحاضر، وفي آفاق المستقبل. وفي هذه الأفكار، خلصت إلى نتيجة : إنني لم أحب بعد، وإن الشوق إلى الحب، الذي كان يعيش دائماً في دمي، منتظراً الساعة المناسبة كان دائماً يعصف في صدري ألماً صارخاً: من ستكون، وأين هي، ومتى وكيف ستكون؟ كنت ألتفت بين الحين والآخر، دون إرادة، الى الباب - ربما ستدخل الآن، وربما أنها دخلت، وتقف هناك، تستمع وتنتظر، متى سأراها؟ كم يؤسفني، أنها لم تأتِ في تلك الساعة، وكم يؤسفني، أنني لم أستطع تقاسم مشاعري وأفكاري معها الآن. وفكرت أيضاً - ربما يحالفني الحظ، ولا يختار لي المصير شيئاً مضحكاً، حتى يصبح من العيب أن أتذكره شخصياً. . .

لم أدر، لماذا تذكرت والدتي في سنوات طفولتي. . . أذكر جيداً ذلك الصباح في يوم من أيام الشتاء، عندما كان يتساقط الثلج فوق الشارع، تنظر إلى وجهي بعينين راضيتين، وتزرر أزرار معطفي، وهي تقول شيئاً ما، وأنا أركض بعيداً عنها، وهي تركض سعيدة خلفي، ويجلجل فوق مدينتنا صوت أجراس الكنيسة، فوق تلك الهضبة، حيث يقوم أبي بطقوس العبادة هناك، كشماس ريفي. وهو إنسان يؤمن بالمسيح. وكما أدركت الآن، فهو يفهم بكل موضوعية ماكونه الانسان بإسم الإله، ومن أجل الإله. . . وأنا مع كل الإحترام لمشاعره، قد إخترت طريقاً آخر، ليس كما يرغب، وشعرت بالضيق من إدراك مسألة، أن والدي قد سار في طريق آخر، حسب قناعته، وأنا أتأرجح، أرفض الماضي، على الرغم من أنني أحترم العظمة الخالدة في الماضي، والقوة الخارقة لتعاليم هذه الأفكار، التي انتشرت وانتقلت من قرن إلى قرن، واستقطبت أرواح غير المؤمنين في القارات والجزر، من أجل أن تسود وإلى الأبد في العالم، في وعي الأجيال المتعاقبة، وتستقطب وتستوعب - كما يمتص موصل الصواعق البرق، ويحولها إلى الأرض - ذلك النداء الأبدي، والشكوك الإنسانية القلقة أبداً في أعماق الخشوع. فالشكر لهم - للمعتقد والشك، وللقوى الحياتية التي تحرك الحياة بصورة مشتركة.

ولدت، عندما كانت قوى الشك قد إستلمت زمام الأمور، وخلقت بدورها شكوكاً جديدة، وأنا لستُ، إلا ثمرة هذه العملية، فأخلصت لمفاهيم إحدى الجهتين، وأصبحت مرفوضاً بكل تعقيداتي من قبل جهة أخرى. فلا ضير في الأمر، فالتاريخ يسترد خسارته على أيدي أمثالي، ويريح نفسه. . . هكذا فكرت، وأنا استمع إلى الأغاني والتراتيل البلغارية القديمة.

غنت الجوقة الأغنيات، الواحدة تلو الأخرى، وتردد دوي هذا الغناء في القاعة كصدى الأيام الغابرة، والأشياء القاسية في الإنجيل مثل: «ضحية المساء»، «ضرب الأطفال»، «الملاك الصارخ» تبدلت بأغاني أخرى حارة للذين تعذبوا من أجل نشر الديانة، وعلى الرغم من أن كل هذا كان معروفاً بالنسبة لي، فلم تكن طريقة العرض مفهومة ـ وبأي سحر تصرف هؤلاء العشرة، إذ حولوا الأشياء المعروفة إلى فن عظيم، يرتبط بالمحتوى التاريخي للروح الشعبية ـ فمن تعذب كثيراً، قد عرف الكثير. . . .

أرهفت الإصغاء إلى أصوات المغنين من صوفيا، المنسجمين مع غنائهم، وقد غمرتهم النشوة، كما أمعنت النظر إلى حركاتهم، وفجأة وجدت، أن أحد هؤلاء ـ وهو الثاني من الشمال، كان الوحيد الأشقر بين رفاقه من ذوي البشرة السمراء، والشعر الأسود، كان يشبهني، إلى حد بعيد. ومن المحبب إلى نفسي، أن أرى إنساناً، يشبهني جداً. رمادي العينين، ضيق المنكبين ـ ربما كانوا يطلقون عليه في الصغر لقب «السقيم» أيضاً، ـ وعلى رأسهِ شعرٌ أشقر طويل، ويداه تتدليان طويلتين الى جانبيه، وعليهما برزت العروق النافرة، وربما قضى على عقدة الخجل في عالمه من خلال الغناء، كما أفعل أحياناً، عندما أشعر بالحرج، وأغير الحديث للكلام في موضوع علم اللاهوت. يمكن التصور، كم يكون من الغباء، أن أشرع بالكلام حول مثل هذا الموضوع في لقاء التعارف الأول مع فتاة، وكان وجه المغني، رمادي العينين، مثلي أيضاً، ذو وجنتين غارقتين، والأنف محدب قليلاً، والجبهة مقسومة بتجعيدين قائمين ـ ومن الغريب، أن لحيته كأنها لحيتي، شعرة فشعرة، قبل أن أحلقها، تلمست ذقني، وفجأة تذكرت أنه عليّ أن أسافر غداً في طريقي البعيد مع السعاة إلى أمكنة الحشيشة، وتعجبت وأنا أفكر بهذا: إلى أين أنا مسافر، ومن أجل ماذا؟ وأي شبه ومقارنة بين الأناشيد الإلهية التي أسمعها، والشهوات والنزوات الغريبة لأمثال أوتيوك عامل المحطة الذي يسعى بحثاً عن العشبة الرعناء. ولكن في كل الأزمنة الغابرة، كانت حياة الناس، بكل ما فيها من خير وشر، تجري خارج جدران المعابد، وحياتنا المعاصرة ليست شاذة عن تلك القاعدة. . .

نعم، إنني اكتشفت في هذه الأمسية: الى أي مدى من الممكن أن تتشابه السمات الإنسانية عند شخصين. وبعد هذا لم أبعد نظري عن شبيهي، أراقب غناءه، وكيف كان يمد وجهه، فاتحاً فمه، عندما كان يرفع صوته عالياً. تعاطفت معه، وتصورت نفسي مكانه، فوجدت أنه التجسيد الحقيقي لنفسي. وهكذا شعرت وكأني أشارك في هذه الأمسية الغنائية. كان كلُ شيء في عالمي يغني، وانسجمت مع الغناء كلياً، حتى أصبحت أشعر

بنفسي وكأني عنصر من أفراد الكورس، وشعرت بشعور الأخوة الصادقة معهم، حتى أبعد المعاني الوجدانية، وكأننا أعز الناس لبعضنا، والتقينا بعد فراق طويل ـ وأن أصواتنا القوية الصادرة ترتفع الى السماء، وأن الارض تحتنا صلبة لا تهتز، وهكذا سوف نغني ونغني كل ما عندنا، وحتى الاخير.

وهكذا غنوا، وغنيت معهم. وعادة أشعر هذا الشعور عندما أسمع الأغاني الجورجية القديمة. ليس بامكاني أن أشرح السبب، ويكفيني أن أستمع الى غناء ثلاثة جورجيين، ولو كانت أصواتهم عادية، ـ حتى تنسجم روحي مع هذا الغناء، وأتنفس حقيقة الفن البسيط والنادر من حيث التأثير على العالم الروحي، ربما أن هذه السمة قد أهدتهم إياها الطبيعة، والثقافة القومية، وربما من الإله. إنني لا أعلم عما يغنون، المهم أنني أغني معهم.

فكرت بهذا، وسمعت الكثير من المغنين، وفجأة إكتشفت الحقيقة ذات يوم، عندما قرأت إقصوصة من الأدب الجورجي عنوانها «ستة وسابع» وهي اقصوصة قصيرة، غالباً ما ينشر مثلها في الصحافة اليومية. ويصعب القول أن هذه الإقصوصة تمتاز بميزات أدبية رفيعة، ولكنها إقصوصة ذات محتوى عميق، أكثر من أن تكون سيكيولوجية، وتتسم بسمات رومانسية، وخاتمة تلك الإقصوصة رسخت في ذاكرتي لمدة طويلة، وأخذت مكانها في معرفتي.

محتوى هذه الاقصوصة، أوبالأحرى، ملحمة، «الستة والسابع» (لا أذكر الكنية الصعبة لمؤلفها غير المعروف كثيراً) لا يختلف كثيراً عن الأقاصيص الأخرى: تحتدم أوار الثورة. وتهرق الدماء في الحرب الأهلية، وتترسخ الثورة يوماً بعد يوم، بعد دحر الأعداء، وأخذت الأمور تسير في جورجيا تقريباً كما يجب أن تسير، وأنتصرت السلطة السوفيتية على ما تبقى من خلايا أعداء الثورة المسلحين، حتى في قرى الجبال البعيدة. في مثل هذه الحالة يطابق قانون أساسي ـ اذا لم يستسلم العدو، فالقضاء عليه ضروري. ولكن القسوة تبعث قسوة معاكسة ـ وهذا أيضاً قانون ساد منذ زمن بعيد. ولقد قاومت جماعة كرام جوخادزه الذي يعرف جيداً طرق الجبال، إذ كان راعياً للخيل، ثم أصبح مقاتلاً عنيداً، عدواً لصلحته، إذ لم يدرك مفهوم الصراع الطبقي. وهو أيضاً، أخذ يعد أيامه الباقية، إذ أصبح يخسر المعركة تلو المعركة مؤخراً. عند ذلك أرسل إلى معسكر كرام مقاتل فدائي، كان مهدداً بالقتل، لو كُشف أمره. نال ثقة كرام، وأصبح أحد المقربين منه، ورفيقه المحبب في كل معاركه، فيعمل المقاتل على تنظيم صدام مسلح بين جماعة كرام وقوات الثورة. وبعد

هروب ما تبقى من الجماعة المعادية للثورة، يعاني كرام وجماعته من حصار أمام أحد الأنهار، ولكنهم يقذفون بأنفسهم مع خيولهم الجامحة في النهر، عند ذلك يقع المقاتل الأحمر عن حصانه، عند بعض الحشائش النهرية: متظاهراً وكأن حزام حصانه قد انقطع، بينما تتابع جماعة كبيرة من أنصار كرام، فوق أحصنتها الجامحة، عبر الأمكنة الضحلة للنهر الجبلي العريض، وعندما يصبحون في وسطه مكشوفين من كافة الجوانب تفتح عليهم النيران من رشاشين ثقيلين موضوعين هناك مسبقاً لقوات الثورة، وتحصد معظمهم من ضفتي هذا النهر في نقطة تقاطع النيران، ونتيجة هذا الاشتباك العنيف يقتل الناس، ويغرقون في النهر الجبلي ولكن كرام يبقى حياً، إذ حماه القدر! فينقذ نفسه من النيران، ويتراجع إلى الخلف، وبفضل حصانه القوي يهرب بمحاذاة حافة النهر، بين الاشجار. ويلحق به عدد من الخيالة الأوفياء له، والذين بقوا على قيد الحياة، ومن بينهم كان المقاتل الأحمر، الذي تبعه فوراً، عندما أدرك أن العملية لم تحقق النجاح المطلوب، وأن رئيس العصابة قد هرب من العقاب.

هذا القصف الرشاشي فوق النهر، كانت الضربة القاضية لجماعة كرام جوخادزه، وتعتبر النهاية الساحقة لهم.

ابتعد كرام وجماعته عن نيران المطاردين لهم، أوقف حصانه الذي أصابه الإعياء من طول المسافة، وتبين له أن الذين يتبعونه هم ستة أشخاص، كان المقاتل الأحمر، الذي أطلقوا عليه اسم «ساندرو» **هو السابع**، ومن هنا يأتي عنوان هذه الاقصوصة «ستة وسابع».

كان ساندرو قد تلقى أمراً، بأن عليه أن يقضي على كرام جوخادزه، مهما بلغ الأمر من الصعوبة. إن رأس كرام كان يساوي الكثير. والأمر هنا لا يرتبط بالمبلغ الذي يساويه رأس كرام، بل في تحقيق هذا الأمر، وتنفيذه الآن، عندما ترك كرام القتال نهائياً، وأصبح قتله ممكناً في أي مكان، بعد أن تحطمت قوته الأساسية، وأصبح في واقع الأمر وحيداً. كوحش وقع في شبكة الصيد. فأخذ يعتمد على نفسه، وعلى حنكته الخاصة، وعلى يقظته، وكان من الواضح أن جوخادزه لم يسلم حياته بسهولة دون صراع حتى آخر نفس...

وها هي العقدة تحل في هذه الاقصوصة، وقد أثارت اهتمامي وقلقي أكثر من أي شيء آخر...

بعد تلك المذبحة القاسية فوق النهر، قرر كرام الذي يعرف الشعاب الجبلية والطرق والمسالك جيداً، أن يستقر مع جماعته في مكان آمن بين الأشجار الجبلية، بالقرب من الحدود

الـتركيـة. ومـا كاد هؤلاء الستـة والسابع، أن يخلعوا السروج عن خيولهم، حتى خمدوا في أمكنتهم من التعب دون حراك، خمسة منهم غفوا فوراً وغرقوا في نوم عميق، واثنان لم يناما. فلم ينم المقاتل ساندرو من عذاب التفكير :كيف له الآن أن يتصرف، وكيف له أن يحقق هدفـه، وكيف ينفـذ رغبتـه. ولم ينم أيضـاً، بعـد الاندحار الكبير كرام جوخادزه ـ انه قلق لتحطيم جماعتـه، ويعـذبـه التفكير في يوم غد، والله وحده يعلم بماذا فكر كل من الإثنين، العدوين لبعضهما إلى الأبد.

كان القمـر يسبـح في الفضـاء من على يمينهم، والأشجار تتمايل عبر سكون الليل، بهدوء واتـزان، ومن الأسفـل كان يُسمع صوت خرير النهر دون انقطاع، والجبال من حولهم قد جمدت في صمت حجري، وفجأة نهض كرام جوخادزه من مكانه، وكأن شيئاً ما قد لدغه.

ـ أنت لم تنم بعد، يا سندرو؟ ـ سأل كرام السابع باستغراب.

ـ كلا، وأنت، ماذا حل بك حتى نهضت؟ ـ سأل ساندرو بدوره.

ـ لاشيء. لم يأتني النـوم بعـد، إنني غير مطمئن لهذا المكـان، فالقمر ينـير المكـان جيـداً. سأذهب للنـوم في مغـارة، ـ أخذ كرام سلاحه، وسرج حصانه ليضعه تحت رأسه، وابتعد عن ساندرو، وهو يقول: ـ سنتابع الحديث عما تبقى غداً، فالوقت لا يتسع الآن للكلام.

ابتعد، دون أن يزيد على كلامه هذا، واضطجع في باب المغارة ـ فقد كان يختبىء في هذه المغـارة متقيـاً المطـر، عنـدمـا كان يعمـل راعياً ـ وها هو الآن، اختبأ معانيا من مأساته الكبـيرة، ومن شعـوره الخفي الـذي أوحى له أن يجهـز نفسـه، لمواجهـة أي هجـوم كان، وليكون بإمكانه أن يرى أي إنسان يقترب من المغارة. قلق ساندرو: كيف لي أن أفهم هذا التصرف الحكيم من قبل الرئيس؟ وكيف لي أن أتصرف إذا شك في الأمر؟.

هكـذا مضت الليلة، وفي الصبـاح أمر كرام جوخادزه جماعته بتحضير خيولهم. ولم يعلم أحد، بماذا كان يفكر الزعيم، وماذا ينوي أن يعمل. وعندما أصبحت الخيول جاهزة أمامه، ووقف الجميع ينتظرون ماذا سيقول لهم، وهم يمسكون بأعنة الأحصنة، قال، وهو يتنهد:

ـ كلا، لا يجوز أن نهجـر أرضنـا الأم هكـذا. سوف نودع اليـوم الأرض، التي عشنـا عليها، والتي ربتنا، ومن ثم نفترق، كل إلى طريقه. ولكن ما دمنا هنا، سوف نتصرف، كما يتصرف الإنسان في بيته.

أرسـل خيـالين الى إحدى القرى القريبة، التي كان أهلوها يتعاطفون معه، ليجلب النبيـذ والطعـام، ثم أرسـل إثنين آخرين: ساندرو وشاباً آخر لجمع الحطب اللازم لاضرام النـار ورعـايـة الأحصنة، أما هو وإثنان معه فقد ذهبوا للصيد ـ لعلهم يعودون بصيد بعض الطيور أو الأرانب للاحتفال بالعشاء الأخير.

لم يبق لدى المقـاتـل سانـدرو إلا أن ينفـذ ما طلب منه، منتظراً الساعة المناسبة، التي سيكون بإمكانه فيها أن ينفذ المهمة. ولكن حتى الوقت الحاضر لم تحن تلك الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك.

في المسـاء إجتمـع الستـة والسـابـع من جديد: إلى جانب الغابة أشعلوا النار بالقرب من المغـارة، ووضعـوا الأكـل، الـذي أحضـروه من القـريـة القـريبـة: الخبـز والنبيـذ والملح والطعام الذي أرسله لهم الناس، الذين أحبوا كرام جوخادزه. اشتعلت النار حتى الأخير، وأقترب السبعة من الجمر.

ـ هل جميع الأحصنة جاهزة كما يجب؟ ـ سأل كرام جوخادزه.

أومأ الجميع برؤوسهم صامتين في الرد على سؤاله.

ـ إسمع، ياساندرو، ـ قال كرام جوخادزه، ـ أنك جمعت حطباً جيداً، يشتعل بقوة، ولكن لماذا أبقيت الحطب بعيداً عن الشعلة؟

ـ لا تقلق يا كرام، هذه هي مهمتي، أن أشعل النار جيداً، وأنت قل ما تريد قوله.

عند ذلك قال كرام جوخادزه:

ـ أيهـا الأصـدقـاء، اننـا خسـرنـا قضيتنـا. فعنـدما يحارب الأعـداء بعضهم، ينتصر البعض، ويخسـر الآخـرون. لهذا تكون الحروب عادة. لقد أهرقنا دماء أعدائنا، وهم قتلوا منـا أعـداداً كبـيرة. العـديـد من الأبنـاء من هذه الجهـة أو من تلك، قد استشهـدوا في عز الشبـاب. ما كان، أصبح من المـاضي. أطلب المغفـرة من الشهـداء الأصدقاء والأعداء. عنـدمـا يستشهـد العـدو في معـركة، فهو لم يعد عدواً، ولو كنت الآن فوق حصاني منتصراً، لطلبت المغفـرة من الشهـداء ولكن الحـظ لم يحالفنـا، لأن الشعب بأكثـريته الساحقة أشاح بوجهه عنا، وحتى الأرض التي ولدنا عليها تنكرت لنا، وهي لا ترغب أن نبقى عليها، لا يوجـد لنـا مكـان هنـا. ولا تغفـر لنـا. ولـو كنت منتصـراً، لما غفرت وعفوت عن أعدائي، إنني أقول هذا أمام الله. أما الآن فيوجد لدينا مخرج واحد ـ أن نحمل رؤوسنا إلى لدن اعدائنا. إلى خلف ذلـك الجبـل العـالي ـ تركيـا، هذه هي، قريبـة منا، وإلى جانبها، هناك خلف السلسلة التي يسطـع القمـر فوقهـا ـ ايـران. فليختـر كل منكم الجهـة التي يرغب. أمـا أنا

فسأذهب إلى تركيا، إلى استنبول، سأعمل هناك حمالاً في الميناء، وكل منا يجب أن يقرر الآن، إلى أين سيتجه. بقينا سبعة، وبعد وقت قصير كل منا سيتجه واحداً بعد الآخر إلى المهجر، إلى سبع جهات مختلفة. نجوب العالم، على كل منا أن يتجرع كأسه المر. إننا لن نلتقي بعد الآن. هذا اليوم الأخير، الذي، نحن السبعة، نرى ونسمع بعضنا فيه. فتعالوا نودع بعضنا، ونودع الأرض التي ولدنا عليها، ونودع الخبز والملح الجورجيين ونودع نبيذنا، فلن نذوق بعد الآن مثل هذا النبيذ في أي مكان. سوف نودع بعضنا، ويتجه كل منا إلى ناحية. ولن نحمل معنا أي شيء من هنا، حتى حبيبات الرمال من أرض جورجيا، لا يجوز أن يحمل الانسان الوطن بعيداً، من الممكن أن يحمل الانسان الحزن فقط، ولو كان بالإمكان أن يحمل الانسان الوطن معه من مكان لآخر، كما يحمل الكيس، لكان ثمنه قرشاً واحداً، تعالوا نشرب النخب الأخير قبل الوداع،ونغني أغانينا المحببة . . .

كان النبيذ معتقاً، من شغل الفلاحين، وفيه اتحدت سمات الأرض والسماء معاً. وأيقظ في عالمهم الحزن العميق، والرغبة في نفث كل الآلام من القلب، وفي عالمهم الروحي كان يتصارع شعور الحزن والفرح. وانطلقت الأغنيات على سجيتها، منسابة كمياه النهر العذبة بين الحجارة عبر سفح الجبل، وكل شيء، يمر به الماء على الطريق سوف ينمو ويزدهر، وفجأة أخذوا يغنون بهدوء أغنية الآباء، وتصاعدت الأغنية بهدوء وعذوبة، صادرة من الأعماق، كما ينطلق النبع من أعماق الأرض، ـ غنى السبعة بشكل رائع، لانه لا يوجد جورجي لا يحسن الغناء. غنوا سوية، وكلٌ كما يستطيع ويعرف، وتعالت الأغنيات، كما تعالت شعلة النار، التي تحلقوا حولها.

هكذا بدأ الوداع الغنائي للسبعة ـ أوبالأحرى، للستة والسابع، الذي لم ينس، ولو لدقيقة واحدة المهمة التي جاء من أجلها، وما عليه أن يعمل. وكان لا يجوز أن يهرب أحد منهم، وخاصة كرام جوخادزه إلى خارج الحدود، دون عقاب وكان عليه، هو المقاتل من الجيش الأحمر أن يتفهم ذلك ـ وهكذا جاء في الأمر الذي أعطى له، وعليه أن ينفذ الأمر بحذافيره.

تعاقبت الأغاني، الواحدة تلو الأخرى، وطاب شرب النبيذ، الذي كلما أكثرت منه لذ وطاب، وازدادت الرغبة في الشرب أكثر، وتاقت الروح، أكثر وأكثر، تحلم وتحلم بتأثير شرب النبيذ، وترديد الأغنيات من جديد وجديد.

كانوا يقفون في حلقة، يضعون أيديهم أحياناً على أكتف بعضهم، وأحياناً يخفضونها، وعندما كانوا، يرغبون بإيصال أغانيهم إلى القوة الإلهية، التى ترى ولا تُرى،

وتعلم ما يخفون وما يعلنون، كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء فكيف لا، طالما أن الإله يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، فلماذا وإلى أين يطـردهم من أرضهم؟ ولمـاذا شيّـد الـدنيـا هكـذا: النـاس يتحـاربـون مع بعضهم، ويتقـاتلون بلا جدوى، وتهـرق الدماء، وتذرف الدموع. وكل انسان يعتقد أنه على حق، وينكر على الآخر حقه، فأين إذن الحقيقة، ومن يحق له أن يراهـا؟ وأن يتكلم بها؟ أين ذلـك النبي، الـذي سوف يقضي بينهم بالحق؟ . . .
ومـا أروع هذه الأغـاني التي غنـاهـا الآبـاء قديـماً عن هذا العـذاب الـذي عاشوه، منذ القدم، وهم يعـرفـون الخـير والشر من تجاربهم الحياتية. ومازالت هذه المعاني بكل جماليتها وروعتها تنسـاب عذبـة في الأغـاني القـديمـة، يتنـاقلهـا الشعب في ذاكرة أجيالِهِ؟ ولهذا كان هؤلاء السبعـة يغنـون الأغنيـة تلو الأخـرى، دون عنـاء في البحث عن الأغـاني، ودون أن يفضوا الـدائـرة، ولكن السـابع، ساندرو، كان ومن وقت لآخر، يترك الحلقة، ليحمل الحطب، ويضعـه فوق الشعلة. وكـان يعتقـد (لكـل شيء في الحياة سبب) وليس من العبث، أنه قد وضع الحطب في الغابة الواسعة في كومة واحدة، وأخذ يهتم بالشعلة بنفسه. ويغني الأغاني كالجميـع، من كل قلبـه ـ فالأغاني القومية هي ملك الجميع على حد سواء. فليست هناك أغـان خاصـة بالقيـاصـرة، ولا يجوز للآخـرين أن يغنـوها، كما لا توجد أغان خاصة بعامة الشعب فاشرب وامرح، احزن وابك، أرقص، ما دمت حياً . . .
فمن أحببت، ومن انتظـرت في ساعـة المـوعـد، وأنت ترتجف؟ ومن كرهـك، وكم عانيت، وكم كنت ترغب في كل شيء غير مفهوم، وحتى تُسمع أغنيتك، التي غنيتها قبل الموت، وكيف داعبتك أمك في الطفولة، وكيف كان والدك يضم رأسك إلى صدره. وكيف تحارب الأصـدقـاء في المعـارك الدامية، وبأي إله فتحت روحك في الاندفاع النفسي البعيد عن الأنـانيـة، وهـل فكـرت ماذا تعني ولادة الإنسان، وهل فكرت، أن الموت دائماً معك، مادمت تتنفس، وبعد الموت، لا يوجد موت آخر، ولكن الحياة أعلى من الموت، ولا يوجد شيء في العالم أسمى من الحياة ـ ولذلك تجنب الموت، وإذا جاء العدو إلى الأرض، فدافع عن أرضك، وحافظ على شرفك، كما تحافظ على أرضك .وهل تعرف، أن الفراق صعب وثقيل، كما لو كنت تحمل على عاتقك جبلاً، وأن الحياة، دون حبيب لا طعم لها: لا لون، ولا نور، ولا نهار قادم، ـ وهـل هو بالشيء القليـل ما تتحـدث عنـه الأغاني، ويصعب التحدث عن كل شيء. . .

في تلك الأمسية لم يكن هناك أناس أقرب إلى بعضهم من هؤلاء الجورجين السبعة الذين كانوا يغنون بكآبة وحزن وشاعرية في ساعة الفراق،ويبدو أن عفوية الاغاني قد قربت

فيما بينهم، أكثر وأكثر، وكم كان الأسبقون يعرفون الكثير، ويعانون ويبدعون ليتركوا للأولاد والأحفاد كلمات رائعة مليئة بالحياة، والإنسجام الأبدي. وكما كان بالإمكان أن نفرق بين الطيور وهي في السماء، كان من الممكن للجورجي أن يعرف الجورجي الآخر عندما يسمعه من مسافة عشر فريستات ، ويعرف من هو، ومن أي مكان، وماذا حل به، وهل تعاني روحه من شيء وهل هو فرحٌ، أم أن الحزن جاثم على قلبه . . .

ارتفع البدر عالياً فوق الجبال، وعم الأرض بنوره الهادىء ـ وتمايلت الأشجار في الغابة بهدوء، وبدت هاماتها قاتمة وهي تتماوج تحت تأثير الرياح، أما النهر فكان يصدر خريراً صامتاً، وهو يغسل الشاطىء، ويقذف الأمواج الهادئة برذاذ فضي لامع، بينما تراءت طيور الليل كالظل، تحلق فوق رؤوس الرجال المغنين، عند الشعلة، وحتى الخيول وهي مسرجة، لخذت تنتظر أصحابها بفارغ الصبر، وهي ترفع آذانها عالياً، وفي أعينها ينعكس نور الشعلة. . . لقد خطط الزعيم كرام لهذه الأحصنة طرقاً إلى دول أجنبية، وساعة المغادرة أخذت تقترب. . .

ولكن الأغاني بدت متصلة، بلا نهاية، إذ قرر كرام أن يغني ويعوض كل مافاته، وما سيفوته، فيما بعد، إذ كان يقول «غنوا أيها الأصدقاء وأشربوا النبيذ، فلن يسمح لنا الوقت أن نلتقي في مثل هذه الحلقة، ولن نتمكن من أن نطرب أسماعنا بأغاني جورجيا» . . . كانوا يغنون بأصوات متفاوتة أحياناً، ومنسجمة أحياناً أخرى، ويرقصون على أنغامهم بحيوية، كما ترقص الديكة المذبوحة من الألم، ومن جديد يقف السبعة في الحلقة، أو بالأحرى ـ الستة والسابع. كان ساندرو غالباً ما يترك الحلقة، ليضع الحطب فوق النار، التي تضطرم أقوى وأقوى.

قرروا أن يغنوا الأغنية الأخيرة، ثم غنوا واحدة أخرى، ثم ثالثة قبل الوداع لكنهم لم يملوا، ومن جديد يجتمعون في حلقتهم، يحنون رؤوسهم ـ ويصدح صوتهم بعد لحظات تفكير قصيرة، ويأتي كالدوي من تحت الأرض، وها هو ساندرو يبتعد عنهم مرة أخرى نحو النار، ليضع الحطب، رغم أن النار كانت تشتعل بقوة. كان ذلك محسوبٌ بدقة ـ فمن بعيد كان يرى كلًا من الستة الذين يقفون في الحلقة، أما هو فكان يغيب عن أنظارهم التي تعميها النار. . . الرشاش الثقيل كان جاهزاً لاطلاق النار. حلت ساعة العقاب، والثأر. أخذ ساندرو الموزر الرشاش، ووضعه على يده، وكانت الطلقة الأولى، فانفجرت في ظلمة الليل كالرعد، فهوى زعيم العصابة كرام جوخادزه ولم تهدأ بعد كلمات الأغنية على شفاهه، وحصد الخمسة الآخرين، قبل أن يدركوا الأمر، وحقيقة ما حدث بالقرب منهم.

وهكذا لقنهم درساً بعد أن عاثوا فساداً، وهكذا أراق دماءهم، بعد أن أهرقوا الكثير من الدماء.

نعم، إن قوانين العلاقات الإنسانية، لا تخضع لقواعد وقوانين الرياضيات العامة، وفي هذا المجال الأرض تدور، كدوامة المآسي الدموية... وهل على هذه الدوامة أن تدور حتى نهاية الكون، ما دامت الأرض تدور حول الشمس؟

الطلقات كانت مصوبة بدقة، ولم ينهض إلا واحدٌ، ترنح في مكانه، وهو يستند على يديه، ولكن ساندرو كان له بالمرصاد، فأنهاه على الفور بطلقة واحدة، أصابته في مؤخرة رأسه... فزعت الخيل من إطلاق النار، ثم جمدت في أمكنتها...

استمرت النار بالإشتعال، والنهر تابع خريره، والغابات والجبال - مازالت في مكانها. والقمر في مكانه، يطل من عليائه بهدوء. فقط توقفت الأغاني، التي استمرت طويلاً في تلك الأمسية...

بدا وجه ساندرو في تلك الليلة أبيض كالحوار، ضاقت أنفاسه، فتناول القربة، وأخذ يشرب من النبيذ المتبقي فيها، حتى يطفىء النار المشتعلة في داخله... ثم تنفس الصعداء، وأخذ يدور حول القتلى المستلقين حول النار في وضعيات مختلفة، وهو ينتزع أسلحتهم من الأحزمة، ثم علقها على سروج خيلهم، وأطلقها من مرابطها حتى تعرف معنى الحرية. أطلق الأحصنة السبعة، بما فيها حصانه المحبوب... وأخذ يرقب كيف انطلقت الخيول حرة نحو القرى الواقعة في أسفل الجبال،إلى الناس... فالخيول تذهب إلى الناس عادة. وتستقر حيث يعيش البشر... ولم يعد يسمع ساندرو شيئاً حوله، ولم يعد يسمع قرع حوافر الخيل، التي ابتعدت، وهي تسير خلف بعضها تحت ضوء القمر الساطع...

كان كل شيء قد تم. دار ساندرو مرة أخرى حول الستة المقتولين، ثم ابتعد قليلاً، أخذ مسدسه، وصوبه إلى رأسه. وانطلقت رصاصة بين الجبال، ذات صدى قصير. الآن أصبح هو السابع، الذي غنى أغنياته أيضاً.

هكذا انتهت تلك الأسطورة الشعرية الجورجية. تذكرت هذه القصة، وأنا أستمع في المتحف للمغنين البلغار، الذين يغنون الأغاني البلغارية الكنائسية القديمة، وهذه التراتيل قد كتبت باسلوب رائع، وتنطلق بنشوة من أعماق القرون إلى الإله، إلى الخيال، الذي تحول إلى واقع روحي، هؤلاء الناس الذين يعتقدون بأنهم معزلون في هذا العالم، وأن بإمكانهم أن يجدوا ما يصبون إليه في الصلوات والأغاني الروحية فقط.

تذكرت، وعشت تلك القصة بأكملها خلال ثوان قليلة، ولا مجال لمقارنة سرعة النور بسرعة التفكير. إن فكرة العودة إلى الماضي من الممكن أن تسير باتجاه معاكس في الزمان والمكان، وبأسرع ما يمكن. . .

الآن أيقنت أن ذلك هو الذي حصل حقاً في تلك الأعوام. في خاتمة هذه الأقصوصة «الستة والسابع»، كتب المؤلف أن ساندرو «أي السابع» قد منح وساماً بعد وفاته.

لو أن مصائب وويلات الحرب الأهلية لم تتحول إلى مصيبة كل الشعب، ولو أن مقاومة البعض للقادمين الجدد ليصنعوا التاريخ، وعدم انتظار القادمين في نضالهم من أجل تسريع عملية التاريخ، وقلب الحياة نحو الأفضل جذرياً، لولا كل هذا، لما كانت تلك الشروخ العميقة على جدار الثورة، وما كان لتلك الأُسطورة الشعرية الجورجية أن تنتهي بهذه الخاتمة؟ . . . فالقيمة تُعرف من خلال محتواها ونتائجها:فالإنسان السابع كان بإمكانه أن يعيش، فرحاً، ولكنه رفض ذلك ـ لعدة أسباب يصعب شرحها. كل إنسان بإمكانه أن يفسرها، حسب مفاهيمه، أما بالنسبة لي في تلك الساعة، عندما كنت أسبح على زورق التراتيل البلغارية تحت الأشرعة البيضاء للسمو الروحي، والذي كان يمخر بي بعيداً في محيط الحياة المفتوح، خطرت على بالي فكرة تنحصر في أن أسباب هذه النهاية المأساوية للأسطورة الشعرية الجورجية، كانت الأغاني، التي وحدت بين معتقدات السبعة. . .

عندما تكتشف شيئاً جديداً بالنسبة لك، يصبح كل شيء في عالمك منسجماً، دون أي تناقض، وتحل لحظة تجلي. ومن خلال النظر إلى هؤلاء المغنين البلغار، وإلى عيونهم التي كانت تلمع، وهم ينشدون أغانيهم المقدسة، وكيف كانت وجوههم المحتقنة من الضغط يغطيها العرق، حسدتهم لأنني غير موجود بينهم، وأنني لست ذلك الانسان الذي يشبهني من مجموعتهم.

وفي تلك اللحظة من الوضوح الروحي فكرت فجأة: من أين كل هذا في عالم الإنسان ـ الموسيقي، الأغاني، الصلوات، وأي ضرورة كانت، وما تزال في هذه الأغاني؟ ربما، من الشعور الخفي في مأساوية الوجود، وفي معمعان الحياة الدوارة، عندما يحل كل شيء، ويذهب كل شيء، ويأتي من جديد، ويذهب من جديد، والإنسان يأمل بهذه الطريقة أن يعبر عن وجوده، ويثبت نفسه، عندما ينتهي كل شيء، عندما يأتي ذلك القادم بعد مليارات السنين، وتحل نهاية الكون وينتهي كوكبنا، ويخمد الفكر الإنساني، فان القادم من الكواكب الأخرى، سوف يسمع في ذلك الصمت الكلي والفراغ اللامحدود، موسيقانا وأغانينا، دون أي شك، هذا لأنه ومنذ الخلق، يوجد في كياننا أشياء لا تمحى ـ أن

يعيش الإنسان بعد الحياة! وكم هو شيء مهم للإنسان أن يدرك، كم هو شيء ضروري أن يؤمن، أن مثل هذه الديمومة ممكنة من حيث المبدأ. ومن الممكن، أن الناس قد يفكرون أن إبقاء بعض الأجهزة الأتوماتيكية الأبدية، ذات المحركات الموسيقية، والآلات العازفة ـ سيكون ذلك أجمل ما أبدعته ثقافة الإنسان خلال كل العصور، ولقد أيقنت، عندما أستمتع بأغاني المغنين، أن كل من يسمع هذه الكلمات والموسيقى، سوف يدرك، ويشعر أي كائنات متناقضة، وأي مبدعين ومعذبين كان هؤلاء الناس فوق الأرض ـ هؤلاء البشر العقلاء.

الحياة، الموت، الحب، الرحمة والإلهام ـ كل ذلك سوف يبرز من خلال الموسيقى، لأنه وبفضل الموسيقى تمكنا من الوصول إلى أعلى مراحل الحرية، التي ناضلنا من أجلها خلال التاريخ كله، بدءا من المراحل الأولى للوعي في عالم الانسان، ولم نتمكن من تحقيقها إلا بفضلها، أنها الموسيقى وحدها، التي تذلل العقائد الجامدة خلال الأزمنة وتطمح إلى المستقبل... ولذلك على الموسيقى أن تقول كلمتها، التي لم نتمكن من قولها...

نظرت إلى الساعة، وكنت أخاف أن تنتهي هذه الأمسية الموسيقية في متحف بوشكين الذي أحبه كثيراً، وعلي أن أتجه إلى محطة قازان، إلى عالم آخر، وأن أنخرط في حياة أخرى، تعيش منذ الأزمنة البعيدة في حمأة الضجر والدوران، حيث الأغاني والتراتيل الإلهية لا صوت لها، ولن تعني أي شيء... ولهذا عليَّ أن أكون هناك...

ـ ٥ ـ

أنقضى نصف النهار، والقطار يقطع الأرض في منطقة الفولغا، وفي المقطورات ذات الغرف الخاصة بالنوم، سارت حياة المسافرين كالعادة وكما تقضي ضرورة السفر في الطريق الطويل لعدة أيام، أما في المقطورة العامة التي سافر فيها أفدي كاليستراتوف فقد كانت تسود الحياة المشتركة. رغم أن الشعب المسافر في المقطورة مختلف، وكل إنسان كان يسافر لجهة ما، ولهدف ما، وكل ذلك كان يسير حسب العادة ـ الناس بحاجة إلى السفر ـ لذا فهم يسافرون، ومن بينهم كان المسافرون المتجهون لجمع الحشيشة، زملاء أفدي كاليستراتوف، لقد عرف، أن عدد زملائه في هذا القطار كان يقارب العشرة، ولكنه لم يعرف إلا اثنين فقط ـ هما، اللذين عرفه بهما الحمال أوتيوك في محطة القطار. كانا شابين من مورمانسك ـ أحدهما يدعى بتروخا عمره عشرون عاماً، والآخر أصغر منه بكثير، مازال صبياً، لم يزد عمره عن السادسة عشرة، أسمه لينكا، وهو يسافر الآن للمرة الثانية. ولذلك

كان يحسب نفسه ذئباً مجرباً، وكان يزهو متفاخراً بذلك، كان هذان الشابان من مورما نسك في بداية الأمر هادئين. ولا يتكلمان أي شيء زائد، هذا على الرغم من أنهما كانا يعلمان أن أفدي أو أفدياي كما أخذوا يسمونه، قد دخل إلى جماعتهم بترشيح من أناس موثوق بهم. وكانا يتحدثان بالألغاز عن أعمالهم في المكان بين المقطورتين، خلال التدخين. الناس قد ضاقوا ذرعاً من دخان السجائر في المقطورات ـ لأن كثافة الناس تجعل الهواء فاسداً، حتى بلا دخان. ولذلك كان المدخنون يخرجون إلى الأمكنة الفاصلة بين القاطرات للتدخين والثرثرة. وكان بتر وخا هو أول انسان يلاحظ أن أفدي لا يدخن كما يجب، وكما يدخن أفراد الجماعة، إذ قال:

ـ ما بك يا أفدي، هل هذه، هي المرة الأولى، التي تدخن فيها؟ إنك تدخن كالسيدات إذ تخاف أن تبلع الدخان إلى جوفك؟

كان علي أن أكذب:

ـ كنت أدخن سابقاً، ثم تركت . . .

ـ هذا ملاحظ، وها أنا منذ الطفولة قد اعتدت. أما صاحبنا لينكا فهو مدخن من الدرجة الأولى، يدخن وكأنه كهل عتيق، ويشرب دون أن يترك فرصة. الآن لا يجوز لنا أن نشرب، ولكن فيما بعد سوف نرتوي كما يجب.

ـ إنه ما زال صغيراً!

ـ من هو الصغير، لينكا؟ ـ صغير، ولكنه قوي، إنك لأول مرة تقوم بمثل هذه المهمة الكبيرة، وهذه مسألة، ليست مجرد عمل بسيط. وهو يعرف كل الطرقات والمخارج معرفة رائعة!

ـ وهل يتعاطى العشبة (يقصد الحشيشة ـ م)، أم يقوم بجمعها فقط ـ سأل أفدي.

ـ تقصد لينكا؟ كيف لا، انه يدخن. الآن،الجميع يدخنون. ويجب أن يدخن الفرد بعقلانية، ـ أخذ بتر وخا يتحدث. ـ ويوجد البعض ممن يبلعون حتى فقدان الرشد، ان أمثال هؤلاء لا يصلحون للعمل. إنهم ضعفاء. ويخسرون كل الثمن. يا لهذه العشبة ـ أنها تحمل النشوة إلى قلب الانسان، ويعيش كما في الحلم.

ـ ومن أين النشوة؟

ـ النشوة تأتي من كل جانب، كأن نهراً صغيراً ينساب من أمامك، من الممكن أن تقفز من فوقه، أو تقطعه بسهولة، بينما يبدو أمامك ـ نهر كبير، محيط، شيء رائع، هذه هي النشوة. النشوة ـ يالها من مسألة، فمن أين لك أن تحصل على السرور الفعلي؟ وعلى سبيل

المثـال، تشـتري خبـزاً، أم ثياباً، وحذاء، وتشتري أيضاً فودكا. أما بالنسبة للعشبة، فهي تسـاوي أيضـاً ثمنـاً جيـداً، والسـرور من خلالها له وقع خاص: كأنك في الحلم، والجميع حولـك كما في السينـما. والفـرق في أن السينـما مخصصـة لمئـات ولآلاف الأشخـاص الذين ينظـرون إلى الفلم، أمـا هنـا، فأنت وحـدك، ولا علاقـة لاحـد بك، ومن يتـدخـل في شؤ ونـك، بإمكـانـك أن تصفعـه، إذ الأمر، هو أمرك، فكما يخطر لك، عليك أن تعيش، وعلى الناس أن لا يدسوا أنوفهم في سعادتك. نعم هذه هي المعادلة! ـ صمت قليلاً، وغمز بخبث، وهو يحدق بعينيه الثاقبتين:

ـ هل لك أن تجرب يا أفـديـاي، قطعـة صغـير من العشبـة، حتى تنفـرج أساريرك قليلاً، فإذا أردت بإمكاني أن أتقاسم معك احتياطي الخاص. . .

ـ سوف أجـرب العشبـة التي أحصل عليها ـ رفض أفدي بعناد، ـ وعندما سيكون عندي حصة، سيختلف الأمر.

ـ هذا صحيـح، ـ وافق بتر وخـا، ـ الحصـة الخـاصة لها طعم آخر، ـ صمت قليلاً، وتـابـع قائـلاً: ـ في عملنـا يا أفـديـاي، أهم شيء هو الحذر، لان كل الناس من حولنا هم أعـداء لنـا: كل امـرأة، وكـل محارب قديم يحمـل على صدره وسـام، وكل متقاعد، وعن الآخـرين فلا تحدث، الجميـع يرغبـون، بالقـاء القبض علينـا، ومحـاكمتنا، وإرسالنا الى معسكرات العمل البعيدة، حتى نغرب عن أعينهم. ولذلك، أننا نعتمد على إبراز أنفسنا، وكأننـا أنـاس بسطـاء كالطيـور الـرمـاديـة العـاديـة، حتى نحصل على ما نريد، وفيما بعد بإمكانك أن تعرف زملاءنا! عندما ستكون النقود في جيبك، فليذهبوا إلى أمهاتهم الـ. . . وإذا حصـل شيء يا أفـديـاي، عليـك أن تكتم السـر حتى لو هُددت بالمـوت، وعليك أن ترفض الإفصاح عن أسماء زملائك. هذا هو قانوننا وإذا صرحت بشيء، ولم تصمد، فإنهم سوف يقتلونـك كالكلب، حتى لو تمكنت أن تهرب بعيـداً، وكلهـم سوف يجدونـك. هذه ليست طرفة أو العوبة. . .

اتضـح تدريجيـاً، أن بتر وخـا كان يعمـل سابقـاً في مختلف أعمال البناء، وعندما حل الصيـف، اتجـه إلى منـاطق موينكـوم، عرف الأمـاكن، الغنية بالحشيشة، وقال، أنه توجد أعشـاب غنيـة جداً في تلك الأمـاكن، تكفي لكـل العـالم. وفي البيت لم يبق عنـده إلا أمـه العجوز التي كانت تشرب المشروبات الروحية أيضاً. أما أخوته فقد تفرقوا، كل إلى جهة، أحدهم إلى الشمال، والآخر إلى خطوط أنابيب الغاز، ليتقاضوا كما عبر ـ بعض النقود المرة في الـبرد القـارس، أو الحـر الشـديد، أما هو فيسافر مرة واحدة إلى آسيا، ويتنزه كالأرنب،

ويعـود حتى يستـريح طوال العام، دون عمل، مستلقياً على ظهره، يبصق على السقف، فيما اذا تواجـد اللعـاب، أمـا بالنسبـة لأسرة صديقه لينكا، كان الأمر أسوأ: لم يعرف أمه، وعـاش في دار الايتـام، وعنـدمـا بلغ الثالثة من عمره، قدم إلى دار الأيتام قبطان سفينة من مدينـة مورمـانسـك، كان يقـود السفن إلى الأمـاكن البعيدة، وخاصة إلى كوبا، أعلن مع زوجتـه أنهـما يرغبـان بتبني هذا الطفـل،حسب القـوانـين السارية،لأنه لم يكن لدى الزوجين أولاد، وبعد خمس سنوات إنقلب كل شيء رأساً على عقب، إذ هربت زوجة القبطان إلى لينينغـراد مع صديق لها، وأدمن القبطـان على شرب الكحـول، وتحـول إلى عمـل آخر في المينـاء، أمـا لينكـا، فقـد أهمل دراستـه، وعـاش عنـد عمـة القبطـان، وأحيـاناً عند أخيه المحـاسب، وعنـد ذلـك أخذت الأمور تسير نحو الأسوأ، وخرج الصبي عن إرادة المشرفين عليـه، وابتعـد عن القبطـان كليـاً، وأخذ يعيش في بيت شخص من مشوهي الحرب، كان يعمـل غطـاسـاً خلال الحـرب. وبعـد الحرب عاش وحيداً، وكان يتسم بالطيب، ولكنه لم يتمكن من التأثـير على لينكـا. عاش الشـاب، كما يطيب له. يريـد السفـر إلى مكان ما، فيسافر، دون أن يأخذ رأي أحد. وعندما يخطر على باله أن يعود ـ يعود متى يشاء. وها هو لينكا يسافر للموسم الثاني من أجل جمع الحشيشة، وهكذا أعجبه هذا العمل الجنوني. رغم انه لم يبلغ من العمر السادسة عشرة، والحياة كلها مازالت أمامه...

كان على أفـدي كاليسـتر اتـوف أن يصـبر طويـلاً، وأن لا يهتم بكل القضايا المثيرة للأشياء التي صادفته، لأنه أخذ على عاتقه مهمة ـ الكشف عن جوهر هذه الظواهر، التي استقطبت اهتـمام الشبـاب الجـدد ـ وكلما تعمق في هذه المسألـة اليـائسـة، كلما اقتنـع، أن كل ذلك يذكره بتيار تحت الماء، عندما يكون هدوء سطح بحر الحياة مخادعاً، وأنه بالاضافة إلى الأسبـاب الخـاصـة والـذاتيـة التي أوجـدت ذلـك الإنحـراف، توجد العديد من الأسباب الإجتـماعيـة، التي أدت إلى ظهـور هذه الجنوح إلى العيوب في أوساط الشباب،وتبدو هذه الأسبـاب للوهلة الأولى غير معـروفة ـ كانت تشبه العروق الدموية المتشعبة التي تنقل الدم إلى مختلف أنحـاء الجسم، ومعـه تسري الأمراض، ومهما حاولت التعمق في هذه الأسباب من خلال المستـوى المـوجـود، فإن الفـائـدة ستكون ضعيفة، إذا لم تكن معدومة. كان من الضروري هنا، كحد أدنى أن يكتب بحثاً اجتماعياً خاصاً، ومن الأفضل فتح نقاش مفتوح ـ في الصحافة والتلفاز. أنظر ماذا يريد، ياله من غريب!... وهو كذلك، إذا ما نظر إلى محدوديتـه التي تلقـاهـا في المعهد الديني، وعدم الوضوح في الحياة اليومية. ثم إقتنع كلياً: يكن هناك من يهتم في مثل هذا الموضوع، ويرغب التحدث عنه بصراحة، وفسر ذلك دائما

بالحفاظ على سمعة مجتمعنا، هذا على الرغم من أنه، وفي حقيقة الأمر، كأن المسألة تتعلق بعـدم وجـود الرغبة الكافية للمخاطرة بالمصالح الخاصة، المرتبطة بالرأي والمزاج للاشخاص الآخـرين، ربـما، أن الحـديث بصراحة عن هذا، والإعراب عن القلق تجاه بعض الجوانب السلبية في المجتمع، كان يتطلب، بالإضافة إلى كل ذلك، أن لا يخاف الإنسان من خطر طرح هذه القضيـة وتأثـيرهـا على مستقبله. ولحسن الحظ، وتعاسته بآن واحد، كان أفدي كاليستراتـوف متحـرراً من أعباء هذا الخوف الداخلي. ولكن كل هذه الإكتشافات الحياتية ستكون في المستقبل. وها هو، قد سار لتوه على هذا الطريق. ودخل قبل قليل إلى صميم هذه النـاحيـة الحياتية العملية، التي أراد أن يعرف جوهرها إنطلاقاً من الشعور بالأسى تجاه هذه الأرواح الضـائعـة، وكـان أفدي يتعطش إلى المعرفة من خلال تجربته الخاصة، وحتى يسـاعـد البعض من هؤلاء النـاس ليس بالمـواعـظ، أو التهـديـد والإدانـة، بل بمشـاركته الشخصيـة، وأن يثبت من خلال تجربتـه الخـاصـة لهم، كيف أن الخـروج من هذا الوضع الانتحاري ممكن، من خلال الانبعاث الذاتي. وعلى كل واحد منهم، في هذا المجال، أن يقوم بثورة، ولو في أطر معالمه الروحية الخاصة. ولكنه، لم يدرك مرة أخرى كم يلزمه أن يقدم من أجل تحقيق هذه الأفكار الروحية الرائعة.

كان أفدي شاباً. وهل الأمر يتعلق بكونه شاب. . . فكيف درس هو في المعهد الديني قصة المسيح ـ وكيف حمل معاناته، إلى درجة أنه بكى بكاءً مراً، وخاصة عندما قرأ، كيف خانه يهوذا في حديقة هيفسيمان! وياله من انهيار قد حصل للكون، عندما صلب المسيح في ذلك اليوم الحار، فوق ذلك الجبل الأقرع، ولكن ذلك الشاب، قليل التجربة آنذاك لم يفكر في تلك اللحظة: لو كان يوجد في العالم قوانين تعاقب أبناء هذا العالم على أفكارهم النقية، ومعتقداتهم الروحية، لكان بالإمكان أن يفكر: ماذا سيكون لو كان ذلك شكل من أشكال الـوجـود، وطـريقـة لتحقيق هذه الأفكار؟ ماذا، لو أن ذلك سيكون هكذا؟ ماذا، لو أنه في هذا كانت تتجسد قيمة النصر؟

هذا، على الـرغم من أن الحـديث قد جرى عن ذلـك في بدايـة الأمـر مع فيكتـور غوروديتسكي، الـذي، وبغض النظـر عن الفـارق القليـل في السن، كان أفـدي يخاطبـه باحترام باسم أبيه ـ نيكيفوروفيتش. أما الحديث هذا، فقد تم قبل أن يترك أفدي المعهد الديني.

ـ ماذا عليّ أن أقـول؟ أتـرى، أيهـا الأب الفتي، لا تغضب يا أفـدي، عندما أناديك أحيـانـاً بالأب الفتي، إنهـا تسميـة ممتعة، ـ فكر غوروديتسكي، عندما كانا يشربان الشاي

عنـده في البيت، ـ أنت ستخـرج من المعهـد الـديني، أو بالأحرى، سيفصلونـك عن الكنيسة، إنني على ثقة، أن المشرفين عليك لا يسمحون لك، بأن تبتعد عنهم، وأن توجه اليهم تحدياً صريحاً . . . زد على ذلـك، أنـك تخرج بسبب نادر ولا يرضي الكنيسة مطلقاً ـ ليس لأنك قمت بإثم ما، أو ارتكبت خطأ ما، ولا لأنك تشاجرت مع شخصية معروفة في الكنيسـة، كلا، أيهـا الأب الفتي، الكنيسـة لم ترتكب أي خطأ تجاهك . . . أنك تبتعد عن الكنيسة، كما يقال، إنطلاقاً من قناعتك الفكرية . . .

ـ نعم، يا فيكتـور نيكيفـوروفيتش، ان الأمـر كذلـك. لا توجد أسباب مباشرة، ان ذلـك كان بكـل بسـاطـة مجرد ـ انـزعـاج. إن الأمـر ليس في تفكـيري وحـدي، بل في أن المعتقـدات التقليـديـة في يومنا الحاضر، قد أصبحت قديمة ومملة، ولا يجوز الكلام بجدية عن المعتقـدات، التي كانت توجـه الـوعي البدائي لايقاظ سواد الشعب. وأنكم تدركون، بأنفسكم، لو أنـه بإمكـان التـاريـخ أن يقـدم شخصيـة مركزية على أساس المعتقد العالمي ـ شخصية الإله ـ مع أفكار إلهية تتناسب مع المتطلبات المعاصرة للعالم، عند ذلك كان من الممكن أن يأمل الإنسان، إن التعاليم الدينية ستكون نافعة. هذا هو سبب خروجي من الكنيسة.

ـ أفهم، أفهم! ـ ابتسم غوروديتسكي بتواضع، وهو يحتسي الشاي. ثم تابع: ـ ان ذلك يطرق أذني كالصاعقة، ولكن قبل أن أتحدث عن نظرياتك، عليَّ أن أقول لك، أنني أجلس الآن، أشـرب الشـاي، وأتحـدث بكـل أريحيـة معـك، مسـروراً من واقعنا، وأننا، الحمدلله لا نعيش في القرون الوسطى. ففي السابق، وعلى مثل هذه الأحاديث في أوروبا الكـاثـوليكيـة، في إسبـانيا، أو في إيطاليا، كانوا يعاقبون الإنسان الذي يتجرأ أن يعرب عن رأيـه في هذه المـواضيـع الـدينيـة. وكان عليَّ أن ألقى العقاب أيضاً، لأنني سمحت لنفسي بالإستماع إلى رأيـك. وهكذا، لو حدث هذا آنذاك أيها الأب الفتي لكانوا قد فرضوا علينا عقـابـاً أليـماً، وقطّعـوا أجسـامنا إلى أربعة أرباع، ثم أحرقونا في النار، وطحنوا ما تبقى من عظـامنـا، وذروا الـرمـاد المتبقي في الهـواء. آواه! كيف كانت ستفرض علينا محاكم التفتيش العقاب القاسي بكل تشفي! وإذا أحرقت محاكم التفتيش الدينية واحداً فقيراً، لأن آخر قد وشى به، وكأنه سمح لنفسه أن يبتسم عند ذكر الحمل البريء، فكيف الأمر عندما نتكلم هكذا . . . !

ـ أعـذرني يا فيكتـور نيكيفوروفيتش، عليَّ أن أقاطعك، ـ إبتسم أفدي، وأخذ يزرر بسرعة أزرار سترته السوداء التي كان يرتديها في المعهد الديني، ـ إنني أفهم وضعي، وأنني قد

أحرجتك، ولكن، ودون مزاح، لو كانت في أيامنا هذه محكمة تفتيش دينية، لكانت قد حكمت عليَّ بالحرق غداً، عقاباً على ردتي الدينية، وما كان بإمكاني أن أنكر أي كلمة من كلماتي.

ـ أثق بما تقول، ـ قال غوروديتسكي موافقاً.

ـ لقد توصلت إلى هذه الفكرة، ليس مصادفة. لقد توصلت إلى هذا بعد دراستي لتاريخ المسيحية، واجراء مقارنة مع الحاضر، وسوف أبحث عن صيغة جديدة للرب، سواء وجدتها أم لم أجدها...

ـ هذا شيء جيد، أنك ذكرت التاريخ، ـ قاطعه غوروديتسكي، ـ إسمعني الآن. إن فكرتك عن الإله الجديد ـ هذه نظرية مجردة، على الرغم من أنها تتسم بالضرورة الملحة، إذا ما عبرنا بلغة العقلاء. وان تصوراتك هذه، كما تكلمنا سابقاً مجرد حسابات عقلية. أن تفكر بمشروع إله، ولكن مسألة الإله لا يمكن أن تكون من صنع الإنسان، مهما بدا ذلك ممتعاً ومقنعاً. أنت تعرف جيداً، لو أن المسيح لم يصلب، لما كان قد أصبح رباً. وهذه الشخصية الرائعة، المسلحة بأفكار السيادة العامة للعدالة، قد قتلت من قبل الناس، ثم صعدت إلى السماء، فمجدها البشر وبكوها وتعذبوا أمامها، وهنا تنسجم مسألة الخشوع والاتهام الذاتي، الندم والأمل، العقاب والعفو ـ وحب الانسان. والمسألة قد تغيرت، عندما شُوه كل شيء فيما بعد، وفقاً لمصالح محددة لبعض القوى، وهذا هو مصير كل الافكار الكونية. فلنفكر، من هو الأقوى والأعظم، والأكثر جاذبية والاقرب، أهو الإله المعذب، الذي سار إلى النطع، قاصداً العذاب فوق الصليب، أو الكائن الكامل الأعلى، وليفكر هذا المثال المجرد تفكيراً معاصراً، لقد فكرت بهذا يا فيكتور نيكيفوروفيتش. إنكم على حق، ولكن ليس بمقدوري أن أبتعد عن التفكير، لقد حان الوقت لإعادة النظر في الماضي مهما كان ضعيفاً. فالتصورات حول الآلهه، لم تعدْ ترضي إدراك الإنسان المعاصر حول فهم العالم الجديد. إن هذا واضح. لم نعد نتناقش حول هذا الموضوع. وربما هذا ممكن جداً، أنني أبتعد عن التجريد، وأبحث عن ذلك الذي لا يجدي البحث عنه. ولكن لا ضير في الأمر! فدع أفكاري لا تنطبق مع شرعية قوانين العبادة. لا أستطيع أن أفعل شيئاً مع نفسي. ولكنت سعيداً، لو تمكن أحد ما أن يقنعني بعكس أفكاري هذه.

فك غوروديتسكي يديه متفهماً ما سمعه وقال:

ـ إنني أفهمك جيداً، أيها الأب أفدي. وعلى الرغم من كل هذا عليَّ أن أحذرك من

أن قضية البحث عن الإله في نظر الكنائسيين، تعتبر من أفدح الجرائم ضد الكنيسة، وتعادل من حيث كبرها، قلب العالم رأساً على عقب.

ـ إنني أعلم هذا جيداً ـ قال أفدي بهدوء.

ـ ولكن الذي يكرهونه أكثر، هومسألة البحث عن الإله بإعتدال. فهل فكرت بهذا؟

ـ هذا شيء غير مألوف، ـ إستغرب أفدي.

ـ ستعيش ـ وتعرف. . .

ـ ولكن كيف هذا؟! وهل تتطابق مواقفهم؟

ـ الموضوع ليس في تطابقها، إنما في عدم الحاجة اليها. . .

ـ غريب، إن أكثر الأشياء ضرورة، يصبح، غير ضرورياً لأحد. . .

ـ أعتقد أنك ستلاقي الكثير من المعاناة، أيها الأب أفدي. وأنا لا أحسدك على وضعك. لا أحب أن أقنعك، ـ قال غوروديتسكي في آخر الحديث.

كان على حق. إنه محق في كل شيء. وقبل وقت قصير توفرت الإمكانية عند أفدي كاليستراتوف أن يقتنع بذلك.

حصل لقاء قبل أن يُطرد من المعهد الديني: في هذا النهار، وصل إلى مدينتهم شخص مهم، استقبله مدير المعهد بإحترام وتقدير كبيرين في محطة القطار، كان ذلك القادم هو المشرف العلمي، والمنسق بين المعاهد الدينية ـ الأب ديميتري. وكانوا يطلقون عليه في المعهد الديني اسم ـ الأب المنسق، وهو إنسان ذكي ولبق، متوسط العمر، ومن ذوي السمات المثالية، التي كان على مثله أن يتمتع بها. وفي هذه المرة وصل الأب المنسق للبحث في القضية الهامة الطارئة، التي كان سببها، واحد من أكثر الطلاب حيوية واجتهاداً ونشاطاً، هو أفدي كاليستراتوف الذي إرتد عن دينه وشك فيما جاء في الكتاب المقدس، وطرح فكرة خطرة حول الإله المعاصر. بالطبع، أن الأب المنسق قد وصل كناصح من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، وليؤثر بقوة شخصيته على الشاب أفدي الذي اعتراه الشك، ويعيده إلى الكنيسة، دون أن يثير الضجة والشك خارج جدران الكنيسة. وفي هذا المجال لا تختلف الكنيسة كثيراً عن المعاهد الدينية العليا، التي تهتم بشرف المعطف الكنائسي أكثر من أي شيء آخر. ولو كان أفدي كاليستراتوف، صاحب تجربة أكبر في القضايا الحياتية، لكان بإمكانه أن يستوعب القصد من كلام المنسق، ولكن أفدي لم يفهم كلمات الأب الكنائسي المعروف، وبهذا تعقدت حساباته.

لقد طلب من أفدي أن يحضر لمقابلة الأب المنسق في منتصف النهار وقضى معه ثلاث

ساعـات وأكثـر. وفي بدايـة الأمر، اقترح الأب المنسق أن يصليا معاً عند المذبح في الكنيسة الأكاديمية، القائم في إحدى صالات المبنى الرئيسي، وتحدث قائلاً:

ـ يا بني، أنت تعلم، دون أي شك، أنني أبغي، أن أتحـدث معـك حديثاً جاداً، ولكننا يجب أن لا نسرع، واذا تكرمتم، فلنذهب أولاً إلى المذبح الإلهي، ـ طلب الأب هذا من أفدي وهو ينظر إليه بعينين حمراوين بارزتين، ـ أشعر بضرورة تقديم الصلوات معك قبل أن نبدأ الحديث.

حفظك الله، أيها الأب، ـ قال أفدي، ـ أنا دائماً مستعد. وان الصلوات بالنسبة لي نقطة ارتكاز للتفكير الدائم بالإله. ويبدو لي، أن الفكرة حول الإله المعاصر لم تغادرني أبداً.

ـ علينـا أن لا نسـرع، يا بني، ـ قال الأب المنسق بهدوء، وهـو يقـوم عن الكـرسي. متجـاهـلاً العبـارة القـاسيـة حول الإلـه ـ المعـاصر، وعن نقطة الإرتكاز، فلم يرغب الأب المجـرب أن يتأزم الـوضـع في الحديث منذ البداية، ـ قدم صلواته وقال: عليَّ أن أقول لك، كلما استمـرت حيـاتي، وكـبرت عمراً، كلما أصبحت مقتنعاً بعظمة الإله ورحمته الكبرى، وعفوه الدائم واللامحدود. في الحقيقة أن الرب عظيم في حبه لنا. ربما أن صلواتنا بالنسبة له بمثابة الهراء بلا معنى. ولكننا في هذه الصلوات وحدها، نشعر بالاتحاد معه.

ـ أنكم على حق، أيها القديس ـ قال أفدي، وهو يقف عند الباب. وبما أن الشاب أفدي، كان ما يزال غضاً ولجوجاً، فإنه لم يستطع الصمت في اللحظة اللازمة لمتابعة الحديث بلابقة، وعرض سر أمره بهدوء، إذ قال:

ـ عفواً اذا تجرأت وأشرت، أن الإله في مفهومنا غير محدود، ولكن، وبما أن الفكر في العـالم يتطـور من معـرفـة إلى معـرفة، فإننا نستخلص النتيجة التالية: أن الإله يتسم بميزة التطور أيضاً. فما رأيكم بهذا الخصوص أيها القديس؟

لم يتمكن الأب المنسق أن يتهـرب من الجـواب، فقـال بصوت منخفض، وهو يسعل أحياناً، ويحسن من هندامه أحياناً أخرى:

ـ يالـك من متهـور أيهـا الشـاب، لا يجوز الكـلام هكذا عن الرب، على الرغم من أنك مازلت شابـاً. فليس بإمكـانـنـا أن نعـرف خالق الكـون الأبدي. انه يعيش خارج وعينا. وحتى المادية تعتقد، أن العالم ليس موجوداً في وعينا. فكيف الأمر عندما يجري الكلام عن الإله.

ـ اعذرني يا سيدي! علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها. فخارج وعينا لا توجد قوة

ميتافيزيقية.

ـ وهل أنت متأكد من هذا؟

ـ نعم، ولهذا أتكلم.

ـ إننا لا نرغب في أن نضع نقطة النهاية لحديثنا. ولنتابع الحديث، وكأننا في حلقةِ بحث دراسية مصغرة. وسنعود لمتابعة الحديث بعد الصلاة. أما الآن فاعمل معروفاً، وخذني إلى المعبد.

إن الحقيقة الوحيدة التي أظهرها الأب القديس، عندما طلب من أفدي أن يرافقه في تقديم الصلوات في الكنيسة الأكاديمية، كانت مسألة ذات أهمية، وكان على أفدي أن يفهم ذلك ـ حسب منطق الأشياء ـ كعلامة تدل على لين الجانب والتعاطف الخير من جانب القديس، وكان على الطالب أفدي، الذي هُدد بالطرد من المعهد، أن يستغل هذه الفرصة المناسبة ليتابع دراسته، فيما إذا أراد.

سار الإثنان عبر الممر ـ الأب المنسق في المقدمة، والى جانبه أفدي كاليستراتوف الذي سار مقصراً نصف خطوة عنه. كان أفدي ينظر متمعناً في ثياب القس الطويلة، وحسن قيافته، ومشيته الواثقة، وإلى غفارته السوداء الطويلة، التي أعطته وقاراً خاصاً، وشعر أفدي أنه يستوحي من خلال ذلك تلك القوة التاريخية التي كونتها القرون المتعاقبة، والتي تظهر في كل عمل إنساني، محتفظة بقوانين العقيدة، وتهتم قبل كل شيء بمصالحها الخاصة. وتتناقض مع هذه القوة منذ الأمد البعيد، تلك الرغبة الجامحة في البحث عن الحقيقة في الحياة. ولكن مازال الاثنان يسيران معاً، نحو الإله الذي آمنا به، وكل حسب طريقته، وكان عليهما أن يلقنا الناس الأفكار العامة حول الكون ومكان الإنسان فيه. وهذا وذاك يتوكلان على الإله، لأنه كان العليم والرحيم، وهكذا سار الإثنان في طريقهما...

بدت الكنيسة الأكاديمية في تلك الساعة خالية من الناس،أما في الحالات العادية فقد كانت كباقي الكنائس. وفي أعماق الكنيسة، عند المذبح، كان وجه السيد المسيح عابساً في ظل شعره الأسود، ونظراته المحدقة المتسائلة. ولقد بدا وجه المسيح شاحباً تحت وقع الضوء. وإليه اتجهت أنظار وأفكار الشخصين الراكعين أمامه على ركبتيهما ـ القس والشاب الطالب، الذي لم يحرم بعد من التفكير بالعودة. وقدم كل انسان منهما إلى هنا آملاً في لقاء المسيح على حده، والتحدث إليه بصراحة، وكأن المسيح قادر على إجراء حوار متزامن في أي وقت مع عدد غير محدود من الناس القادمين إليه. وفي واقع الأمر، مع كل الإنسانية في وقت واحد، في أي نقطة من الأرض، وفي هذا كانت عظمة وجوده في كل مكان.

وفي هذه المرة كان الأمر كذلك: قدم كل منهما صلواته، ورغب كل واحد أن يقدم هواجسه الخاصة، ومعاناته، والتبريرات لما قام به من أعمال، صادرة عن الإيمان به، وكل حاول أن يقدم مفهومه لهذا الكون، الذي يشغل فيه مكاناً صغيراً للغاية، ولفترة قصيرة جداً، وكل يرسم شارة الصليب على صدره، ويشكر الخالق، على نعمة الوجود في هذا الكون، وكلٌ يسأل: متى يحل اليوم الأخير من أيام حياته الأخيرة، ويحكم عليه بالموت، واسمه يتردد على شفتيه. . .

ثم عادا إلى تلك الغرفة، إلى أعمالهما، وهنا دار الحديث المفتوح، وجهاً لوجه:

ـ هكذا، يا بني، إنني لا أرغب في تقديم المواعظ لك، ـ قال الأب المنسق في بداية الحديث، وهو يأخذ وضعية مريحة في المقعد الجلدي مقابل أفدي كاليستراتوف، الذي جلس على الكرسي باحترام وهو يضع يديه على ركبتيه الضعيفتين، البارزتين من تحت رداء المعهد.

كان أفدي جاهزاً للحديث الجاد، ولقد استغرب جداً، أنه لم يلحظ في عيني الأب أي غضب، أو ما شابه ذلك، بل على العكس، كان الأب المنسق هادئاً كلياً. وهنا قال أفدي بإحترام:

ـ أسمعك بانتباه، أيها الأب.

ـ إنني أكرر مرة أخرى، لا أرغب في تقديم الوعظ إليك، ولن أقرأ لك الشروح. إن مثل هذه الوسائل غير مجدية مع أمثالك. ولكن تلك الأحاديث، التي تسمح لنفسك بالتفوه بها ـ وليس من باب السذاجة، أو الحماقة، ـ تثير في نفسي الألم. والآن تلاحظ، ورغم كل ذلك أنني، أتحدث إليك كنظير لي. زد على ذلك أنك ذكي . . وأقول لك بكل صراحة: من مصلحة كنيستنا أن لا تسخر عقلك ضد تعاليمها، بل على العكس، بما يتلاءم مع تعاليم الرب، وأنا لمْ أخفِ هذا عليك. رغم أنه كان بإمكاني أن أشد أذنك من باب الأبوة، إذ كنت أعرف والدك المرحوم جيداً، وكنا على علاقة طيبة، فقد كان انساناً مسيحياً حقيقياً، ومن ذوي المعرفة الواسعة. وهكذا، قادنا المصير إلى أن نتحدث سوية يا أفدي ـ إبن ديكون كاليستراتوف، الذي خدم في الكنيسة مدة طويلة. ولكن ماذا حصل الآن؟ لا أخفي عنك، في بداية الأمر، سمعت عنك الكثير من الايجابيات، ولكني قدمت إلى هنا، كما تعلم، لأسباب تثير القلق، إذ بلغني أنك ذهبت في التفتيش عن الديانة، على الرغم من أنك لم تنه مرحلة الدراسة بعد، وتوصلت من خلال بعض تصريحاتك التي بلغتني إلى قناعة أن ضلالك أكبر بكثير من عمرك. حبذا لو كان

الأمـر كذلـك. إن مرحلة الشبـاب، ولعدة أسباب، تتسم بالغرور،الذي يظهر عند مختلف الشباب، على أشكال مختلفة، حسب درجة الحماسة ونوعية التربية. فهل سمعت يوماً، أن أنسـانـاً مسنـاً، رأى الكثير في حياته، وعانى الكثير من العذاب، فقد إيمانه بالرب في نهاية حيـاتـه، أو أخـذ يفسـر التعاليم الإلهية على طريقته الخاصة؟ كلا. إن ذلك لم يحصل، ولو حصـل ذلـك، لكـان نادراً جداً.إن الحقيقـة الالهية تصل الى الإنسان، بكل أبعادها، عند الكـبر، زد على ذلـك أن أغلب الفـلاسفة الغربيين، وعلى وجه الخصوص، أولئك الذين يسمون بالموسوعيين الفرنسيين، قد بدأوا في مرحلة الغموض قبل الثورة هجوماً إلحادياً ضد الدين، وامتد هذا الهجوم ثلاثمائة سنة تقريباً، كانوا أناساً شباباً، أليس كذلك؟

ـ نعم، أيها الأب، كانوا شبابا.

ـ هذا ما قلتـه لك. ولم يدل على ذلـك أن الشبـاب المعـاصـر يتسم بمـوضـة التطـرف، ويحصل هذا قبل أي شيء بسبب ميزة حماسة الشباب؟

ـ نعم، ولكن هؤلاء النـاس الشبـاب، الـذين ـ حسب رأينـا ـ أيهـا الأب، كانـوا متطرفين، هم يملكون ـ اذا كنا عادلين، ـ بعض الأسس الموضوعية لقناعتهم.

ـ دون شك، دون شك، ـ أسرع الأب المنسق موافقاً مع رأي أفدي، ـ ولكن هذه مسألة أخرى، فهم لم يكونوا قديسين، وعلاقتهم بالدين كانت من خلال عملهم الصادق، فلا نطلب منهم أكثر من ذلك، أما أنت يا بني فستكون قساً في المستقبل.

ـ وعلى الرغم من هذا، ـ قاطعه أفدي، ـ فمن حيث الفكرة، على الناس أن يثقو كلياً بما أقول، وأن يوافقوا على معرفتي.

ـ لا تسـرع، ـ قطب الأب المنسق حاجبيـه، ـ إن كنت لا ترغب في أن تأخذ كلامي على محمل الجد، وتستفيد منه، بما فيه مصلحتك، فلنتكلم بصيغة أخرى: في بداية الأمر، لم تكن أنت الأول، ولن تكـون الأخـير في طرح الأفكـار المعارضة للدين. وعرفت الكنيسة خلال نشاطها الكثير من أمثالك. ولكن ماذا في الأمر؟ ففي كل عمل عظيم، توجد بعض العـراقيـل. ومثـل هذه الأمـور، بمثابة اللحظات العابرة. وكانت المفاجئات، وستكون في المستقبـل، من المهم الإشـارة إلى نهايتهـا الحتمية، دون شك، أورفض عناصر الشك التي يعـاني منهـا، وتخليـه عن أفكـاره بقناعة أشد وأقوى، وانطلاقة جديدة نحو الاعتراف الكلي بحقيقـة المنقـذ، ومن هنـا يأتي العفو من القديسين الآباء. وأما في حالة العناد والرفض من جانبك سيكون الطرد لواحد من المرتدين عن معتقد الكنيسة، وستفرض عليه لعنة الكنيسة وحرمانها، هل فهمت، ولا يوجد طريق ثالث، وأن المخرج الثالث لا وجود له؟ إن أفكارك

الجديدة لا يمكن لها أن تسود، هل تفهم هذا؟

ـ نعم، أيها الأب، ولكن لنفرض، أن الطريق الثالث ليس ضرورياً بالنسبة لي، كما هو ضروري، بالنسبة للكنيسة.

ـ أكمل، أكمل، ـ هز الأب رأسه ساخراً ـ ان مثل هذه الأفكار تستحق «المكافأة»!

ـ قال الأب بمرارة شديدة: ـ تفضل تكلم، من فضلك. أي طريق ثالث قد حضرت للكنيسة المقدسة. ربما تقترح ثورة ما؟ إن مثل هذه الاقتراحات لم تظهر عبر التاريخ...

ـ يجب تذليل الخضوع الأبدي، والتحرر من المعتقدات القديمة البالية، وإعطاء النفس البشرية حرية التفكير في طبيعة الكون.

ـ توقف، توقف! ـ احتج الأب المنسق. ـ هذا الكلام مضحك أيها العزيز!

ـ ولكن، اذا رفضتم إستقلالية الفكر وحريته، فإن ذلك سيكون مؤسفاً أيها الأب، وأرى أنه لا معنى من متابعة الحديث!...

ـ نعم، لا معنى للمتابعة! ـ حنق الأب المنسق، ونهض من مقعده وصوته يعلو متهدجاً: ـ عد لرشدك، أيها الشاب، ابتعد عن الغطرسة! إنك على طريق الهلاك! أنت ضال أيها البائس، إذ تعتقد أن الإله ثمرة تصوراتك، وحسب رأيك يُفهم أن الانسان إله فوق الإله. هذا في الوقت الذي يعتبر الوعي فيه من خلق القوة السماوية. فلو اعطيت الحرية لمثل هذه الأفكار الجديدة، لتم القضاء على ما تم انجازه خلال الاف السنين من تقدم في مجال نشر الخير على الأرض، وكان ذلك بفضل التضحيات والعذاب، على طريق نشر الوصايا الإلهية عبر جميع الأجيال. هذا هو طريقك الذي تسير عليه مطالباً بالتحرر من المبادىء العقائدية الدينية، هذا مع العلم أن هذه المبادىء التي أرسلت إلى الأرض كانت بإرادة الإله. فبدون الأفكار الجديدة بإمكان الكنيسة أن تبقى، كما كانت. ولكن بدون المعتقدات الدينية يصعب الإستمرار. واذا أردت أن يجري حديثنا هكذا، فعليك أن تذكر، أنك في الوقت الذي تحاول فيه أن تُزين الإله بأفكار جديدة، فإنك في واقع الأمر تتجاهله كلياً، وأنت على إستعداد لتبديله بإله جديد! ولكن الحمدلله، أن الأمور لا ترتبط بك، ولا بأمثالك. والرب يعلم كيف يحاسبنا، ـ وأن إلحادك هذا لا يحطم إلا ذاتك. وأن الرب سوف يكون رباً إلى الأبد! آمين.

وقف أفدي كاليستراتوف أمام الأب الروحي، وقد جفت شفتاه: لقد شعر بابعاد الحقد والكراهية تجاهه. وعلى الرغم من هجوم الأب، فلم يتراجع:

ـ أعذرني أيها الأب! لا يجوز أن تلزم القوى السماوية بما يصدر عنا شخصياً. فماذا

كان يلزم للإلـه ليخلقنـا، وفي أنفسنـا الكثـير من جوانب النقص، طالمـا كان بإمكـانـه أن يتجنب ذلـك؟ ونحن ـ مخلوقـاتـه تضمـر في عالمنا الجانب السلبي، والجانب الإيجابي ـ أي الخـير والشـر، فلماذا خلقنـا، وخلق عنصر الشك معنا، تجاه كل شيء، والعيوب والعبث، حتى في مجال العلاقة به؟ أنتم تدعون إلى مطلقية الإيمان، وأن جوهر العالم والروح، مرتبط بالقـوة السـماويـة وإلى الأبـد. وهـل تعتقـد أنت أيهـا الأب، أنـه من المنطق الإعتقاد، أن الإنسانية خلال تطورها العاصف مدة ألفي سنة تقريباً من ظهور المسيحية، لا تستطيع أن تضيف كلمة واحدة الى ما قيل قبل فترة الإنجيل؟ أنكم تنادون بالإحتكار للحقيقة، ولكن هذا في نهاية المطاف نوع من خداع النفس، وأنه لا وجود لأية تعاليم ـ حتى لو كانت منزلة ـ يكـون بامكـانهـا معـرفـة كل الحقيقـة حتى نهايتها. فلو أن الأمر كان هكذا، لكانت هذه التعاليم ميتة.

صمت الشـاب أفـدي، وفي هذا الصمت السـائـد سمـع من خلف النـافـذة رنـين أجـراس الكنيسـة في المـدينـة. كان ذلك الرنين قريباً ومعروفاً، وهو يمثل الرمز بين الانسان والرب. وهنا أراد أفدي أن يخرج، ويختني بعيداً، كصدى الأجراس، غير المحدود...

ـ أنت تذهب في أفكـارك بعيـداً أيهـا الشـاب، ـ قال الأب المنسق بصوت فاتر، وقد أصبح أكثر غرابة من قبل، ـ كان عليَّ أن لا أخوض هذا النقاش معك، لأن أفكارك مازالت غير ناضجة، ويعتريها الشك، ألم يوسوس الشيطان عدو الجنس البشري في صدرك؟ لكني أريـد أن أقـول لك كلمـة قبل الوداع: إنك بمثل هذه الأفكار ماض إلى التهلكة لا محال، لأن العـالم لا يطيق النـاس الـذين يزرعـون بذور الشك في التعاليم الدينية الأساسية. فأي أيديولوجيا تتوق إلى امتلاك الحقيقة النهائية، وأنت سوف تصطدم بهذا أيضاً. وحياة الناس أكثر قسـوة، وأشـد مما تبدو لك، وأنت سوف تعاقب لقاء عدم استيعابك للحقيقة، وسوف تذكـر حديثنـا فيـها بعـد. يكفي! جهـز نفسـك للخـروج من المعهد الديني! واعتبر نفسك مطروداً من الكنيسة ـ بيت الرب!

ـ إن كنيستي ستكون دائماً معي، ـ لم يصمت أفدي كاليسترا توف أمام تهديد القس، ـ كنيستي، هي أنـا بالـذات. ولا أعـتر ف بالمعابد، وأكره أولئك المتنكرين بأثواب الدين في الكنائس، وخاصة بنوعيتهم المعاصرة.

ماذا أقول لك، أيها الصبي، فأنا لا أطلب من الله إلا أن يجعل كل شيء كما يجب أن يكون، ولكن عليك أن تثق بما يلي: العالم سوف يعلمك أن تلبي ما يطلب منك، لانه تسود في الـدنيـا الحقيقـة المرة ـ الحصول على لقمة العيش. وهذه الضرورة قد أخضعت لها حتى

الوقت الحاضر الملايين، من أمثالك. . .

خطرت هذه التحذيرات على بال أفدي، فيما بعد، أكثر من مرة. وفي كل مرة كان أفدي كاليستراتوف يخلص إلى نتيجة مفادها، أن الشيء الأهم من وجوده هو التسي، الأسمى الذي يطمح إليه في المستقبل البعيد. وكان يدرك أفدي أن جميع الصعوبات على طريق الحياة، والمعاناة التي يعيشها في مختلف الحالات ما هي إلا حالات مؤقته، وسيأتي الوقت المناسب، عندما سيسير كثير من الناس على طريقه، ويقتدون به، أوليس في هذا، يكمن هدف وجوده؟

في تلك الأيام، عندما سافر أفدي مع السعاة للبحث عن الحشيشة في السهول التي تنمو فيها، كان ينظر من الصباح حتى المساء إلى فضاء الصحراء الفسيح من نوافذ القطار، وهو يحدث نفسه: «ها أنت الآن سيد نفسك، لا يقيدك أي شيء، عدا مهمة أسرة التحرير، وفيما تبقى، فأنت حر، وتتصرف حسبما يطيب لك. ولكن، وماذا اكتشفت في درب الآلام؟ هذه هي الحياة، كما هي، وأنت تلقاها وجهاً، لوجه. كما كانت قبل مئة عام. الناس يسافرون في القطار من مكان لمكان، وأنت واحد من هؤلاء المسافرين. وهم أيضاً يعانون من بعض نواحي النقص في سلوكهم. بدا ذلك الدخان المر، وكأنه شيء حلو المذاق. بينما يقضي على الإنسان في الإنسان. وكيف لك أن تدافع عنهم، عندما يقودون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك؟ وهل تعلم أنت من أين يأتي هذا؟ وفي أي شيء تنحصر الأسباب؟ ها أنت تصمت ـ لا تعرف من أي نقطة عليك أن تبدأ، وكيف لك أن تفسر كل هذا. وكيف لك أن تتصرف؟ وليس أنت الذي خرجت بإرادة صلبة من بين جدران المعهد الديني إلى فسحة الحياة، حتى تساهم في تغييرها، ولو قليلاً، نحو الأفضل؟ إن الزملاء في المعهد قد وضعوا عليك شارة الصليب كانسان متطرف. ربما كانوا على حق، وها أنت الآن تفكر، فهل هؤلاء السعاة من أجل الحشيشة، هم بحاجة اليك، وهل يلزمهم فعلاً، أن تتدخل في حياتهم وتصرفاتهم، وماذا بإمكانك أن تفعله بالنسبة لهم؟ وهل بإمكانك أن تغير قناعتهم، حتى يعيشوا حياة جديدة؟ في الوقت الذي تجلس فيه، وأنت تعاني من تناقض الأفكار، وتفكر كيف عليك أن تعمل: هم يمضون في طريقهم بعزيمة نحو هدفهم، ويتعطشون إلى تحقيق أشياء هامة لذواتهم، ويرون في هذا سعادتهم. فكيف من الممكن ان تتغير قناعاتهم، وكيف من الممكن أن نلفت اهتمامهم إلى الحقيقة؟ وإذا لم نتدخل في شؤونهم، ونقدم لهم العون، فانهم سوف يقعون في فخ المحكمة، عاجلاً أم آجلاً. وسوف يرسلون إلى معسكرات التهذيب القاسية، ولكنهم سوف ينظرون إلى ذلك، وكأنهم لم

يرتكبوا خطأ ما، وكأن مصيبة عارضة حلت بهم، وحبذا لو كان بالإمكان ـ أن يتبدل الشر في نفوسهم إلى خير، وأن تطهر عوالمهم الداخلية، وأن يقتنعوا بأنفسهم بضرورة الإبعاد عن هذه الأفكار الإجرامية، وأن يروا السعادة الحقيقية في شيء آخر. لكم كان هذا شيئا رائعا! ولكن، في أي شيء عليهم أن يروا سعادتهم؟: هل في قيمنا التي ندعو إليها؟ ولكنهم يتجاهلون القوانين ويتنكرون للقيم، زد على ذلك أنهم أخذوا يشكون في الإله، الذي سمعوا الأخبار عنه من خلال حكايا أجدادهم وجداتهم، ويعتبرونه أسطورة، لا أكثر، وفي نهاية المطاف، ماذا بإمكان الكلمة أن تغير أمام الرغبة في الحصول على النقود الكثيرة بسهولة؟ فالجميع، من هؤلاء الذين يسعون خلف الحشيشة، يرددون عبارة واحدة «كلمة شكراً لا تجدي نفعاً، بينما النقود هي الأهم!». ويجمع هؤلاء المهربون نقودا كثيرة. ويساهم في هذه العملية، ليس المحليين فحسب، بل أناس من مختلف المدن والموانئ، الساحلية ـ من مورمانسك، أوديسا، حوض البلطيق، ومن الشرق الأقصى. وإلى أين تذهب الحشيشة، وما ينتج منها من معجون وإكسترا؟ وهل الأمر ينحصر في موضوع ـ إلى أين نذهب الحشيشة؟ الأمر الأهم هو: لماذا يجري هذا، وكيف من الممكن أن تظهر مثل هذه الأمور في حياتنا، وفي مجتمعنا، الذي رفع شعارات، دوت في كل العالم مفادها أن نظامنا الإجتماعي، بعيد كل البعد عن العيوب. ولو كان بالإمكان أن أكتب مادة للنشر، حتى ألفت انتباه الكثيرين والكثيرين، كما لو كان الأمر يخص قضيتهم الحيوية، وكما يلتفت الناس الى الحريق في بيوتهم، أو إلى مصيبة تصيب أبناءهم، عند ذلك فقط، يكون بإمكان الكلمة التي يتبادلها الناس المتحمسون للأمر، أن تصبح قوة فعالة وبإمكانها أن تنتصر على رغبة جمع النقود، وتقضي على العيوب! فليسمح الإله، أن يكون كل شيء على ما يرام، وأن تصبح الأشياء المكتوبة أفعالاً أو واقعاً فعلياً، وأن تكون الكلمة الصادقة في المقدمة، وذات فعالية أولية... هكذا يجب أن تكون الحياة... هكذا يجب التفكير...

آه، يا إلهي، ها أنا، مرة أخرى أتجه اليك: ما معنى الكلمة أمام رنين النقود؟ ماذا يعني الوعظ أمام الإثم النفسي؟ وكيف بالإمكان أن تنتصر الكلمة على جوهر الشر؟ إمنحني القوة، ولا تتخلى عني في طريقي هذا. إنني وحيدٌ، فامنحني الصبر وامنحهم النقود ليرووا عطشهم وجشعهم اللامحدود...

اجتاز القطار أرض ساراتوف عبر طريقه من موسكو الى ألما ـ آتا. وها هو لليوم الثاني ينهب الأرض في سهول كازاخستان الفسيحة، وبدت هذه المنطقة من القارة الأسيوية في

جمال رائع. وتعجب أفدي وهو يجلس في القطار من اتساع المساحة، التي نشغلها روسيا وأمام النظر امتدت آفاق لا محدودة حقاً: فلو أخذنا هذه المساحة ومساحة سيبيريا ـ كان يتصور في مخيلته، ـ لكان لدينا نصف مساحة اليابسة في الكون تقريباً. . . في هذه المنطقة، كانت تمتد السهول الفسيحة، بلا نهاية، وكانت هذه السهول في أوج عزها: الأزهار بصغيرها وكبيرها قد تفتحت، والأعشاب وصلت إلى ذروة نموها، وكست وجه الأرض بألوان مزركشة، وبعد عدة أيام سوف تذبل تحت أشعة الشمس الحادة، وتجف الأعشاب حتى ربيع العام القادم. . . ومن خلال نوافذ المقطورة، كانت تصل موجات النسيم محملة بروائح النباتات السهلية المزهرة. وخاصة عندما كان يتوقف القطار للحظات عابرة في إحدى المحطات، وينظر الإنسان من حوله، فيرى السماء مكشوفة من أربع جهات، كنت أرغب في الخروج من المقطورة المكتظة بالمسافرين، وأن أركض فوق الأعشاب المتنوعة، والتي تشبه نبات الشيح، الذي يعطي إفرازات متعددة، رغم جفاف الأرض. يالغرابة هذه النباتات، ـ فكر أفدي ـ، وهل تلك النبتة ـ الحشيشة اللعينة، تنمو هكذا، في كل مكان، وتفوح رائحتها هكذا أيضاً؟ أتصور أن رائحتها، يجب أن تكون أقوى وأكثر حدة، كما يتحدث السعاة عنها في ساعة الصراحة، ولكن، وكما يقولون، إن الحشيشة طويلة الساق، وتصل بنموها إلى خصر الرجل تقريباً، وهي لا تنمو في كل مكان، فلهذه النبتة البرية خصائص مميزة، إذ تعيش في مناطق محددة والحمدلله الذي جعلها لا تنمو في كل مكان. ويتطلب الحصول عليها سفراً طويلاً، كما يجب البحث عنها في أماكن محدودة، ولو كان من السهل الحصول عليها، لكان من الصعب تصور ما سيحصل عند ذلك. . . وهكذا يسافر السعاة من المناطق البعيدة، وخاصة من المدن الساحلية، من أول الدنيا، إلى آخرها. يسافرون مهووسين بحثاً عن الحشيشة، المخدرة للعقل. . . يسافرون المسافات الطويلة، ولعدة أيام حتى يصلوا. وغير معروف، ماذا سينجم، وماذا سينتج عن هذه الرحلة الطويلة.

كان أفدي كاليستراتوف ينسى أحياناً هدف رحلته السرية، ويغرق في التفكير: في أي وقت، ومن قبل أي فصيل من البشر اكتشفت هذه المناطق ومن سكن فيها؟ ويتذكر، أنه قرأ في هذا المجال بعض الكتب، وشاهد بعض الأفلام خلال فترة الدراسة في المدرسة، ويفرح حين كان يصادف بعض ملامح الحياة الماضية على طريقه: قطيع الجمال السمر، المنتشرة في السهول كالمدن المهجورة والمقابر ـ المزارات، والقرى الصغيرة التي تتكون من بضعة بيوت، وفي بعض الأماكن كانت تبدو البيوت المؤقتة للرحل في أماكن متفرقة، ويبدو الأمر صعباً بالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون في هذه الأماكن المنعزلة عن العالم، وبدا أمام النظر

بعض الخيـالـة، يسـير ون زرافات ووحدانا، إذ كانوا يشبهون من حيث منظرهم الخيالة في قديم الـزمـان: بقبعـاتهم مدببـة الـرأس، وخيولهم قد جهزت بعدة قديمة. . وفكر أفدي: كيف يستطيـع النـاس أن يعيشـوا هنـا، وكيف لم يمـوتـوا من الحر والعطش في هذه المناطق الفسيحـة؟ وكيف يقضـون الليـالي هنـا؟ ومـا هو شعور الإنسان هنا تحت السماء الساكنة في الليـل، ربـما يشعـر الإنسـان بالـرعب لشعوره بالعزلةالقاتلة، في منطقة معزولة عن العالم، ولهذا فالقطارات التي تمر في هذه المنطقة تحمل المسرة للناس، ولا تثير أعصابهم كما يحدث في المدن الكبـيرة. وربـما على العكس، إن عظمـة ليـالي السهـول تبعث في الأرواح مشـاعر كبيرة، وبالمناسبة، إن الشعر ـ هو تأكيد سمات الروح الإنسانية في المجال العالمي. . .

مثـل هذه الافكـار والتصـورات، قد شغلت تفكـيره لفـترة قصيرة، وعاد إلى واقع رحلتـه في أنـه يسـافر مع السعاة من أجل جمع الحشيشة. وأنه الآن بين معشر المجرمين، من وجهة نظر القانون. ولفترة ما، من الزمن، ولمصحلة الفكرة الإجتماعية، التي قدمها لبرنامجه الصحفي، كان عليه أن يتأقلم مع حياة هؤ لاء، ويعتاد مؤ قتاً على طبيعة الشر التي يحملها الحشـاشـون في أعماقهم. وشعر خلال ذلك بقشعريرة باردة تسري في كيانه، وألم في المعدة، يبعث على الارتجـاف، وكأنـه كان واحـداً من السعـاة، وأحـد المشـاركـين في هذه الأعمال الإجرامية. عند ذلك ادرك أفدي الوضع النفسي لأولئك، الذين يعيشون، وهم يحملون في أعـماق أنفسهم أعبـاء سر كبـير، وأدرك، أنـه ومهـما كانت الأرض كبـيرة، ومهـما تحمـل الإنطباعات الجديدة من مسرة، فإن ذلك لا يساوي أي شيء. ولا يعطي العقل ولا القلب شيئـاً ما، ولـو كان في الـوعي نقطـة ألم صغـيرة، لحددت، رغـماًعن الإرادة شعور الإنسان وعـلاقتـه مع الـوسـط المحيـط. نظر إلى السعاة، الذين تقاسم معهم متاعب الطريق نحو سهـول القنب، وحـاول أن يتحـدث اليهم، ويـدخـل إلى عالمهم، وتـوقـع أفـدي كاليسترا توف، أنه، وعلى الرغم من الثقة الكبر ى في نفس كل هؤ لاء «الزملاء» السعاة، فكل واحد منهم مضطهد في هذه الحرفه، ويعيش في رعبٍ دائم خوفاً من العقاب القادم. دون شك، وحـزن على مصـيرهم، ومن الصعب أن يتفهم الإنسـان صلاتهم، وكـلامهم غير المفهوم ولعبهم الورق، وشرب الفودكا، وعزلتهم وتفكيرهم الشاذ ـ ستكون سيدا، أو خلف القضبـان، متى سيتحـررون من سلطـة الآثـام، وأن تفتـح أعينهم للنظـر في مستقبلهم نفسه، وأن يتخلصوا من الخوف الذي يلاحقهم باستمرار، والذي أفسد حياتهم، كما يفسد السم الهواء المحيط، ـ هذا ما أراده أفدي كاليسترا توف، وسخر لهذا كل معرفته وطاقته على الـرغم من أن تجربتـه ليست تجربـة غنيـة جداً، ولكنهـا ليست بصغيرة. لقد حاول أن يجد

المدخل إلى تنفيذ ذلك الهدف الرفيع، والآن قد أدرك، عندما خرج من المعهد الديني، تاركاً الكنيسة الرسمية، بقي في جوهره واعظا، وأدرك، أن إيصال كلمة الحق والخير للناس ـ هو أعظم ما يمكن أن ينجزه الانسان في حياته. ومن أجل تحقيق ذلك، ليس من الضروري أن تكون صاحب سلطه، ويكفي أن تكون مخلصا لمبدئك الذي تنحني أمامه. ولكن، وبالمناسبة أن أفدي لم يتصور بعد، وكما يجب ذلك الشيء الذي أقدم عليه، حسب ما أوعز له عقله وضميره. ولم يدرك بعد مسألة: أن يحلم الإنسان بنية حسنة لانقاذ الناس من العيوب ـ شيء، أما أن يحقق الخير بين أناس لا يرغبون بإنسان مثل أفدي، الذي يذهب معهم الآن للحصول على الحشيشة، ويسافر إلى أقصى الكون حتى يحصل على روبل دسم ـ شيء آخر. كان أفدي كاليستراتوف مسلحاً بالرغبة الخيرة، حتى يحول مصيرهم نحو النور بقوة الكلمة، إذ يؤمن، دون شك، بأن الإله يعيش في الكلمة، وأن الكلمة قد عكست إرادة الإله، لأنها تخرج من الحقيقة الخالصة. كان يثق في ذلك كما يثق في القانون العالمي. ولكنه كان يجهل شيئاً واحداً لم يعرفه بعد: أن الشر يتعارض مع الخير، حتى في تلك اللحظة، التي يريد فيها طالب الخير أن يساعد أولئك الذين ساروا على طريق الشر. . . كان عليه أن يدرك ذلك في المستقبل. . .

ـ ٦ ـ

أنبأت سلاسل الجبال الثلجية الملتوية، التي ظهرت في فجر اليوم الرابع عن اقتراب القطار من السهول السفلى في منطقتيّ تشويسكي ومواينكوم، أي إلى حيث يتجهون. ولقد كانت الجبال المغطاة بالثلوج هي المؤشر الوحيد في هذه المنطقة الفسيحة. وفي الوقت الذي يجتاز فيه القطار هذه السهول، كانت الجبال تغيب عن النظر، وتشرق الشمس عند طرف الأرض. ومرة أخرى يعم النور فوق هذه المنطقة بصفاء. أما القطار المملوء بالناس ذوي المصائر المختلفة فكان يتابع طريقه بسرعة، وقبل أن يصل إلى الجبال، لمعت المقطورات الطويلة عبر الحقول، وغاب خلف السراب في السهول الفسيحة. . .

في محطة جالباك ـ سازكان على السعاة ـ الصيادين أن يخرجوا من القطار ويتابعوا طريقهم إلى مخاطرتهم ورعبهم ـ كل إنسان لوحده، ولكن ضمن خطة مشتركة، وتحت قيادة موحدة. وهذا أكثر ما كان يهم أفدي كاليستراتوف ـ فمن هو سام الانسان الرئيسي في هذا العمل ـ ومن هي تلك العين الساهرة، التي تراقب كلاً منهم على انفراد. من هو ذلك الإنسان، الذي كانوا يذكرونه بسرية تامة.

بقي حتى محطة جالباك ـ ساز مدة ثلاث ساعات. بدأ السعاة، يهيؤون أنفسهم، إذ أثاروا ومنذ الصباح استياء المسافرين. بينما بقي بتر وخا طويلاً في المرحاض يغتسل جيداً بعد ليلة السكر، قبل أن يذهب إلى الزعيم، ليتلقى الأمر الأخير منه. ففي مساء البارحة باشر بتر وخا مع أصدقائه بشرب الشمبانيا، التي كانت بالنسبة لهم مشروباً خفيفاً، إذ كانوا يشربون الشمبانيا كؤوساً كبيرة، كما يشربون العصير، أو الماء، ثم تحولوا لشرب الفودكا، وهذا ما أخذ مفعوله كما يجب. فسقط الشاب الصغير لينكا، حتى أنه لم يعد بامكانه النهوض، وبذل أفدي جهوداً كثيرة حتى تمكن من إيقاظه. وعندما قال أفدي له أن محطة جالباك ـ ساز قد أصبحت قريبة، إضطر لينكا أن يقاوم الضعف في نفسه، ويجلس على المقعد، وهو يلوح برأسه من فوق رقبته الضعيفة الوسخة، فمن يصدق، أن هذا الصبي سيحصل على النقود من خلال أعماله الإجرامية، وأن حياته قد أصبحت على حافة الهاوية.

تابع القطار طريقه متمهلاً أحياناً ومسرعاً في الأماكن المستوية، وفي إحدى المقطورات كان سام، الذي أسرع إليه بتر وخا، بعد أن شرب كأساً ثقيلاً من الشاي الأسود ليصحو كلياً، ويعود إلى وضعه الطبيعي. ويبدو أن سام لم يشك من تعاطي الخمرة كثيراً، ولم يتمكن أفدي كاليستراتوف خلال هذا الطريق الطويل أن يشاهد سام ولو من بعيد، هذا على الرغم من أنهم سافروا سوية في قطار واحد، فمن هو، وكيف هو منظره؟ وجرب أن تعرفه من بين مئات المسافرين في هذا القطار! لقد كان حذراً جداً، مثله في هذا، مثل الوحش الذي يختفي عن أعين الناس، ولم يظهر طوال الطريق نهائياً. بعد قليل عاد بتر وخا من عند سام متجهماً وحانقاً، ككلب قد قتل قتلاً مبرحاً يبدو أن سام قد شتمه على تناوله الخمرة طوال الليل، عشية الوصول. كان من الممكن أن يفهم الإنسان وضعه ـ منذ تلك الساعة، التي وصل فيها القطار إلى محطة جالباك ـ ساز، إذ كان من الضروري التحرك بسرعة بالنسبة للسعاة وراء الحشيشة، ولكن بتر وخا الذي شرب كثيراً لم يعد لوضعه الطبيعي طيلة الأسبوع ـ. نظر بتر وخا بانزعاج إلى أفدي، وكأنه قد أخطأ في شيء بحقه، ثم قال:

ـ لنخرج، يوجد حديث.

خرج الجميع إلى عتبة المقطورة، وأخذوا يدخنون، بينما كانت عجلات القطار تدق وتضج بشدة.

ـ اسمع يا أفدي! إحفظ ما سأقوله لك، ـ بدأ بتر وخا الكلام.

ـ نعم أسمعك ـ انتبه أفدي اليه.

ـ لا تحاول أن ترفع أنفك كثيراً ـ قال بتر وخا غاضباً، ـ من أنت؟

ما بك يا بيوتر! ـ حاول أفدي أن يقلل من غضبه، ـ لماذا الغضب دون سبب؟ ومن الأفضل أن تحدثني، ماذا علينا أن نفعل الآن؟

ـ فيما بعد، سيكون كل شيء، كما يقول سام.

ـ نعم، أقصد هذا، فما الذي قاله سام؟

ـ شأنك صغير، ـ قاطعه بتر وخا، ـ أنت بالنسبة لنا جديد، ولذلك سوف تذهب معي ومع لينكا، سنكون ثلاثة، أما الشباب الآخرون، فانهم سيذهبون أحادياً، أو ثنائياً.

ـ مفهوم. ولكن إلى أين سنتجه؟

ـ هذا أمر لا يخصك. سوف تذهب معي. سنترك القطار في محطة جلباك ـ ساز وبعد ذلك سوف ننتقل بواسطة السيارات العابرة حتى سوفخوز «موينكوم»، وبعد ذلك لا توجد سيارات ـ سوف نتابع مشياً بالطبع.

ـ هكذا إذن؟

ـ وأنت كيف فكرت! هل نطلب لك سيارة «لادا»؟ هذا لا يجوز يا أخ! فلو شاهدنا أحد ما، سنقع في ورطة، ولو كان هناك سيارة او دراجة نارية «فان الأمر سيكون سيئاً للغاية!

ـ يا لهذا! أما سام فأين سيكون، ومع من سيذهب؟

ـ وما يهمك من هذا الأمر؟ ـ غضب بتر وخا ـ ومالك تسأل عنه كثيراً؟ سيذهب أو لا يذهب! وربما لا يذهب نهائياً! فهل عليه أن يقدم لك تقريراً، أو كيف لي أن أفهم هذا؟!

ـ طالما هو الزعيم بيننا، فعلينا أن نعرف أين هو، تحسباً لحدوث شيء ما.

ـ عن هذا بالذات، لا يلزمك نهائياً أن تعرف! ـ قال بتر وخا بصوتٍ عال، ـ هذا ليس من شأننا، أين سيكون، وكيف، فلو احتاج اليك، لعثر عليك حتى لو كنت تحت الأرض، ـ صمت بتر وخا متمعناً، وكأنه يقدر الإنطباع عند محدثه، ثم أضاف بعد قليل، وهو ينظر محدقاً بخبث، رغم أن عينيه لم تعودا إلى حالتهما الطبيعية بعد السكر وتابع: ـ لقد طلب مني سام أن أقول لك يا أفدياي: إذا عملت كما يجب، فستكون زميلاً دائماً لنا، واذا، حاولت أن تكون غير قويم في ساعة ما، فمن الأفضل لك أن تخرج الآن من العملية، إننا سنخرج الآن في المحطة، واذهب إلى حيثما شئت من الجهات الأربعة، فاننا لا نمسك بأذى، ولكن عندما تدخل العمل، ـ فان طريق العودة مقطوع، ولو خنت ـ فلن يكون لك

مكان في الأرض. فهمت؟

ـ فهمت، وهـل فيـما تقـول شيء يصعب فهمـه؟ فأنا لست بشاب صغير، ـ أجاب أفدي بثقة.

ـ هكذا، عليك أن تحفظ: لقد أوصلت لك ما يجب قوله، وأنت سمعت. حتى لا تحتـج فيـما بعـد على أي شيء ـ لم أعلم ولم أفهـم، سامحـوني، وارحمـوني.

ـ يكفي، بيوتـر، ـ قاطعـه أفدي، ـ لا تثرثر بلا معنى. فأنا أيضاً مسؤول عن نفسي، وأعـرف إلى أين أسـير، وأعـرف ما يلزمني. ومن الأفضـل أن تسمع نصيحتي الآن، فمن اليوم يجب عليك أن تترك الخمـرة، ولا تقـدم للينكـا الخمـرة أيضـاً. انـه صبي مجنون. ولماذا تشرب هكذا؟ اننا نتجه إلى تلك المناطق البعيدة، في مثل هذا الجو الحار ـ فأي ساع ستكون!

ـ موافق، ـ قال بتر وخا، وابتسم بارتياح، وهو يمتص شفتيه، ـ الحق ـ حق صدقني يا أفـديـاي، فلن أضـع بعـد اليـوم قطـرة واحـدة في فمي، ولن أسمـح للينكا بذلك. لقد حسمت الأمر!

صمت الاثنـان راضيين، أن الحـديث قد انتهى بما فيه خير الجميـع. كان القطـار يتهـادى في مسيره، وهـو يتجـه إلى محطـة جلبـاك ـ ساز حيث تجري عمليـة تبـديل طاقم الميكانيكيين. جهز الكثير من المسافرين حقائبهم للخروج، وأخذ لينكا ينظر بقلق إلى عتبة المقطورة.

ـ ماذا تعملون هنا؟ ـ سأل هو، وهو يقطب جبينه من وجع رأسه، ـ يجب أن نستعد، سنصل بعد ساعة.

ـ لا تخف، ـ أجاب بتر وخا، ـ ماذا علينا أن نستعد؟ فنحن لسنا فتيات حتى نعتني طويلاً بهندامنا، وما علينا إلا أن يأخذ كل واحد منا قمطره على ظهره، ونسير.

ـ تعـال يالينكـا، ـ نادى أفـدي الشاب الصغير، ـ اقترب مني، ان رأسك يؤلمك، أليس كذلك؟ ـ هز لينكا رأسه وقد شعر بالذنب، ـ ها نحن مع بيوتر قد قررنا: أننا لم نعد نتناول منذ هذا اليوم، ولا قطرة خمرة، موافق؟ ـ أحنى لينكا رأسه بصمت، ـ اذهب، الأن سنأتي، لن يفوتنا الوقت. لا تقلق نهائياً.

ـ لدينـا متسـع من الـوقت، ـ قال بتر وخا، بعد أن نظر إلى ساعته، ـ ساعة ونيف، ـ وعنـدمـا ابتعـد لينكـا، قال: ـ أنك محق بالنسبة للينكا، يا له من صبي مشاكس، يطلب الشـرب باستمـرار، وعنـدمـا يشـرب، لا يستطيع أن يقف على رجليه، أما الأن، فيكفي! العمل ـ عمل... لقـد سمحنا لأنفسنا أن نشرب قليلاً خلال الطريق، ولا تفكر، أنني أشرب

على حساب لينكا، ربما أنه. . . ولكني أشرب من كيسي.

ـ هل المشكلة في هذا، ـ قال أفـدي باستغـراب، ـ إنني آسف على الصبي، ـ أنت على حق، تنهـد بتر وخـا مستـوعبـاً الأمـر، واستقطبه هذا الحديث الصريح إلى التعمق في فكـرة أقلقتـه طويـلاً، إذ قال: ـ أين كنت تعمـل يا أفـدي قبل لقائنا هذا؟ عليك أن تفكر مليـاً. فنحن الآن أمـام خيـارين: إما أن نقضي أحلى الأوقات في المطاعم حول الطاولة، أو أن ندخل إلى السجن، وننقل فضلات السجناء من الزنزانة، فاختر إحداهما.

قرر أفدي أن لا يخفي شيئاً:

ـ لست مهـربـاً. ولن أخفي أي شيء عنـدي، فقبـل هذا كنت أدرس في المعهد الديني.

ومثل هذا الانعطاف، لم يكن ليخطر لبتر وخا على بال.

ـ انتظر، توقف! في معهد ديني، تقول، ـ هكذا، اذن، أنت كنت تريد أن تصبح قساً؟

ـ نعم، هكذا، كان عليّ. . .

ـ يا لهذا! ـ حدق بتر وخـا بعينـين جاحظتين، وصفر بجنون صبياني، وهو يصنع من شفتيه مزمارا، ولماذا خرجت من هناك، ربما طردوك لسبب ما؟

ـ لهذا، وذاك. وملخص الكلام، خرجت وانتهى الأمر.

ـ ولماذا حصل ذلك؟ هل اختلفتم على تقاسم الرب؟ ـ تابع بتر وخا بخبث ـ يا للأمر المضحك!

ـ يبدو لم نتمكن من تقاسمه.

ـ اذن قل لي، طالما تعرف كل شيء. . . هل يوجد إله أم لا؟

ـ يصعب عليَّ الإجابة عن هذا السؤ ال يا بيوتر، مهما عاش الناس في هذا العالم إنهم سيتابعون التفكير بمسألة وجود إله أو عدم وجوده

ـ وأين هو، يا أفدي لو قلنا، أنه موجود؟

ـ انه في أفكارنا، في كلامنا. . .

صمت بتر وخا، وهو يفكر بما قيل. بينما تصاعدت قرقعة عجلات القطار ـ إذ دخل ذلك الضجيج عبر الباب الفاصل بين المقطورتين، والذي تُرك مفتوحاً بعد مرور أحدهم، من مقطـورة إلى أخـرى، أغلق بتر وخـا البـاب واستمـع إلى قرقعة العجلات،التي هدأت نسبيا، وقال:

ـ إذن، أنه غير موجود عندي، أما عندك يا أفدي،فهل هو موجود أم لا؟

ـ لا أعلم، يا بيوتر. كان بودي أن يكون موجوداً، أريد أن يكون . . .
ـ هذا يعني، أن ذلك ضروري بالنسبة لك.
ـ نعم ان هذا ضروري بالنسبة لي . . .
ـ كيف لي أن أفهمك، ـ غضب بتر وخا، لشيء ما في ذاته، ـ وطالما أنت هكذا، أي شيطان دعاك لتسافر معنا، وخاصة أنك تدعي أن الإله ضروري لك؟
قرر أفدي أن لا يتعمق في النقاش، إذ أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا، وقال مهدئاً:
ـ ولكن الدراهم، ضرورية لنا أيضا.
ـ ها أنت تعود من جديد للكلام عن النقود، فإما الإله، وإما النقود، وأراك تكثر الكلام عن الدراهم!
ـ نعم هذا ما يحصل حتى الآن، ـ كان على أفدي أن يعترف.
هذا الحديث قد ساعد أفدي كاليستراتوف على أن يفكر بعمق. ففي البداية أدرك جيداً، أن سام، الذي لا يظهر أمام الآخرين، هو الذي يقود جماعة السعاة وراء الحشيشة ويمسك بهم جيداً في ظل سلطته طوال الطريق. ويبدو أنه لا يثق بالآخرين، ويحسب ألف حساب. ويتضح أنه يعامل جماعته بقسوة، وماذا سيعمل في حال لو شك في أي حلقة من العملية التي يقودها، لن يكون لديه أي رادع من أن ينتقم انتقاماً شديداً من كل فرد يخل بأمنه. وهذا ما يمكن أن يتوقعه الإنسان، ـ هذا ما تتسم به التجارة بالمخدرات. أما الشيء الثاني الذي تفهمه من أحاديث الطريق مع بتر وخا وغيره، أنه من الضروري التأثير على هؤلاء السعاة من خلال الكلمة، وأن من واجب الواعظ، أن يتكلم مع الناس بصراحة، ويمنحهم الثقة، دون أن يخاف من عواقب الخطر: ففي الماضي حمل الدعاة الأوائل كلمة المسيح إلى القبائل الأفريقية البر برية وهم يخاطرون بحياتهم، لأن انقاذ الأرواح من خلال تضحيته بذاته هي النتيجة الأسمى في مصير الإنسان ومغزى حياته، وهكذا ينقذ روحه.
وصلوا إلى محطة جلساك ـ ساز ظهراً، في الساعة الحادية عشر تقريباً. كانت هذه المحطة، نقطة مواصلات هامة، إذ تتصل بها مجموعة طرق أخرى. وكان عدد المسافرين في هذه المحطة كبيرا من مختلف المناطق، وهذا كان شيئاً مريحاً بالنسبة للسعاة: من الممكن أن يضيع الواحد في هذا الازدحام بسهولة. وكل شيء في مطعم المحطة كان على خير وجه. كان عدد الأشخاص مع أفدي إثني عشر إنساناً تقريباً (هكذا بدا له) وكان على هؤلاء أن يتجهوا إلى السهول لجمع الحشيشة.جلس السعاة حول الطاولات كل على حدة، أو مع زميل له، ولكنهم لم يتحدثوا مع بعضهم، ولم يبرزوا أنفسهم، عن غيرهم مس

المسافرين في المحطة.وأولئك الشبان مثل لينكا، وأكبر بقليل، مثل بتر وخا، كان عددهم كثير: البعض يسافرون إلى جهة ما، والآخرون يأتون من مكان ما، ففي هذه الأيام الحارة من فصل الصيف يزداد الاختلاط الطبيعي للناس الأسيويين والأوروبيين. . . وإلى هنا أيضاً كان يأتي أفراد من الميليشيا للحفاظ على النظام.وعلى الرغم من أنهم كانوا في كل مكان، فلم يكن هذا يخيف السعاة، تناولوا طعام الغداء بسرعة، وفسحوا المجال للآخرين، من الذين كانوا ينتظرون أمكنة ليتناولوا طعامهم. وبعد هذا، وباشارة لم يلحظها أحد تجمعوا على عجل؟ كل مع أغراضه: القمطر على الظهر، والحقيبة في اليد، فقد كانوا يحملون معهم الخبز والمعلبات، والأدوات اللازمة لهم. وهكذا اتجه السعاة حسب الطرق المقررة لهم، وذابوا في السهول الفسيحة في منطقة موينكوم.

اتجه بتر وخا ومعه أفدي ولينكا سوية، وكما كان قد خطط لهم سام، الذي لم يتعرف إليه أفدي بعد. ولكن لم يكن هناك أي شك، أن سام قد قاد جميع العمليات من وراء الكواليس، سافر الثلاثة (بتر وخا ولينكا وأفدي) إلى أبعد المناطق، حتى كادوا يصلوا إلى موينكوم نفسها، مستخدمين في ذلك سيارة شحن عابرة، حتى منعلفة سوفخوز (أتشكودوك)، مقابل خمسة روبلات، دفعها بتر وخا من النقود التي خصصها سام. ومن باب الحذر وضعوا لأنفسهم حكاية: أنهم عمال «مياومون» أتوا للعمل المؤقت في هذه المناطق. أفدي ـ نجار، وهو ضروري للعمل في هذه المنطقة جداً، وهذا ينطبق مع الواقع فعلاً: اذ أن أفدي كان في الحقيقة نجاراً جيداً. علمه والده هذه المهنة منذ الطفولة. ووضع له بتر وخا في قمطره فارة نجارة للتمويه أيضاً، وكذلك بلطة وازميل كان قد اصطحبه معه من البيت احتياطاً. أما بتر وخا ولينكا فقد تظاهرا، وكأنهما يعملان بالملاط والدهان ويدرسان في المعهدالتقني، وفي فترة الصيف يعملان في مجال البناء وهما يقصدان الان سوفخوز «أتشكودوك» البعيد من أجل العمل عند الفلاحين، وبناء البيوت ـ هذه الحجة كانت في واقع الأمر، حجة مناسبة.

كان الطقس حاراً للغاية، ولكن، وفي سيارة الشحن المكشوفة كان الجو أحسن، والشمس لا تحرق كما في الأرض، والنسيم السهلي يهب بين تارة وأخرى. أما الطريق، فهو كباقي الطرق الريفية ـ سيء للغاية.

وعندما كانت تتوقف السيارة، كان الغبار يصعد من تحت عجلاتها مكونا هالة كبيرة من الغبار الكثيف، وما بقي عليهم الا أن يلوحوا بأيديهم، ويسعلوا. والشيء الوحيد الذي كان يخفف من عبء الطريق، كان ذلك المحيط، والفضاء الرحب، إذ كانت تخطر افكارا

غريبـة على بالهم: لو كان لهم أجنحـة، لطاروا فوق الأرض... «الآن، قد أيقنت حقيقة أن الأرض ـ هي كوكب، ـ فكر أفدي، وهو يقف خلف غرفة القيادة في السيارة، ـ وكيف يعـاني الإنسـان من الضيق فوق الأرض، وكيف يرتجف خوفـاً، من أن المكـان لا يكفيـه، ويخـاف من الجـوع، وأن لا يتعـايش مع الآخـرين من أبنـاء جنسـه. ألا يكمن الأمر في أن التحـذيـر، والخـوف والكـراهيـة، وما إلى ذلك يجعل كوكبنا الأرضي بسعة ملعب القدم، الذي كان فيه جميع المشاهدين كرهائن، لأن الفريقين، ومن أجل الفوز، حملا معهما قنابل نووية للضغط على بعضهما، بينما أخذ المشاهدون، غير مبالين بالعواقب الوخيمة يصرخون بصـوت عال: «غـول، غول، غول»! هذا هو كوكبنـا. وأمـام كل انسان توجد مهمة دائمة ـ أن يكـون إنسـانـاً، اليوم، غداً، دائماً. ومن هذا بالذات يتكون التاريخ، فإلى أين نسافر الآن؟ ومن أجل أي ضرورة حياتية هامة يبحث الناس عن السموم لأنفسهم؟ وماذا يدفعهم إلى هذا، وماذا يجدون في هذا الوسط الرهيب، في العزلة عن أنفسهم بالذات؟».

في هذه القـريـة «أتشكودوك» البعيدة، والتي نسيها الإله، في هذه المنطقة البعيدة من كازاخستـان، وجـد بتر وخـا وزمـلاؤه العمـل فوراً ـ اتفقـوا لانجـاز ملاط بيت، وتجهيـز الأبـواب، أمـا المـواطن صاحب البيت فقد كان يقضي أغلب وقته في السهول مع قطعانه، وكـافـة أفـراد أسـرتـه، ولقـد كلف جاره أن يشـرف على العمـل في بنـائه، وأن يتفق مع العمال الـذين قد يأتـون في هذا الصيف كما في السنـة المـاضيـة. وهكـذا أتى هؤلاء وكأنه قد علم مسبقاً بقدومهم ـ بتر وخا، أفدي. لينكا ـ ثلاثة شباب سعاة.

عاش الثـلاثـة في ذلك البناء، ولحسن الحظ أن السقف كان موجوداً، والطقس دافئ عملوا موقداً إلى جانب البيت، وكانوا يطهون بعض الأطعمة. وتجب الإشارة، إلى أنهم قد عملوا بنشـاط، كان ينهض بتر وخـا منـذ مطلع الفجـر، يوقـظ زميليه أفدي ولينكا بسرعة، ويعملون بجدية ونشاط حتى حلول الظلمة. كانوا يتناولون طعام العشاء على ضوء النار، وعند ذلك فقط كان بتر وخا يسمح لنفسه أن يخلد للراحة، وأن يفكر قليلاً.

ـ ها أنت، يا أفدياي، أراك سعيداً، وتعمل كما يجب. وسوف نحصل على نقود لا بأس بها من صاحب البيت. ولكن مثل هذه النقود بالنسبة لنا لا تساوي أي شيء! لا تعلق على سن واحـد! إننـا نعمـل هنـا للتمـويـه. وعندما نبدأ العمل في المكان الجديد، فسوف نعمل بكل طاقتنا، ونقطف تلك الزهور، هناك سيكون الأمر على خلاف ما نحن فيه ـ يوم عمل واحد في السهل كما يجب، وتستريح عاماً بأكمله كما يستريح الوزير. أليس كذلك يا لينكا، فأنت قد جربت وتعرف!؟

ـ أعرف القليل، ـ أجاب لينكا، الذي كان يفضل السكوت.

ـ ولكن عليكما أن تحذرا، ـ قال بتر وخا بشدة، ـ أن تحذرا جداً من قول أي كلمة للجار، أو لأي إنسان هنا، إنهم أناس طيبون، ولكن مهما يكن من أمر ـ فالموت، ولا إفشاء السر، وخاصة إذا قدم إليكما شخص ما، وأخذ يطرح الأسئلة، فأنت، يا أفدياي، قل له: لا أعلم أي شيء، وليس لي علاقة بشيء، هذا هورئيسنا هناك! فتحدث معه بحرص، وقل إنك إنسان صغير، لا تعرف شيئاً. مفهوم؟

بالطبع لا يوجد أي شيء يصعب فهمه فكل شيء مفهوم ببساطة، ولكن الأمر الذي أقلق افدي، هو الصمت الذي يجب عليه أن يلتزم به. عند ذلك سيكون من الصعب عليه أن يؤثر بالشباب، الذي تسمموا بذلك المرض السيء، والذين يلهثون للحصول على تلك النقود عن الطريق الإجرامي، ومثل هذا التدخل، كان يقتضي منه أن يضحي بروحه، وهولن يسمح لنفسه بهذا. حتى اذا تمكن أفدي أن يؤثر بهم بقوة الفكرة والكلمة، وأن يجعل هذين الاثنين يصغيان لصوت العقل، ويقررا الإنفصال عن هذه الحياة، ولكنهما لن يتجرأا، ولن يتمكنا من فعل أي شيء لسبب بسيط: فهما قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بهذه الروابط الدائرية السيئة مع الآخرين، الذين يملكون الحق الكامل في معاقبتهم على خيانتهما. ولكن كيف من الممكن أن يتم خرق تلك الدائرة السيئة؟ ومما جعل أفدي يهدأ قليلاً، أنه يخدم مسألة خيرة، وهويدرك جيداً من خلال تجربته ويعرف كيف يتصرف السعاة وراء الحشيشة، ثم يُعد ذلك في ريبورتاج صحفي كبير، ليبين الحقيقة للناس، وهذا سيكون ـ كما أمل ـ بداية النضال الأخلاقي من أجل أرواح هؤلاء الشباب، الذين ارتكبوا تلك الأخطاء على طريق السوء، كل هذا ساعد أفدي أن يستسلم للأمر الواقع، وأنه، دون إرادة منه، قد دخل في دائرتهم، وأصبح عضواً في جماعة بتر وخا.

في اليوم الثالث لوجودهم في سوفخوز أتشكودك حصل حادث صغير، لم يعره أفدي أي إهتمام، أما بتر وخا، الذي كان قد ذهب مع جاره، مشوه الحرب إلى مركز السوفخوز من أجل شراء بعض معلبات الكونسروة والسجائر والسكر وغيرها من الأغراض التي تلزمهم في السهول، فقد قلق قلقاً شديداً. زد على ذلك أنه كان عليهم أن يتحركوا في فجر اليوم التالي إلى السهول، وكأنهم قد انتقلوا للعمل في مكان آخر.

كان لينكا يملط جدران البيت من الداخل، بينما عمل أفدي في تجهيز الباب للملحق، وفي هذه اللحظة سمعوا صوت دراجة نارية يضج في الشارع، نظر أفدي، رافعا كفه فوق عينيه كي يتقي نور الشمس، فرأى بالقرب من البيت دراجة نارية كبيرة، قفز

السائق عنها بخفة إلى الأرض ومما أثار إستغراب أفدي، أن ذلك السائق، كان إمرأة شابة. ولكن كيف تتمكن هي من قيادة هذه الآلة الثقيلة، وعبر هذا الطريق الوعر جداً؟! نزعت ا." بذة ذات الحزام المتدلي عن رأسها، وخلعت النظارات الواقية من الريح، ونفضت رأسها، وأرسلت بشعرها الأشقر الكثيف على كتفيها ـ أنهكت جداً! ـ ابتسمت مظهرة صف أسنانها البيضاء، ثم قالت بمرح وهي تنفض الغبار عن نفسها: ـ آه! كم من الغبار تكدس عليَّ، مرحباً أيها الشاب!

ـ مرحباً، ـ قال أفدي بحياء. ولكن الوصايا الكثيرة لبترِ وخا قد أثرت فيه لدرجة كبيرة: «من هي؟ ولماذا قدمت إلى هنا؟ ـ فكر أفدي،

ـ هل صاحب البيت هنا؟ ـ سألت المرأة الشابة، بنفس اللهجة المرحة.

ـ أي صاحب؟ ـ لم يفهم أفدي، ـ تقصدين صاحب هذا البيت؟

ـ نعم، بالطبع.

ـ انه، غير موجود هنا كما أتصور، بل في السهل.

ـ وأنتم لم تروه ؟

ـ كلا، لم نره، لا، بل قد رأيناه، ولكن للحظة، لأنه قد أتى قبل فترة قصيرة، ولكني لم أتحدث اليه.

ـ غريب، كيف لم تتحدثوا اليه، ـ وأنتم كما يبدو، تعملون عنده، تبنون له بيتاً؟

ـ أعذريني، فأنا لم اتمكن من الحديث معه. فقد أسرع إلى جهة ما، لقد تحدث معه زميلي الأكبر، إسمه بيوتر، وهو غير موجود هنا. قريباً سيعود.

ـ إنه لا يلزمني، أعذروني، إذا أكثرت الأسئلة. إنني ببساطة أرغب في رؤية أورمان

ـ إنه راع غنم، وهو يعرف ما يهمني. ولذلك مررت به، كنت أعتقد أنني سأجده، أرجو المعذرة، يبدو أنني أزعجتكم.

ـ كلا، نهائياً.

وضعت راكبة الدراجة الخوذة على رأسها، دون أن تشد حزامها، أدارت الدراجة وغادرت المكان وهي تلتفت إلى أفدي من خلف واقية العينين الزجاجية. مودعة اياه بحركة من رأسها، ورد أفدي على التحية ملوحاً بيده، دون أن يضمن ذلك أي معنى. وبعد هذا اللقاء أخذ أفدي يفكر طويلاً بما حدث: فعلى الرغم من أن الأمر ليس بذي أهمية، فإن هذه المرأة قد أثارت الشك في نفسه، إذ كانت زيارتها المفاجئة تثير القلق عشية خروجهم سعياً وراء الحشيشة. وربما كانت قد أحست بشيء ما، ـ كلا، أنه كان يفكر بأمر آخر كلياً.

فبعـد أن غادرت، تاركـة خلفهـا الغبـار المتصـاعد، أخذ يتصورها، بكل تفاصيل اللقاء، وكأنـه وضـع أمـامـه هدف،وخيـل اليـه أنه حفظ صورتها طوال حياته. وأخذ يؤكد بدهشة ورضـاء، أنهـا جميلة، رشيقـة القـوام، غير طويلة كثيراً، أطول من الوسط بقليل، إن كل شيء كان فيهـا أنثـوياً، ومتنـاسبـاً كما كان يرغب هو. «كلا، عدا المزاح، ـ حدث نفسه، وكأنـه ينـاقش شخصـاً آخـر، ـ أجل هكذا يجب أن تكون المرأة! نعم هكذا يجب أن تكون المرأة الجذابة».

حفـظ أفـدي تقـاسيمهـا الـرقيقـة، غير العـاديـة. وعـلائم وجهها الملهمة، عيناها البنيتـان، القـريبتـان من السـواد، وبهـما بريق رائع. وكان شعرها يسترسل على كتفيها، ويحيط بوجهها. والانسجام بين لون عينيها البنيتين السوداوين وشعرها الأشقر، قد أعطاها روعة خاصة. وقد أعجبه كل شيء فيها حتى الندبة الصغيرة،التي بالكاد ترى على وجنتها اليسرى (ربما قد وقعت في طفولتها؟)، وبساطة هندامها ـ جينز وسترة وجزمة قديمة، طوت ساقها من الأعلى، ـ وكيف كانت تقود دراجتها النارية بثقة: فقد كان أفدي لا يجيد قيادة الدراجة العادية. . . ثم كيف ارتبك، عندما سألته عن صاحب البيت، وهو يجيبها: رأيته، كلا، لم أره، لا، رأيته. . . فانه تصرف كالصبي، ولماذا ارتبك بهذا الشكل؟

انشغـل أفـدي بالتفكـير بهذه المرأة الشابة، على الرغم أن كل شيء قد مر بسرعة: قدمت على دراجتهـا فجأة، وقطبت عائـدة بعـد لحظـات، هذا كل ما في الأمر. ولكن من كانت هذه الشـابـة، ومن أين أتت؟ أغلب الظن أنهـا قدمت من مكـان ما يجهله ولكن من أجل ماذا، وماذا تعمل مثل هذه المرأة في هذه المناطق الصحراوية؟. .

علم بتر وخـا بعـد عودته، أن أمرأة غريبة قد قدمت إليه راكبة دراجة نارية، ولم يكن بإمكـانـه أن يمازح بعـد هذا، بل أخـذ يسأل باهتـمام: ماذا قالت، وبـماذا اهتمت، وبماذا أجابها أفدي. وكان أفدي ولينكا مضطرين لإعادة حديثهما معها عدة مرات، كلمة، كلمة.

ـ لا شك أنـه يوجـد في الأمـر شيء!ليس الأمـر عادياً، ـ هز بتر وخا رأسه مع بعض الشك ـ آسف، لأنني لم أكن هنا، ولو كنت لفهمت ما تريده هذه العصفورة فوراً، ها أنت تقتنـع يا أفـديـاي، فعلى الـرغم من أنـك ذكي، فأنا أجدر منك بمعرفة حقيقة الأمور، لو كنت هنـا لوجهت لها الأسئلة، وعـرفتهـا، ولأدركت من هي، ومـا يلزمهـا. أمـا أنت أيهـا الصديق، فقد فقدت حكمتك في المبادرة، هذا على الرغم من أنني قد حذرتك.

ـ لماذا أنت مضطـرب؟ ـ حاول أفـدي أن يعـرف سر قلقـه، ـ ومـاذا في الأمر، حتى

تخاف بهذا الشكل؟

ـ هذا يثير القلق في نفسي لأنـه سيكـون بإمكـان المتتبعـين أن يقتفـوا أثـرنـا، وربما أرسلوها للإستطلاع، ومعرفة حقيقة أمرنا؟

ـ أترك هذا الهراء الذي لا معنى له!

ـ ممتع، وماذا ستقول فيما بعد، عندما ستكون خلف القضبان، أو عندما سيحاكمك سام، إنه يعاقب بقسوة وأكثر من الشرطة: إنه يسلخ الجلد، وأحياناً يضرب حتى الجنون. هل تفهم ما هو الجنون؟

ـ اهدأ يا بيوتر، لا مفر من المصير، كان يجب التفكير بهذا مسبقاً، فهذا لينكا مازال شاباً صغيراً، ومن قاده إلى هذا العمـل؟ أمـا أنت فكم هو عمرك ـ هل بلغت العشرين؟ وأنت، كالأبله، ليس بإمكـانـك أن تسير خطوة مستقلاً، ولا تقول كلمة زائدة ـ حتى لا يغضب سام منك، ولو فكرت جيداً في المستقبل، فهذا شيء يستحق التفكير ملياً.

ولكن مدخل أفدي إلى الحديث لم يكن ناجحاً ـ غضب بتر وخا وقال:

ـ أترك هذا الحديث، يا أفدياي، ولا تمس لينكا. فإذا كنت تدرس حتى تصبح قسا، فانس هذا. انسى، فكلامك الجميل لا يجدي أي نفع. ولكننا، وبرفقة سام حصلنا على الكثـير من النقـود. مفهـوم؟ ان لينكـا ـ يتيم، ولا يلزم لأحـد، أمـا إذا كانت لديـه النقود فسيكون سيد نفسه. أرغب في الشرب ـ أشرب، أريد تناول الطعام ـ أتناوله. ومن وعظك هذا لا يشبـع الجـوعـان، أمـا فما بالـك إذا أردت أن تحتفـل مع أصـدقـائك، لكي تتكسر الطاولات تحت عبء المأكولات، وكي تصدح الفتيات بأصواتهن في الحفلات، حتى تدخل البهجة إلى القلوب كما يجب لا تحلم بهذا مطلقاً: ها هم أخوتي، يعملون ويكدحون، ولو اطلعت على عملهم الصعب، وكيف يحصلون على الروبل! انهم يعملون بلا توقف. أما أنـا فلا أعتـبر النقـود البسيطـة التي يتقـاضونها شيئاً! المجنون وحده لا يحب النقود، أليس صحيحاً يا لينكا؟

ـ صحيح، ـ قال لينكا وهو يبتسم بسعادة، ويهز رأسه موافقاً، دون أن يشك بكلمة من كلام بتر وخا.

كان هذا مدخلا للحديث الجاد فيما بعد، عندما تحين الفرصة. أدرك أفدي، أنه لا تجوز أن يتعمق فى الحـديث، ـ وإلا من سيصـدق، أنـه من سعاة جمع الحشيشة، وينعطش قبل كل شيء إلى الحصول على النقود.

في اليـوم التـالي هب الثـلاثـة منـد طلوع الفجر، والظلمة مازالت تخيم على الأفق،

وجميع سكان القرية مازالوا يغطون في نوم عميق، حتى الكلاب لم تنبح، واتجه السعاة الثلاثة، دون ضجة أو صخب مارين بين البيوت، وخرجوا إلى السهل الفسيح، وحسب كلام بتر وخا كان يجب السير مسافة ليست بطويلة، كان يعلم، إلى أين يتجه، ووعد أفدي، أنه سيريه عشبة الحشيشة، ما أن يراها فوراً.

بعد قليل حصلت المصادفة: ظهرت نبتة ذات ساق مستقيم، تغلفه قشرة قوية ذات أهداب، هذه كانت نبتة الحشيشة، التي قدم من أجلها عدد كبير من البشر من أوروبا الى آسيا «آه يا الهي، - فكر أفدي وهو ينظر إلى نبتة الحشيشة، - فهي من حيث المنظر نبتة عادية، تشبه الحشائش الطفيلية الطويلة، ولكن كم فيها من حلاوة النشوة لأولئك، الذين يدفعون حياتهم من أجل الحصول عليها: وهنا يدوس الناس عليها دون اهتمام!» نعم هذه هي الحشيشة. كانت الشمس قد ارتفعت وبدأت ترسل حرارتها الدافئة، وهم يقفون في السهل الفسيح الخالي من الناس، ولا يوجد بالقرب منهم، ولو شجرة واحدة، أخذوا بعض الأزهار من النبتة، وأخذوا يفردون وريقاتها ويستنشقون رائحتها التي تدوم في الأنف طويلاً. وأي تصورات غريبة وعجيبة قد كونت الحشيشة عند المدخنين لها، خلال العديد من القرون! حاول أفدي أن يتصور الأسواق الشرقية في غابر الازمان (لقد قرأ عنها في الكتب فقط) في الهند، وأفغانستان، أو تركيا، في مكان ما من اسمبول أو في جايبور عند جدران قلعة قديمة، عند بوابات قصور شهيرة في قديم الزمان، حيثما كانوا يبيعون الحشيشة علناً، والناس يشترونها ويدخنونها في نفس المكان. وكان كل انسان يستمتع حسب طريقته الخاصة، وحسب تصوراته الخيالية.ويستسلم للهلوسة - فأحدهم تخيل نفسه يتمتع بالملذات في حرم متعدد النساء، وآخر بتصور نفسه مسافرا على فيلة ملكية مزخرفة تحت مظلات جميلة، وهي تسير بين الناس المزدحمين، الذين يصفرون في مزامبرهم، واخر انغمس في حزن كئيب، وانطوى على نفسه في عزلة خانقة، ولدت في أساس الوعى الميت، والظلمة، التي تثير الغضب الشديد في عالمه، والرغبة في تهدبم العالم وسحقه إلى درجة نثره دهباء - الآن بالذات، واحد مقابل واحد!... أليس هذا هو السبب الرئيسي في انحطاط الشرق، الذي وصل الى درجة عالية من الازدهار في مرحلة ماضية؟ وهل هذا يعادل تلك النشوة الكاذبة الموجودة في هذه النبتة البرية، التي تنمو ببساطة، ودون صعوبة في هذه المناطق السهلية الجافة؟!

- هذه هي عزيزتنا! - قال بتر وخا بفرح، وهو يكاد يغمر السهول الواسعة بكلتا يديه، - أنظر، هذه واحدة، وتلك أخرى وأخرى! هذه النبتة في كل مكان - الحشيشة!

ولكننا لن نعمل هنا في جمع الحشيشة ـ فهي قليلة عما يجب! سآخذكما إلى أمكنة تسحر الألباب . . .

سار الثلاثة معاً، وبعد ساعة من المسير، وصلوا إلى سهول مليئة بمثل هذه النبتة التي نمت بكثافة، حتى أنه بإمكان الإنسان أن يسكر من رائحتها، كما يسكر من الخمرة. القنب هنا كثير للغاية بقدر ما تطلب النفس. وهكذا أخذ الثلاثة يجمعون الأوراق وأزهار الحشيشة، ونثروا ما جمعوه حتى نشف تحت الشمس. وأكد بتروخا على أن مدة التجفيف، يجب أن تستمر مدة ساعتين، ليس أكثر. جرى العمل بصورة جيدة. . . وكل شيء كان يجري على أحسن وجه، ولكن، وفجأة سمع دوي طائرة مروحية قادمة من جهة ما، كانت تحلق على ارتفاع منخفض فوق السهل، وبدت وكأنها تتجه نحوهم.

ـ «هيليكوبتر»، «هيليكوبتر»! ـ أخذ لينكا يصيح كطفل صغير وهو يقفز في مكانه بجنون.

ولكن بتروخا لم يفقد زمام المبادرة، وقال على عجل، وهو يشتم:

ـ استلق على الأرض، أيها المجنون! يا لك من. . .

ـ التصق الثلاثة بسرعة بالارض، واختفوا بين الحشائش. مرت الطائرة بعيداً عنهم قليلاً، ولهذا كان من الصعب على الطيارين أن يشاهدوهم، ولكن بتروخا قلق بعد هذا قلقاً شديداً، وكان يقول للينكا كلمات نابية، ـ لقد بدا له الأمر، وكأن الطائرة تبحث عن السعاة ـ وراء الحشيشة.

ـ كيف لا، ـ أخذ بتروخا يتكلم، ـ من الأعلى كل شيء واضح على الأرض، حتى صغائر الأشياء. وبالإمكان أن يشاهدنا الطيارون من مسافة مئة فرست (الفرست ١٠٦٠ متر ـ المترجم)، فعندما يلحظون شخصاً ما فهم يخبرون الجهات المختصة، وإذا قدمت الشرطة إلى هنا على سياراتهم، فإنه يصعب علينا الاختفاء. سنرفع أيدينا وتكون نهايتنا.

ولكنه وبعد فترة قصيرة نسي مسألة الطائرة، وأخذ يعمل مع زميليه بنشاط. وفي ذلك النهار بالذات، حصلت تلك القصة التي لا معنى لها: إذ التقى أفدي بأسرة الذئاب، وحدث معه التالي:

أعلن بتروحا عن فترة استراحة، فأكلوا قليلاً، وهنا قال بتروخا:

ـ اسمع، يا أفدياي، يبدو أنك تأقلمت معنا، وأصبحت شخصاً منا كلياً، فاسمع ما أقوله لك: يوجد عندنا قانون بالنسبة للجدد، من أمثالك، في حال قدوم أي شخص

جديد ولأول مرة إلى العمل، عليه أن يقدم هدية ما، أو نسبة من عمله، وكما تريد وعليك أن تفهم.

عن أي هدية تتكلم؟ ـ قال أفدي وهو يفرد يديه مستغرباً ما سمعه.

ـ لا تغضب، تمهل قليلاً، ماذا حل بك؟ وهل فكرت، أنك ستذهب إلى المخزن لشراء هدية؟ هنا لا وجود للمخزن. وهأنا سأشرح لك: عليك أن تجمع معجونة، ولو بسعة علبة الكبريت. تعمل قليلاً بين هذه الحشائش، وأنا سأحدثك كيف يمكن أن تصنع المعجونة، التي في حال اللقاء مع سام تقدمها هدية كرمز للصداقة، فأنت إنسان ذكي، تفهم كل شيء: سام، هو الإنسان الرئيسي، وأنت تابع له، وهذا سيكون عربون ثقة بينك وبينه. . .

فكر أفدي ملياً: بالنسبة له يوجد سبب ـ فتقديم المعجونه، من مسحوق الحشيشة، الذي يعتبر أغلى شيء، سيمكنه من الوصول إلى قلب سام. وأخيراً توفرت إمكانية اللقاء مع سام. وكم كان هذا ضرورياً! وفجأة تتاح الفرصة للتحدث لسام، الذي يتسلط على جميع السعاة: «السلطة، السلطة، تتواجد في كل مكان يوجد فيه اثنان!» ـ ضحك أفدي كاليستر اتوف بمرارة.

ـ حسنا، ـ قال هو، ـ سوف أجمع معجونة وأقدمها لسام. ومتى سأعطيه اياها، وأينها، هل في المحطة؟

ـ لا أعرف بالضبط، ـ أجاب بتر وخا، ـ ربما، غدا ستقدمها.

ـ كيف غداً؟

ـ هكذا، لقد انتهى العمل، علينا بالعودة. يكفي، وغداً ـ واحد وعشرون في الشهر. غداً، علينا أن نكون، قبل الساعة الرابعة ظهراً في المكان المحدد. وما علينا إلا التنفيذ.

ـ في أي مكان؟

ـ في ذلك، ـ تفاخر بتر وحا بمعرفته، ـ وعندما نجتمع، سوف تعرف. هناك على خط الثلاثمائة والثلاثين كيلومترا.

لم يعد أفدي يسأل، أكثر من ذلك ـ فهم أن ثلاثمائة وثلاثون كيلومتر ـ هو موقف على الطريق الحديدي المؤدي إلى تشويسكي: فقد كان المهم شيئا آخر ـ هو اللقاء مع سام، كان من الممكن أن يتم هناك، وعلى الأغلب ظهرا، نهار الغد، ومن الأفضل لنا أن لا نضيع الوقت، وأن نجمع هذه المعجونة؟

إن العمـل كان غير معقـد، ولكنـه مُتعب بلا حدود، وخاصة تلك الطريقة البر برية التي يتم فيها جمع غبار الحشيشة: كان على الإنسان أن يخلع كل ملابسه، وأن يركض بين هذه الأعشاب، حتى يلتصق غبار أزهار قنب الحشيشة بجسمه، وعمل أفدي حسب هذه الطـريقـة، وركض كما لم يركض في حيـاتـه أبـداً! وعلق من الغبـار على جسمه كمية قليلة جداً، يصعب رؤيتها حتى بالمجهر، اذ لم يكن له لون خاص، وكان من الصعب جمع هذه المادة عن الجسم. وفي نهاية المطاف، وبعد جهود كثيرة حصل أفدي على معجونة صغيرة جداً. وكان هذا ضرورياً من أجل اللقاء مع الزعيم الرئيسي، «العظيم» سام، حتى يصبح بالإمكـان جمع المـواد الـلازمـة للكشف عن النقـاط السـرية في سلوكية السعاة، ومن خلال الكلمـة، والصحيفـة سيصبـح من الممكن توجيه النداء الصارخ لكل البلد، ـ هذا وحده ـ هو الذي أجبر أفدي أن يركض،ويركض ذهاباً واياباً تحت أشعة الشمس الحادة.

وخلال هذا الركض، ابتعد أفدي لمسافة ما عن زميليه، وهو يبحث في السهول عن المـواقـع الأكثـر كثـافـة بنبات الحشيش. وهنا أخذ أفدي يعاني من لحظات عجيبة، إذ شعر بخفة غير طبيعية وكأنه بين اليقظة والتصورات الخياليه. ولم يلحظ أفدي كيف حصل هذا: في السماء كانت الشمس ترسل أشعتها بسخاء، والهواء كان مشبعاً بالدفء، والطيور تغرد، وخـاصـة القنـابـر المـرحة، والفراشات تطير من زهرة إلى أخرى، والحشرات الأخرى تبدو للنـاظـرين بين فترة وأخـرى، وهي تطلق بعض الأصوات، ـ وبكلمة ـ جنة أرضية، وهل كانت الجنـة في هذا فقـط، أن يخلع الإنسـان ثيـابـه كليـاً ويبقى منهـا القبعـة على رأسـه، والنظـارات، و«مـايـوه» وخفـافـة الرياضة. كان أفدي كاليستراتوف ـ أبيض البشرة هزيل البنيـة، سكـر من غبـار الحشيشـة، وأخـذ يركض بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف في السهل الفسيـح بحيـويـة، وهـو يختـار المناطق الغنية بالحشيشة الطويلة، والكثيفة. ومن حوله كان يتصاعد الغبار الذي يثيره الركض بين نبات الحشيشة. ومن التنشق طويلاً لهذا المسكر الطائر أخذ أفدي يتصور شتى التصورات، وكان من الممتع أن يتخيل: أنه يطير فوق دراجة نـاريـة، وهـو يجلس خلف الفتـاة التي قدمت اليهم البـارحة، دون أن يخجل، أو يرتبك من ذلك الوضع، انه يجلس خلف الفتاة، وليس كما يفعل الرجال الحقيقيون، فهم يقودون مثل هذه الآلات التي تحتـاج لقـوة عضليـة، وشعـر بنفسـه كأنـه راكب، يجلس في مقعد خلفي ـ تجلس فيه النساء عادة، ولكن، ما العمل، طالما ليس بإمكانه أن يقود الدراجة النارية فهو كان بعيـداً كل البعـد عن التكنيـك. وقد شعر بالسعادة القصوى لأنه يسافر معها على آلية واحدة. وشعرها الطويل يتطاير مع هبات النسيم، من تحت الخوذة، ويلامس وجهه كنسيم

الـريـاح، ويلتصق الشعـر بوجهـه وشفتيه، وعينيه، ويداعب رقبته. كان ذلك شيئاً رائعاً: تلتفت بين الحـين والآخـر إليه، تداعبه بابتسامة مرحة، وعيناها تلمعان سعادة وشبابا ـ كم تمنى أن يدوم هذا إلى الأبد، بلا نهاية.

عاد إلى يقظته عندما شاهد بالقرب منه ثلاثة ذئاب. يا للعجب! من أين أتت هذه الـذئـاب؟ انـه لم يصدق عينيه. ثلاثة جراء صغيرة، تلوح بأذنابها. أرادت الاقتراب منه، وأن تلعب معـه. خافت منـه، ولكنهـا لم تهرب. طوال القـوائم، كالصبيـة النـاشئـة، التي لم تكتمـل بعـد، وغـير قادرة على الانتصـاب كليـاً. وأعينهـا ذكيـة ولامعة وواثقة. ان هذا، ولسبب ما قد أثـر في أفـدي، حتى أنـه نسي كل شيء، وأخذ يناديها بحنان، لتقترب منه، ويداعبها بابتسامة ورضى وشعور انساني دافىء، وفي هذه اللحظة بالذات شاهد أفدي برق الذئبة وتكشيرتها المريعة،وهي تركض نحوه بسرعة... كان هذا مفاجئاً، وصاعقاً، وبطيئاً ومخيفـاً بنفس الـوقت، حتى أنـه لم يشعـر، كيف انطوت ركبتاه، وكيف سقط على الأرض واضعاً يديه فوق رأسه، حتى أنه لم يعرف أن هذا هو الذي أنقذ حياته، عندما كان الخطر محدقاً، والذئبة أصبحت على مسافة ثلاث خطوات منه. وهي تقفز بوثبات جامحة وشريرة. وفجأة حصلت المعجزة، إذ وثبت الذئبة من فوق أفدي الجالس على الأرض، وهو ينظر من تحت يديـه. وفي هذه اللحظـة التقت عيني أفـدي بعيني الـذئبـة الـزرقاوين،اللتين تقدحان شرراً، والقسـوة الـوحشيـة تملؤهما. سرت قشعريرة باردة في جسم أفدي، وعادت الذئبة، مرة أخـرى لتقفـز فوق رأسـه، وهي تعود لأولادها كالريح، وتطردهم على الفور مستخدمة أسنـانهـا أحياناً، كما ردعت ذئبها الكبير، الوحش المرعب، ذو العرف المنتصب الذي خرج لتـوه من المغـارة، وبـدا بجسمـه الكبـير مخيفـاً للغـاية، خلال ثوان اختفت الذئبة وأولادها وزوجها، وكأن العاصفة قد حملتهم بعيداً...

وقف أفـدي، وهـو يتلفت من حولـه، وأخـذ أفـدي يركض بسـرعـة عبر السهـول، والخـوف يخرج منـه مع الصـراخ، كان يركض، ورأسـه يدور، وجسمه يثقل، والأرض تهتز تحت رجليه المرتعدتين ـ كان يريد أن يقع ويتدحرج ثم يغفو. وهنا بدأ الغثيان يسيطر عليه، وفي كل مرة كان يتهالك إرادته ويهرب بعيداً حتى لا يستفرغ كل ما في جوفه، وهكذا في كل مرة حتى أخـذ يعـاني من دوخـة وغثيـان حاديين وآلام شديـدة لا تطـاق، ومغص قوي في البطن. ثم راح يتقيأ بشـدة من تأثـير غبـار الحشيشـة، الذي سبب له تسمماً شديدا. وأخذ أفدي يعاني من نوبة شديدة، يئن ويتوسل وهو يقول: «آه يا إلهي، يكفي، يكفي، يكفي، إنني لن أعد إلى جمع الحشيشة ولا مرة في حياتي! يكفيني هذا، أنا لا أريد، أنا لا أريد أن

أرى أو أتنشق هذه الرائحة، آه يا إلهي، إرحمني يا إلهي . . . »

عنـدمـا انتهى الغثيـان في نهايـة المطـاف، وأراد أن يذهب للبحث عن ثيابه، ركض نحوه بتر وخا مع لينكا، إذ أثر عليهما الحديث عن لقائه مع الذئاب جد تأثير. وكان خوف لينكا بلا حدود.

ـ لا تتجابن أنت! ماذا بك ترتجف هكذا؟ ـ حاول بتر وخا أن يقلل من شدة رعبه، عنـدمـا كان النـاس يذهبون للبحث عن الذهب، كانوا يعانون من مصاعب أكثر، ولكنهم كانوا يتابعون . . . أما أنت فقد خفت من الذئاب، أنها هربت، ولم يبق لها أي أثر هنا . . .

ـ هكذا إذن كانوا يذهبون لطلب الذهب، ـ قال لينكا بهدوء.

ـ نعم، وما هو الفرق بين الشيئين؟ ـ قال بتر وخا بغضب.

استغل أفدي الحديث وقال:

ـ الفرق كبير، يا بيوتر، بل كبير للغاية. فالحصول على الذهب يتطلب الكثير من المصـاعب، ولكن البحث عنـه يتم علنـاً. أمـا الحشيشـة، فيالها من سم للجميع، جربتها على نفسي وكدت أن أموت منها، ولقد لوثت السهل كله بأوساخي . . .

ـ يكفيك يا أفدياي، لقد تسممت قليلاً، لانك لم تعتقد، ومن هنا قد أذنبنا بحقك، ـ ولـوح بتر وخـا بيـده، معبراً عن عدم رضاه، ـ لكن، هل أجبرناك على القدوم إلى هنا؟ كل الطريق، وأنت تتكلم عن الإله، وتبين ما هو السيء، وما هو الجيد، وتعظ بلا نهاية ما بك تخرب اللعبة؟ وتعكر الماء؟ أما عندما يجري الحديث عن النقود، فتركض دون توقف، حتى كدت تقع في فم الذئبة لقمة سائغة!

أنا لا أعكر الماء، بل أرغب في تصفيته، ـ قرر أفدي أن يفصح عن موقفه أكثر مما كاد قد قرر، ـ فهـا أنت يا بيـوتـر، تبـدو إنسـانـاً ذكياً، ولكن، يصعب عليّ أن أقتنع، بأنك لا تفهم، ولا تدرك أنك تسير إلى ارتكاب الجريمة . . .

ـ نعم، أنا أسير نحوها! ولكن أنت إلى أين تسير؟!

ـ أنا أسير، حتى أنقذكم!

ـ تنقذنا! ـ صرخ بتر وخا بغضب. ـ وكيف لك أن تنقذنا؟ هيا حدثنا كيف سيتاح لك!

ـ في البداية ـ تعالوا نعرب عن أسفنا وتوبتنا أمام الله والناس . . .

استغـرب أفـدي، أن زميليـه لم يضحكـا. وفقـط، جمع بتر وخـا لعـابه وبصق على الأرض، وكأن شيئاً ما قد وقع في فمه.

ـ نأسف! يا لك من مسكين، ـ قال بتر وخـا بتأفف، ـ هذا أنت الـذي يعـبر عن ندمـه، أمـا نحن فنـرغب بجمـع النقود. تلزمنا النقود، فهمت؟! ـ ببساطة ووضوح أقول لك! أما أنت ـ فاندم على مجيئك! واذا أردت يا أفدياي أن تمازح، فليكن مزاحك حذراً! ولـو علم سام، أنـك تحاول هنـا أن تعـرقـل عملنا، فإنك لن تفلت من يده حتى تصل إلى بيتـك، وليكن هذا في علمـك! انني أنصحـك كصـديق. ولا تحاول أن تثني عزمنا، النقود بالنسبة لنا أهم من أي شيء! قل يا لينكا، ما الذي يلزمك ـ الإله أم النقود؟

ـ النقود! ـ أجاب لينكا.

التزم أفدي بالصمت. وقرر أن يؤجل الحوار مع زميليه.

ـ تكلمنـا بما فيـه الكفاية، وسوف نجهز أنفسنا للسفر، ـ قال بتر وخا بهدوء، ـ وماذا حصل معك بالنسبة للمعجونة يا أفدياي، ألم تستطع أن تجمع شيئاً؟

ـ للأسف، لا، ولـو شاهـدت كيف انطلقت الذئبة نحوي، لما كنت قد سألتني هذا السؤ ال ـ لم أعد أعلم، أين تركت كل ما جمعت. سأذهب للبحث عن ثيابي المبعثرة في عدة أماكن. . .

ـ سنجـد ثيـابـك، لا خوف عليهـا من الضيـاع، أمـا بالنسبـة للمعجـونـة فلـم يعد بإمكـانـك ان تجمـع أي شيء. اليـوم علينـا أن نعـود، لا بأس، فسوف نحدثه عما حصل وسوف يتفهم أمرك، وإذا لم يقتنع، فما عليك إلا ان تجمع له في المرة القادمة. . .

عاد الثـلاثـة وكل منهم يحمل قمطرة على ظهره، وقد ملأها بالحشيشة. ساروا حتى منتصف الليـل باتجـاه الخـط الحـديـدي. كان المسـير غير صعب، إذ ان الحمـل غير ثقيل ـ عشب مجفف، ولكن رائحـة الحشيشـة القوية، كانت تبعث الدوران في رؤ وسهـم، وتدب النعاس في جفونهم. توقف الزملاء في منتصف الطريق للنوم في سهل فسيح، كي يستيقظوا عنـد الفجـر ويتـابعـوا طريقهم. طلب لينكـا النوم بين أفدي وبتر وخا من شدة خوفه ـ لقد ارتعـد خوفـاً من الـذئـاب بعـد تلك الحادثة. كان من الممكن فهم ذلك جيداً، وخاصة ان لينكا مازال صغيراً. بدا كل شيء على عكس ما أرادوا .فلم يتمكنوا من النوم رغم الاعياء، فراح أفدي يفكر طويلاً، إذ تأثر جداً لطلب هذا الشاب الصغير لينكا عندما أراد النوم في الوسط ومن كان بوسعه أن يفكر أن هذا الشاب يخاف الذئاب، ولكن كم هي كبيرة سلعلة الآثام والتصورات المشوهة عن الحياة منذ الصغر. وخاصة عندما يجيب لينكا، دون أن يرف له جفن، أن النقـود بالنسبـة له أهم من الإلـه، إنـه يرى في الله رمـزاً للتقـوى. . . في هذا بالذات جالت خواطر أفدي. . .

تمتـاز ليـالي السهـول بجـمالية خاصـة في أيـام الصيف. سكـون لا محدود، مشبـع بالـدفء، وأروع ما يكـون، هو ذلـك القمـر السـابح في السماء الصافية والنجوم في عددها الـذي لا يحصى، ولمعـانهـا في الفضاء بين الاختفاء والبروز، يالها من روعة خارقة، يذهب إليها تصور وأفكار الإنسان، بعيداً، بعيداً، إلى أعماق وخفايا هذا العالم العجيب، يذهب فكر الإنسان في تلك الدقائق النادرة، عندما يبتعد عن الأعمال الحياتية اليومية ومن المؤسف ان هذا الانسجام بين الإنسان والطبيعة، يكون لفترة قصيرة. . .

وفكر أفدي، أن كل ما جرى حتى ذلك الوقت، كان كما يرغب: وصل السعاة إلى سهول القنب الحشيشة، شاهد كل شيء بأم عينيه، وجرب ما جربه على جلده. أما الآن، فقد بقي من الأمر أصعبه ـ الصعود إلى القطار والسفر. وكان أصعب ما في الرحلة بالنسبة للمهربين، أن يحملوا الحشيشة في القطار، إذ كانت تتعقبهم الشرطة في المحطات الآسيوية للقطارات، أما في الأراضي الروسية، فقد كان الأمر أسهل. وإذا تمكن هؤلاء من الوصول إلى موسكـو، ثم إلى أمكنتهم، فيكـون قد تم كل شيء على أروع ما يكـون أمـا الشـر الأساسي في الحياة فقد انتصر، وتحول بالنسبة للناس الصغار نجاحاً صغيراً.

كان من الصعب على أفدي أن يوافق على هذا، حتى في التفكير. أما ان يتخذ أي تدبير، حتى لا يتجـاوز الجـريمـة وحسب، بل ويغـير طريقـة التفكير، وأن يوقظ السعاة ويقنعهم ولكنـه كان يدرك أن ذلـك من المستحيـل، لأن أولئـك الـذين كانوا يقفون ضده، ويتواجدون في مكان ما، في هذه السهول، وخاصة ذلك الذي يمسك بزمام الأمور، دون أ يبرز نفسه، ويراقب كلاً منهم، بما فيهم هوـ أفدي، ذلك الذي كانوا يسمونه بسام، كا أقـوى بكثـير منـه. ولقـد كان سام سيداً للموقف، ويمكن اعتباره ديكتاتوراً صغيراً خلا رحلتهم، أمـا هو، أفـدي، الـذي التحق بهم، كان يشبـه النـاسـك المتسكع الذي التح بقطاع الطرق، ولقد كان في أحسن الحالات يثير الضحك. . . ولكن الناسك، سيد مثالي ومتعصب ديني، متزمت بمثله، وما عليه في شتى الأحوال إلا ان يبقى ناسكاً. . . وهذا ما عليه أن يفعله. . .

لقـد فكـر أفـدي أيضـاً بالأحـداث الغريبة التي عانى منها في اليوم المنصرم : وهذه الذئاب الغبية، طويلة الارجل، كانت تنظر اليه، وكأنه كائن مضحك، غير مؤذي، وكانوا على استعـداد لأن يلعبـوا معـه، وفجأة ظهـرت تلك الذئبة الغاضبة، زرقاء العينين، وأي سخط كبير كان يملأ كيانها، وكيف تبدد هذا الشر فجأة، ولماذا قفزت من فوق رأسه مرتين؟ ولو أرادت هذه الذئبة مع ذئبها الكبير لكانا قد مزقاه إرباً إربا خلال لحظات، زد على ذلك

أنـه كان عاريـاً، إذا أغفلنـا القبعـة على رأسـه و«المايـوه» ولما كان ذلك المواطن ابن المدينة المجنون على قيد الحياة إذ كان لا حول له ولا طول. وغالباً ما ينتهي الإنسان في مثل هذه الحـالـة، إلا في حالات نادرة. وهكـذا لقـد ساعـده حظـه وقدره، أن ترحمه هذه الذئاب، وتـرأف به: ألا يعني هذا أنـه كان وحتى الـوقت الحـاضر ضرورياً للحياة؟ ولكن، كم كان رائعـاً منظـر الذئبة زرقاء العينين، وهي تنهب الأرض مسرعة في الدفاع عن أولادها. بلى، أنهـا كانت محقـة، حسب أعـرافهـا، وشكـراً لها، إنهـا لم تقتله وهو الانسان، الـذي، لم يرتكب فعلة مشينـة. فكـر أفـدي بهذا طويـلاً، وضحـك بصمت، إذ تصور، كيف كانت ستضحـك عليـه راكبـة الـدراجـة لو شاهدته في هذا المنظر! ولقهقهت بشدة، كما تقهقه في السـيرك ولكن بعـد هذا، إعـترتـه موجـة من الخـوف: ماذا سيحصـل، لو ان الدراجة قد تعطلت في منتصف الطـريق، في منطقـة خاليـة من النـاس، وكانت تلك الإنسانة وحيدة، وفجأة ستهـاجمهـا الذئاب؟! وأخذ يبسمل ويحوقل، وهو يلعن الذئبة زرقاء العينين ويقول: «اسمعيني، أيتهـا الأم الـرائعـة ـ الـذئبـة! فأنت تعيشين هنا، وأرجوك ان تعيشي هنا بكل راحـة، في اطـار هذه الطبيعة. والشيء الوحيد، الذي أرجوك اياه، في حال تعطل دراجتها النـاريـة، أن لا تسببي لها أي ضرر كان! واذا أردت أن تنظـري إليها، وتتمتعي بجمالها، وان تنظـري إلى دراجتهـا القـويـة، فاركضي إلى جانبها. على حافة الطريق، دون أن تراك، واصنعي لنفسـك أجنحـة وطـيري إلى جانبهـا، وربـما يكـون بإمكـانك، حسب العقيدة البـوذيـة، ان تجدي أيتهـا الذئبة ـ زرقاء العينين فيها أختاً لكِ في شكل إنساني؟ وربما يكون ذلـك ـ إحـذري أيتهـا الـذئبـة، فهي إنسـان، وأنتـما الاثنتان جميلتان، ولكل منكما ميزات رائعــة! لا أريـد أن أخفي عنـك ـ انني أحبهـا جداً من كل روحي، فأنـا مجنـون، بالطبع مجنـون، ومن غير ذلـك! وفقـط بإمكـان المجـانـين الخالصين أن يحلموا هكذا. ولو علمت بشكل ما، عما أفكر به، لسخرت وضحكت كثيراً! وإذا كان ذلك يبعث السرور في عالمها، فلا مانع من السخرية ولتضحك بكل جوارحها..».

كانت الظلمة ما تزال تنتشر فوق السهول، ولكن الضوء أخذ يمد خيوطه الخفية عبر السهـول الفسيحـة، عنـدمـا أخـذ بترو خـا يوقـظ أفدي ولينكا، إذ حان الوقت للنهوض، والتحـرك إلى نقطـة الكيلومتر ثلاثمائة وثلاثين. وكلما كان لدينا متسع من الوقت، كلما كان أحسن، لأنهم ليسـوا وحـدهم، بل معهم جماعتـان أو ثلاثـة من السعـاة، وكـان عليهم ان يخرجوا في الوقت المناسب وفي المكان المناسب مع الحشيشة المجففة قليلاً. ويكون عليهم أن يوقفـوا قطـار شحن، وأن يجلسـوا فيـه خفيـة، وينتقلوا إلى محطـة جلباك ـ ساز، ومن هناك

التحول إلى قطار آخر. وبكلمة لقد حان الوقت للمعاناة بالنسبة للسعاة في هذا القسم من الطريق، وكان على سام أن يقود جميع العمليات. وربما أن سام سيستقبلهم، أو ربما هم سيبحثون عنه في محطة الثلاثمائة والثلاثين كيلومتراً. أما بتر وخا فلم يقل لهم شيئاً عن ذلك، فإما أنه كان لا يعلم شيئاً، أو أنه لا يرغب بالكلام.

ومن جديد حمل كل منهم قمطره على كتفيه، وسار الثلاثة معاً خلف بتر وخا. ومما أثار الاستغراب والدهشة عند أفدي، كان ذكاء بتر وخا الطبوغرافي، وذاكرته المدهشة: كان يحذر زميليه من أي هوة في طريقهم في الوقت المناسب، ويشير لهم أين يوجد نهير في الظل، وأين توجد مياه مستنقعية،وما إلى ذلك. وأسف أفدي، أن يضيع هذا الذكاء عند بتر وخا سدى! لقد كان هنا، مرة واحدة، وكيف له أن يعرف كل شيء!

سبق وأشير أنه يعود من حيث الأصل إلى منشأ فلاحي. لقد حدَّث بتر وخا أنه حسب الأقاويل، وعلى مسافة مئتي كيلومتر من هنا، تبدأ صحراء موينكوم. وهناك كما يقولون، توجد الكثير من الظباء، هذه الحيوانات الظلفاء، التي تعاني أشد ما تعاني من الناس، الذين يبدون طيبين، ولكنهم يسافرون على سياراتهم «الكاز» إلى الصيد مسافات طويلة، حتى يأتي بعضهم من أرنبورغ. ويقدمون إلى هذه المنطقة حاملين معهم مختلف أصناف الأطعمة، ومختلف المشروبات الروحية. إنهم يمارسون هواية الصيد على الطريقة القيصرية! وهذا الصيد أيضاً لا يخلو من الخطر، فكانت تقع في بعض الاحيان حوادث خطيرة، منها حوادث السير المرعبة، إذ تتدمر السيارة كلياً، ويستشهد الصيادون من الحادث، أو يموتون من العطش عندما يتيهون في السهول. أما في الشتاء فكانوا يموتون من العواصف الثلجية والبرد القارس، وبعد ذوبان الثلوج كانت تبرز العظام المتبقية من جثثهم. وحدث ذات مرة، أن صياداً، قد جن جنونه، فأخذوا يبحثون عنه بطائرة مروحية. حلقت الطائرة طويلاً لكي تنقذه، وهو يركض بعيداً عنها ويختبىء. طاردوه طويلاً، وعندما التقطوه، وجدوه عاجزاً عن الكلام. أما زوجته خلال هذه المدة، يقال إنها قد تزوجت من إنسان آخر! يالها من قليلة الحياء! الكثير منهن يتصرفن هكذا! ولهذا لا أفكر بالزواج، توجد في المدينة إمرأة حسب الطلب: تعطيها نقوداً لشراء ثيابها، فتكون معك على أحسن حال. وتعطيك كلمة، إنها لا تنجب لك الأولاد. والأهم من كل شيء أنني قد إشتريت دراجة نارية تشيكوسلوفاكية خاصة بالرياضة، وضعتها في الملحق، أما الآن فمن الممكن شراء سيارة «جيغولي» بسهولة. ولكي أشتري سيارة «فولغا» جديدة تشبه «المرسيدس»، فيها مسجلة، حتى أستمع إلى شتى الأغاني، يجب ان أدفع زيادة عن ثمنها. في كل مكان

عليك أن تدفع زيادة. وعندئذ سيكون بإمكاني أن أسافر على سيارة «الفولغا» إلى مدينة «غاركوتا». ولينظر الأخوة ساعتها إليّ. ولتنفجر نساؤهم من الحسد وهم ينظرون إليّ. وأملأ صندوق السيارة بشتى أنواع المشروبات التي تطيب لي، يكون أكثرها من المشروبات الأجنبية. وبالطبع ستكون الفودكا هي الأساس لأنه لا يوجد أحسن منها. وكيف لهم هنا أن لا يحسدوني! يتصورون أنني مجنون، وفجأة يرونني في هذا الحال... ولهذا بالذات، أذهب في عداد السعاة، وأقودكما معي الى هذه الأماكن، واذا أردتما أن تعيشا جيداً، فعليكما أن تعملا بنشاط، وإلا ـ فاجلسا في زاوية وارضعا أصابعكم حتى تنتفخ بطونكم وهماً...

من خلال الاستماع، كان يبدو الأمر في بدايته، وكأنه لا جدوى من الحديث الذي قدمه بتر وخا، وهو يسير في المقدمة. وفكر أفدي في وضعه، وفي التناقض الشديد الذي يعاني منه الإنسان بين الإغراء بالثراء، والتمسك بالتقاليد العامة والغرور، وهذه هي الأسس والاقانيم الثلاثة للوعي العام، التي يقوم عليها العالم في كل مكان وزمان، دون تغير ملحوظ للانسان. هذا العالم مأوى القضايا الشريرة، الكبيرة والصغيرة، الأباطيل وفقر الرؤية والوعي، حتى أصبح من الصعب على أي قوة فوق الأرض، بما في ذلك قوة الدين، التي بإمكانها ان تتغلب على آيديولوجيا العالم الإستهلاكي القوية. وكم من المحاولات الهامة التي بذلت لتحليق عالم الروح، قد تحطمت فوق هذه الصخرة، أما هو فقد ذهب في هذه الرحلة مع السعاة للحصول على الحشيشة، وإن دل هذا على شيء، فهو يدل على ضعف الروح،على الرغم من أنها غير عاجزة كلياً، وهذا ما يؤكده مصيره... إذ كان يجهز نفسه طوال الطريق للقاء سام ـ وكان عليه أن يكون جاهزاً للمعركة...

وصلوا إلى نقطة الثلاثمائة والثلاثين كيلومتراً قبل ساعتين من الموعد ـ في الساعة الثالثة كانوا في المكان المقرر. اقتربوا من الوهدة التي تحاذي سكة الحديد، وحذر بتر وخا قائلاً: عليكما أن تخفيا القماطر هناك، وأن تختفيا دون أن ترفعا رؤوسكما عند مرور القطارات العابرة. وأن تنتظرا تعليماتي...

تعب الجميع لدرجة كبيرة ـ كيف لا، وقد قطعوا مسافة طويلة خلال النهار! كان من المريح أن يتمددوا في هذه الوهدة على العشب الطري، حيث كانت تنمو مختلف أنواع النباتات مثل المريمية. وكان من الممتع الإستماع الى قرقعة عجلات القطارات القادمة من بعيد، وكيف كان يزداد الضجيج، كيف كانت السكة تصر تحت عبء القطارات،التي يزيد طولها عن كيلومتر، تمر بسرعة وهي تضج بعجلاتها، وتحمل معها رائحة الحديد والمازوت، وينخفض صوت ضجيجها تدريجياً مع ابتعادها، وهي تتلاشى في صمت المحيط..

وعـبرت قطـارات المسـافرين، واحد تلو الآخر، وفي اتجاهين متعاكسين واحب أفدي، منذ الطفـولـة الوقوف طويلاً، ينظر إلى قطارات المسافرين وإلى وجوه الركاب عبر النوافذ، وهو يفكر: يا لكم من سعداء! خذوني معكم! ولكن الآن وفي هذا الوضع، فقد حرم من هذه السعـادة العـابـرة. لقـد كان عليه أن يختفي خلف الشجيرات، دون أن يرفع رأسه. وماذا أسوأ من ذلك ـ كان عليه أن يكون مشاركاً، أو شاهداً على هذه التصرفات الإجرامية عند محطـة أحـد القطـارات الخاصة بالشحن ولم يرتكب أحد جريمة نهب القطار، ولكن الموقف الإضطـراري للقطـار قد سمح للمهربين أن ينطلقوا إلى المقطورات، وبعد ذلك جرى كل شيء حسب المعتاد. وكان عليهم أن يختفوا بين البضائع . . .

كانت القطـارات تسـير في مختلف الإتجـاهـات، ومرت لحظة طويلة، وعم الصمت الكامل. كان أفدي يريد النوم قليلاً، ولكن ثمة صفارة دوت بقوة. سمع بتر وخا الصفرة، ثم صفر ـ وفي الإجابة سمع صوت صفير آخر. ثم قال:

ـ انتظـرا هنـا بهدوء، أمـا أنـا، فسـوف أذهب قليـلاً إذ ينـاودنني. وبدوني لا تغادرا المكان. سمعت يا أفدياي، سمعت يا لينكا؟! فليس من السهل أن توقف القطار. يجب أن يتم العمل بدقة.

نطق هذه الكلمات، وابتعـد فوراً. وعـاد تقريباً بعد نصف ساعة. عاد بتر وخا، وقد تغـير شكله ومـزاجـه. لقد تغير فيه شيء يصعب معرفته. كانت عيناه ترفان، حتى لم ينظر إلى وجهي زميليـه نظـرة مبـاشـرة. ولم يرغب أفـدي في مثـل هذه الحـالـة أن يسمـح لنفسه بالشك، وكان يطرد من عقله أي تفكير من هذا القبيل. ولربما أن هذا الإنسان كان يعاني من مسألة ما، كآلام في البطن. . ولهذا حافظ على هدوئه:

ـ ماذا تخبرنا يا بيوتر، كيف العمل؟

ـ حتى الوقت الحاضر، كل شيء على ما يرام. قريباً سنتحرك.

ـ هل سنوقف قطار الشحن. ؟

ـ بـالطبـع. أهم شيء في عملنـا ـ أن نقفـز إلى هذا القطار. والأفضل من كل شيء ـ أن نتمكن من الوصول إلى المحطة ليلاً، وان نقوم بالاحتياطات اللازمة.

ـ هكذا إذن.

صمت الجميع. دخن بتر وخا سيجارة وقال، وهو يمتص دخان سيجارته حتى النهاية:

ـ يوجـد بين زمـلائنـا واحـد قد وثأ رجله، يسمونه غريشان. رأيته الآن يا لسوء حظه

وهـل بالإمكـان ان يجمـع الإنسـان شيئـاً ما،وهـو يتكىء على عصا . هذا شيء مزعج . فما رأيكم لو وضع كل منا شيئاً ما من حصته ، ونحن هنا عشرة أشخاص تقريباً ، فسيكون عنده حصة ما من الحشيشة ، وهكذا نساعده .

ـ أنـا مستعـد ، ـ قال أفـدي . أمـا لينكـا فهـو نائم الآن ، وأتوقع أنه لن يعارض هذا الاقتراح . ولن يبخل .

ـ بالنسبـة للينكـا لا تخف عليـه ، فهو شاب منا : أما أنت يا أفدياي ، حبذا لو ذهبت إلى غريشـان ، وتحـدثت اليـه ، فأنت انسـان جيـد ومثقف ، وبإمكانك أن تخفف من آلامه قليلاً ، وتحسن مزاجه .

ـ وأين سام ، هل هو هناك؟ ـ سأل أفدي دون حذر .

ـ ماذا حل بك؟ : «أيـن سام ، وأين سام» ـ غضب بتر وخـا ، من أين لي أن أعـرف أين سام؟ انني أحـدثـك عن غريشـان ، وأنت تحدثني عن سام . فإذا احتـاجـك ، فهـو سيأتي اليكم ، أو يطلبك لعنده . وإذا لم تلزمه فعلينا أن ننفذ عملنا المتواضع . وماذا بك قلق لهذه الدرجة؟ .

ـ هون عليك . سألت وانتهى الأمر، فلا تغضب . وأين هو غريشان؟ وفي أي مكان؟

ـ إذهب إلى هناك ـ إنه هناك ، في الظل ، تحت الشجيرة ، إذهب ، إذهب بسرعة !

توجـه أفـدي إلى الجهـة التي أشـار اليهـا بتر وخـا ، وهناك وجد غريشـان ـ كان ذلك الشـاب يجلس بين الأعشـاب ، على كرسي صغير ، ويمسك عصاً بيده ، وعلى رأسه قبعة تخفي معظم جبينـه ، ويبـدو من حركـاته الخفيفة ، أنه إنسان ذو شأن . وعندما اقترب أفدي منـه ، نظـر إليـه وسعـل واضعاً يده على فمهِ . - وعلى مقربة منه ، كان يجلس شابان آخران . كان عدد المجموعة ثلاثة أشخاص . أدرك أفدي أن هذا الشاب ، هو سام نفسه . . . خفف مسيره ، إذ شعر بقشعريرة باردة تجتاح جسمه ، ثم خفق قلبه بدقات متسارعة . . .

* * *

القسم الثاني

ـ مرحبا أيها المصاب، ـ قال أفدي بصوتٍ هادىء، وهو يجتهد في اخفاء دقات قلبه المتسارعة في صدره.

اما غريشان، الذي كان يجلس على كرسي صغير، يطوى ويفتح حسب الحاجة، اذ يشبه كرسي الصيادين إلى حد بعيد، فقد تابع لعبه بالعصا التي في يده، وهو ينظر إليه بطرف عين واحدة.

ـ مرحبًا، مرحبًا، ولكن، من الذي يحييني؟

ابتسم أفدي، دون إرادة:

ـ أنا ذلك الانسان، الذي قدم للاطمئنان عن صحتكم في بداية الأمر.

ـ هكذا إذن،إنني أقدر معروفكم، إنني متشكر، ولو كان الأمر في بدايته. ففي هذه السهول الخالية من الناس يعتبر مثل هذا الإهتمام عملًا جليلًا للغاية. وكيف لا، فكلنا بشر، أليس كذلك؟

«انه انسان متكلم، واذا كان مثقفاً، فسيكون الأمر صعباً بالنسبة لي. هذا الذي لم أكن أنتظره. انه يتكلم بفصاحة كخطيب مجرب. ـ فكر أفدي ـ ولماذا يتكلم هكذا؟ وهل هذا هو أسلوب سام؟ وفكر أفدي في نفسه، أن محدثه لا يملك أي سمات خاصنه. كل شيء فيه كان عادياً: أصهب قليلاً، أطول من الوسط بقليل نحيف الجسم، يرتدي ثياباً عادية، كما يرتدي الشباب في سنه، ـ بنطال «جنز» وقميص قديم «بسحاب» وعلى رأسه قبعة، لا لون لها، وبإمكانه أن يضعها في جيبه في الحالات الطارئة. وإن كان غريشان لا يعرج من

آلام في رجله فقد كان يحمل في يده عصا غليظة، ذات عقد. ويصعب تمييزه عن الناس الآخرين، وبإمكانه أن يضيع بين جماعة من الناس. وهل كان بالامكان تذكر عينيه، إذا ما راقبه الإنسان بدقة، ولمدة أطول، ولقد تغيرت حركات عينيه البنيتين. وباستمرار، وربما أنه نفسه لم يلحظ ذلك، كيف كان يضيق إحدى عينيه، ويغمض الأخرى ويغمز باحداهما احياناً محركاً حاجبيه بخفة ويمكن وصفه بالوحش المفترس، الذي حشر في زاوية ما، وبربما أن يثب على عدوه ويعضه، ولكنه لم يفعل، بل يتهيأ، ثم يأخذ الوضع المتحفز. ربما، أن هذا التصور قد نجم عن النظر إلى القاطع الاعلى من أسنانه، والذي بدا مكسوراً من خلال الحديث معه «كان بإمكانه أن يلبسه بالذهب لتحسين منظره. ولكن لماذا لم يفعل هذا، - فكر به أفدي -. ربما أنه لا يرغب بوضع علامة فارقة». أخذ أفدي وضعاً جدياً، وسأل من باب الملاطفة: «ماذا حصل لرجلك؟ وكيف وثأتها؟ ألم تنظر أمامك كما يجب؟».

هز غريشان رأسه، دون تحديد، وقال:

- نعم، من الممكن القول، انني قد وثأتها قليلاً. لم أنظر أمامي، كما يجب. انك على حق، يا أفدي، هكذا يسمونك، أليس كذلك؟

- نعم، اسمي أفدي.

- اسمك غريب. انه من الإنجيل. - تكلم غريشان بتمهل وهو ينطق الكلمات بفصاحة، أفدي إسم كنائسي أبرشي. - قال غريشان بتمعن - نعم، في الوقت الماضي، عاش الناس مع الإله. ومن هنا جاءت لروسيا تيارات دعاة الكنيسة والخير من أجل الإله، والخشوع أمام الإله، واظن أن نسبك أيضاً يا أفدي، يجب أن تكون متوافقاً مع الاسم؟

- نسبي - كاليستراتوف - أجاب أفدي بهدوء ايضاً.

- هكذا، كل شيء يتطابق... ولكن إسمي بسيط جداً، حسب الطريقة البروليتارية «غريشان». وعلى كل حال، ان هذا غير هام. وانك على حق يا أفدي كاليستراتوف إنني حقاً لم أنظر أمامي كما يجب. وينتج عن ذلك شيء غريب وفظيع. الإنسان، إذا لم يكن في أقصى الجنون، فعليه أن ينظر بتمعن تحت قدميه. ولكن المسألة مرتبطة بالرأس المجنون، الذي لا يسمح للأرجل بأن تستقر. ويصعب الكلام عن ذلك بالذات. وكما ترى أعاني من العجز. انها لقصة هزلية غريبة.

- وعلى أي شيء إنعكس هذا؟ - سأل أفدي. مدركاً ما قصده تقريباً.

- لم أفهم، - قال غريشان بحذر.

ـ انني أتكلم عن تلك القصــة البسيطـة قد انعكست على عملك ـ أليس كذلـك؟
ـ فسر أفدي ما قصده.

ـ ان هذا موضوع آخر ـ غير غريشان من لهجته، التي فيها شيء من التكلف. ـ وإذا كنت تتكلم عن العمــل، فإنــك على حق. ولكن ليس هذا هو الشيء الأساسي الآن، وليس هذا الـذي يقلقني. إنـك تعـرف المـوضـوع، وإلا لماذا أتحدث اليك الآن، ولماذا كان يلزمني هذا الحـديث.. وبكلمـة، فأنـا هنـا كمـوجـه، أو لنقـل، كمتقـدم، حسب نظام الجيش، والشيء الهام بالنسبة لي أن أخترق خط الجبهة، دون أن أفقد أي شيء من قوة جماعتي.

ـ ماذا عليّ أن أفعـل، حتى أكـون نافعـاً في هذا الوضع؟ وأرى أنه من الضروري أن نتحدث حول هذا الموضوع، ـ اقترح أفدي ـ فعندي ما يقال عن هذه القوة أيضاً..

ـ طالما يوجد تطابق للمصالح، فمن الضروري ليس الحديث فقط، بل تبادل الرأي أيضـاً، ـ قال غريشـان بدقـة ـ فإنني كنت أريـد هذا بالـذات. وهنـا، يبرز السؤال التالي الخـاص بنـا، ـ قال غريشـان بخبث، وأمـر الشـابـين الآخرين أن لا يتدخلا في الحديث، ويبتعدا قليلاً عنهما،إذ قال لهما: ـ وانتما، ماذا بكما تجلسان بلا عمل، إذهبا، وحضّرا أموركما.

ذهب الشـابـان بصمت لتنفيـذ ما كان قد تم الاتفـاق عليـه مسبقاً. وبعد ان أعطى غريشان الأمر، نظر إلى ساعته.

ـ بعد سويعه، سوف نبدأ بعملية الإنزال. وسترى، كيف يتم ذلك، ـ قال لأفدي.
ـ الأمـر عنـدنـا صارم. النظـام كما في قوات الإنـزال، ونحن، في حقيقـة الأمـر مثلنا مثل المظليـين الـذين لا يهابـون أي شيء في سبيـل الـوطن «وأنت عليك أن تنفذ ما يطلب منك بدقـة، دون أي تردد: «أقـدر، ولا أقـدر». وإذا كان كل شيء كما يجب أن يكـون، فسوف نصل عند المساء إلى محطة جلباك ـ ساز.

صمت غريشـان بدهـاء، وهـو يكشف عن سنه المكسور، ثم قال: ـ سوف نتحدث الآن عن الأهم. وعن السبب الــذي قادك إلينـا. فأنت لا تستعجـل ولا ترتبـك. وسـوف نتكلم عن عالم الجـريمـة هذا، الـذي دخلت إليـه بغـرابة. ولكن، سوف نتكلم فيما بعد. فوضعـك الحـالي هو: أنت ساع، ترتبـط بنـا. وأنت تعرف الأشياء الكثيرة، فأنت، لست بغبي، وانت نفســك وقعت في الشـرك، فعليـك الآن، أن تكـون أهـلاً لثقتي، وهذا شيء غال، وثمين بالنسبة لك.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أتصور أنك ستحزر بنفسك . . .

ـ أن يحزر الإنسان ـ شيء، وأن يعرف ـ شيء آخر.

صمت الإثنان في انتظار انتهاء ضجيج القطار، الذي كان يعبر من جانبهما. وكل منهما يفكر بالطريقة التي سيبدأ، أو يقاوم بها في هذه المبارزة. بينما أخذ أفدي يفكر في تلك اللحظة، كيف تتكون، وتتطور العلاقات الإنسانية: حتى هنا في هذه السهول العاربة، التي يبدو فيها البشر متساوين، حيث الجميع يتمتعون بحظ مشترك، والجميع مهددون بالخطر والفشل، والمثول أمام المحكمة، وفي حالة النجاح، فالجميع ستشملهم النتائج الإيجابية. إن الناس يحملون القانون في أعماقهم، كما يحملون الدماء في عروقهم، ومن هنا كان يتمتع غريشان بحق القيادة والأمر، لانه كان هنا سيد الموقف.

قطع غريشان الصمت، وقال، وكأنه يريد أن يأخذ بزمام المبادرة: «هكذا إذن، نريد الكلام بصراحة. حسناً. ولكن هل هجمت عليك الذئاب فعلاً؟

ـ نعم، لقد حصل ذلك، ـ قال أفدي مؤكداً.

سأل غريشان، وقد كشر عن سنه المكسور: «لن تقنعني يا أفدي ان القدر قد أبقاك حياً، حتى تجيبني عن عدة أسئلة؟» .

ـ فليكن كذلك ـ أجاب أفدي باتزان.

ـ إذن فلتكف عن اللف والدوران. وتقول لي الآن وقبل أن تتحرك من مكانك، لماذا تحاول أن تشوش تفكير الشباب؟

ـ هنا يوجد تصحيح واحد، ـ قاطعه أفدي.

ـ وأي تصحيح؟ وماذا بإمكانك أن تصحح؟

ـ إنني أحاول ان أضعهم على طريق الحقيقة، وبالتالي، إن كلمة «تشويش» لن تنطبق هنا على الواقع.

ـ أترك هذا اللف والدوران، يا رفيق كاليستراتوف. الحقيقة وغير الحقيقة . . . فلدى كل إنسان، يوجد مفهوم خاص للحقيقة. فاترك هذه النكات. فهنا ليس المكان المناسب للإعراب عن الفصاحة في الكلام. وأريد ان أعرف، ماذا يلزمك ان تعرف، وماذا تبغي لنفسك، أيها الأب القديس؟.

ـ هل تقصد ـ أي منفعة مادية أبغي؟

ـ بالطبع، وعن أي شيء يمكن الكلام؟ ـ بسط غريشان يديه، وابتسم بأريحيه

فاقعة.

ـ لا شيء. على الإطلاق، رفض أفدي توقعات غريشان رفضاً باتاً.

ـ عظيم ـ قال غريشان بصوت عالٍ ـ ويصعب عليك أن تفكر بطريقة أفضل. كل شيء يتطابق. هكذا ينجم عن لحية المجانين اللامعة، الذين...

ـ توقف: إنني أعرف ما تريد قوله.

ـ هذا يعني، انـك قدمت إلى منطقـة موينكـوم متـذرعـاً، بأنك تبغي جمع الحشيشة وهكذا انضممت إلى صفوفنا، وأصبحت عضواً منا، وليس لانك تحب النقود الكثيرة، بل تكرهها كالمسيح، وليس، لانه بعد طردك من المعهد الديني لم تجد المكان الذي تأوي إليه؟ ولـو كنت مكـان هؤلاء الخـوارنـة، لكنت قد جلدتك بسوطين مزدوجين كما يجب ـ فإنك لا تلزم حتى لهؤلاء، انهم يلعبون اللعبة القديمة. وأنت تريد الحقيقة، وتناقش جدياً...

ـ نعم جدياً:.. وأنت عليك أن تفهمني من باب الجد، ـ أعلن أفدي بصراحة.

ـ وكيف لا: فهـل أنت تحسبني لا أفهمـك؟ فأنـا أفهمـك جيـداً. ومن أنت في واقع الأمر؟ أنت ـ أبله، أنت ـ مشعوذ في جنونك الذاتي، ولهذا قدمت إلى هنا، وإذا كان غير ذلـك، فما الـذي قادك إلى هنـا؟ جئت، من أجـل هدف إنساني، حتى تفتح أعيننا ـ نحن ضحايا جمع الحشيشة، والعاملين في تجارة وتهريب المخدرات الممنوعة. قدمت إلى هنا لتنشر الأفكـار الـدينيـة القديمة الانقاذية، التي لا نفع منها ولا جدوى، ووصلت إلى هنا لتحولنا عن الشـر، حتى ننـدم ونتـوب، ونغـير وجهـة نظـرنا، وحتى نعتنق مثلك الأفكار القديمة المشـوهـة. وأنت تعـرف أن الغـرب يقـول أيضـاً أن الجميـع عندنا يفكرون بطريقة واحدة ـ فجأة، نهض غريشان من مكانه بسرعة، وكأنه لم يصب بأي أذى في رجله، واقترب نحو أفدي، حتى أصبح وجهاً لوجه أمامه، وبدا الغضب عليه ـ وانت، أيها المنقذ، كان عليك أن تفكر مسبقاً: أي قوة تقف ضدك،.

ـ لقـد فكـرت جيـداً، ولهـذا قدمت إلى هنـا. وأحذرك: سوف أحقق ما قدمت من أجله، وما أهدف إليه، هو من أجلكم بالذات، مهما كلفني الأمر، فلا تستغرب ما أقول لك.

ـ من أجلنـا ـ ردد غريشـان بسخـريـة ـ لا تخف، فإنني لن أستغـرب، ولماذا علي أن أتعجب لأمـر، قد صلب من أجله، منقـذ الجنس البشـري... وبسط يديه تحت المسامير فوق الصليب، وأرخى رأسه وفتح فاهه المعذب، وهكذا ـ لينظر الناس ويبكون ويصلون، حتى نهايـة الـدنيا. وليس من الجهل، قد فكر البعض بإنقاذنا من أنفسنا بأعمال عجيبة لهم

خلال القـرون، لكن ماذا حصـل؟، من أنقـذ، ومـا الشيء الذي تم إنقاذه في هذا العالم؟ أرى أن كل شيء ما يزال كما كان قبـل صلب المسيـح، وهكـذا تستمـر الأمـور حتى الوقت الحـاضـر. الانسـان مازال كما هو، لم يتغير أي شيء في عالمه. ونحن ننتظر أن يأتي شخص ما، ينقـذنـا، نحن المذنبـون. وهكـذا كان ينقصنـا حضـورك يا كاليستراتوف لهذا الأمر. وهكذا قدمت إلينا. ظهرت ولم تتغير بعد ـ تابع غريشان الكلام بسخرية ـ فأهلاً وسهلاً أيها المسيح الجديد.

ـ عني، بإمكـانـك أن تتكلم ما يطيب لك، ولكن لا يحق لك أن تنطق باسم المسيح على الإطـلاق ـ قاطعه أفـدي بحدة ـ إنك تستغرب وتتعجب من أنني ظهرت هنا، ولكن هذا ليس بالشيء العجيب ـ لقد كان من المقرر، دون شك، أن نلتقي سوية، ففكر بهذا، هل يصعب فهم هذا عليك؟ واذا لم أكن أنـا، لكـان شخص آخـر دون شك، ولكان هذا الحوار بشكل أكيد. وأنا قد هيأت لهذا اللقاء. . . .

ـ ربما، أنك قد حسبت لي أيضاً؟

ـ نعم قد توقعت أن ألتقي بك. ولقاؤ نا هذا كان ضرورياً. ولهذا ظهرت، ولم أتغير كما تقول.

ـ كلامك منطقي، يا للشيطان ـ كان من الصعب أن لا نتعرف إلى بعضنا وفي هذا بالـذات يوجـد شيء من الحتميـة الجنونية. ولكن لا تحاول عبثاً. أيها المنقذ كاليستراتوف، فإن نظريتك في الواقع لا تساوي أي شيء. والآن يكفينا فلسفة. يكفي، على الرغم من أنـك إنسـان ممتـع، فكـل شيء واضح بالنسبة لك، وهذه نصيحتي لك، وطالما وصلنا إلى هذا الحد: إذهب يا كاليستراتوف في طريقك، وانقذ رأسك قبل كل شيء،فلن يمسك الآن أحد بسوء، أمّا ما جمعته في السهول من حشيشة، بإمكانك أن توزعه إذا أردت، أو تحرقه، او تذره في الهواء ـ لك ملء الإرادة، ولكن عليك أن تفكر، بأن طرقنا لا يمكن ان تتقاطع في المستقبل ـ ودق غريشان بعصاه فوق الحجر.

ـ يصعب عليّ أن أتقبل نصيحتك. فبالنسبة لي لا يجوز هذا.

ـ اسمع، إنك مجنون حقيقي، فما الذي تريده؟

ـ إنني أمـام الإلـه، وأمام نفسي مسؤ ول عنكـم . . . ربما يكون هذا الأمر غير مفهوم بالنسبة لك. . .

ـ كلا ـ كلا، بالنسبـة لماذا؟ ـ صرخ غريشـان، بصـوت أبـح، ملؤه الغضب.فأنا بالمنـاسبـة قد كبرت في أسـرة فنانين مسرحيين، وصدقني جيداً، إنني فهمت لعبتك وقرمنها

على حقيقتها، ولكن ألا تلاحظ أنك قد خرجت عن حدودك، وأنت تعرف، أنه، بعد كل تقديم فني رائع تغلق الستائر. والآن، أيها الرفيق كاليستراتوف إن الستارة قد انسدلت بوجود مشاهد واحد. اقتنع، ولا تجبرني أن أرتكب إثماً آخر. ابتعد عن هنا قبل فوات الآوان. وهكذا أنصحك.

- إنك تتحدث عن الآثام. إنني أفهم جيداً ما تقصد، ولكن كيف الابتعاد وأنا أرى الشر بعيني، يساوي إرتكاب الإثم الفظيع. ولا تحمل نفسك عبء إقناعي. فالأمر يهمني جداً، وأنا غيور على مستقبلكم، وخاصة على الشاب الصغير - لينكا، وكذلك بالنسبة للشاب بتروخا، وكذلك بالنسبة للشباب الآخرين، الذين يرافقونك. نعم، وبالنسبة لمستقبلك أيضاً.

- يا للعجب - قاطعه غريشان - من الذي منحك حق التدخل في حياتنا؟ وفي نهاية الأمر، كل منا يملك الحق في أن يقرر مصيره بنفسه، فأنا أراك الآن لأول مرة في حياتي، فمن أنت، حتى تدافع عني، وعن الآخرين، وكأن السماء قد منحتك هذا الحق. فخلصني منك، ولا تحاول أن تتدخل في شؤوننا. واذا كنت مجنوناً فاذهب لك الله، ونحن نعرف عملنا مستقلين عنك. فهمت؟.

- لا يمكن ان يكون الأمر بالنسبة لي هكذا، فأنت تطلب التخيير - فأنا أقول لك، إنني لا أفرض نفسي وصياً عليك. فالحق ومعرفة الواجب - هما اللذان خولاني ان أتدخل، وأنت تملك الحق أن تأخذ بأفكاري أو ترفضها. ولكني سوف أنفذ واجبي بدقة، وأنت هنا قد أعلنت، أنك تملك الحق في تقرير مصيرك بنفسك هذا شيء رائع. ولكن لا توجد مصائر منعزلة، لا يوجد أي مصير منعزل عن الآخر بحدود، إلا في حالة الولادة والموت. وبين الميلاد والموت، نحن في علاقة وثيقة فيما بيننا كما تتواصل الخيطان في النسيج،فأنت يا غريشان، وأولئك الذين تحت أمرتك تحملون معكم من هذه الحقول الحشيشة من أجل مصلحتكم، ولكنكم تحملون مع هذه الحشيشة البؤس والمصائب للآخرين، وتغرون الآخرين بسعادة وهمية حتى يدخلوا في دائرتكم - دائرة الفشل والانحطاط.

- ومن خولك أن تحاكمنا؟ فهل طلبنا منك، أن تبين لنا كيف لنا أن نعيش، وكيف نتصرف.؟

- نعم، أنا لست محكمة، فأنا واحد منكم، ولكن...

- ماذا تعني بـ«ولكن»؟.

- ولكني أدرك، أن فوقنا يوجد إله، كرمز أسمى للضمير والرحمة.

ـ مرة أخرى تقول لي الإله، وماذا تقصد بكل هذا؟

ـ أقصد أن المزايا الإلهية الخيرة تنعكس من خلال إرادتنا. إن الاله في كل نفس، إنه في وعينا يؤثر فينا.

ـ اسمع، لماذا كل هذه التعقيدات؟ وماذ ينجم عن كل هذا؟ وماذا يفيدنا هذا؟

ـ كيف ماذا، فبقدرة العقل، يتحكم الانسان بتصرفاته كالرب. وهل بإمكانك ان تشرح لي ما هو الإعتراف الحقيقي بالعيب؟ وحسب رأيي إن هذا، هو محاكمة الشر في النفس، وهو أعلى بدرجة من محاكمة الرب. فالإنسان هو الذي يحدد الخطوات الجديدة بخصوص جوهره الخاص.

ـ بماذا يختلف رأيك عن المعرفة العامة؟ ونحن نهرب من هذه المعرفة، حتى لا نكون أسرى في شبكة الجمهور. فنحن لا نتبع لأحد، بل مستقلون كلياً.

ـ هذا خطأ: فالحرية، هي حرية حقيقية، عندما لا تخالف القانون، وإلا لكانت وهما وحريتك الآن قابعة تحت كابوس الخوف. والعقاب القانوني على تصرفاتك. .

ـ وبماذا يخصك كل هذا؟ إن هذا هو اختيارنا، وليس اختيارك؟

ـ نعم إختيارك، ولكن لا يخصك وحدك أفهم جيداً. يوجد مخرج من المأزق: اندموا على ما فعلتم هنا، في هذه السهول، تحت السماء الصافية وأعطوا لانفسكم كلمة واحدة وإلى الأبد، أن لا تعودوا إلى هذا العمل وأن ترفضوا الأساليب الملتوية، لكسب النقود في الأسواق السوداء وتجنبوا العيوب، وابحثوا عن الهدنة مع الذات، ومع أولئك الذين يحملون اسم الرب، وساعتها سوف يكون العقل هو الموحد لنا جميعاً. . .

ـ وماذا عند ذلك؟

ـ عند ذلك سوف تعودون إلى حقيقتكم الإنسانية.

ـ إن لهذا الكلام وقع خاص، يا للشيطان وكل شيء ببساطة ـ قطب غريشان حاجبيه وغرق في التفكير، وهو يلعب بالعصا، ذات العقد. ينتظر حتى يمر قطار شحن آخر. وعندما ساد الهدوء نظر نحو أفدي نظرة قاسية، وقال بلهجة فيها شيء من المرونة: هكذا يا أفدي المحترم. إنني استمعت إليك بإصغاء وصبر وتفهمت ما تقول، ولو كان ذلك من باب الفضول، وما عليَّ الآن إلا أن أصرح لك: ـ أنت ترتكب خطأ، وإذا ما كنت تعتقد، أنك وحدك بإمكانك أن تتكلم مع الإله في أفكارك، وأنني لا أملك أية صلة بالرب، وأنك وحدك تتمتع بهذه الأفضلية كمفكر حقيقي، وأنا محروم. ها أنت الان تكاد تختنق من الاستغراب، ولا تصدق ما تسمع، بان الإله يملك صلات مع أناس من

أمثالي؟.

- كلا، ليس كذلك نهائياً، إن كلمة صلة... هنا غير مقبولة وأنا على العكس مما تتصور، فأنا سعيد أن أسمع هذا منك. ربما أنه قد تغير شيء ما في عالمك؟.

- لا شيء مطلقاً- إن هذا صنو السذاجة. فعليك أن تعرف يا كاليستراتوف، وعليك أن لا تفزع - توجد لدي علاقة مباشرة بالإله، وأملك طريقتي الخاصة، فأنا اتقرب منه بطريقة أخرى، من المدخل الأسود فإن إلهك لا يميز كثيراً، ومن السهل الوصول إليه، وليس كما يبدو لك...

- وعلى ماذا تحصل، عندما تصل إلى الإله عن الطريق الأسود؟

- ليس أقل مما تحصل عليه أنت. إنني أساعد الناس في أن يروا السعادة، وأن يعرفوا الإله في المزاج الحسن. فأنا أعطيهم، ما تعجزون عن تقديمه لهم من خلال وعظكم وصلواتكم... وأقرب زملائي من الإله في الواقع العملي أكثر من أي إنسان آخر.

- تقربهم من الإله، بهذا الذي يشترونه بالنقود؟ بمساعدة المخدرات؟ وأنت تسمي هذا - سعادة الإقتراب من الإله؟

- وماذا؟ تفكر أن تدنيس المقدسات، والخروج على الدين، وما إلى ذلك من كلام يجرح أسماعك هو صحيح. إن منافسك قطع طريقك. نعم، يا للشيطان، نعم فبالنقود والمخدرات، وعليك أن تعرف، إذا أردت ان تفهم أنها كل شيء. وكيف تفكر أنت فللنقود إله خاص، وهل في الكنائس، وما شابهها من مؤسسات تعيش دون نقود؟

- ان هذا شيء آخر كلياً.

- أترك هذا من بالك ولا تحاول، ففي هذا العالم، كل شيء يباع ويشترى، بما في ذلك ربك. ولكن عملي يعطي الناس الشعور بالنشوة والسعادة، ويقدم لهم ما تعدون به في الكلام فقط، وليس في عالم الدنيا، بل بعد نهاية الكون، والنشوة وحدها تعيد الإنسان إلى حالة التألق، والسعادة، والانعتاق من الهموم في المكان والزمان، ولتكن هذه النشوة مؤقتة، ولتكن وهمية، ولتكن موجودة في الخيال، ولكنها ورغم كل ذلك - سعادة، ومن الممكن الوصول إليها في حالة الحزن. أما أنتم وأمثالكم من الواعظين محرومون، حتى من هذا الخداع النفسي

- أنت تفوهت بشيء واحد صحيح هو، - أن هذا مجرد خداع نفسي.

- وأنت كيف تريد؟ ترغب بالحصول على الحقيقة كلها مقابل خمسة كوبيكات؟ هذا لا يحصل أيها الأب القديس، وإذا لم تحصل على مثل هذه النشوة، فان البديل هو شيء مر.

ـ ولكن من يطلب منك أن تبدل ذلك الوهم بشيء آخر، إن ما تدعوله، هو تفكير شرير ـ نعم هذا هو ما تدعو اليه.

ـ هون عليك يا كاليستراتوف، فلو بحثنا في الأمر لنجم أنني مساعد لكم.

ـ كيف هذا؟

ـ هكذا، وليس في هذا شيء غريب، لقد وعدتم الإنسان بالشيء الكثير منذ تكوينه، وحتى الوقت الحاضر، وأي عجائب لم تعدوا بها المهانين والمعذبين: هذه نعم الإله سوف تنزل عليكم، وهذه الديمقراطية، وهذه المساواة والأخوة، وهذه سعادة في العمل الجماعي، وإذا أردت بإمكانك أن تعيش في الكومونة، ومقابل كل هذا والمثابرة، كانوا يعدون بالجنة، وما الذي كان يحصل في الواقع؟ كل هذا مجرد كلام، وأنا، إذا أردت أن تعرف، أستقبل في جماعتي الذين لا يعملون، ولا يجدون سبيلاً للعيش، فأنا موصل الصواعق، وأقود الناس إلى الطريق غير القانونية، إلى الإله الوهمي.

ـ وهل يوجد أخطر منك لقد كان بإمكانك أن تحقق شيئاً خطيراً على المستوى العالمي يصعب تصوره: ربما في روحك، قد قتل نابليون صغير.

ـ لا تبسط، ولماذا لم يكن نابليون الكبير؟ فلو منحت الإرادة، لكان بإمكاني أن احقق، المعجزات ولو كنت في إحدى الدول الغربية، لقمت بأعمال أكبر من هذه بكثير. وعندها كان يصعب عليك أن تتحدث إليّ، ولنظرت إلى العالم كما يطيب لي واطلعت أين الخير وأين الشر...

ـ لم أشك في هذا مطلقاً، ولم أر في كلامك الشيء الخطير، وكل ما تفوهت به ليس بالجديد، فأنت يا غريشان تتطفل على قضية تدعي حسبها أن الناس قد توحشوا، وهذه مسألة سهلة وبإمكانك أن تتاجر بالثقافة على أساسها: كل شيء سيء، كل شيء كذب! وطالما الأمر كذلك، عليك أن تبحث عن النشوة في المخدرات. ولكن هل حاولت أن تنتقد كل شيء، وأن تعطي الناس فكرة جديدة للتعامل مع العالم. العقيدة ـ ليست نشوة، العقيدة ـ هي ثمرة عذاب للعديد من الأجيال، يجب العمل من أجل العقيدة كل يوم، وخلال آلاف السنين، ـ وأنت تعمل في عمل شائن وتطمح إلى قلب تعاقب النهار والليل منذ تكون العالم. وأخيراً، تبدأ من الرشد، وتنتهي في مرحلة القلق، إذ أنه، وبعد الشعور بالنشوة، تحل فترة من الإضطراب والجنون والإحباط الروحي الكامل، لماذا لا تتكلم حتى النهاية؟ وبالتالي يتبين لدينا أن نشوتك هي حالة هيستيرية لا معنى لها: فبعد أن تصل الى ما تدعوه بالإله، تقع فوراً بين أيدي الشيطان. فكيف لك هذا؟

ـ نظرية العداء للمسيح؟ لا ، أبداً.

ـ ها، ها، فماذا تعني مسيحيتـك بدون ضد للمسيـح؟ بدون ندائـه ماذا تعني؟ وما معنى وجودها؟ وهكذا تخلص إلى نتيجة مفادها، إنني ضروري بالنسبة لكم، وإلا ـ فضد من ستناضلون، وكيف لكم أن تعرضوا وتبر زوا أفكاركم؟.

ـ يا لك من متقلب، أقـولها لك بصـراحـة. ـ ضحـك أفـدي بصوت عال، إذ كان يرغب بالسخرية من تناقضات غريشان ـ ولكن عليك أن لا تتصرف هكذا، فمن الصعب أن نجد واياك لغة مشتركة. إننا متناقضان، لا نطيق بعضنا، ولهذا السبب تحاول أن تطردني من هنا، أنك تخافني، ولكني أصر كل الإصرار عليك أن تعتذر، وحرر هؤلاء الشبان من شبكتك. إنني أعرض عليك مساعدتي.

فجأة، صمت غريشان، وقطب حاجبيه، وأخذ يسير ذهاباً وإياباً صامتاً، وهو يستند على عصاه، ثم توقف.

ـ إذا كنت تفكـر أيهـا الرفيق كاليستراتوف، بأنني أخاف منك، إنك مخطىء للغاية، وعليك أن تبقى، فأنا لا أطردك. إننا سوف نقوم بعملية الصعود إلى قطار الشحن، وسنقوم بهجوم عاصف على المقطورات.

ـ قل: سنقوم بهجوم قطاع طرق، فذلك أصح، ـ قال أفدي بحدة.

ـ كما ترغب أن تسميه، فليكن هجوماً إجرامياً، ولكن ليس بقصد النهب والإجرام، بل بهدف استخـدام هذا القطـار السـري،وهاتان مسألتان مختلفتان كلياً، وخاصة أن دولتك تحرمنا حرية الانتقال...

ـ اترك الدولة على حدة، فماذا تريد أن تقترح عليّ؟

ـ ليس هنـــاك من خصــوصيــة لهذه العمليـة الإجـراميـة، أوكما أردت أن تسميهـا بالانزال، ـ التفت غريشان نحو الطرق الحديدية ـ الجميع سيكونون في المكان، وعليك ان تقنعهم، وخاصة ذلك الشاب الصغير لينكا، وبتر وخا الذكي، فحاول أن تنقذ أرواحهم أيهـا المنقـذ، فأنـا لا أزعجـك، لو بكلمة واحدة.وعليك أن لا تحسب حساباً لوجودي. وإذا تمكنت من إقناع هؤلاء الشبان، وأن تقودهم خلفك، وتحولهم إلى معبودك، فسأختفي عن الأنظـار، كما يجب على القـائـد أن يختفي في حال الفشـل والهزيمة.هل استوعبت ما قلته لك؟ وهل قبلت التحدي الذي أوجهه اليك؟

ـ قبلت، ـ أجاب أفدي باختصار.

ـ عليـك بالتحـرك اذن، ولكن يجب أن لا يعلم أحـد بما تحدثنـا به هنا، لا الآن،ولا في

المستقبل، ولنقل أننا تحدثنا عن قضايا مختلفة.

ـ شكراً، ولكن ليس عندي ما أخفيه، ـ أجاب أفدي.

هز غريشان كتفيه.

ـ أنك تتكلم، كما هو مكتوب في الإنجيل،

كانت الساعة تقارب من السابعة مساء في أحد الأيام الأخيرة من شهر أيار، ولكن الشمس تابعت إرسال أشعتها بقوة فوق السهول الفسيحة، وبالقرب منها توقفت غيوم فضية، تثير الشك والريب المجهولين في نفس أفدي،إذ يبدو ان الخطر كان يقترب.

أما القطارات فقد تتابعت في كلا الإتجاهين، من الشمال الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، والأرض كانت تهتز وترتجف تحت الثقل وتحت دوران العجلات، وهنا فكر أفدي: «كم هي الأرض واسعة، وكم الفضاء رحب وفسيح، والانسان يطلب الأكثر والأكثر، والناس لا يحصلون على شيء، وقبل كل شيء الحرية، ودون البشر ليس بوسع الإنسان أن يعيش، ومع الناس يعاني الانسان من المصاعب، وهكذا الآن ـ فكيف لنا؟ كيف العمل، حتى يتحول كل شاب، وقع تحت تأثير غريشان، أن يتصرف كما يقول له عقله، وليس كما يؤمر به من قبل الآخرين، ومن تأثير الخوف، أو من الشعور الغريزي، وقبل كل شيء، لانه يصعب على أحدهم أن يقف ضد هذا التأثير الجنوني للمخدرات. يا لهذا! ياله من مكار رهيب وخطر! كيف لي أن أتصرف، وما عليَّ أن أفعل؟».

حلت الساعة، وقبل أن يقوموا بعملية إيقاف القطار، اقترب جميع المهربين من الطريق الحديدي، وبقوا خلف الحشائش والشجيرات: كل إثنين أو ثلاثة على حدة، كان الصفير هو إشارة الاستعداد. عندما ظهر القطار من بعيد، وهو يتلوى عبر الطريق، الملتوية، حان الوقت. وما أن صفرت الصفارة، حتى جهز الجميع أنفسهم للقفز. وكانت القماطر والحقائب المملوءة بالحشيشة ملك أيديهم. أما أفدي وبتر وخا ولينكا، فقد كانوا معاً خلف تلة من الحصى، بقيت بعد عملية إصلاح على حافة الطريق، وبالقرب منهم كان غريشان مع اثنين من المهربين: أحدهما أشقر الشعر يدعى كولا، والآخر محدودب الأنف متحفز المشاعر، يتكلم بلهجة سكان القفقاز يدعى ماخاتش ـ من المحتمل أنه من سكان ماخاتشكلي، وعن الآخرين لم يعلم أفدي أي شيء. لكن من الواضح انه كان يوجد بالقرب منهم إثنان أو ثلاثة يختبئون بارتياح، ويجهزون أنفسهم للانزال «المصيري». أما ما يخص الاثنين الذين أرسلهما غريشان لوضع المواد الكيميائية على الطريق، كي يقوموا

بخدعة،وكأن هناك حريق ما فوق الجسر، وبهذا يجبر ون القطار على التوقف، وكان الشابان موجودين بعيداً في المقدمة،وبالقرب من شاخصة الطريق التي تحمل رقم «٣٣٠» وهنا يمر الطريق الحديدي، عبر جسر صغير، معلق فوق الوادي العميق،الذي ملأته مياه الربيع، وهناك في هذه العقدة من الطريق، كان الاثنان من المهربين يضعان المواد الكيميائية، وكان يطلق عليهما المهربون من أصحابهما إسم المخربين.

تحرك القطار بسرعة إلى الأمام، وأدرك أفدي أن الجميع قلقون للغاية ومتحفزون: هل سيكون كل شيء كما يجب وهل سيتمكنون من القفز إلى القطار، وأي مقطورات ستكون. وربما سيكون القطار عبارة عن مجموعة من الصهاريج، فأين من الممكن عندها أن يجلس الواحد، وأحياناً يكون القطار محمياً من قبل قوات مرافقة عسكرية، وعند ذلك سيكون المأزق المتوقع.

خاف لينكا، وأخذت أوصاله ترتعد فأشعل سيجارة، وهنا غضب بتر وخاوقال له:

- اترك من يدك، أيها القذر، سأقتلك.

ولكن، لينكا الذي شحب وجهه، وازرق لونه تابع يسحب الدخان من سيجارته بنهم، وعند ذلك هب بتر وخا من مكانه، واتجه نحوه كالوحش، وصفعه على رأسه حتى طارت - قبعته ولكن لينكا لم يسكت على هذا - فأجابه بضربة، ثم رفسه برجله، وهنا جن جنون بتر وخا، ونشبت فيما بينهما معركة قتال حامية.

كان على أفدي أن يقف، ويفصل بينهما:

- كفا عن القتال حالاً، لا تمس يا بتر وخا لينكا، ألا تستحي على نفسك!

ولكن بتر وخا، الذي اغتاظ جداً هجم على أفدي قائلاً:

- وأنت ما الذي جعلك تتدخل، أيها القس - ياذا الجبهة الحمراء ماذا بك تقف كالمجنون! إذ يراك الناس من بعيد ،نسده بتر وخا من بنطاله. وعاد كل منهم إلى مكانه بعد أن تخاصما بشدة، وأخذ كل منهم يلهث بقوة.

توقف القطار في مكانه، وعم قلق المهربين الجميع، بمن فيهم أفدي، كانت هذه اللحظة حرجة للغاية، ومتوترة وخطرة.

كان أفدي يحب منذ صغره أن يتتبع حركة القطارات: ينظر بتمتع إلى القطارات،التي اشتغلت خلال الحرب، ومنها تلك الالات الرومانسية، التي تنفث ، أعمدة ثخينة من الدخان، وسحابة من البخار ويعم المحيط بقوة صفارته، ولكنه لم يتوقع هذا القلق الكبير،الذي أخذ يعاني منه في انتظار القطار، إذ كان عليه أن يوقف القطار بطريقة غير

مشروعة، وأن يركب القطار رغماً عن القانون.

اقترب قطار الشحن، الذي يجره المحرك البخاري الهائل، ومع كل لحظة كان يقترب فيهـا، كان المتـواجـدون بالقـرب من خط الحـديـد يشعـرون بأبسـط وأدق المشاعر باقترابه وأحسـوا بالفـرق الشاسع بين القطارات القديمة، وبين القطارات التي تعمل على محركات (الـديـزل) الحـديثـة، إذ تتجسـد قوتهـا في أعماقها، ولكنها كانت تجر خلفها ذيلاً طويلاً من المقطورات، حتى بدا القطار بلا نهاية، أما العجلات العديدة والتي بدت وكأنها لا تحصى، كانت تدور وتـدور تحت المقطورات ، وهي تدفع الريح المتقطعة والهدير يعم المنطقة. نظر أفـدي الى هذه الآلـة العجيبـة التي تسير مندفعة إلى الأمام بقوة، ولم يصدق أن هذا القطار السريع والضخم بإمكانه أن يتوقف فجأة.

تعـاقبت المقطورات والشاحنات والصهاريج ومقطورات الأخشاب ومقطورات مغطاة وأخرى تحمل صناديق. مرت نصف المقطورات، تقريباً ففكر أفدي، إنهم لن يتمكنوا من إيقاف القطار وإن هذه المؤامرة ستبوء بالفشل: من المستحيل إيقاف هذه الآلة الكبيرة التي تنهب الأرض بسرعة، ولكن وفجأة أخذت سرعة القطار تخف تدريجياً، وأخذت العجلات تدور ببـطء. إنطلق صريـر الفـرامـل، فاهتز القطار وضج بقوة وكأنه قد إصطدم بشيء ما، وأخذ يخفف السرعة تدريجياً. لم يصدق أفدي ما يرى بعينيه: أشرف القطار على الوقوف، وهنا صدر صوت صفارة قوي، وفي الاجابة جاء صوت صفير آخر مشابه له.

ـ تقدموا الى القطار! ـ أمر بتروخا بحدة.

أخـذوا قماطـرهـم وحقـائبهم واندفعوا إلى الامام نحو المقطورات التي أخذت تزحف ببطء كل شيء جرى بسرعة واندفاع، كما في حال الانزال والحصار، إذ كان من الضروري أن يتمسك كل منهم بشيء ما، وأن يصعد إلى أي مقطورة، أو الى أي ساحة من ساحات الشحن ـ المهم الصعـود، وهنـاك وخـلال المسير من الممكن ان يجدوا المكان الأفضل، وأن يتسلقوا الى الأسقف.كان كل شيء بالنسبة لأفدي كما في الحلم المخيف: أخذ يركض أمام المقطـورة العـاليـة جداً، والتي مثلت أمـامـه كجـدار كاتم، يصعب اختراقه، وإلى جانب المقطورات فاحت رائحة المازوت والمحروقات العالقة بالعجلات، التي كانت جاهزة كي تدور في أي لحظـة، وتتـابـع طريقهـا. وبغض النظـر عن كل هذا، حاول أفدي أن يساعد بعض زمـلائـه، وسـاعـده آخـر في حالـة فوضـويـة. صفـر القطار مرتين ثم انطلق فصرت العجـلات، وضجت المقطورات، ولو تأخر الإنسان، وارتبك، لكان من الممكن أن يقع تحت العجلة. ولكن كل شيء تم على خير وجـه. . . وعنـدمـا اهتز القطار مرة أخرى.أخذ

يسـرع حتى يعـوض مافـاتـه من الوقت، نظر أفدي من حوله فوجد نفسه في مقطورة مملوءة بالبضائع مع زميليه بتر وخا ولينكا وغريشان أيضاً. والإله وحده يعرف كيف تمكن أن يصعد إلى المقطورة ورجله تؤلمه بشدة، ومعه كان الشابان الآخران ـ ماخاتش وكولا. الجميع كانوا شاحبين، ويلهثون من الإعياء ولكن وجوههم كانت منفردة الأسارير، ويبدو عليها الفرح. لم يصدق أفدي، أن كل شيء قد تم على خير وجه، وأن الشيء الصعب قد أصبح خلفهم واتجـه مهـربـوا الحشيشـة الآن إلى جلبـاك ـ ساز، وهنـاك سيقـودنـا الطـريق إلى الأرض الواسعة، إلى المدينة الكبرى وإلى الأماكن المكتظة بالسكان...

كان الطـريق الى المحطـة يحتـاج إلى خمس ساعـات وحـالفهم الحـظ، أنـه في هذه المقطـورة كانت توجـد بعض الصنـاديق الخشبيـة الفـارغة، ولهذا أخذ المهربون يسخدمونها للتمـويـه، وحتى لا يلحظهم أحـد كان، وفي المقطورة كان النور كافياً، وخاصة إذا فتحت الأبواب من جهة ما، بالاضافة الى النوافذ الموجودة في الأعلى، والمخصصة للتهوية.

في المحطـة الأولى، اغلقـوا الأبـواب كلياً، ولزموا الصمت، وانتظروا اجتياز المحطة ولكن بالقرب من مقطورتهم والمقطورات القريبة لم يبدُ أحد. ترقب بتر وخا الوضع بحذر ثم قال، أن كل شيء على ما يرام، وعنـدمـا مر قطـار آخـر للركاب على الخط الموازي، تحرك قطـارهم بدوره.. وخـلال هذه الـدقـائق تمكن ماخـاتش أن يملأ وعاء بالماء البارد وعادت الحيـاة من جديـد فتنـاولـوا بعض الأطعمـة من المعلبات والخبز الجاف وهم يحلمون بالغداء اللذيذ في مطعم المحطة القريبة «جلباك ـ ساز».

أخـذ القطـار يسـرع ويسرع عبر أراضي مقاطعة تشويسكي نحو الجبال... كانت ساعـات المسـاء من ذلـك اليـوم من شهر أيار طويلة وحارة،فتحدث هؤلاء الشباب عن كل شيء يخطـر على بالهم، وأكثـر ما كانـوا يتناولون على ألسنتهم هو موضوعي الطعام والنقود وتذكر بتر وخا المرأة الحسناء التي تنتظره في مورمانسك، وهذا ما أثار اهتمام ماخاتش، إذ قال له:

ـ اسمع يا بتر وخا! أنك عدا مورمانسك لا تعرف شيئاً، فلا تتمكن من إيجاد إمرأة أخرى في مكان آخر، وهل تعجز عن ذلك في موسكو؟ ها، ها! وهل لا يوجد نساء إلّا تلك

ـ أنت صبي ياماخاتش، وماذا تفهم في هذه الأمور؟ ـ غضب بتر وخا منه ـ وكم هو عمرك الآن؟..

ـ كم ـ كم! مهما كان عمري، فهـو عمـري، فعنـدنـا في القفقـاس الكثير ون من

أقراني، قد تزوجوا وأنجبوا الأولاد ها ـ ها ـ ها!

ساد بين الجميع جومن المرح بعد هذا الحديث، حتى أفدي قد ابتسم وهوينظر بين تارة وأخرى إلى غريشان. أما الأخير فقد جلس جانباً وهو يبتسم بتسامح متابعاً جلوسه كما كان يجلس سابقاً على كرسيه، وهو يمسك تلك العصا، ذات العقد، وكان يشبه المهربين الآخرين، وخاصة أنه يدخن تلك السجائر الرخيصة. .

هكذا استمر هؤلاء الشبان في سفرهم في هذه المقطورة والمرح يسودهم جميعاً. كان لينكسا يدخن في زاوية المقطورة، بينما حاول الآخرون النوم، على الرغم من أن الشمس لم تختف كلياً عند الأفق، وكانت تنير كل شيء من حولهم، أخذ المهربون بتدخين السجائر وهم يتحدثون عن مختلف الأمور.وفجأة التزم الجميع الصمت وهم ينظرون إلى غريشان ويهمسون، ثم قال له ماخاتش بصوت مسموع:

ـ اسمع يا غريشان، لماذا نجلس هنا، هكذا؟ لقد قررنا في إجتماعنا، ان نحسن مزاجنا قليلاً، فكيف تنظر إلى هذه المسألة؟ فالوقت كاف لدينا، حتى ننتشي فعندي أيها العزيز القائد، يوجد دخان خاص، لم يدخنه إلا لصوص بغداد في غابر الأزمان.

نظر غريشان بطرف عينه إلى أفدي، حتى يعرف موقفه، وصمت قليلاً ثم قال:

ـ دخنوا. . .

تحرك الجميع على عجل، والتفوا حول ماخاتش، بينما مد الأخير يده إلى جيب سترته وسحب الحشيشة، التي كن يدخنها لصوص بغداد. لف لفافة ثخينة، سحب منها في البداية ثم أعطاها للذي بعده وهكذا حسب الدائرة، وعندما وصل الدور الى بتر وخا أمسك اللفافة وأخذ يسحب منها بنهم، وهويغمض عينيه، قدم اللفافة الى أفدي وهو يقول:

ـ خذ يا أفدي، واسحب منها قليلاً، فهل أنت أصلع حتى نحرمك؟ خذ ودخن، خذ ولا تبرم وجهك جانباً، فهل أنت فتاة؟

ـ كلا يا بيوتر، لن أدخن، مهما حاولت، قال أفدي رافضاً طلب بتر وخا رفضاً كلياً.

غضب بتر وخا جداً، وقال:

ـ ستبقى خورباً، كما كنت، يا للعظمة! وهل انت آخر خوري في هذه الدنيا؟ فأنت تحاول أن تعمل كل شيء يطيب لك، ولكنك تبصق على أرواح الآخرين.

ـ أنا لم، ولن أبصق على روحك، فأنت غير محق يا بيوتر.

ـ من الصعب ان يقنعك الإنسان، لوّح بيده، ثم سحب من اللفافة ملء رئتيه، مرة

أخرى، وأعطاها إلى ماخاتش، والأخير قدمها بحركة قفقازية مرنة إلى غريشان، وهو يقول:

ـ خذ أيها القائد العزيز، الآن دورك، حان وقت نخبك.

أبعد غريشان يد ماخاتش، دون أن يتكلم.

ـ الأمر لك أيها القائد ـ قال ماخاتش، وهو يهز رأسه بأسف. ومن جديد تناقلوا اللفافة حسب الدور. فامتص لينكا منها بنهم، ثم عقبه كولا الأشقر، ثم بتر وخا، ومن جديد ماخاتش. وبعد قليل أخذ مزاج المدخنين يتحسن، ويتغير بشكل ملاحظ، وأخذت أعينهم تسبح في الضباب، يلحسون شفاههم، ويضحكون بدون سبب، ولكن بتر وخا لم يكن لينسى الإهانة التي وجهت إليه، وكان يلقي النظرة تلو النظرة على أفدي،وهو يهمس شيئاً من بين أسنانه بحقد وكراهية تجاه القساوسة، الذين ـ حسب اعتقاده ـ هم أناس سيئون، ويصعب اتخاذهم أصدقاء.

جلس غريشان في زاويته. وكان يراقب بصمت مشهد التدخين، ومن خلال نظرته، كان من الممكن استنباط السخرية والتواضع السوبرماني. وبين الفترة والأخرى يلقي نظرة حادة ومدمرة إلى أفدي. الذي يقف بالقرب من الباب المفتوح، وكان غريشان راضياً عما يجري. ويحرز دون شك ماذا تكلف هذه المسألة أفدي.

أدرك أفدي، ان غريشان سمح للمهربين أن يدخنوا ويمرحوا خلال الطريق، حتى يريه مسرحية استعراضية. وكأنه يقول له: **«أنظر كم أنا قوي، وكم هي قدرتك واهية وضعيفة في النضال ضد الشر»**.

وعلى الرغم من أن أفدي قد تصنع، وكأن الامر بالنسبة له سيان. وان ما يتومون به هنا هو شيء عادي ولا يهمه، فقد كان يعاني في داخله من ضعف، وعدم قدرة على إقناع هؤلاء المخدوعين بغريشان، وأن يتخذ شيئاً ما على الواقع، يساهم بتحرير هؤلاء الشبان من تأثير غريشان، وهنا خرج أفدي عن طوره، وخانه الصبر. فهو لم يتمكن من حصر الغضب، الذي ملأ عالمه حتى ضاق به صدره، والنقطة الأخيرة التي طفح الكيل بها كانت دعوة بتر وخا لأفدي أن يدخن من لفافته، من تلك السيجارة التي لفها بنفسه، والتي مع كل مرة كان يمتصها أحد من الموجودين، كانت تزداد لعاباً، ويتغير لونها حتى أصبحت أخيراً ذات لون أصفر وأخضر. بينما تابع بتر وخا يدعوه قائلاً، بصوت متقطع:

ـ خذ يا أفدي لا تقلب وجهك على قفاه، أيها الخوري، فأنا أدعوك من كل قلبي. ففي هذه اللفافة توجد اللذة الأبدية، حتى أن عقل الانسان يطير فرحاً منها.

ـ لا تقرب مني ، قال أفدي بحدة مقاطعاً دعوة بتر وخا .

ـ لماذا عليَّ أن لا أقرب منك ، فأنا أعاملك بكل إنسانية ، وانت تقلب وجهك على قفاه ، وتتكبر .

ـ هات اللفافة ، أعطني إياها ـ قال أفدي بحدة ، ومد يده ليتناول اللفافة ، ثم رفعها من فوق رأسه ، وقذف بها عبر الباب المفتوح للمقطورة .كل هذا جرى بسرعة ، حتى جمد الجميع في أمكنتهم ولقد تحجروا ، بمن فيهم غريشان لبعض الوقت من المفاجأة . وفي هذا الصمت الذي حل أصبحت طرقات عجلات القطار مسموعة أكثر ، ثم توجه أفدي نحو بتر وخا ، وقال متحدياً : هل رأيت؟ الجميع شاهدوا ما فعلت؟ ـ نظر أفدي إلى الجميع نظرة ساخرة ـ وهكذا سيكون الأمر في كل مرة .

توجه بتر وخا وتبعه الآخرون إلى غريشان يشتكون له باستياء كبير : كيف لهم ان يفهموا تصرفات هذا الانسان،الذي ظهر في جماعتهم ، ويتصرف تصرفات حادة نحوهم؟

صمت غريشان بخبث ، وهو ينظر ساخراً ـ تارة إلى أفدي وتارة إلى الآخرين ، الذين يقفون غاضبين . فلم يطق ماخاتش الصبر ، وقال :

ـ إسمع أيها القائد ، ماذا بك، تلتزم الصمت؟ فهل أنت أخرس؟

ـ كلا انني لست بأخرس ، ـ قلده غريشان ، واضاف بخشونة ، دون ان يخفي السخرية الشديدة : ـ لقد وعدت هذه الشخصية ، ان أصمت . وفيما تبقى ، عليكم ان تصفوا أموركم معه بأنفسكم ، وأكثر من هذا فلن أقول لكم . .

ـ هذا صحيح؟ ـ سأل ماخاتش أفدي مستفسراً .

ـ صحيح ، ولكن هذا ليس كل شيء ـ قال أفدي ـ لقد أعطيت كلمة ، إنني سوف أوبخه ، ـ وأشار إلى غريشان ، ـ هذا الشيطان ، الذي أغراكم بهذه الأعمال الإجرامية ، وأنا لن إسكت ما دمت أناضل من أجل الحقيقة التي أمتلكها ـ وهو بالذات لا يفهم ماذا يفعل بنفسه ، وماذا يرتكب من جرائم . ولقد استغلكم ، إذ جمع قمطراً كبيراً من قماطركم المملوءة بالحشيشة .

الجميع وقفوا في أماكنهم ، عدا غريشان ، الذي بقي في مكانه ، وكل من الشباب قد اغتاظ من هذا الخوري أفدي كاليستراتوف .

ـ أنظروا أيها الشباب ، ـ أخذ أفدي قمطره وهزه عالياً ، فوق رأسه . ـ إننا نأخذ مواداً سامة ، وباءً ضاراً للبشر . وهذا الذي تقومون به أيها المهربون المخدوعون بالحصول على النقود بسهولة ما هو إلا تصرف ضد الأخلاق . نعم أنتم يا بيوتر ، وماخاتش ولينكا ، وكولا ،

أما عن غريشان فلا يكف الكلام،فأنتم بأنفسكم تعرفونه جيداً.

ـ قف، قف يا أفـدي، ماذ حل بك أيهـا الـ. . . هات الكيس إلى هنـا. ـ تحرك بتر وخا نحوه بسرعة.

ـ ابتعد! ـ دفعه أفدي بشدة ـ ولا تقترب مني، فأنا أعرف كيف سأقضي على هذه السموم بنفسي. وأخذ يقذف بالحشيشة من باب **المقطورة** المفتوح. اتضح ان أفدي قد جمع الكثير من هذه النبتة وازهارها الصفراء، وكذلك المعجونات من غبارها. كل ما في القمطر طار أدارج الريح، إلى جانب القطار المسرع، وهي تغزل في الهواء كأوراق الخريف. وهكذا طارت النقود في الهواء، ـ مئات وألوف الروبلات. جمد المهربون في أمكنتهم، كالمسمّرين، **وهم ينظرون إلى أفدي بصمت واستغراب ـ هل رأيتم؟** صرخ أفـدي بهم، وقـذف القمطـر أيضاً من باب المقطورة ـ أما الان فما عليكم إلا ان تحتذوا حذوي، ونقرر جميعنا، أن لا نعود إلى هذا العمـل مرة أخـرى، وأن الإلـه سوف يحبنـا ويغفـر لنـا، هيا يا لينكا، هيا يا بيوتر، اقذفوا إرموا هذه السموم الحشيشية في الهواء.

ـ لقـد فقـد عقله: انـه سوف يشي بنا في المحطة: امسكه جيداً، اضربوا القسيس: ـ صرخ بتر وخا بجنون.

ـ قفـوا، قفـوا، إسمعـوني ـ صرخ أفـدي، وهـو يحاول أن يفسر لهم ما يريد، عندما شاهـدهم، قد خرجـوا عن طورهم، وانـدفعـوا إليـه كالكـلاب المسعـورة، وهكذا انقض بتر وخـا ومـاخـاتش وكـولا على أفـدي يضربونه ضرباً قاسياً. بينما حاول لينكا وحده أن لا يتدخل في البداية، ثم حاول فصل المتنازعين. وهو يدور حولهم ويصرخ:

ـ كفى، كفوا عن رعونتكم! ولكنه لم يتمكن من فصلهم عن بعضهم. وكيف كان من الممكن له أن يفصل هؤلاء الثلاثة، الذين تابعوا ضربهم لأفدي بشدة، بينما كان يصرخ بتر وخا:

ـ اضربه، اسحبه لنرمي به خارج المقطورة.

ـ اخنق هذا القس، اقذفه إلى الأسفل ـ صرخ ماخاتش من جهته،

ـ لا لا يجوز قتله، لا يجوز هذا. . أخذ يكرر لينكا وهو يرتجف.

ـ اتـرك أيهـا المجنون، وإلا ضربتك ـ تخلص كولا من يدي لينكا مهدداً. قاوم أفدي بما إمتلك من قوة، محاولاً أن يبتعـد عن البـاب المفتـوح، وأن يصـل الى منتصف المقطورة ـ المهتـزة من جنب لآخـر: لقـد اقتنـع أفـدي الآن من خلال تجربتـه إلى أي درجـة وصلت الـوحشيـة والقسـاوة والسادية بهؤلاء المدمنين، وما إلى ذلك من سمات يتصفون بها منذ أمدٍ

بعيد. وأدرك أفدي أن المعركة لا تسير به نحو الحياة، بل نحو الموت، وأدرك ان القوى غير متوازنه ومتساوية. هم ثلاثة شبان أقوياء متمرسون، وهو وحده عاجز عن المقاومة. ولم يقف إلى جانبه إلا لينكا، وهذا لا يجوز حسابه، إذ لم يشارك بشيء. أما غريشان فقد تابع جلوسه في مكانه كمشاهد في السيرك أو المسرح، ولكنه لم يخف فرحه الشديد.

ـ هكذا، هذا شيء لائق به، تابع غريشان سخريته، وهو يشاهد كيف يضرب الثلاثة أفدي. ولقد كان يبغي ذلك منذ زمن. وها هو يجني ثمرة سياسته. وتلذذ غريشان وهو يرى كيف يقتلون الإنسان أمام عينيه.

أدرك أفدي، أن تدخل غريشان وحده، هو الذي ينقذه فقط، ولو صرخ أفدي: «انقذني يا غريشان» لتوقف هؤلاء عن ضربه. ولكن أفدي رفض أن يطلب مساعدة غريشان في أي حال من الأحوال، وبقي شيء واحد ـ أن يجر نفسه إلى أعماق المقطورة، وان يتمسك في زاويتها البعيدة عن الباب، وهناك دعهم يضربونه ويرفسونه، ويفعلون به ما يشاؤون ولكن المهم أن لا يقذفوا به خارج المقطورة، والقطار مسرع ـ هذا يعني الموت الأكيد..

ولكن الوصول إلى الزاوية لم يكن بالشيء السهل، فالضربات على رأسه وظهره، دفعت به الى الفسحة بين الأبواب. ولو توقف هناك ثانية واحدة لقذف به المهربون بلا شك من المقطورة. ومن جديد عاد أفدي للوقوف. وحاول الاقتراب من الزاوية البعيدة، آملاً أن يتعب المدمنون من ضربه ويتركونه. وأول من هوى على الأرض في هذه المعركة كان لينكا، الذي سقط إثر ضربة من كولا، الذي لطمه بشدة حتى لا يدافع عن القس الواعظ، المدعو أفدي، الذي أخذ على عاتقه معاداة المهربين. وكان الثلاثة يضربون بشدة وشراسة ـ وخاصة أن الحديث كان يدور حول النقود الكثيرة التي بالإمكان أن يجنوها.

ـ اضرب، اضرب، على نفسه، على روحه ـ كرر بتر وخا ـ وأمسك أفدي من الخلف، وأخذ يديه وربطها خلف ظهره، ووضعه تحت ضربات زميليه ماخاتش وكولا، اللذان إنهالا عليه ضرباً كالوحوش. ثم ضربه ماخاتش بقوة على بطنه. عند ذلك إنحنى أفدي من الألم، وبصق دماً، ثم هوى على أرض المقطورة قرروا سحبه إلى الباب، ولكنه لم يتوقف عن المقاومة، وهو يرفسهم برجليه ويتمسك بألواح الخشب، محاولاً أن يتخلص من أيديهم، أما غريشان القاسي فقد تابع جلوسه، وكأن شيئاً لم يحدث، زد على ذلك كان يصع رجلاً فوق رجل، وينظر بأريحية لما يحدث، ويبتسم إبتسامة المنتصر، وهو يلوح ويلعب بالعصا المعقدة، التي كانت في يده. وكانت هناك إمكانية أن يطلب أفدي

الرحمة، إذ يقول «انقذني يا غريشان».

ـ وكـان من الممكن ان يلبي الأخـير دعـوتـه ويسـاعده، ويوقف ضربه، ويحول دون قذفه من الباب، ولكن أفدي رفض أن يستنجد به، وحافظ على رباطة جأشه، حملوه الى عتبـة المقطـورة، والـدم يرسم خطـوطاً على الأرض وهنـاك، عنـد البـاب، حصلت المعركة الأخيرة. لقد خافوا أن يقذفوا أفدي، وينزلوا معه من السرعة. وهنا تمكن أفدي أن يتمسك بالحديد عند الباب، وساعدته الريح، إذ كانت تدفع به إلى الداخل، وتمكن أفدي من أن يحشر رجله اليسرى خلف البروز الحديدي، ويتعلق في الهواء. ولم يشعر أفدي في أي لحظة من حياته بمثل هذه القوة التي يتمتع بها الآن من أجل متابعة الحياة، وأن يتغلب على هذه المصيبة. ولو تركوه في هذه الحالة. لكان بإمكانه أن يتسلق ويعود إلى المقطورة، ولكن المهـربـين تابعـوا ضربـه بأرجلهم على رأسه، كما لو كانوا يضربون كرة قدم، وهم يشتمونه بأسـوأ الكلمات النـابيـة. سال الـدم على وجهـه كله. بينما تابع التمسك بالحديد، وكانت الـدقـائق الأخـيرة أصعب لحظـات، إذ توحش بتر وخا وماخاتش وكولا نهائياً. وهنا لم يطق غريشـان الصـبر أكثـر من هذا، فهب نحـو الباب: الآن أصبح من الممكن أن نتمتع كيف سيسقـط أفـدي كاليسـترا تـوف، ويمـوت. وقف غريشان ينتظر اللحظة التي يتمكن فيها المهربون أن يدفعوا أفدي إلى الأرض. فهنا يعرف غريشان كيف يتصرف: انه يرغب بقتل أفـدي كاليسـترا تـوف بأيـدي الآخـرين، دون أن يتدخل في الجريمة. فلووجدوا غداً جثة أفـدي كاليسـترا تـوف ميتـاً ولم يصـدقـوا انـه قذف نفسه، أووقع من القطار، فإن غريشان سيكون نظيفاً، فهو لم يضرب أفدي، ولم يتدخل في قذفه، فيقول: «إن الشباب قد اختلفوا فيما بينهم، ولقد حصل الموت قضاء وقدراً.» ولهذا كله لم يتدخل غريشان في القتال.

وآخـر ما ذكـره أفـدي، كان ذلـك الضـرب المـبرح على وجهه ورأسه بأرجل هؤلاء المهـربـين. وكيف كانت أحـذيتهم قد تلطخت بالـدم المتصبب من وجهه ورأسه. بينما كان الهواء القادم يصفع أذنيه كلهب النار، وأصبح جسم أفدي كأنه كتلة ثقيلة من الرصاص، تهوي الى الأسفـل نحـو المنحـدر الـرهيب، والقطار يزيد من سرعته مقاوماً الريح، في تلك السهول، ولم يبال أحد كان فوق هذه الارض بوضع هذا الانسان المعلق على شعرة، فوق هوة المـوت. وسطعت الشمس فوق شفق المغيب، لذلـك النهـار الطـويـل، على أفـدي، فأغمض عينيـه من العـذاب والـرعب والألم، ورغب أن يغـوص في الأعـماق المظلمة خارج الكـون، ولكن كلما ضربـوه بقوة، كلما تمكن بشدة، ولم يفك أفدي يديه عن الحديد. وعند ذلـك وجـه بتر وخـا له الضـربـة الأخـيرة والحـاسمـة، إذ أخذ العصا التي كان يحملها دائماً

غريشـان . وقـد أخـذ غريشـان يلوح بها عن قصـد، وكأنه يقول لبتر وخا، خذ هذه العصا واضربه على يديه، عند ذلك سيفلت . . .

وهكــذا هوى أفـدي كتلة معـذبـة إلى الأرض، دون أن يشعـر كيف تدحـرج فوف الحجـارة نحـو الأسفـل، وتهشمت يداه ورجـلاه ووجهـه، وتكـور بجسـده فوق الأرض، واستمـع كيف كان القطـار يجر ذيله الطـويـل خلفـه، وكيف اختفى بعيـداً عنه، وهو يحمل زملاء طريقه، وكيف تلاشى ضجيج العجلات تدريجياً.

اختفت الشمس، وغـاب نورهـا، ثم حلت الظلمـة، وفي الأفق الفضي الـداكن تعالت غيوم تهدد بالعواصف الرعدية . . .

ومن جانب ذلـك المكـان . الـذي شهد تلك القسوة البشرية، كانت تمر القطارات الأخـرى، دون ان تلحـظ ذلك الإنسان، الذي لم يطلب النجدة من أحد. وكان يضطجع شبـه محطم كليـاً في هوة إلى جانب الطـريق الحـديـدي . وكل ما توصل إليه في هذا البحث الجـاد عن الحقيقـة، قد ذهب الآن هبـاء، دون جدوى . وهل كان من الصحيح أن يرفض حظه في البقاء؟ إن الحديث كان يتم عن حياته الخاصة، وكان الأمر يكلفه، أن يلفظ عبارة «انقذني يا غريشان» ولكنه رفض أن يقولها . . .

في الحقيقة لا توجد حدود للتناقضات الإلهية . . . فلقد حدث ذات مرة في التاريخ، أن غريباً في منطقة الجليل، أخذ على عاتقه كل المسؤولية، ولم يتكلم بجملة أو عبارة ما، ما لم تكن متطابقة كلياً مع الحقيقة. وقرر أن يضحي بحياته، حتى لا يتفوه بعبارة ما تجبر على قولها باطلاً. وهكذا جاءت نهايته . وعلى الرغم من أنه مضى عليها ألف وتسعمائة وخمسون سنة، يتابع الناس نقاشهم بحدة: كيف حصل هذا آنذاك، وكيف كان لذلك أن تحدث . وفي كل مرة، وفي كل مرة، يتناقش فيها الناس حول هذا الموضوع، يبدو الأمر، وكأن ذلك قد حصـل البـارحـة، ويحمـل هذا المـوضوع للإنسان معاناة انسانية جديدة. وكل جيل من الأجيال المتعاقبة خلال العديد من القرون التي عقبت تلك اللحظة. يتابع النقاش والحوار، ويعلن النـاس، لو أنهم كانـوا موجـودين في تلك السـاعـة، فوق جبل سمعان، لم كانوا قد سمحـوا بتعـذيب وقتـل ذلـك الانسان الجليلي . هكذا يبدو لهم الأمر الان، ولكن من كان يتوقع أن الأمر سيصبح هكذا. وان الجميع سوف يدركون مسؤوليتهم عبر القرون، ولكن ليس في ذلك النهار. . .

كان يوم الجمعـة، وذلـك الانسـان، الـذي كان بإمكـانـه أن ينقـذ الإنسان الاخر بكلمتين، لم يتفوه من أجله، ولو بكلمة واحدة . . .

- ٢ -

سطعت الشمس في ذلك الصباح بقوة فوق القدس، واعدة بحلول نهار حار. وعند شرفة قصر هيرودس، وفي ظل رواق الأعمدة المرمرية، جلس الحاكم بيلاطس البنطي على كرسيه العالية. كان النسيم يأتي رطباً، يلفح الأرجل في الصنادل. وبالقرب كانت أشجار البقولا العالية في الحديقة الواسعة، تهتز بهدوء حتى أنه كان بالكاد يسمع حفيف الأوراق التي مالت للاصفرار.

من هناك، ومن فوق المنصة العالية قليلاً، عند رواق الأعمدة كان منظر المدينة واضحاً، عدا بعض الجوانب،التي بدت غير واضحة خلف السراب. والهواء أخذ يسخن تدريجياً، كما بدت ضواحي القدس، واضحة المعالم عند حدود الصحراء البيضاء.

في ذلك الصباح، وفوق المرتفع القريب، كان يحلق أحد الطيور الكبيرة فارداً جناحيه، وكأنه قد علق في السماء بخيط غير مرئي، وأخذ يحوم بصمت وانسياب وحيداً، يقترب بين فترة وأخرى، من الحديقة الواسعة ليحوم فوقها برهة من الزمن. يشبه هذا الطير الصقر أو الحدأة، وعداهما لا يوجد أي طير أخر، قادر على التحليق مدة طويلة، في هذا اليوم الحار. وهنا لاحظ الحاكم كيف التفت يسوع، والقى نظرة على الطائر، فغضب منه، وغير من وضعية جلوسه، وقال بحدة:

- إلى أين تنظر، أيها القيصر اليهودي؟ هذا أجلك يحوم فوقك.

- إنه يحوم فوقنا جميعاً - أجاب يسوع بهدوء وكأنه يتحدث مع نفسه. وبحركة لا شعورية رفع كفه، ومسح عينه التي تسبح في دموع سوداء. تجمهر حوله عدد كبير من البشر عندما كان السوق، عبر طريقه إلى المحكمة، وأخذوا يوجهون الضربات إليه من كل صوب، وأغلبهم كان من القساوسة ورجال الدين. لقد ضربوه بشدة، والآخرون يبصقون على وجهه، وأدرك في تلك الساعة، كيف كان الناس يحقدون عليه بشدة، وأولهم الكاهن قيافي. وأدرك أيضاً، أنه ليس هناك من رحمة ينتظرها من حاكم اليهودية، زد على ذلك، أنه ومن الناحية الإنسانية كان يستغرب، ويعجب لوحشية وخشونة وقساوة هذا الحشد، وكأن ليس بينهم من يحزر انه متشرد، وكأنهم لم يكونوا هم أنفسهم، الذين أصغوا إليه، وهم يحبسون أنفاسهم، ليستوعبوا وعظه في المعابد وفي الساحات، وكأنهم لم يكونوا هم بالذات، الذين ابتهجوا وهللوا له، عندما دخل عبر بوابات المدينة على الاتان الغبراء التي يتبعها جحش صغير، وكأنهم لم يكونوا، هم أنفسهم الذين كانوا يبتهلون بأعلى صوتهم وهم يقذفون الزهور تحت أرجل الاتان مرددين: «المجد للابن دافيد!المجد والخلود له».

وها هو الآن يقف عابساً في ثياب ممزقة أمام بيلاطس البنطي، ينتظر ماذا يحل به بعد حين.

كان الحاكم معكر المزاج، حتى شعر الجميع أنه حاقد على نفسه، وعلى طبيعته الراكدة، وعلى ضعف إرادته في اتخاذ القرار. ومثل هذه الحالة لم تصادفه خلال حياته في القوات الرومانية العاملة، وليس في عمله كنائب عام. أليس هذا مضحك، في واقع الامر - بدلاً من أن يصدر الحكم على المتهم فوراً، ويتخلص من النقاشات الزائدة، أخذ يطيل التحقيق وهو يضيع الجهد والوقت عليه. وكان من السهل عليه أن ينادي الكاهن الأول في أورشليم،الذي ينتظر بالقرب منه ويبلغه بقراره: خذوا المتهم، وتصرفوا به كما تشاؤ ون، وكما قررتم. ولكن بيلاطس البنطي كان عاجزاً عن اتخاذ القرار على هذا النحو البسيط. وهل يستحق هذا البهلوان هذا الاهتمام!؟.

ومجرد التفكير في حقيقة هذا الانسان كان يثير الاعجاب. فهو القيصر اليهودي، الذي أحبه الرب، وأهداه إلى اليهود كرسول مباشر يمثل مملكة الإله العادلة. وهذه المملكة كانت لا تسمح بإقامة سلطة القيصر والقياصرة، أو دعاتهم أو خدمهم في المعابد الدينية اليهودية، بل سيكون الجميع متساوين وسعداء من الآن وإلى دهر الدهور. لقد جرب الناس مختلف السلطات والحكومات، ولكنهم لم يعرفوا بعد مثل هذا الإنسان الذكي، والمرن، والماكر - ولو حصل أن استولى على السلطة العليا، لكان قد حكم بنفس الطريقة، وربما لأنه لا يوجد طريق آخر في الحياة، ولن يكون. وهو نفسه - فاعل الشر - يعرف هذا جيداً، ولكنه يقود اللعبة كما يرغب: ويشتري الناس الطيبين بالوعود الكاذبة حول المملكة الجديدة. ولو كان من الصحيح ما يقال، إن كل انسان يحكم على الآخرين من خلال شكوكه، لكانت تنطبق على هذا تلك الحادثة: اتهم النائب العام يسوع بتلك الأفكار، التي في أعماق أسراره، لم يحلم بتطبيقها المعلل نفسه. وهذا بالذات هو الذي أزعج بيلاطس البنطي. ولهذا زرع المتهم في نفسه بذور الفضولية والكراهية في آن واحد، واعتقد النائب العام، انه اكتشف فكرة يسوع الناصري: إن هذا المتشرد - المتنبي قرر أن ينشر في الأرض القلق، إذ أخذ يعد الناس بالمملكة الجديدة، وأن يدمر ما أراد ان يحوز عليه هو نفسه. كلا، يا له من... فمن كان بإمكانه أن يفكر أن هذا اليهودي المسخ، قد حلم بما لم يتمكن أن يحلم به، أو حتى أن يسمح لنفسه أن يفكر به حاكم الممتلكات الأسيوية للامبراطورية الرومانية - بيلاطس البنطي نفسه. هكذا أخذ يفكر النائب العام، ويقنع نفسه ليخلص إلى نتيجة، وهو يسأل المتشرد يسوع بأسلوب لم يعتمده من قبل: في كل مرة كان يضع نفسه

مكـان المتهم ـ وأخـذ يعـاني الحقـد من نوايـا هذا المغتصب. وخـلال هذا، كان بيـلاطس البنطي يتحفز في مكانه قلقاً متخبطاً في شكوكه ـ لقد أراد أن يضع توقيع النائب العام على عجـل، ويحكم بالاعـدام على المتشـرد يسوع عشية اجتماع شيوخ القدس. وأن يطيل هذه الفترة، ويتلذذ بالكشف حتى النهاية بماذا كانت تهدد أفكار يسوع ونشاطه السلطة الرومانية. . .

اغـاظ جواب المتهم النـائب العـام حول الطـير في السـماء، وعصف الشر في عالمه إذ فوجيء بصراحة وتطاول المتهم. وكان بإمكانه أن يصمت بعد ملاحظة النائب أو أن يقول شيئاً ما متـواضعـاً، ولكنه على العكس، فقد وجد الجرأة في نفسه حتى يقول: الموت يحوم علينـا جميعـاً. «فـانظـر، إنـه يجر المأسـاة نحوه، وكأنه في حقيقة الأمر لا يخاف من الموت».
وهكذا جن جنون النائب بيلاطس البنطي وتابع سائلاً بصوت أبح، وهو يمسح العرق عن وجهه البني اللامع، وعن صلعته، وعن رقبته الغليظة:
ـ فلنعد إلى حديثنا. هل تعلم أيها البائس ما ينتظرك؟. وفي الوقت الذي أخذ يسوع يستعـد فيـه للإجـابـة عن سؤ الـه، أخذ النائب يطقطق عقد أصابعه، وهو يفتل كل اصبع على حدة ـ كانت هذه عادته. ـ ثم كرر السؤ ال ثانية: ـ أنا أسألك، هل تعلم ما ينتظرك؟.

تنهد يسوع بصعوبة، وشحب وجهه من تصور الموت، ثم أجاب بصعوبة:
ـ نعم أيها النائب، أعلم، سوف تحكمون عليَّ اليوم بالإعدام. . .
ـ . . اعلم « . . ـ ردد النائب بسخرية، مع ابتسامة ملؤ ها الاحتقار والعطف، وهو ينظر إلى هذا النبي الساذج من أخمص قدميه، حتى رأسه.

أمـا ذلـك المتهم، فقـد وقف أمـامه مكتئباً، عاقد الحاجبين، طويل الرقبة ومن فوقها تهدل الشعر الأجعد. وعلى جسمه كانت أسمال ممزقة. حافي القدمين. يبدو أنه فقد نعليه، عندما القوا القبض عليه، ومن خلفه، ومن بين نوافذ شرفة القصر بدت البيوت الواقعة فوق بعض تلال المـدينـة،التي كانت تنتظـر ذلك الانسان، الذي يقف أمام النائب العام. المدينة الحـزينـة كانت تنتظـر الضحـايـا، إذ تطلب الـدمـاء في هذا اليوم الحار. إن غرائز بيلاطس السـوداء كالليـل، تتعطش إلى القتل ـ وعند ذلك سوف تبكي الجماهير في الشوارع كقطيع الـذئـاب التي تعـوي وتجوع بشدة، عندما ترى كيف يمزق الليث الغاضب حمار الوحش في الصحراء الليبية. ولقد شاهد بيلاطس البنطي مثل هذه المشاهد بين الوحوش وبين الناس، وشعـر بالقشعـريـرة تعم جسمـه عندما تصور اللحظة، التي ستتم فيها عملية الصلب فوق

الصليب. ثم كرر، وفي لهجته شيء من العطف والتهديد:

- انت قلت «أعلم»«فأعلم» ليست مجرد كلمة، وستعرف حقيقة موقفك هذا، عندما ستكون هناك . . .

- نعم، ايها النائب الروماني، أعلم، وأرتعد عند التفكير بهذا.

- لا تقاطعني، ولا تستعجل إلى العالم الاخر. فسوف تصل، - قال النائب، وقد عمه الغضب، إذ قاطعه المتهم، قبل أن ينهي كلامه.

- عفواً، اعذرني أيها النائب، فلم أقصد قطع كلامك، لم أرغب بهذا، - اعتذر يسوع، - وأنا لا أسرع إلى الموت، إنني اتمنى الحياة، ولو لفترة أخرى.

- وهل فكرت بالاعتذار عن الكلام،الذي تفوهت به سابقا - ؟ سأل النائب، وهو يحدق في وجه المتهم.

بسط يسوع يديه، وكانت عيناه حزينتين كعيون الأطفال البريئة.

- لا يوجد أي كلام شاذ بإمكاني أن أعتذر عنه أيها النائب. فتلك الكلمات التي قلتها محددة من قبل أبي، وكان من الواجب عليّ أن أوصلها للناس. منفذاً بذلك وصيته.

- إنك مستمر بالتأكيد على موقفك - رفع بيلاطس البنطي صوته عالياً، وتغيرت تعابير وجهه، وتزايدت التجاعيد عمقاً حول أنفه الأحدب كمنقار الطير، وكشر عن أنيابه بشراسة، ثم بدت ملامح وجهه باردة، وأضاف قائلاً: - إنني أرى ما تعاني منه في داخلك، مهما حاولت أن تمثل وتتظاهر. وما يعني ما تقوله، إنك ترغب بايصال كلمات أبيك - وهل ترغب في نشر الفوضى، وتلطيخ يديك بالأوساخ، وأن تلطخ المجتمع بالفوضى والوحل. وربما أنك فكرت بأن تبلغني كلماته أيضاً، فأنا انسان ايضا.

- بالنسبة لك، أيها الحاكم، الروماني لا ضرورة لك في هذا، فأنت غير مضطهد ولا تعاني من أي شيء، ولا يلزمك أن تبحث عن طريقة أخرى لحياتك. فبالنسبة لك السلطة هي - الرب والضمير. وانت تملك كل سبل السلطة، ولا تحتاج إلى أي شيء أكثر من ذلك، وهي المثال الأعلى عندك.

- صحيح لا يوجد أعلى من سلطة روما. أتصور، انك نريد قول هذا؟

- هكذا تفكر أنت، أيها الحاكم.

- هكذا كان يفكر كافة العقلاء، - صحح له النائب العام مع شيء من التواضع - ولهذا يقال، - حدث بصيغة الوعظ، - القيصر ليس بإله، ولكن الإله - مثل القيصر. فأثبت لي العكس، إن كنت تفكر، أن هذا ليس كذلك. تحدث: - حدق بيلاطس البنطي

بيسوع ساخراً، ـ إنني وباسم إمبراطور روما، الذي أمثله هنا مخول، وبإمكاني أن أغير من واقع الأشياء في الزمان والمكان، وأنت تحاول أن تقف ضد هذه القوة، وتضع ضدها قوة السماء، أو حقيقة أخرى تدعي أنك تحملها للبشر. إن هذا ممتع للغاية. وإلا لما كنت قد بقيت كل هذه الفترة معك هنا. واضعت هذا الوقت. ففي المدينة قد فرغ صبر الناس، وهم ينتظرون الدقيقة التي سينفذون فيها قرار النائب الأعلى. وهكذا عليك أن تجيب.

ـ عن ماذا سأجيب؟

ـ هل أنت واثق من أن الإمبراطور أقل من الإله؟

ـ إنه إنسان، سيموت كالآخرين.

ـ مفهوم أنه سيموت. ولكنه مازال في ذروة مجده ـ فهل يوجد بالنسبة للناس إله أعلى من الامبراطور؟

ـ يوجد الحاكم الروماني، إذا أخذنا مقاييس أخرى للحياة.

ـ لم أقل هذا وإنك قد أضحكتني، ـ أحس بيلاطس البنطي بالإهانة، ولذلك قطب حاجبيه، وحرك تجاعيد جبهته، ـ ولكنك عاجز عن إقناعي بهذا، لسبب بسيط، إن هذا غير مضحك نهائياً. فلا أعلم، ولا أفهم، من يثق بك، ولأي سبب يثق الناس بك.

ـ الناس الذين يثقون بي، هم أولئك الذين يتعطشون للعدالة منذ أمد بعيد، وبذلك، فإن بذور دعوتي تقع فوق التربة الخصبة المسمدة بالمعاناة الكبرى، والمروية بالدموع، ـ شرح له يسوع.

ـ يكفي ـ لوح النائب بيده، فاقداً الأمل، ـ كل هذا مجرد هدر للوقت.

صمت الاثنان، وكل أخذ يفكر بما يدور في نفسه، وعلى وجه يسوع الشاحب تدحرجت قطرات العرق، ولكنه لم يمسح، لا بكفه، ولا بكمه الممزق. لم يفكر بالعرق، بل كان الأمر أصعب بكثير ـ فمن الخوف غصت حنجرته، والعرق يتصبب بغزارة فوق البلاط المرمري، وعلى الرجلين الهزيلتين المعرورقتين.

ـ وبعد هذا كله، أنت تريد مني، ـ قال بيلاطس البنطي فجأة وبصوت أبح، ـ وأنا النائب الروماني، أن أصفح عنك، وأعطيك حريتك؟.

ـ نعم، أيها الحاكم الخير، أطلق سراحي.

ـ وماذا ستفعل بعد ذلك؟

ـ سوف أذهب إلى هذا العالم، أحمد الله.

ـ وهل تفكر أنني مجنون ـ صرخ النائب، ونهض فاقداً رشده من الحقد. ـ فالآن، قد

اقتنعت نهائياً، إن مكانك هو الصليب وحده، فالموت وحده هو الذي يخلصك.

ـ أنت على خطأ أيها الحاكم العالي، الموت ضعيف أمام الروح، ـ قال يسوع بثبات وهدوء وإيمان.

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟ استغرب بيلاطس البنطي، وكأنه فقد الثقة بنفسه، واتجه نحو يسوع، وانقلب وجهه على قفاه من الغيظ والاستغراب وظهرت على وجهه بقع بنية غامقة اللون.

ـ قلت، ما سمعته، أيها الحاكم.

أخذ كمية من الهواء في رئتيه، ورفع بيلاطس البنطي يديه إلى السماء، وهو يستعد لقول شيء ما، ولكن سمع وقع خطى أحذية عسكرية جديدة.

ـ ماذا تريد؟ ـ سأل النائب بخشونة العسكري المسلح، الذي سار متجهاً إليه مع عبد.

ـ لقد أمروني أن أقدم هذا إليك، ـ قال الجندي باختصار، وانصرف.

كانت تلك رسالة إلى بيلاطس البنطي من زوجته، تقول فيها:

«أيها النائب، زوجي، أرجوك ان لا تسبب ضرراً لا يعوض لهذا الانسان المتشرد» المدعو، كما يسمونه ـ المسيح، الجميع يتكلمون إنه يدعو لمثل إنسانية. وهو مبرئ رائع لكافة الأمراض. أما ما يخص الإدعاء بانه إبن الإله، وانه يعتبر نفسه قيصر يهودياً، فربما يكون الناس قد وشوا به سوءاً. وانت تعرف هذه المواضيع جيداً. وتعرف أن اليهود، هم أكثر الناس حقداً على بعضهم. ويحسدون الآخرين، ويحبون الفساد. وفي أنفسهم يتجسد الذل. فكيف لو كان هذا الأمر صحيحاً؟ وغالباً ما يحدث ان ما يفكر به الناس، يتأكد على الواقع تدريجياً. ولو حدث هذا، في هذه المرة أيضاً. سوف يلعنك البشر فيما بعد. ويقولون ان خدم المعابد اليهودية هنا، وحتى الحاخامات في المدينة قد خافوا جداً من ظهور يسوع المسيح،وعملوا ضده وكرهوه كرهاً كبيراً، لأن الشعب قد سار معه، ولقد حسده هؤلاء الحاخامات ونشروا كافة الدعايات السيئة عنه، حتى يقف عامة الجهلة ضده.

وأولئك الذين كانوا يخشعون إليه ويتباركون به، أخذوا اليوم يقذفونه بالحجارة. يبدو الأمر لي يا بيلاطس أنك إذا أعدمت هذا الانسان، فإن تاريخك سوف يلطخ بالوحل يا زوجي. فنحن لن نعيش طوال حياتنا عند هؤلاء اليهود. أريد أن تعود إلى روما، وأنت مرفوع الرأس. لا تفعل هذا يا بيلاطس. ولقد شاهدته عندما قاده الحرس إليك: إنه إنسان جميل، كالإله الشاب حقاً. وبالمناسبة، لقد حلمت في نومي بحلم غريب الليلة الماضية.

سسأحدثك أياه فيما بعد. حلم هام: عسى أن لا تحل اللعنة عليك، وعلى ذريتك من بعدك» . .

آه يا إلهي، يا سيـدي، بماذا قد أغظتـك؟ ـ أنّ بيـلاطس البنطي، ونـدم على نفسـه، لأنـه لم يحكم عليـه مباشـرة بالإعـدام، ويرسله الى الجلادين دون نقاش مع هذا الإنسان الجامد الذي يدعي النبوة. وهناك، خلف حدائق المدينة، فوق التلال، كان يجب أن يتم إعدام ذلك الإنسان الذي تحاكمه محكمة القدس. والآن، حتى الزوجة تتدخل في أمـور النيـابـة، وفي أي منظمـة سرية تنحصر قوة هذا الإنسان ـ يسوع المسيح. وإذا لم تكن هنـاك قوى خفيـة، فإن الإلـه هو الـذي يقف خلفه. ولكن الذي يهتم بأمره ليست الآلهة، بقدر ما تهتم زوجته. ـ إنها هي التي تفهم بعقلها النسائي في أمور السياسة، ولماذا عليه أن يخلق عداوات مع الكاهن الأول قيافي، وحاخامات القدس ـ وأصدقاء وحلفاء روما، ومن أجل هذا المتشرد المشكوك بأمره، المدعويسوع، والذي يقف ضد القيصر. ومن أين عرفت زوجتـه، أن هذا المتشـرد جميـل، كالإله الشاب؟ انه شاب حقاً، وليس أكثر. ولا يوجد أي ناحيـة جماليـة عنـده. وهـا هويقف، محطم القـوى كالكلب بين القاذورات. وماذا وجدت فيه؟. سار النائب عدة خطوات، وهو يفكر بعمق، وهويفكر بمحتوى الرسالة. وجلس في الأريكـة، وهـويتنفس الصعـداء وهنـا خطرت له فكرة، غالباً ما كانت تأتي على خاطره: هؤلاء النـاس الـذين يبـدون محطمين ـ ينظرون ويتعذبون، يتزوجون، يتوالدون، يموتو ويبعثون من جديد ثم يموتون، وكم يحملون في أنفسهم من الشر، وفي وسط هذه الوقاح كلهـا والانحطـاط، تظهـر فجأة الأحلام والانبياء، وتفجر الروح. فلنأخذ هذا على سبيل المثال ـ انه يؤكد على تعاليمه تأكيداً كلياً، وكأنه يعيش فعلاً في الحلم، وليس في اليقظة، والآن يكفي، حان الوقت لايقاظه، حان الوقت لانهاء هذه المسرحية.

ـ وعلى الرغم من كل هذا، أريد أن أعلم، ـ خاطب النائب العام يسوع الذي تابع الوقوف بصمت في مكانه، ـ لنفرض أنك رسول، وليس إنساناً شريراً، يزرع الفوضى بين النـاس البسطـاء، ولنفـرض، عنـدمـا تتكلم عن مملكـة العـدل أنك، ترفض حق القيصر بامتلاك العالم، فلنفرض، أنني أصدقك، ولكن أريد أن أعرف: ما الذي يجبرك ان تقتحم الموت؟ اكشف لي عن السـر، الـذي يدفعك إلى هذا؟ فاذا حاولت بهذه الطريقة ان تحكم اليهـود، فأنـا لا أدعمـك في هذا، ولكنني أفهم قصدك. ولكن لماذا، وفي بداية الأمر تقطع الجـذع، الـذي تحاول أن تستنـد إليـه؟ فكيف لك أن تصبح قيصر، إذا كنت ترفض سلطة القيصـر؟ فأنت تفهم أنـه بمقـدوري أن أحكم عليـك بالمـوت، أو أتـركك وشأنك في هذه

الحياة. فما بك تقف صامتاً. ؟ هل أصبحت أخرساً من الخوف؟

- نعم أيها الحاكم الروماني، إنني أخاف من الإعدام. ولا أرغب أن أصبح قيصراً، كما تفكر.

- إذن عليك أن تعلن على الملأ في ساحات المدينة، انك نادم على ما فعلت، وتنتقد نفسك. وتعترف، بانك كاذب، تدعي النبوة عن كذب، ولا تدعي أنك قيصر اليهود، حتى يبتعد عامة الناس عنك، وحتى لا تغريهم عبثاً. وتخدع نفوسهم، فلا توجد مملكة العدل،التي تدعو إليها نهائيا، العدل هو- السائد، يوجد في العالم إلا الامبراطور. وهو وحده الدعامة الثابتة لهذا العالم. أما مملكة العدل، التي تتكلم عنها كثيراً، فهي مسألة فارغة، وعليك ان تفكر ولا تزعج نفسك، ولا تزعج الآخرين، وفي واقع الأمر، من أنت، حتى يخاف إمبراطور روما منك، - فأنت مجرد إنسان متشرد مجهول، وتدعي النبوة عبثاً، يا لك من ثرثار سوقي! وأمثالك كثر فوق هذه الأرض. ولكنك حاولت عن طريق الإغراء أن تنشر تعاليمك، وبهذا قد إهتم الحاخام الأول، ولهذا عليك أن تكشف عن خداعك، واذهب الى سورية. أو إلى أي بلد آخر، وأنا كنائب روما هنا، سوف أعمل على مساعدتك، فما عليك إلا أن توافق على ما أقوله لك، وما دمت أمنحك الفرصة، فما بك تلتزم الصمت ثانية؟

- إنني أفكر، أيها الحاكم الروماني. أننا نحن الاثنان مختلفان كلياً، ومن الصعب أن نفهم بعضنا. فلماذا عليَّ ان أخدع نفسي، وان أرفض تعاليم الإله، حتى يروق الأمر لك وللقيصر، وتبقى الحقيقة مجهولة، وتعاني من الإضطهاد. ؟

- لا لا تتجاهل، ما هو الأفضل بالنسبة لروما - فإن ذلك أهم من أي شيء.

- إن الحقيقة أهم من أي شيء آخر، والحقيقة واحدة. لا توجد حقيقتان.

- هل تحاول أن تتحايل، أيها المتشرد؟

- إنني لم أتحايل سابقاً، ولا أتحايل الآن، وجوابي هو: أولاً - لم أندم على ما قلته بخصوص الحقيقة، وحتى لو كنت ترغب بهذا. وثانياً، لم أرتكب أي إثم لقاء الحوار بيني وبينك. ولن أضرب نفسي، حتى أتخلص من الإشاعة السوداء، وبما أن الإشاعة كاذبة، فهي ستموت بنفسها.

- ولكنك ستموت أيها القيصر اليهودي قبل ذلك، وهكذا فأنت سائر إلى الموت، مهما تعددت الطرق عندك للخلاص؟.

- لا يوجد لدي إلا طريق واحد.

ـ إلى أي خلاص؟ ـ لم يفهم النائب العام.

ـ إلى خلاص العالم.

ـ يكفيك جنوناً ـ فقد النائب بيلاطس البنطي صوابه... هذا يعني، أنك بمحض إرادتك قد اخترت الهلاك؟.

ـ ليكن الأمر هكذا، طالما لا يوجد طريق آخر.

ـ آه أيتها الآلهة، أيتها الآلهة! ـ قال النائب ضجراً، وهو يمرر كيف يده على التجاعيد الكثيرة فوق جبهته العريضة، ـ يا لهذا الحر الشديد. وهل الطقس سيتغير؟ دمدم تحت أنفه بحقد. واتخذ قراراً نهائياً: «لماذا لي كل هذا الصبر؟ لماذا أحاول أن أحمي الإنسان، الذي لا يرغب في الحياة؟ يا لي من مجنون». ثم أضاف: ـ في مثل هذه الحالة ليس عليَّ إلا ان أغسل يدي.

ـ الأمر لك، أيها النائب، ـ أجاب يسوع وأخفض رأسه.

صمت الاثنان معاً، وكأنهما قد شعرا، أنهما خارج سور القصر، وخلف الحدائق الكثيفة، شوارع المدينة تئن في القيظ في وهاد وتلال أورشليم. وكأن البشر الصامت قد أخذ ينتفخ، وأوشك بين تارة وأخرى أن ينفجر. وفي صمتهما كانا يسمعان أصواتاً غير مفهومة، قادمة من جهة الأسواق الصاخبة، حيث، ومنذ الصباح الباكر، اختلط الناس وتراكمت البضائع، واكتظت الحيوانات وهي تخور وتموء وتصهل. ولكن كان يفرق بين هذه العوالم ميزات تفرق بين الرأس والأسفل: خلف السور كان يسير جنود الفرقة الخاصة، وإلى الأسفل قليلاً، كان جنود الخيالة، إذ بدت الخيول وهي تلوح بذيولها طاردة الذباب.

أعلن النائب، انه سوف يغسل يديه، وشعر بعد ذلك بشيء من الراحة، لأنه، كان بإمكانه الأن أن يقول لنفسه: «لقد فعلت كل شيء، يتعلق بي. الآلهة تشهد إنني لم أدفعه إلى هذا، ولم أقل له أن يفضل تعاليمه على حياته الخاصة. وبما أنه لم يعتذر، فدعه ومصيره، فبالنسبه لنا، الأمر أفضل، فهو الذي وقع على قرار إعدامه بنفسه..» فكر بيلاطس البنطي بهذا، وبنفس الوقت فكر كيف سيجيب زوجته، كما فكر بشيء آخر، وهو ينظر بطرف عينه إلى يسوع الناصري وعلى شفتيه إبتسامة ضبابية: «بماذا يفكر هذا الانسان الان؟ لا بد أنه يأسف للغاية، ويفهم جيداً مدى الآلام التي تحملها له عقيدته، التي لم يرض، ان يتنازل عنها. ووقع في فخ نصبه لنفسه. فحاول الآن أن تنقذ نفسك: فلكل البشر عقيدة واحدة، ومملكة عدل للجميع. فإلى أين يطمح؟ ولماذا الحديث! ولو أراد كل إنسان أن يلعب، فان الحياة تعلمنا أنها تعاقب كل من يحاول أن ينحايل كثيراً وهكذا ينم

التآمر على العرش، الذي لم يتحداه أحد كان. فماذا أراد! قرر ان يربك عامة الناس، ويتمرد على سياسة القيصر، وحتى تنتشر هذه العدوى من جماعة إلى جماعة أخرى عبر العالم. لقد قرر أن يقلب نظام العالم، الذي كُون منذ القدم رأساً على عقب. يا له من انسان بائس، يصعب وصفه، كلا، فأمثال هذا لا يجوز أنّ يبقوا أحياء. منظره الخارجي بسيط، خاشع ومسكين، ولكن يا لكبر ما في داخله ـ وذلك الذي يفكر به، يعجز عن تنفيذه حتى أصحاب العقول الكبيرة. فمن كان بإمكانه أن يشك في مثل هذا. »

في هذه الأفكار وجد بيلاطس البنطي ملاذاً له. ومما هدأه أيضاً، كان ذلك الشعور، بأنه لن يتابع هذا الحوار الصعب وغير المحبب لنفسه مع الكاهن الأول قيافي، الذي طالب بإسم مجلس الحاخامات أن يتخذ قرار إعدام بحق يسوع الناصري.

ـ لا تشك أيها الحاكم الحكيم، فانت ستحصل على الموافقة مع نفسك، وستكون على حق في كل شيء، ـ قال يسوع وقد حزر ما يدور في عالم النائب العام.

استغرب بيلاطس البنطي، وقال بغلاظة:

ـ لا تقلق من أجلي، فان مصلحة روما، هي في مقدمة كل شيء بالنسبة لي، ففكر بنفسك، أيها البائس.

ـ اعذرني أيها الحاكم الأعلى، كان عليَّ أن لا أبوح بهذه الكلمات.

ـ هكذا بالذات. وحتى لا تأسف، عندما سيكون قد فاتك الوقت عليك أن تفكر الآن قليلاً من الوقت ريثما أعود. وإذا لم تغير قرارك، فسأقول كلمتي الأخيرة. ولا تعتقد، أنك القيصر اليهودي، الذي يشكل دعامة الكون، وأن الحياة بدونك لا تستمر. فعلى العكس، كل شيء في غير مصلحتك. ووقتك قد انتهى، وبالتنازل وحده بإمكانك ان تنقذ نفسك. هل فهمت؟

ـ فهمت أيها الحاكم. . .

وقف بيلاطس البنطي من مكانه، وسار متمهلاً، وهو يسدل على كتفيه البردة الفضفاضة، كان خشن العظام، كبير الرأس، أصلعاً، متكبراً، واثقاً في كفاءته وفي قدرته العليا. وعندما سار بمحاذاة رواق الأعمدة، وقع نظره مرة أخرى على ذلك الطير الذي يحوم بجلال في السماء. لم يقدر على تحديد نوع الطير، إما صقر، وإما طير آخر من نفس الفصيل، ذي الأجنحة الطويلة. ولكن ليس هذا الذي أقلقه، بل ذلك، لأن هذا الطير كان بعيداً عن سلطته، وغير خاضع له، فمهما حاول أن يقوم بحركات فلن يخيفه، ولا يطرده، رفع النائب حاجبيه، وألقى نظرة ثم قال: يا له من طير غريب يحوم، ويحوم،

لا عمـل له، ولا يهمـه أي شيء كان. وفكـر النـائب: إن هذا الطـير يشبـه الإمبراطور في السماء. وليس من باب المصادفة ان يرمزوا إلى عظمـة الإمـبراطـور بالصقر ـ ذو الرأس الكبير، والمنقـار المعقوف، والعين المتوحشة، وذو الأجنحة الفولاذية. هكذا يجب ان يكون الإمـبراطـور. في الأعلى ـ أمـام الجميـع، دون أن يبلغـه أحد كان. . . ومن عليائه يحكم الناس والعالم أجمع. وليست هناك أي مساواة كانت، مع أي كان، وحتى الآلهة تتعامل مع الإمبراطور معاملة الزملاء، وهم أعلى من الناس الخاضعين لهم. وعلى هذا بالذات تقوم القوة، وهذا الذي يجبر الجميع على أن يخافوا من السلطة، وعلى هذا يقوم نظام الأشياء في هذا العالم. وهذا الناصري، يدعي في تعاليمه التي حاول نشرها أنه يريد أن يجعل الجميع سواسيـة أمـام الامـبراطـور، حتى العبيـد. ويدعي أن الإله واحد، وعلى جميع الناس أن يكونوا متساوين أمام الإله. ويؤكد على أن مملكة العدل سوف تشمل الجميع، لقد شوش الأفكـار، وأيقـظ عامـة النـاس، وأراد أن يعيـد بناء العالم كما يريد. وماذا حصل من هذا؟ فنفس الجمهـور الـذي وقف إلى جانبه سابقاً قد أهانه، وضربه، وبصق في وجهه كمخادع ومدع للنبوة عن كذب. . . وعلى الرغم من كل ذلك فماذا يكمن وراء هذا الإنسان؟ فهو في وضـع عسـير، وفي مأزق لا مخرج منـه، ورغم كل ذلـك يحاور ويناقش، وكأنـه ليس هو الخاسر، وإنما الذي يحاكمه. . .

هكـذا فكـر الحـاكم بيـلاطس البنطي، نائب الإمبراطور الروماني، وهو يعتبر نفسه نصف إمبراطور في هذا القسم من منطقة البحر الأبيض المتوسط.

عندما حرج بيلاطس، متوقفاً لدقائق عن متابعة محاكمة يسوع، كان يبغي أن يتركه ليفكـر بعمق الهـوة التي يقف على شفيرها، وحتى يكسر معنوياته، ويجبره على الخضوع، والـزحف أمـامـه، وأن يرفض فكـرة الإله الواحد بالنسبة للجميع، وأن ينسى فكرة المساواة العـامـة، حتى يقـذف به فيما بعد خارج أرض اليهودية، حتى يتشرد، ويتعفن دون أخبار، وعند ذلك سوف يقدم أنصاره كافرين به وبتعاليمه. . .

هكـذا فكـر بيـلاطس البنطي والشـك يسـاوره، وهـو يبحث عن طريقة أكثر صحة وجدية من أجل القضاء على هذه الظاهرة الجديدة، ابتعد في رواق الأعمدة، وهو يعتقد، ان المحكـوم سوف يشعـر في عزلتـه بالخطـر الكبـير، الذي يحيط به. وعندما سيعود الحـاكم، سوف يركـع المتهم عنـد قدميـه ويرجوه المغفرة. ولو أن الحاكم كان يعلم، أن المتهم في هذه الدقائق سوف يفكر بأشياء أخرى، منها تذكر الماضي، لما خرج.

ومـا أن عاد الحـاكم، حتى خرج أربعـة حراس من المداخل الجانبية ووقفوا بمحاذاة

أعمدة الشرفة، وكأن المتهم كان يفكر بالهروب. وهنا توجه يسوع إلى الحارس القريب سائلاً:

ـ هل بإمكاني أن أجلس أيها الحارس الطيب؟

ـ أجلس، ـ أجاب الحارس، وهو يضرب الأرض الحجرية بعقب حذائه.

جلس يسوع على البروز المرمري، عند الجدار. بينما بدا وجهه شاحباً نحيلاً، وشعره الأسود المتموج قد تدلى على وجنتيه ورقبته. وضع راحتي يديه على عينيه، وأخذ يفكر بنفسه ناسياً وضعه: «حبذا لو شربت الآن. أو سبحت في نهر ما». وتصور المياه العذبة الجارية عند الشواطىء، وهي تدغدغ الأرض، والأعشاب، وتصور لمعان الماء، والعمل على تقريب الزورق من المكان الذي كان يجلس فيه، وكأن هناك شخص ما، يسبح في القارب، يقترب منه، ويرغب في أن يأخذه بعيداً عن ذلك المكان. كان ذلك الانسان أمه، التي تسرع إليه قلقة، وفي حالة من الهلع. «ماما. ـ قالها هامساً. ـ ماما، لو عرفت كيف كان وضعي عسيراً ليلة البارحة في جبل سمعان فوق جبل الزيتون، لقد قلقت جداً، وكدت أفقد أعصابي من الرعب الذي حط على رأسي كليلة سوداء، ولم أجد لنفسي مكاناً، فجلت مع تلاميذي، ولم يكن بإمكاني أن أستقر. وفي هذه المشاعر الرهيبة وصلت إلى التعرق الدموي، وعندها اتجهت إلى السيد الإله، أبي الأعلى: «أيها الأب، ـ قلت له. ـ لو تفضلت وأبعدت هذا الكأس عني. فالأمر لك، والإرادة إرادتك». وهذه هي الكأس مليئة حتى النهاية، لا يمر من جانبي، يقترب مني، وسيحصل ذلك، الذي تعلم به مسبقاً. واذا كان الأمر كذلك، أبتها الأم، فهذا يعني أنك علمت بما سيحصل بالنسبة لي، واذا كان هكذا فآه يا إلهي، كم عانيت كل هذه السنوات، آه أيتها الوالدة العزيزة، وأي أحلام وآمال قد كونت حتى كبرت، حسب ما أراده الله لي، وحتى وصلت إلى هذا اليوم العظيم والرهيب، والبائس من بين الأيام، أو لأنه لم تعد هناك من مصيبة أكبر بالنسبة للإنسان من موته، ولكن، وبالنسبة للأم، عندما يموت إبنها أمام عينيها، ويستشهد فلذة كبدها، تصبح المصيبة أكبر بمرتين. سامحيني أيتها الأم، فليس أنا الذي حدد مصيرك، وإنما الأب الأعلى، فلنتوجه إليه باعيننا. دون شكوى، وله الأمر وإرادة.»

عندما تذكر والدته مريم، تذكر في الحال حدثاً من طفولته، عندما كان له من العمر خمس سنوات، وكان ذلك، عندما ذهبت أسرتهم الى مصر، هاربة من القيصر هيرودوس، الذي تآمر على حياة الطفل الوليد، الذي أصبح فيما بعد يسوع المسيح، لأن المبصرين قد قالوا، إن قيصر اليهود قد ولد. حتى ذلك الوقت كان الطفل قد كبر ومن هناك، وبالقرب

منهم كان يجري نهر كبير، ربما كان نهر النيل لأنه عريض وعميق، فذهبت مريم إليه مع إبنها حتى تغسل الثياب، كغيرها من النساء في تلك المنطقة. وفي هذا النهار، عندما كانا عند النهر، قدم كهل من عرض النهر على قاربه وتوقف عندهما، ثم اقترب وسلم على مريم،ثم على الصبي بعطف ومودة. قالت له مريم: «أيها الأب. ألا تسمح أن أركب إبني في القارب بعض الوقت؟ انه يرغب بذلك جداً، وهو يبكي من كثرة رغبته». فأجاب الكهل: «نعم يا مريم، فأنا من أجل هذا أتيت بالقارب إلى هنا، حتى تركبي مع إبنك المسيح». لم تستغرب مريم، من أن الكهل يعرف إسميهما، ففكرت أنه أحد السكان المحليين. ولكن عندما طلبت منه أن يجلس خلف المقود، والتفتت نحوه، فلم تجده، إذ إختفى، وكأنه قد ذاب في الهواء. وحتى هذا لم يثر إستغراب مريم، بينما كان الصبي يلح على أمه، ويركض حول القارب، وهو يقفز فرحاً متحفزاً للركوب. عند ذلك وضعت الغسيل على حجر من أحجار الضفة وأخذت إبنها، وأجلسته في القارب، ثم حلت القارب، ودفعته بعيداً عن الرمل، وقفزت لتجلس خلف المجذاف. أجلست إبنها على ركبتيها، وسبحا باتجاه مسيل النهر. سبح القارب بهدوء فوق المياه النقية الصافية بالقرب من الضفة، وإلى جانب الاعشاب النهرية. وعلى الضفة القريبة بانت الزهور، والطيور الجميلة المزركشة، وهي تطير وتغرد في الهواء الطلق وتصفر الزواحف والحشرات. يا لروعة هذا الجو!. فغنت مريم أغنية بصوت هادىء معبرة عن سعادتها. أما الإبن فقد كان سعيداً لدرجة لا توصف إذ أنه لأول مرة يسبح فوق القارب. وهذا قد أسر مريم أكثر. حتى تلك اللحظة لم يبتعدا كثيراً عن المكان الذي إنطلقا منه، وكانا يسبحان بالقرب من الشاطىء. وفجأة شاهدا جسماً أسود تحت الماء الضحل، وما أن تحرك، حتى دفع موجة من الماء، واتجه بسرعة نحوهما. إنه كان التمساح الرهيب، بعينيه البارزتين اللتين تنظران اليهما بحقد، خاف الطفل وأخذ يصرخ، بينما جمدت مريم في مكانها، دون أن تعلم بماذا تتصرف، فضرب التمساح القارب بذيله، وكاد أن يقلبه، فقذفت مريم المجذاف، وضمت إبنها إلى صدرها، وهي تقول: «يا إلهي! هذا هو ابنك يسوع أنتَ الذي خلقته، فلا تتركه يا إلهي! انقذه من فضلك!»

خافت المرأة خوفاً شديداً، وأخذت تصلي، وتستجير بالإله الأب وهي تقول: «لا تتخلى عنا، فإن إبني سوف يكون ضرورياً لك.» بقي القارب دون توجيه. أخذ يسبح بحركات موجهة من التمساح.

وعندما تشجعت مريم، وفتحت عينيها، خرج صراخ الفرح من صدرها، دون إرادة، إذ شاهدت القارب يقف عند الضفة، وكأن شخصاً ما قد قادها الى هناك. وعاد

التمساح من حيث أتى. قفزت مريم من القارب. وأخذت تركض عبر الضفة، وهي تبكي من المفاجأة، وتضحك من السعادة، ركضت دون توقف، وهي تضم ابنها إلى صدرها، تقبله، والدموع تنهمر على وجنتيها: «يسوع! يسوع! نعم يا إبني العزيز! لقد عرفك الأب. لقد أنقذك. هو الذي أنقذك. هو الذي أحبك، انت إبنه المحبوب، أنت يا يسوع أنت ستصبح حكيماً، يا يسوع. انت ستكون معلماً، يا يسوع. انت ستفتح أعين الناس، يا يسوع. وهم سوف يسيرون خلفك، يا يسوع، وانت لن تبتعد عن الناس -هائباً، أبداً، أبداً». هكذا أخذت تبتهل السيدة الأسمى بين النساء».

هكذا أخذت تدعو وتبتهل من الفرح، إن إبن الإله قد أنقذ بإعجوبة، وانها لم تر أي شيء، إن ذلك كان رمزاً من الإله، حتى يثق الناس به: انه يسوع المستقبل، إبن النجار يوسف، الذي اختفى من أجل إنقاذ الطفل من هيرودوس في مصر. وعندما نزلت مريم من القارب مع طفلها إلى الشاطىء وركضت بسرعة، نظرت إلى القارب فإذا به قد اختفى بعيداً في النهر، أما النساء اللواتي كن يغسلن الثياب في النهر، وقد هرعن لانفاذها، فقد أكدوا فيما بعد انها عندما كانت تركض على ضفة النهر، بدت هالة ذهبية حول رأس الطفل، وفرحن لرؤية هذا. وقد مس شغاف قلوبهن منظر يسوع الصغير وهو يلتصق بشدة بصدر أمه، ويحيط عنقها بيديه. ويتنفس من خلال أنفاس أمه ويقول: «ماما، عندما سأكبر، سأقبض على ذلك التمساح من ذيله، حتى لا يعود يخيفنا.» ضحك الجميع من كلام الطفل، ثم أخذوا يتذكرون، من هو صاحب القارب، واتضح انه لم يعرف أحد من هذه المنطقة ذلك الرجل، ولم يروه فيما بعد. وحاول النجار يوسف ان يبحث عدة أيام عن ذلك الرجل - صاحب القارب، حتى يعتذ منه، ويعوض عليه خسارته، ولكنه لم يجده...

تذكر هذه القصة الطريفة، عندما كان يسوع الصغير في مصر، وأخذ يتذكرها في رواق الأعمدة، إذ أخذ يطلب المعذرة من أمه لقاء الآلام، التي سببها لها في حياتها قائلاً: «إنني أودعك يا أمي الآن، فلا تحزني يا أمي، إذا لم أتمكن من مشاهدتك قبل ان ينفذوا بي حكم الإعدام. أخاف من الموت يا أمي، حتى أنني أشعر برجليَّ وكأنهما قطعتان من جليد، رغم أن اليوم حارٌ جداً. سامحيني يا أمي ولا تتعذبي ساعة إعدامي القاسية، ولا تتذمري من مصيري، فتحملي وأصبري. ليس لدي طريق آخر إلى الحقيقة في النفوس البشرية، التي كونها الخالق، إلا طريق واحد، هو أن اثبت تلك الحقيقة بموتي، وأنا أسير على هذه الطريق، سامحيني! ووداعاً يا أمي! وآسف، أنني لم أنفذ وعدي لك، ولم أمسك التمساح

من ذيله. يقال إن التماسيح تعيش طويلاً، جيلين أو ثلاثة أجيال بشرية. وحتى لو أمسكت بتمساح، لتركته وشأنه. . . فليعش كما يطيب له. . ولقد فكرت يا أمي، إذا كان ذلك الإنسان ـ صاحب القارب ملاكاً على شكل عجوز، ربما سأشاهده ـ إذا كتب لي ـ في العالم الآخر. . . وهل سيذكر تلك الحادثة؟ إنني أسمع وقع خطوات جزاري ـ بيلاطس البنطي. وداعاً يا أمي، وداعاً قبل النهاية».

عاد بيلاطس البنطي إلى رواق الأعمدة بخطواته الثقيلة القاسية، كما غادر، واختفى الحرس فوراً، وبقي في رواق الأعمدة الإثنان فقط، واحد لواحد. نظر بيلاطس بتمعن إلى يسوع الذي وقف من مكانه بمجرد أن ظهر الحاكم، فأدرك أن كل شيء يسير كما أراد، ـ إن الضحية كانت تقترب بنفسها، ولكن. وفي هذه المرة، قرر أن يتكلم بقساوة ـ فالأمر، دون ذلك، كان يتطور نحو تلك النقطة.

ـ ماذا حصل؟ كما أرى، إن الحديث قد إنتهى، انك لم تغير رأيك ـ؟ قال بيلاطس البنطي وهو يقترب من مكانه.

ـ كلا.

ـ دون فائدة كان هذا؟

ـ كلا ـ هز يسوع رأسه ـ دع كل شيء يسير على سجيته.

ـ دون فائدة ـ كرر بيلاطس البنطي، على الرغم من أنه غير متأكد،ولكنه قلق في داخله ـ لقد جعلته إرادة يسوع في وضع من التردد.

في نفس الوقت، لم يرغب، أن يعتذر، وينقلب على نفسه ويبحث عن طريق الخلاص، ويطلب العفو، لقد فهم يسوع كل شيء.

لا تأسف ـ ابتسم يسوع برزانة ـ إنني أصدق. إن كلماتك صادرة من قلبك. وافهمك جيداً. وأنا أيضاً أريد ان أعيش، وعند عتبة الخطر يتفهم الانسان، كم هي عزيزة الحياة. كما آسف على مصير أمي ـ إنني أحبها كثيراً، كما أحببتها منذ الطفولة، رغم أنني لم أظهر ذلك. ومهما يكن من الأمر، فعليك أيها الحاكم الروماني أن تتذكر: كان بإمكانك أن تنقذ روحاً واحدة، وكان الناس سيقولون لك شكراً جزيلاً مقابل ذلك، وعليَّ ساعتها أن أنقذ الكثيرين، حتى أولئك الذين سيأتون إلى العالم بعدنا.

ـ تنقذهم؟ بعد ان تكون قد فارقت هذه الأرض؟

ـ نعم، عندما سأرتحل إلى العالم الآخر.

ـ إذن، أنت المسؤول. إننا لن نعود إلى هذا النقاش ثانية، ـ أعلن بيلاطس

البنطي، مقـرراً أن لا يخاطـر أكثـر من ذلـك، ـ ولكن عليـك أن تجيبني عن السؤ ال التـالي والأخـير. . . ـ قال بيـلاطس البنطي كلماته هذه، وهويقف إلى جانب مقعده ثم صمت، مفكـراً، وهـويقطب حاجبيه الكثين، ـ هل أنت في وضـع يسمـح لك أن تتـابـع الحوار؟ ـ واضـاف بيـلاطس البنطي بتـودد، ـ إذا لم تكن على استعداد، فلا تزعج نفسك، فأنا لن أوقفك طويلاً، إنهم ينتظرونك فوق الجبل.

ـ كما تريـد أيهـا الحـاكم، فأنا تحت تصرفك، ـ أجاب يسوع ونظر إلى الحاكم بعينيه الـزرقـاوين الصافيتين، اللتين أدهشتا الحاكم بقوتهما، وتأثير الفكرة الصافية ـ وكأنه لم يكن ينتظر يسوع فوق الجلجة ذلك الشيء الرهيب.

ـ شكـراً ـ هكـذا شكـر بيـلاطس البنطي فجأة. ـ في هذه الحالة أجبني عن السؤ ال الأخـير، الـذي يتسم بالفضـوليـة فلنتكلم كأنـاس أحـرار، فأنا لا أرتبط بك بشيء، وأنت الآن، كما تدرك، تقـع على عتبـة الحـرية التامة، ولهذا علينا أن نكون صريحين مع بعضنا، ـ اقترح وهو يجلس في مكانه ـ قل لي، فهل تكلمت لتلاميذك، وأنصارك ـ وكما أنت تعلم، أنا لا أثق في أفكارك، ـ وهل قلت لهم، إنك سوف تصلب، ولكنك سوف تبعث في اليوم الثـالث، وبعـد أن تبعث، سوف تعـود في يوم ما إلى الأرض، وتقيم محكمة رهيبة لأولئك، الذين يحيُّون الآن، ولأولئك الذين سوف يظهرون في هذا العالم، ولجميع الأرواح، ولجميع الأجيال منذ خلق الكون؟ وسوف تكون هذه العملية كرحلة ثانية في هذا العالم. فهل هذا كذلك؟

ضحك يسوع بغرابة، وكأنه يكلم نفسه: خطا خطوات برجليه الحافيتين عبر المرمر، وصمت مفكراً، إذا كان عليه أن يجيب أم لا.

ـ هل هذا كله قد نشره يهوذا الأسخريوطي ـ سأل يسوع بسخرية، ـ وهل هذا يقلقك للغاية أيها الحاكم الروماني؟

ـ لا أعلم من هو هذا اليهـوذا، ولكن هكـذا أبلغني الأنـاس المحترمون الأكبر سناً. وهل ـ حسب رأيك ـ إن كل هذا عبارة عن كلام لا معنى له؟

ـ فكـر كما تريـد أيهـا الحـاكم، ـ أجـاب يسوع بفتور. ـ لا أحد يجبرك على التفكير عكس ما تعتقد.

ـ إنني أقول جاداً، فأنا لا أضحك، ـ أسرع الحاكم للتأكيد، ـ إنني أفكر، أن الزمن لن يسمـح لنـا أن نتحـدث سويـة مرة أخـرى. وبمجرد أن يقودوك للإعدام، لن يكون لديك إمكانية العودة إلى هنا. ولكن أريد أن استفسر، كيف من الممكن بعد أن يموت الإنسان،

أن يبعث من جديد إلى الأرض، وينظم محكمة لجميع الأرواح؟ وأين ستكون تلك المحكمة - وهل في السماء، أو في مكان آخر؟ وما المدة التي يجب على الناس أن ينتظروك إياها بعد الموت، حتى يحصلوا على الهدوء النهائي؟ إسمح لي أن أعبر عن رأي في البداية: إن حسابك بسيط، وتعتقد أن كل انسان يحصل في العالم الآخر على المكان المريح له. آه لهذا الانسان الميت، إنه يبحث دائماً عن شيء ما، ويتعطش لأشياء أخرى. وببساطة من الممكن أن يعده الإنسان بشيء ما، وهناك فيما بعد الحياة، سوف يركض خلفك كالكلب، وليكن الأمر كما تعلم أنت، أيها النبي، ولكن حياتك قد أشرفت على الانتهاء، وبإمكانك أن تطيلها من خلال المحادثة فقط...

- لا تعتقد أنني أتحدث معك حتى أطيل حياتي.

ولكنك لن تذهب إلى الجلجلة، دون أن تجيب عن سؤال آخر، وحسب مفهومي أن مثل هذا الانصراف يساوي الموت.

تابع قائلاً:

- ولنفرض ان تعاليمك صحيحة، فقل لي: متى يحل ذلك اليوم، الذي تبدأ فيه رحلتك الثانية؟ وإذا كان الإنتظار سيطول كثيراً، ويصعب على الإنسان هذا، فلماذا على الإنسان أن ينتظر؟ وما لم يتحقق بالنسبة للإنسان في الحياة، فمن غير الضروري له بعد الموت. ويصعب تصور ما يمكن أن يحدث بعد الموت. أو الانتظار دون تفكير؟ وماذا يعطي هذا؟ وأي نفع في ذلك؟.

- إن شكوكك مفهومة، أيها الحاكم الروماني، إنك تفكر حسب مفهومك الأرضي، كسادتك الإغريق، ولا تنزعج لملاحظتي، فأنا مازلت ماثلاً أمامك كإنسان زائل، وأنت على حق في أن تناقش. زد على ذلك أننا نختلف وإياك اختلافاً كبير. كالفرق بين الماء والنار، وأحكامنا تختلف، ونتعامل مع الأمور بتناقض كبير. أما ما يخص ذلك السؤال الذي يهمك، أيها الحاكم... فإن انتظار الرحلة الثانية سوف يطول كثيراً. وفي هذا أنت على حق. وليس بإمكان أحد أن يحدد ذلك النهار، لأن هذا لا يعلمه إلا ذلك، الذي كون هذا العالم. أما ما يطول بالنسبة لنا آلاف السنين، فهو بالنسبة له: ربما لا يزيد عن اللحظة الواحدة. ولكن الأمر في شيء آخر: إن الخالق قد أعطانا أفضل ما في الوجود - وهو العقل. وأعطانا إرادة العيش حسب ما يمليه العقل، فكيف لنا أن نتصرف بمنحة الخالق، وفي هذا بالذات تنحصر قصة تاريخ البشر. وأنت أيها الحاكم الروماني، لن ترفض، إن معنى وجود الإنسان في تكامل الروح، - وأعلى من هذا لا يوجد أي هدف في العالم. وفي هذا جمال

الحياة العقلانية ـ ومن نهار لآخر، كل شيء يتصاعد نحو الأعلى، عبر درجات لا تنتهي، نحو التكامل، وهذا أصعب من أي شيء آخر للإنسان، أن يكون إنساناً في كل وضع جديد. ولهذا، فإن انتظار ذلك اليوم الذي لا تؤمن به أيها السيد الحاكم، يرتبط بالناس أنفسهم. . .

ـ هكذا إذن ـ نهض بيلاطس البنطي من مكانه، وأمسك مسند المقعد، ـ توقف، توقف، حتى يكون ذلك مرتبطاً بالبشر، إن ذلك غير معروف، فأنا لا أؤمن بمعتقدك، وليس بإمكاني أن أصل إلى ذلك. ولو كان بإمكان الناس أن يطولوا، أو يقصروا مثل هذه الظاهرات، لما آمن أحد منهم بالآلهة؟.

ـ إنك محق في بعض الأشياء. أيها الحاكم الروماني، ولكني أرغب في بداية الأمر أن أفصل بين الوهم والحقيقة، فعندما يطغي الوهم على الحقيقة، تكون المصيبة الكبرى. الوهم ـ هو شيء يشبه الطمي في الماء، وبإمكانه أن يحول المياه العميقة إلى بقعة ضحلة المياه. وهكذا في الحياة. فأي فكرة كبيرة تبرز من أجل خير الناس، ويكون التوصل اليها عبر الآلام والمصاعب، فإن الإشاعة، التي يتناقلها الناس من إنسان لآخر، تحرف هذه الحقيقة، وتضر بالناس وبالحقيقة. ولهذا أتكلم، أيها الحاكم، وأقصد أن تلك الأقاويل، التي تصدقها، هي في واقع الأمر إشاعة. أما الحقيقة فهي تتجسد في شيء آخر.

ـ ألا تريد أن تفصح لي عن تلك الحقيقة؟

ـ نعم، سأحاول، لن أرفض الكلام، زد على ذلك إنني أتكلم بهذا للمرة الأخيرة. وهكذا، عليك أن تعلم أيها الحاكم الروماني، إن فكرة الإله ليس في ذلك، ففي أحد الأيام، وكالرعد في طقس جيد، يحل اليوم، الذي يبعث فيه إبن الإنسان، وينزل من السماء ويقيم محكمة للبشر، ولكن كل شيء سيكون على العكس، على الرغم من الهدف نفسه، وليس أنا، الذي بقي له من الحياة بقدر المسافة من المدينة حتى الجلجلة، الذي سيأتي مبعوثاً، وانتم، أيها الناس سوف تعيشون في المسيح، في النقاوة العالية، سوف تأتون إليَّ من الأجيال الكثيرة الغابرة، وهذه ستكون رحلتي الثانية. وبكلمة أخرى، سأعود إلى الناس، إلى عالمي عبر معاناتي الذاتية، سأعود إلى الناس، وسأكون بين الناس هذا ما أقصده من كلامي. سأكون مستقبلكم، في الحقبة الزمنية التي عقبت آلاف السنين الماضية، وفي هذا بالذات تنحصر عظمة الإله الأعلى، وبهذه الطريق من الممكن تقديم الانسان نحو كرسي الإعتراف ـ الاعتراف بالخير والجمال. في هذا تنحصر فكرة دعوتي. وفي هذا تنحصر الحقيقة، وليس في الاشاعة والأقاويل، التي ليس لها أساس من الصحة،

والتي تحاول تشويه الأفكار السليمة. ولكن الطريق هنا سيكون أصعب بالنسبة لجنس البشر، وطويلاً جداً، وهنا، إنك على حق أيها الحاكم الروماني في تخوفك. إن هذه الطريق تبدأ من يوم الهلاك، مع مقتل إبن الإله، وفي التوبة الأبدية، سوف تأتي الأجيال، وفي كل مرة ترتجف أمام الثمن، الذي سأدفعه اليوم من أجل التكفير عن ذنوب البشر، من أجل إعترافهم وتوبتهم وعودتهم إلى الإله. ومن أجل هذا خلقتُ أنا في هذا العالم، وحتى أخدم الناس بمثال يحتذي به إلى الأبد، وحتى يتوكل الناس على إسمي، ويسيرون إليَّ عبر المعاناة، عبر النضال ضد الشر في نفوسهم من يوم ليوم، عبر التقزز من النواقص، والقهر، وإراقة الدماء. من قبل تلك النفوس المريضة، الخالية من الحب للإله، ولابناء البشر من أمثالهم.

- توقف، فهل تساوي يا يسوع الناصري بين الإله والبشر؟

- في بعض النواحي، نعم، وأكثر من ذلك، إن جميع الناس متحدون، هم ممثلي الإله على الأرض. والاسم هو من جوهر الإله - والإله - هو الغد اللامحدود، الخالق للكون منذ بدايته، وربما أنك أيها الحاكم الروماني، قد لاحظت على نفسك، أن رغباتك متوجهة نحو الغد. فأنت تتعامل مع حياة اليوم، كما هي، ولكنك ترغب، دون شك، أن يكون نهار الغد أفضل من اليوم، ولهذا تعيش الأحلام في أنفسنا، دون أن تخبو، كنور الإله، وإله الغد، هو الروح اللانهائية، وبشكل عام - كل شيء في الإله جوهري، وكل العطاءات والآمال الإنسانية، ولهذا، كيف سيكون إله الغد - رائعاً أم مجنوناً، رحيماً أم قاسياً، - هذا أمر مرتبط بالناس أنفسهم. فالتفكير هكذا ممكن، بل ضروري وهذا ما يطلبه الإله من الكائنات القادرة على التفكير. ولهذا على الناس أنفسهم أن يفكروا بمستقبل الحياة فوق الأرض، ولهذا إن كلاً منهم هو جزء من إله الغد، والانسان هو الحكم، وهو المبدع لكل يوم من أيامنا. . .

- توقف، وكيف الأمر بالنسبة للحساب العسير، الذي صورته تصويراً مرعباً؟

- الحساب العسير. . . ألم تفكر أيها الحاكم الروماني أن الحساب يجري منذ أمد بعيد؟

- ربما تريد ان تقول لي، إن حياتنا بمجملها هي محكمة رهيبة؟.

- أنت غير بعيد بتفكيرك هذا عن الحقيقة، فاجتياز هذا الطريق عبر المعاناة والآلام منذ اللعنة التي حلت بآدم، عبر الآثام التي إرتكبها الناس عبر القرون ضد بعضهم البعض، وهم ينشرون الشر من الشر، والكذب من الكذب، - فان هذا يعني بالنسبة

لأولئـك الـذين كانـوا، والذين سيأتون إلى الأرض شيئاً ما. ومنذ تلك الآونة التي طرد فيها البشـر الأوائـل من جنـة عدن. والشر ينتشر في الأرض بلا نهاية. وأي حروب قد حصلت، وأي وحشيـة قد مُورست، وكم من البشـر قد قُتـل، وكم شرد، وكم إنتشـر الظلال، وعدم العدالة، لقد عرف البشر كل هذا. وارتكبت الآثام الكبرى ضد الخير، والحقيقة منذ خلق الكون، وهل كل هذا العقاب شيء من عقاب يوم الحساب؟ وفي أي شيء تنحصر مهمة التاريخ، وتقريب العقلاء من المثل الإلهية في الحب والرحمة؟ ولكن كم عانى البشر من أبشع التجـارب خلال تاريـخ البشـر، وفي المقـدمـة لا يرى الإنسـان نهايـة للشر، الذي يحتدم، ويتصاعد كأمواج المحيطات. ألا تعتقد أن الحياة في هذا الجحيم ليست أسوأ من الحساب العسير؟

- وأنت يا يسوع الناصري تريد أن توقف التاريخ؟

- التـاريـخ؟ ليس بامكـان أحـد أن يوقفـه، وأنـا أريد أن أجتث الشر في نشاط وفكر الناس، وفي هذا بالذات ينحصر إهتمامي.

- عند ذلك لن يكون التاريخ.

- أي تاريـخ؟ ذلـك الـذي تتكلم عنـه، أيهـا الحاكم الروماني؟ فذلك التاريخ، من الصعب عليـك أن تمحـوه من ذاكـرتي، ولو لم يكن ذلك التاريخ لكنا اقرب من الإله. إنني أفهمك جيداً أيها الحاكم. ولكن التاريخ الحقيقي، هو تاريخ الإزدهار للإنسانية، ولكنه لم يبدأ بعد فوق الأرض.

- توقف، يا يســوع النـاصـري!دعني الآن جانبـاً، وقـل لي يا يسـوع كيف تريـد أن تستقطب الناس والشعوب وتقنعها بأفكارك؟

- إننا ننادي بمملكة العدل، دون قياصرة. هكذا نريد.

- وهذا يكفي.

- حبذا لو أن الجميع قد أرادوا ذلك...

- ممتع. إنني سمعتك بانتباه يا يسوع الناصري. أراك تتنبأ لمـدة بعيدة، ولكن ألم تر أنـك تغـالي في إمكـانيتـك، وتعقـد الأمـل الكبير على عقيدة البشر، وأنت تنسى طبيعة أنـاس الشـارع؟ فأنت سوف تتأكـد من هذا، خلف جدار المدينة ولكن يستحيل عليك أن تعيـد التـاريـخ إلى الوراء، ويعجز أي كان عن تحويل هذا النهر. وثمة شيء يذهلني: لماذا تشعل الحريق، الذي سوف تحترق فيه قبل غيرك؟ فالعالم لا يعيش بلا قياصرة، ولا يمكن

إلا للبعض أن يحكموا، وللآخرين أن ينفذوا، ومن العبث التفكير بتطبيق أفكارك، وتجعلها قانوناً للتاريخ الجديد. لدى القياصرة إله خاص بهم ـ وهم لا يؤمنون بإلهك القادم غداً، ويعرفون أن الغد لا يملك حدوداً محددة وهو للجميع سواسية كالهواء، الذي يعطى للجميع. ولهذا إن القياصرة هم أعلى من الآخرين. ومن بين جميع القياصرة في العالم، إن الآلهة قد مجدت تيفيريه وسلطته، وانتشرت الإمبراطورية الرومانية في نصف العالم. ولهذا، وفي ظل قيادة، تيفيريه تحكم اليهود، وفي هذا بالذات أرى معنى حياتي، وضميري مرتاح. وليس لدي شرف أعلى من خدمة روما المنتصرة إلى الأبد.

ـ أنت لست نشازاً أيها الحاكم الروماني، وكل انسان تقريباً يتعطش إلى أن يحكم الآخرين، ولو على إنسان آخر، وفي هذا سر المصيبة. وأنت ستقول إن العالم قد قام على هذا الأساس. ومن السهل على الفرد أن يبرر الخطأ دائماً، ولكن القلائل جداً قد فكروا بمسألة الشر في طبيعة البشر، وإن داء حب السلطة، الذي أصيب به الجميع ـ بدءاً من الناس البسطاء الذي يكنسون السوق وحتى الإمبراطور الرهيب ـ أنه من أكثر الأشياء ضرراً وشراً وبسببه تضررت الإنسانية، وستدفع الثمن الغالي. وستتذكر الشعوب في الصراع على التملك للأرض، وسوف يقضي البشر على بعضهم بعضاً حتى جذور أصلهم.

لوح بيلاطس البنطي بيده، غير راض عن حديث محدثه، وقاطعه قائلاً:

ـ توقف، فلست تلميذاً عندك، حتى أصغي السمع إليك بخشوع. توقف! فبالكلام يمكن إقناع أي إنسان كان. ولكن عليك أن لا تضيع يا يسوع الناصري قواك عبثاً فالعالم الموجه من قبل السلطات، لا يمكن أن يكون غير ذلك. فكما كان يقوم سابقاً فسيقوم في المستقبل: الأقوى ـ يملك السلطة. وفي المستقبل من يملك القوة سوف يحكم العالم. وهذا النظام غير قابل للتغيير كالنجوم في السماء. ويصعب على أي كان أن يؤثر عليه. ومن العبث أن تناضل من أجل البشر وإنقاذهم بحياتك، فالناس لن يتعلموا أي شيء من الوعظ في الكنائس، وليس من الصوت الآتي من السماء،وهم سيسيرون دائماً خلف القيصارة كما يسير القطيع خلف الراعي، ويركعون أمام القوة والعظمة وسوف يمجد الناس كل من يكون أكثر قوة وعظمة وسيمجد الناس القادة العسكريين ومعاركهم، حيث ستراق الدماء من أجل سلطة البعض، وإخضاع واستغلال الآخرين وفي هذا بالذات سيكون تفوق الروح، وتمجيد تلك المثل التي إنتقلت من جيل إلى جيل، ولشرف القيصر سوف تقدم الرايات، وتصفر المزامير، ويغلي الدم في العروق، ويردد القسم للإخلاص

للوطن، وتحطيم الغرباء. وبإسم الشعب سوف تنظم الحملات العسكرية، وتتم تربية الإنسان على مشاعر الكراهية للعدو: ليزدهر قيصرنا، الذي يجبر الآخرين على الخضوع والركوع، حتى يستغل الآخرين ويحتل أراضيهم، ففي هذا تنحصر متعة الحياة وجوهر الوجود منذ سابق الأزمنة، وأنت يا ناصري تريد ان تدين كل هذا، وتمجد الجبناء والضعفاء. تريد أن يعم الخير على الجميع وتتجاهل، إن الإنسان وحش،وإنه لا يقدر على العيش بلا حروب، كما لا تقدر أجسامنا على أن لا تفرز الأملاح ففكر بماذا تنحصر أخطاؤك وضياعك، ولو لساعة قبل أن تذهب مع خفر الحراسة إلى الجلجلة، وقبل الوداع أقول لك: أنت تعتقد أن جذور الشر تكمن في حب السلطة من قبل أعظم الناس ورغبتهم في إخضاع الشعوب واحتلال الأرض بالقوة. وفي هذا بالذات تعمق ذنبك، لأن كل من يقف ضد القوة فهو يعمل ضد الأقوياء، ولا يفهم من موقفك هذا، إلا أنك تقف ضد أمبراطوريتنا الرومانية من خلال طرحك لشعار مملكة العدل. تريد أن تقف ضد عظمة روما المتزايدة، وسيطرتها الواسعة على العالم ولقاء موقفك هذا تستحق أن تعدم ثلاث مرات متوالية.

ـ لماذا تكرر؟ ستتابع حديثنا، رغم أنني أعلم جيداً، كيف ينتظر الجزارون، تحت حر الشمس، تحدوهم الرغبة في إعدامي على الفور، فوق الجلجلة. ورغم ذلك علينا أن نتابع الحديث. والآن سوف أعرب عن رغبتي الأخيرة قبل الموت، وحسب اعتقادك أيها الحاكم الروماني، إن ذلك هو رمز القوة، وإنك تحبذ القوة. ولكن توجد قوة أخرى ـ قوة الخير، والوصول إليها أصعب بكثير. وبالنسبة للخيرين تلزم قوة وشجاعة أكثر من المحاربين، فاسمعني أيها الحاكم. لأنك الإنسان الأخير، الذي أتحدث إليه قبل ذهابي إلى الجلجلة، وأملك الرغبة في أن أنصح لك، ولكن عليك أن لا تفكر أنني سوف أطلب الرحمة والعفو منك.

ـ إن ذلك مضحك للغاية.

ـ ولهذا أعلن مسبقاً، حتى تكون أيها الحاكم الروماني مرتاحاً بخصوص هذا الموضوع، وخاصة أنك أنت الوحيد، الذي يعلم بهذا. لقد تعذبت روحي في الليلة الماضية، عندما أخذت أفكر قلقاً، دون سبب. كلا، لم يكن الطقس حاراً في جبل سمعان، فعلى التلال القريبة من المدينة كانت الريح قوية. ولكني لم أجد مكاناً لنفسي: الإعياء سيطر عليَّ، والخوف والحزن إجتاحا عالمي، والأصوات كانت ثقيلة، وكأنها تخرج من القلب إلى السماء، وحاول أنصاري، وتلاميذي أن يبعثوا السرور في قلبي، ولكن

الهدوء لم يعد إليّ. علمت، أن الساعة المحددة قد قدمت، وأن الموت يعصف بالقرب مني لفني الخوف بوشاح أسود. . إن موت كل انسان ـ هو نهاية الكون بالنسبة له.

ـ لماذا حصل هذا؟ ـ نظر بيلاطس البنطي إلى المحكوم، ومشاعر الشر تغمره وسأل:

ـ مـــا العمل يا ناصري، بأفكارك حول الحياة الأخرى؟ فأنت قد أكدت طوال الوقت، أن الحياة لا تنتهي بالموت.

ـ ها أنت مرة أخرى تتكلم حسب الاشاعات، أنه في الحياة الأخرى تهيم الروح صامتة، كالظل في الماء، وذلك إنعكاس للفكرة التي يصعب حصرها، تسبح في الفضاء، خارج المكان، ولكن لا يوجد للأجسام طريق إلى هناك. وإن ذلك عالم آخر على الإطلاق، وبعيد عن عالم معرفة الإنسان، والزمن هناك يسير على نحو آخر، لا يخضع للقياس الزمني في الأرض، بينما يسير الحديث هنا عن الحياة في الأرض. والتي تخضع لحدود وقياسات أخرى. لقد أزعجتني إحساساتي المسبقة حول مغادرة العالم، وتجولت تلك الليلة بطولها في مسالك جبل سمعان، كالطيف، دون أن أجد لنفسي مكاناً أهدأ فيه، وكأنني الإنسان الوحيد القادر على التفكير في كل العالم، وكأنني طرت فوق هذه الأرض ليلاً نهاراً، دون أن أجد أياً كان من البشر الأحياء ـ الجميع كانوا أمواتاً، ووجه الأرض كان مغطى بطبقة من الرماد الأسود، بعد طريق هائل، والأرض تكورت في هوة ليس لها قاع. واختفت الغابات والأبنية العالية، والقلاع، والسفن في البحار، كنت أسمع فقط رنيناً خفيفاً غريباً آتياً من بعيد، دون انقطاع، يشبه الأنين الحزين في الريح، كبكاء الحديد في أعماق الأرض، ويشبه جرس الدفن. وأنا أطير كزغابة وحيدة. أطير تحت السماء، منهك من الإعياء والخوف، والشعور الجنوني يساورني. أخذت أفكر: هذه هي نهاية الكون. وغمر قلبي حزن غير محدود: إلى أين قد ذهب الناس، وإلى من سوف أحني رأسي إحتراماً بعد الآن؟ وقلت في نفسي: هذا هو القدر يا إلهي، الذي انتظرته الأجيال المتعاقبة، وهذه هي نهاية الكون بالنسبة للكائنات العاقلة. فبسبب ماذا حصل هذا، وكيف كان للبشر ان يموتوا هكذا، وأن ينتفوا من جذورهم، ويقطعوا ذريتهم من بعدهم؟ وأحاطني الهلع من كل هذا، وخاصة من فكرة: هذا هو جزاء ما فعلته في حبك للناس، حتى قدمت نفسك ضحية. وهل هذا العالم البشري المتوحش قد قتل نفسه بوحشيته وقسوته، كما يقتل العقرب نفسه بسمه؟ وهل هذه النهاية المأساوية، كانت نتيجة لعدم تفاهم الناس مع الناس الأحرين. وعدم انسجام الحدود للقياصرة وعدم تناسب الأفكار، وتناقض المناصب وحب السلطة، وعدم توافق المصالح الكبر ى للقياصرة الكبار والناس، الذين يسير ون خلفهم

دون تفكـير، وخشـوع، مسلحين من الأرجل وحتى الرؤوس، يتفاخرون بالانتصارات في المعارك الكثيرة؟. وهكذا فما هي نهاية التواجد الإنساني على الأرض؟ فقد ارتحلوا وأخذوا معهم هدية الإله الأساسية، الوعي. آه يا إلهي! صرخت بشدة: لماذا يا إلهي منحت الناس عقـولاً وأيـدي وفصـاحـة وخـاصة لأولئك الناس، الذين دمروا أنفسهـم في ذواتهم، وحولوا الأرض إلى مقبرة العار الأكبر، هكذا أخذت أبكي وأشكو وحيداً في هذا العالم الخالي من البشر، وحقدت على نصيبي وقلت للإله: بأن ذلك، الذي لم ترغب بتنفيذه بيدك، قد قام به الإنسـان مرتكبـاً الجـريمة النكراء: وهكذا عليك أن تعلم أيها الحاكم الروماني، أن نهاية الكـون ليست على يديّ، وليست نتيجـة للمصـائب الطبيعيـة، بل من عداء النـاس لبعضهم، ومن تلك العداوات وتلك الانتصارات، التي تمجدها أنت تمجيداً غير محدود. . . .

توقف يسوع قليلاً، وعدل من نبرته، ثم تابع:

ـ هذا هو الحلم الذي خطر لي الليلة الماضية، وفكرت طويلاً به ولم أنم طوال الليل، وأحييت الليـل بصلواتي. جمعت قواي، وقـررتُ أن أحـدث تلاميـذي عن هذا الطيف، الذي صوره لي الآب. ولكن ظهر جمهور من الناس في جبل سمعان فجأة، ومن بينهم كان يهوذا، الذي إقترب مني وضمني إلى صدره، وقبلني بشفتيه الفاترتين، وقال لي: «إفرح»! لكنه كان قد قال لجماعته قبل ذلك: «عليكم ان تأخذوا أول إنسان أقبله»وهكذا اعتقلوني. والان كما ترى، أقف أمـامـك، أيهـا الحـاكم الـرومـاني، أنـا أعلم، أن طريقي الآن إلى الجلجلة. ولقـد كنت لطيفـاً معي أيهـا الحاكم الروماني، وأنا راض، أنني تمكنت أن أحدث عما عانيت البارحة في جبل سمعان.

ـ وهل تفكر، أنني قد صدقت كل ما سمعته منك؟

ـ هذا شأنـك، أيهـا الحـاكم، أن تصـدق أو لا تصـدق، وعلى الأغلب أنت لا تصـدقني، فأنـا وإيـاك نشبه القطبين المتناقضين. وعلى الرغم من ذلك، قد استمعت لي، وليس بإمكانك أن تقول، أنك لم تسمع أي شيء مني، وليس بإمكانك أن تمنع نفسك من التفكـير بما قلت، وبـإمكـاني أن أقول، طالما لم أحمل معي إلى القبر ذلك الذي شاهدته في جبل سمعان، فان ضميري الآن مرتاح.

ـ قل لي يا ناصري ألم تعمل مشعوذاً في السوق سابقاً؟

ـ كلا، أيها الحاكم، فلماذا تسأل هكذا؟

ـ لا أعـرف، ربـما أنـك تلعب، وربـما أنـك في حقيقـة الأمـر لا تشعـر بالخوف أمام

الإعدام، وهل من الممكن أن يهمك، بعد ان تموت قريباً، أنك قد أكملت مهمتك، وقلت كل شيء، أم لم تقل، ومن استمع اليك، ومن لم يستمع؟ فمن يهمه هذا الأمر؟ أليس هذا هراء، وليس كل ما تتحدث عنه عبث؟.

ـ لا تقل هذا، أيها الحاكم! كلا، ليس هراء، فان الأفكار أمام لحظة الموت تصعد فوراً إلى الإله، وبالنسبة للرب يهمه جداً، كيف يفكر الإنسان أمام الموت، ومن خلاله يحكم الرب على الإنسان، الذي كونه كأسمى مخلوق بين الكائنات الحية، وإن آخر فكرة لدى الإنسان نقية، وصادقة حتى النهاية، وفيها جوهر الحقيقة، وبعيدة كل البعد عن المكر والتحايل. كلا أيها الحاكم، أعذرني. ولكن من العبث أن تفكر، أنني ألعب، ففي أيام الشباب كنت ألعب في مختلف الألعاب، وبعد ذلك لم يعد لدي الوقت للعب. أما بخصوص الخوف من العذاب، فلا أخفي عليك، وكنت قد قلت لك، إنني أخاف، أخاف جداً وأرجو الرب، الأب العظيم، وأتضرع إليه أن يمنحني القوة حتى أستقبل الحكم المقدر عليَّ بصبر، وأن لا يجعلني أزعق كالحيوان، وأن لا يخزيني. فها أنا جاهز، أيها الحاكم الروماني، فلا تتأخر عليَّ أكثر من هذا، فلا لزوم.. لقد حان وقتي...

ـ نعم، إنك الأن ستذهب إلى الجلجلة. فكم عمرك يا يسوع الناصري؟

ـ ثلاثة وثلاثون عاماً، أيها الحاكم.

ـ مازلت شاباً، أصغر مني بعشرين عاماً، ـ قال بيلاطس البنطي بشيء من الأسف، وهو يهز رأسه، وقال وهو يفكر بعمق: ـ كما هو معلوم بالنسبة لي، أنت غير متزو وبالتالي، لا يوجد عندك أولاد، فلن تترك أيتاماً من بعدك، وهكذا سوف نكتف

ـ صمت، وجهز نفسه لقول شيء ما، ولكنه عكف عن الكلام، وكان رائعاً أن صمـ وكاد أن يرتكب خطأ. ويسأل:«وهل عرفت النساء»؟ إلا أنه خجل وفكر: ما وراء الفضولية النسائية، وكيف له أن يسأل مثل هذه الأسئلة، وهو زوج محترم.

نظر في هذه اللحظة إلى يسوع الناصري، فأدرك أن يسوع قد علم ما أراد أن يسأ وادرك أنه لن يجيب عن مثل هذه الأسئلة. انتشر اللون الأسود على عيني يسوع الزرقاوين ولزم الصمت كلياً، واستغرب بيلاطس البنطي «أن يسوع نحيف الجسم، ولكن يا لعظ القوة فيه» ولاحظ كم كانت رجلاه نحيفتين.

ـ حسناً، ـ غير بيلاطس البنطي السؤال إلى جهة أخرى. وكأنه أراد أن يبدل الحديث عن النساء. ـ البعض يقول، إنك ولد لقيط، فهل هذا صحيح؟.

ابتسم يسوع، حتى بانت أسنانه البيضاء المتساوية.

ـ ربما كان هذا صحيحاً لدرجة ما.

ـ وما هو الصحيح حقاً؟

ـ كذلك، كذلك، أيها الحاكم الخير، ـ أكد يسوع، عندما شعر أنَّ بيلاطس البنطي قد أخذ ينزعج، خاصة أن هذا السؤال كان لا يتناسب مع مقام الحاكم. ـ لقد كنت «متروكاً» من قبل الأب الأعلى من خلال الروح القدس.

ـ من الجيد أنك بعد الان، لن تتمكن من إزعاج عقول الناس، ـ قال الحاكم تعباً، وقد لفظ هذه الكلمات من بين أسنانه. ـ ومن هي أمك؟

ـ إنها في الجليل، تدعى مريم، أشعر أنها سوف تأتي اليوم وهي طوال الليل تسير في الطريق. إنني أعلم ذلك.

ـ لا اتصور أن هذه النهاية لابنها، سوف تفرحها، ـ قال بيلاطس البنطي بكآبة، وهو يحاول أن ينهي الحديث الذي طال جداً، مع هذا الإنسان الذكي من الناصرة.

ـ استقام الحاكم في نهاية المطاف إلى جانب رواق الأعمدة على طول قامته، متعاظماً متفاخراً، وبدا برأسه الكبير ووجهه الأبيض الواسع، ونظراته القاسية وكأنه على درجة كبيرة من الأهمية.

هكذا إذن، فلندقق من أجل النظام، ـ وقف باستعداد وأخذ يعيد: الأب إسمه ـ يوسف. الأم ـ مريم، تولد الناصرة، عمرك ثلاثة وثلاثون عاماً، غير متزوج، لم تترك أولاداً. حرضت الشعب على الاضراب العام. وهددت بتهديم المعبد المقدس في أورشليم، ووعدت أن تبني معبداً آخر بدلاً عنه خلال ثلاثة أيام. قدمت نفسك كرسول، وقيصر لليهودية. هذه سيرتك بشكل مختصر.

ـ لن نتكلم عن سيرتي وقصتي، ولكني سأقول لك: إنك سوف تبقى في التاريخ يا بيلاطس البنطي، ـ قال يسوع الناصري بهدوء، وهو ينظر بصرامة وجدية إلى وجه الحاكم.

ـ سوف تبقى إلى الأبد.

ـ وماذا بعد هذا؟ ـ قال بيلاطس البنطي، دون اهتمام، رغم اعجابه بهذه المقولة، ولكنه غير لهجته فوراً، وقال بصوت جهوَّري: ـ في التاريخ سوف يبقى إسم القيصر الأعظم تيفيريه وحده. ويمجد التاريخ إسمه، أما نحن، فلسنا أكثر من مؤيدين له.

ـ وعلى الرغم من ذلك، فإنك سوف تبقى في التاريخ يا بيلاطس البنطي، ـ كرر ذلك الانسان، الذي إتجه إلى الجلجلة، خلف جدار القدس...

أما ذلك الطير، الذي يشبه الحدأة أو الصقر، والذي كان يطير منذ الصباح فوق

ذلك القصر، وكأنه ينتظر شخصاً ما. فقد ترك مكانه أخيراً، وطار بهدوء حسب الإتجاه الذي سارت إليه فرقة من الخيالة، تحيط بذلك الإنسان المقيد الأيدي، كمجرم خطير ـ ذلك الإنسان الذي تحاور معه حاكم اليهودية بيلاطس البنطي مطولاً.

وقف الحاكم طويلاً فوق رواق الأعمدة، مستغرباً وخائفاً من ذلك الطير الغريب، الذي طار على إثر ذلك الإنسان الذي يقودونه إلى الجلجلة...

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ همس الحاكم، دون أن يفهم شيئاً، والهلع يسيطر عليه...

★ ★ ★

تساقطت الأمطار الصيفية، بعد طول انتظار، إذ أنه من البارحة كان الأفق أسود، والغيوم تتلبد، والبرق يلمع بين فترة وأخرى، وتكاثرت الغيوم في الهزيع الأخير من الليل. أخذت القطرات الكبيرة تطرق الأرض الجافة. ثم انهمرت الأمطار بغزارة على وجه أفدي كاليستراتوف، ومنها أخذ يعود إلى وعيه تدريجياً، كانت قطرات المطر هذه بمثابة رسل الحياة الأولى إليه.

تمدد أفدي هناك، في الحفرة الى جانب الطريق الحديدي، حيثما تدحرج بعد أن قذفوا به من القطار. وأول ما خطر على باله هو: «أين أنا؟ ـ يبدو المطر يتساقط بشدة». أراد أن يتحرك، ولكن الألم الشديد في جنبه، والثقل الرصاصي في رأسه أعاده من جديد إلى حالة الإغماء، ولكنه عاد بعد بعض الوقت إلى وعيه، لقد بعثه المطر المنقذ إلى الحياة من جديد. إزداد المطر غزارة، وسالت المياه من فوق الطريق إلى الحفرة المحاذية، حينما كان يتمدد أفدي. تكونت نقعة من حوله وأخذت الفقاقيع تبرز من حوله، حتى وصلت المياه إلى فمه، وهنا اضطر أفدي أن يقوى على نفسه، ويحاول أن يزحف من هذا المكان الخطر. كانت الدقائق الأولى، حتى تعود الجسم على الحركة بعد الصدمة، مؤلمة للغاية. وبالكاد صدق أفدي أنه ما زال على قيد الحياة. يا لقسوة هؤلاء! كيف ضربوه ضرباً مبرحاً في المقطورة، وكيف قذفوا به، والقطار مسرع للغاية! لكن يا لحقارة هذا كله، إذا ما قورن ببقائه على قيد الحياة، إنه مازال حياً رغم كل شيء، حيٌّ وبإمكانه أن يتحرك، ولو كان يزحف زحفاً، هو يسمع ويرى، حتى المطر الغزير قد بدا، وكأنه يفرح ببقائه حياً. وتابع المطر سقوطه بغزارة، وهو يغسل جسمه وجراحه، وهو يبرد يديه ورجليه، ورأسه الساخن، الذي يعاني من الدوران. تابع أفدي الزحف ما دام لديه بقايا من القوة، ـ قريباً سيحل الفجر ويبزغ الصباح، وتبدأ الحياة... عند ذلك سيفكر، ماذا عليه أن يفعل، والأهم من هذا كله، أن يقف على رجليه...

في هذه الإثنـاء، كانت القطـارات تتعـاقب وهي تحطم الظلمـة، وتحمـل الصخب والضجيـج، وهي تزيـد من سرعتهـا في الليل. . . كان أفدي يسر لمشاهدتها أيضاً، وكل ما كان يذكره بالحياة، كان عزيزاً على قلبه أكثر من أي وقت مضى. . .

لم يرغب أفدي بالاختفاء من المطر، ولو أنه وجد ملاذاً، لفضل البقاء تحت المطر، إذ رأى فيـه قوة إضـافيـة. وكـل ما كان يهمـه، أن تكـون يداه ورجلاه سليمتين، أما ما يخص الآلام والجـروح المـبرحـة في جنبـه الأيمن، فقـد كان بإمكـانه أن يصبر عليها، دون تأفف وقلق. . . لقد تمكن بصعوبة أن يجتاز الخطر إلى مكان أكثر أمناً، إذ استقر في مكان مرتفع نسبياً، واضطجع تحت المطر، وهو يجمع قواه، حتى يتابع الحياة. . .

هكـذا عاد من جديـد إلى الحيـاة، من العـالم الآخر، وبمجرد أن عاد إلى وعيه أخذ يعيد ترميم ما يشكل جوهر حياته، واستغرب الوضوح الكلي في حياته وكثافة الأفكار، التي تحيط به، وتغني عالمه. . .

عنـد ذلـك توجه إلى ذلك الإنسان (المسيح)، الذي قادوه من أمام بيلاطس البنطي إلى الجلجلة قائـلاً: «أيهـا المعلم - إنني هنـا، فما علي أن أعمـل حتى أرضيـك، قل لي أيها الرب، ما عليَّ أن أعمل؟ وكيف لي أن أنقذك؟ آه، كم أنا قلق عليك، عندما بعثت من جديد».

هذا تأريـخ تزامني، عنـدمـا يقـدر الإنسـان أن يعيش بأفكـاره عدة أجيال مجسدة في أوقـات متـلاحقة، تنفصل عن بعضها بحقب زمنية تقدر بمئات أو بآلاف السنين، وهذا ما يمتاز به في بعض الأحيان الإنسان، المتميز بخياله، ولكنه الإنسان، الذي تكون الأحداث الغـابـرة قريبة بالنسبة له كالحقيقة المعاشة آنياً، ذلك الذي يعيش الماضي كشيء قريب من نفسه وذاته، بل كمصيره. إنه معذب من ذوي المصائر المأساوية، وخاصة عندما يعلم بماذا ستنتهي تلك القصـة، التي أدت إلى كل هذا، فان هذا الإنسـان يتعـذب، ويعجـز عن التأثير في تلك الأحداث، ولهذا يقدم نفسه ضحية لإنتصار الحقيقة، التي لن تتحقق في أي وقت لاحق. وذلـك الظمأ لإحقـاق الحقيقـة الجـوهـريـة، هو شيء مقـدس. وهكذا تبرز الأفكار، وهكذا تجري عملية الإغناء الروحي للأجيال الجديدة مع الأجيال السابقة وسابقة سابقتهـا، وفي ذلـك العالم الآخر، تزداد التجربة الحياتية، وتنمو وتتزايد وينتقل الخير والشر من جيل لجيل الى ما لا نهاية، ودون محدودية في الزمان والمكان للعالم الانساني. . .

ولهـذا قال الحكـماء: أنـاس البـارحـة لا يعلمـون ماذا سيحصـل اليوم، بينما يعلم أناس اليوم ماذا حصل البارحة، وغدا تصبح أحداث اليوم من فعل البارحة. . .

كما قيل أيضاً: أناس اليوم يعيشون بفضل أناس البارحة، ولكن إذا نسي أناس الغد أناس اليوم، فستكون المصيبة بالنسبة للجميع . . . .

قلق أفدي، وتشاءم، عندما حلت عشية اليوم الأول من عيد الفصح، وفي ذلك المساء الحار، الذي يصعب فيه التنفس، حاول أن يبحث في المدينة السفلى عن البيت، الذي أقيم فيه العشاء السري، عندما قسم الخبز، وقال: «هذا هو جسده» ثم صب النبيذ على الخبز، وقال: «إن هذا هو دمه» فعند ذلك كان من الممكن أن يحذر من الخطر القادم، وعن خيانة يهوذا الأسخريوطي، عن ضرورة التسريع، دون تمهل، بترك هذه المدينة، وأن يسرع قدر استطاعته في الطريق، في البحث عن هذا البيت، وكان يحث السير عبر الطرقات المتعرجة، والمتشعبة في الظلمة الدامسة. كان ينظر الى وجوه المارة والقادمين، وكأن لديه معارف هنا، ولكن بين أهل المدينة، أو القادمين اليها والمسرعين في تلك الساعة لقضاء حاجاتهم، أو بين أولئك، الذين ينظرون إلى واجهات المحلات التجارية، قبل أن تقفل أبوابها، لم يجد أيا كان من معارفه، ولم يجد إنساناً يثق به. ولم يعرف الكثير من المارة من هو ـ يسوع المسيح. ربما كان عدد المتسكعين في المدينة قليلاً. وثمة شخص، طيب القلب أخذ يدعوه لقضاء عيد الفصح عنده. ولكن أفدي شكره، ورفض دعوته. كان يأمل أن ينبه معلمه. ومن الخوف والقلق، ومن النور الساطع من النوافذ، ومن الروائح القوية في الفضاء، والقادمة من جهة المواقد والأطعمة الطازجة عليها، ومن الدخان المتصاعد من البيوت، ومن البرد في الطرقات، بين البيوت والساحات قد أصابه صداع حاد، وغلب عليه الدوران. وعند ذلك إنطلق مسرعاً يخرج من المدينة إلى جبل سمعان، آملاً أن يجد معلمه مع التلاميذ هناك في الحديقة يصلون ويتحدثون ولكنه، عبثاً قد أسرع. وهنا في تلك الساعة الأخيرة لم يجد أحداً. كانت الحديقة خالية من الناس كلياً، وتحت شجرة الجميز الكبيرة، حيث وقفت جماعة مسلحة، لم يعد هناك أحد، حتى التلاميذ هربوا من ذلك المكان، كما توقع المعلم نفسه. . .

سبح البدر فوق البحر الفسيح، وفوق اليابسة العامرة، إذ كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ـ اقترب اليوم المصيري، الذي لم تتحقق آثاره خلال قرون من الزمن، وسوف تنعكس بأشكال مختلفة على تاريخ الإنسانية. كان الجو هادئاً في جبل سمعان والتلال المجاورة لها، والحدائق وكروم العنب في تلك الساعة. أما الطيور الليلية، فكانت تزعق بين الأشجار، والضفادع تنق، والنهر يخر بشدة منحدراً، وضوء القمر يتلألأ على صفحات أمواجه، عبر مسيل المجرى القديم. ولم يهدأ طوال الليل وهو يسرع عبر جبال

الارز، ينقسم إلى جداول، ثم تلتقي الجـداول من جديـد في نهر واحـد. كل شيء كان عظيم في مكـانـه، يصمـد منذ عشرات القرون والأرض كانت هادئة في تلك الليلة. أما هو ـ أفدي، فلم يجد لنفسه مضجعاً، بعد كل ما حصل، وكما كان من اللازم أن يحصل، ولم يتمكن أن يوقف أي شيء، أو يحوله كما يريد، حتى لو كان يعلم كيف سينتهي الأمر. ومن العبث أنه لجأ للبكاء وتوجه بدعائه في وضعه هذا إلى إله الغد. ولم يكن بإمكانه أن يوافق على ما حصل قبل ألف وتسعمائة وخمسين عاماً. وفي البحث عن الذات، عاد أفدي إلى بيلاطس البنطي بكل أفكاره. وحاول التمسك بالخيوط،التي امتدت عبر هذه القرون، وعبر تعرجات الزمن نحو مصيره. ويبحث عن جواب يناسب أسئلته عائداً إلى تلك الفقرة الماضية قبل ألف سنة، ويعود تارة أخرى إلى الواقع، الذي يعيشه الان تحت الأمطار الغزيرة، التي تساقطت بشدة على رأسه وكتفيه، وهو يغيب عن الوعي تارة، ويرفض الاستسلام تارة أخرى ويناقش بموضوعية أحياناً، وخاصة عندما يخف الألم.

وقد سمح أفدي لنفسه في لحظات الإرادة القوية أن يفكر بمقولة يوم الحساب العسير بالنسبة للعالم، ولقد تكونت هذه الأفكار عنده قبل ذلك بكثير، ولقد وضع في عقول الناس بعض هذه الأفكار. وأراد أفدي أن يوصل هذه المقولة على جناح السرعة إلى بيلاطس البنطي، لأن شبح بيلاطس مازال ماثلاً بكل قوته كحاكم للإمبراطورية الرومانية في تلك المنطقة، وحتى يومنا هذا يوجد من أمثال بيلاطس كثر. وفي هذا التصور للأحداث انطلق بأفكاره، وقد سمح أفدي لنفسه في لحظات الإرادة القوية أن يفكر بمقولة يوم الحساب العسير بالنسبة للعالم، ولقد تكونت هذه الأفكار عنده قبل ذلك بكثير، ولقد وضع في عقول الناس بعض هذه الأفكار. وأراد أفدي أن يوصل هذه المقولة على جناح السرعة إلى بيلاطس البنطي، لأن شبح بيلاطس مازال ماثلاً بكل قوته كحاكم للإمبراطورية الرومانية في تلك المنطقة، وحتى يومنا هذا يوجد من أمثال بيلاطس كثر. وفي هذا التصور للأحداث انطلق أفدي كاليستراتوف من أن القوانين قد برزت شكلياً في مرحلة متأخرة. وهكذا بالنسبة لفكرة الحساب العسير ـ فمنذ زمن بعيد وفكرة الحساب العسير تعذب العقل الإنساني، ويرتعد الفرد من فكرة العقاب الأليم الذي سيحل به إثر غياب العدالة، وعقاباً على ما فعله فوق الأرض.

ولكن من هو يسوع، الذي أصبح بدايةً للتقويم الميلادي؟ كما يعتبر نقطة الصفر في الأزمة العامة للروح؟ ومن أجل أي شيء كان ذلك ضروريا؟ أليس من أجل أن يكون لدينا سبب للاعتراف الأبدي؟ ولماذا مازال البشر، ومنذ تلك اللحظة، التي صلب فيها فوق

الصليب، وحتى الوقت الحاضر لا يعرفون الراحة الروحية بسبب ذلك الحدث؟ ومنذ تلك اللحظة، ظهرت الكثير من الأحداث الشهيرة، التي رشحت لتكون أحداثاً أساسية، ولكنها كانت تُنسى وتُمحى من الذاكرة. فهل يذكر الإنسان دائماً أن حياته تتكامل باستمرار: ما يكون اليوم جديداً، يصبح غداً، ومنذ الصباح عتيقاً وما كان أفضل، يبهت غداً أمام الأشياء الأروع، فاذن لماذا ما قاله يسوع لم يصبح عتيقاً، ولم يفقد قوته؟ وكل ما حصل، منذ ميلاده وحتى أعدم فوق الصليب، بل وأكثر من ذلك ـ على ما جاء فيما بعد، خلال الأزمنة والأجيال، هو شيء ضروري للإنسانيه وأخيراً، في أي شيء ينحصر معنى هذا الطريق في تاريخ البشر؟ وماذا حصلوا من ذلك؟ وإلى أي شيء توصلوا؟ وإذا كان الهدف الأسمى هو فكرة حب الإنسان ـ فكرة الإنسانية كما يؤكد الناس العلماء، أي أن طريق الإنسان إلى ذاته، إلى الكمال غير المحدود للروح في الذات، فكيف الأمر إذن بالنسبة لمسألة: من حدد هذا الطريق؟

وهل بامكان الناس أن يجيبوا دون هذا وعندها كيف سيفهم كل إنسان مسألة الإنسانية من وجهة نظرهِ الخاصة ـ من المسيحية حتى عامة الكون، ومن المفهوم الأناني الذاتي والطبقي حتى التجديد المبدئي. وعند هذا، لماذا تطرح قضايا الدين في قرننا الحالي؟

حقاً لماذا؟ فان كل شيء واضح وحتى بالنسبة للأولاد. وهل أن العلوم المادية توجه ضربة قوية إلى العقيدة المسيحية؟ ولم يتم إزاحتها بقوة وشجاعة عن طريق التقدم والثقافة؟ وهل هذا هو الطريق السليم والوحيد؟ ولقد بدا للإنسان المعاصر أنه لا حاجة للترويج الديني. ويكفيه أن يعلم عن هذه المعتقدات، كمعلومات تاريخية، وليس أكثر. وخاصة أن كل هذه الأشياء قد أصبحت من الماضي. ولكن إلى أي نقطة توصلنا. وماذا يوجد لدينا من بديل لتلك العقائد المرمية على حافة الطريق. وهل تلك الأفكار الشريرة بديل لهذا؟ وهل لدينا أفضل من الجاري؟ وحسب المعروف ان الجديد، دون شك،أحسن من القديم. وهذا الجديد هو ما يشاهده الإنسان الحالي. بالقرب منا توجد عقيدة قوية جديدة ـ عقيدة تفوق القوة العسكرية. وفي أي عصر من العصور تمكن الإنسان أن يكون طوال حياته، ـ منذ الصغر، وحتى الكبر ـ، مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بفكرة ترعبه: هل ستشعل هذه القوى الحرب، أم ستقف ضد نشوبها؟ فمن الآن يمثل الآلهة غيرهم ـ أصحاب هذه الأسلحة؟ وهل أنهم، في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه كنيسة، قد صلوا على مصغرات الأسلحة الذرية، على المذبح، وهم يرفعون التحية للجنرالات. . وهل هذه الأمور بعيدة عن أن

تكون كالديانة؟.

بمثل هذه الأفكار بخصوص الحياة آمن أحياناً أفدي كاليستراتوف، وفي هذه المرة، عندما كان يفكر بقياسات غير واضحة، كان من الممكن له أن يدخل إلى عالم وحقيقة الماضي بكل أريحية، ويفسر جوهر تلك الأحداث، التي كانت قبله ـ إن المياه الجديدة تسيل الى جانب الشواطىء القديمة، عند ذلك عاد إلى مصدر تلك الأيام، ـ إلى ليلة عيد الفصح في يوم الجمعة، حتى يبحث عن المعلم، وان يخبره عن الأمور التي تقلقه، وأن يعلمه عن القلق، الذي يحمله عبر مئات السنين، وأن يخبره بظهور الإله الجديد في التاريخ ـ الإله «غولياف» الذي انتشر بين الناس كالعدوى، وشمل كل سكان الكون بعقيدته القوية والشاملة والتي تفوق القوة العسكرية. فكيف كان سيجيبني المعلم يسوع، وكيف كان سيقلق من الخوف: إلى أين يسير الجنس البشري في السباق من أجل التفوق العسكري؟ ولو أنه قرر مرة أخرى أن يتحمل أعباء آثامنا، وصعد إلى الصليب، لكان من الصعب أن يمس آنذاك نفوس البشر، المضطهدين من قبل العقيدة العدوانية للقوة الحربية الخارقة...

ولكن، وللأسف، لم يجد المعلم، لقد وشى به يهوذا، وقبضوا عليه وقادوه معهم، وبكى أفدي في جبل سمعان الموحش على كل ما حدث، وعلى كل شيء سيكون في المستقبل. كان وحيداً في كل الحديقة، وفي كل العالم. وهكذا قفل عائداً، وظهر في جبل سمعان وهو يخطر عبر قبور أسلافه، الذين كانوا يعيشون في الغابات الشمالية، والذين مازالوا ينحنون أمام المثل المصنوعة من جذوع الأشجار، والذين لم يعرفوا حتى إسم قريبهم ـ أفدي، فهو سيتكون مع الزمن، وسيلد في القرن العشرين البعيد...

جلس أفدي طويلاً، وهو يبكي بمرارة تحت شجرة الجميز، في ذلك المكان الذي أعتقل فيه المعلم، وتعذب أفدي، وكأنه قد تصور أن شيئاً ما سيتغير في مصير العالم...

بعد ذلك، وقف أفدي وسار حزيناً نحو المدينة، وهناك، خلف جدران أورشليم، وفي الليل، كان السكان يخلدون إلى النوم في ليلة عيد الفصح بهدوء،وهم لا يفكرون بأي شيء غريب، وكان هو الوحيد الذي سار قلقاً، حائراً عبر شوارع المدينة، وهو يفكر: أين المعلم؟ وماذا حصل بالسبة له؟ ثم حلم، أن الوقت ما زال يسمح له بإنقاذ المعلم. وأخذ يدق على النوافذ، والأبواب، التي تقع تحت نظره وهو يصرخ: «إنهضوا، أيها الناس، المأساة تكاد أن تقع. لدينا بعض الوقت، فلننقذ المعلم، فأنا سآخذه إلى روسيا. هناك توجد جزيرة عظيمة بالقرب من نهرنا «أوكا»...

حسب اعتقاد أفدي، كان بإمكان المعلم في الجزيرة الواقعة في منتصف النهر أن يعيش بأمان ـ وهناك كان بإمكانه أن يفكر ملياً بمتناقضات العالم، ومن الممكن، أنه قد توصل إلى أفكار جديدة، واستوعب الطريق الجديد للإنسانية في أعماق الزمن، وأهدى الناس الكمال الإلهي، وكأن الطريق إلى الأهداف المقدسة والمحددة من قبله، هو واجب ملقى على عاتقه، ليس عبر الدماء ولما كان قد دفع مقابله العذاب والإهانة، والمعاناة الكبرى، التي بإمكانه أن بقاسيها بكل صدر رحب من أجل الإسانية، ومن أجل الحقيقة، وسعادة الأجيال القادمة، قد وضع على نفسه ذلك الواجب القاسي، الذي إختاره من أجل تحرير الإنسان من الإضطهاد الذاتي في مشاركته، ومن عدم وجود العدالة منذ أمد بعيد، وأن القضايا العادلة الطبيعية بعيدة عن غياب العدالة، فالقهر والاضطهاد يسودان بين البشر، ويصدران عن الناس. ولكن هل من الممكن الوصول إلى الهدف من خلال العمل ضد القضايا التاريخية، وهل توجد أي ثقة كانت في أن هذا الدرس للمعلم سوف يبقى خالداً، ولم ينسه البشر في كل مرة، منطلقين من مصالحهم الخاصة، فالإنسان يريد أن ينسى المعلم، وأن يرعم ويجبر وجدانه، ويبحث لنفسه عن مبررات:

أن يرتكب الإنسان الإثم في الرد على إثم آخر، وكيف من الممكن الحد من ارتكاب الآثام، وإنقاذ الإنسان من الشهوات الجامحة، التي ترافقه في كل زمان يسير وعسير، في القسر وفي العمى، وعندما يملك السلطة، وعندما لا تكون لديه أي سلطة كانت، وكيف من الممكن الحد من ارتكاب الإثم في التعطش الشديد لحب السلطة على الآخرين، وكيف من الممكن إبعاده عن الإغراءات الدائمة بارتكاب المحرمات: فإن الرضى عن النفس والتعالي يقودان الإنسان إلى الخطأ، عندما يكون في موضع القوة وفي مواقع الضعف، وأن يراوغ، ويخادع وهو يتجه إلى ذلك الهدف. وعند ذلك، ما هو هدف الحياة الأساسي، وفي أي شيء، يتجسد معناها، ومن في نهاية الأمر، سيجيب عن هذا السؤال، حتى لا تشك أية روح كانت في حقيقة ونقاوة هذا الجواب.

وأنت أيها المعلم، تسير إلى الإعدام الشنيع، وكأن الانسان قد انصاع للخير والرحمة، إلى ذلك، الذي يميز الأساس المنطقي من غير المنطقي، أو لأن معاناة وجود الإنسان فوق الأرض قد غرس في أعماقه جذور الشر. وهل بإمكاننا بهذه الطريقة أن نحصل على المثل العليا للعقل، المجنحة بالتفكير الحر والشخصية البارزة، التي تخلصت من أخطاء عدم التسلسل في فعل الشر، فهي الآن موجودة وإلى الأبد.

حبذا لو كان ذلك ممكناً! آه يا إلهي! فلماذا حملت نفسك كل هذه الأعباء حتى تصلح

هذا العـالم القـائم على الخطأ؟ قف أيهـا المنقـذ، فإن أولئـك الـذين تضحي من أجلهم، متحمـلاً الآلام الجهنميـة فوق الصليب، وتلقى الإعدام، سوف يسخرون منك فيما بعد. نعـم، نعـم، البعض سوف يقهقــه، والبعض سوف يسخــر من عملك هذا بعــد آلاف السنين، عندما ستلغي العلوم المادية كل أوجه الإيمان بالإله، ولن تترك حجراً على حجر في الإيـمان الميتـافيـزيقي، وستعلن عن إلغاء كل ما يرتبط بك أيها الإله، إذ يقولون: «يا له من مجنون، غبي، فمن طلب منه هذا؟ ومن أجل أي شيء كان عليه أن يقوم بهذه المسرحية؟ ومن تأثر بهذا الحدث؟!

وماذا قدم بعمله هذا، وماذا غير هذا في الإنسان، ولو شعرة واحدة، وللحظة عابرة؟ «هكـذا ستفكـر الأجيـال القـادمـة، وخـاصـة أولئـك، الذين يفكرون أن ذلك شيء غير معقـول، والـذين سيبحثـون في تلك الأوقـات في عالم الـذرة. ويحللون عنـاصـرها الأولية. ويدرسون مما يتكون جوهرها، ويرفضون البقاء فوق الأرض، وينطلقون إلى عالم الفضاء، وسـوف يتنـازعـون فيـما بينهم على ملكية الأرض، وتنشب الحروب الطاحنة، وهم يحلمون بالسيطرة الكلية على الكواكب. وبغض النظر عن سعة العالم والفضاء، سوف يشعرون أن هذا الكون يضيق بهم، وأن الفشل فوق الأرض يؤدي إلى أن يركب هؤلاء رؤوسهم،وهم على استعـداد ان يفجـروا الكرة الأرضية من أجل مصالحهم الخاصة، فوق تلك الأرض، التي حاولت أن تقيم عليها سلطة المحبة والأخوة. وهكذا، عليك أن تفكر أيها الإله، ماذا يعني الرب بالنسبة لهم، عندما يحسبون أنفسهم، أنهم أعلى من الإله، ويحسبون أن ذلك الإنسـان، الـذي صلب، به مس من الجنـون، وعنـدهـا سوف يدمرون كل شيء، سوف يمحـون ذكـراك من فوق الأرض. آه! أيهـا المسكين! أيها المعلم الساذج! تعال نهرب سوية إلى نهر «الفولغا». . إلى نهر «أوكا»، إلى تلك الجزيرة الوحيدة في وسط النهر. وهناك سوف تشعـر بنفسـك، وكأنـك فوق نجم عال، ومن هناك سترى كل شيء، دون أن يصل إليك أحـد كان. فكـر قبـل أن يفـوتك الأوان، مما زال أمامنا الليل والصباح، ويمكن أن تتجنب العقاب القاسي؟ وهل هذا الطريق، الذي إخترته هو الطريق الممكن الوحيد؟.

سار أفدي والعذاب يفري مهجته، والأفكار تتنازعه من كافة الجوانب، وأخذ يجول في شوارع وســاحــات القــدس في تلك الليلة الحـارة، وهـو يحاول أن يتفهم قضيـة ذلـك الإنسان، الذي أرسله الإله إلى الأرض ليلقى هذا المصير القاسي المأساوي، حتى يكون مثـالاً أبـدياً، ورادعاً للناس. . . ولكن هذه السمة للإنسان لن يأخذ بها أحد، ولن يقتدي بهذا المثـال أحـد، وسيحـاول أي إنسان أن يبحث عن أعذار حتى يتخلص من العقاب إذا

حل به، وكأنه لا دخل له في هذا الموضوع، وأن العالم يسير، دون تدخله، وليسر العالم كما يشاء . . . وكم في هذه المسألة من جوانب غريبة ومأساوية، بعيدة عن أن تُقوم من قبل الإنسان تقويماً سليماً.

مر أفدي في مسيرته الليلية هذه عدة مرات من جانب بوابة المدينة، وكان يلتقي كلباً تائهاً بثلاث قوائم، بينما رفع رجله المكسورة إلى تحت بطنه، وفي كل مرة كان الكلب ينظر اليه بذكاء وحزن.

ـ ما بك أيها الأعرج، ـ قال أفدي للكلب، وهو ينظر إليه بتمعن. ـ فأنت مشرد، لا بيت لك مثلي. تعال نسير سوية.

وهكذا، وحتى طلوع الفجر سار الكلب إلى جانب أفدي. لقد فهم الكلب الأمر على حقيقته. وفي الصباح إستيقظ سكان المدينة، ليقوموا بأعمالهم ويهتموا بمشاغلهم، واكتظ السوق بالباعة، والجمال التي جاء بها البدو من الصحراء، والحمير والبغال المحملة بالبضائع والأغراض المختلفة، والخيول تجر حمولاتها، والحمالون يضعون الحزم على اكتافهم ـ كل شيء أخذ ينحرك، ويمـوج: حركة الناس ورغباتهم، الأشياء، الصراخ ـ وأخذ البيع والشراء يدوران كعجلة واحدة . . . ولكن الكثير ين من سكان أورشليم قد إندفعوا نحو الجدار الأبيض لمعبد المدينة، ومن هناك إتجهوا دفعة واحدة نحو قصر الحاكم الروماني بيلاطس البنطي. وهكذا، إنضم اليهم أفدي كاليستراتوف: إنه أدرك أن الحديث يدور حول مصير المعلم. وسار أفدي معهم إلى القصر، ولكن الحرس المسلحين حالوا دون وصول هؤلاء إلى الحاكم، فتوقف الجمهور عند القصر في إنتظار ما سيحدث. بينما كان الجمهور يزداد باستمرار، على الرغم من الحر الشديد منذ الصباح الباكر. قدم الناس إلى هنا بدوافع مختلفة، وأي أحاديث لم يسمعها الإنسان في أوساط ذلك الجمهور: قال البعض: إن الحاكم سوف يعفو عن النبي يسوع الناصري وسيستخدم بيلاطس السلطة الممنوحة له من قبل الامبراطورية الرومانية، وسيعطيه حرية الخروج من أورشليم إلى مكان بعيد، ولا يعود إليها نهائياً. بينما قال فريق آخر: إن الحاكم سوف يعفو عن أحد المحكومين بمناسبة عيد الفصح، وإن المُعفى عنه، هو يسوع، وفريق ثالث إدعى أن يهوذا سوف ينقذ المسيح أمام الجميع. ولكن الجميع ـ هؤلاء وأولئك، كانوا ينتظرون، وينتظرون دون أن يعرفوا، ماذا يحدث خلف جدار القصر. بينما كان عدد كبير من الناس ممن أتوا للسخرية من هذا الإنسان، الذي سيضحي بنفسه من أجل الأخرين. يضحكون بأعلى صوتهم على ذلك الإنسان المحكوم عليه، وهم يقولون متذمرين: لماذا يطيل الحاكم المسألة، فطالما

حكمه بالإعدام، فليقطع رأسه من كتفه، وهل للحاكم وقت حتى يدلل يسوع، فالشمس تحرق. وحتى الظهيرة سوف يقتل الجميع من الحر هناك فوق جبل سمعان. يحاول يسوع الناصري هذا أن يقنع الحاكم بأفكاره، وبإمكانه أن يفتل عقل كائن من يكون. الأمر واضح، إنه يثرثر بلسانه الطويل، ويقنع الحاكم، وربما أن الحاكم الروماني الطيب، قد يعفو عنه، وعند ذلك لماذا قدمنا إلى هنا، ونقف منذ الصباح . . . لقد وعد يسوع الناصري وعوداً ملفقة، ولكن أين تلك المملكة الجديدة، التي وعد بها؟ أما الان، فها هو أمام المحكمة، وسوف يجلدونه كالكلب. . . هكذا يجري مع الإنسان . . . .

سمع أفدي أحاديثهم، فاعترض واحتج على كلامهم: «كفوا عن مثل هذا الكلام، يا لكم من منكرين! يا لكم من نفوس خائنة! كيف لكم أن تتكلموا بكل هذه الوقاحة، أن تنزلوا من قيمة هذا النضال للروح الإنسانية، وعليكم ان تفتخروا به، وأن يكون مثالاً يحتذى به» - صرخ أفدي كاليستراتوف دون جدوى، وهو يذرف الدموع بين الجمهور الأورشليمي. ولكن لم يستمع أحد اليه، ولم يلحظ أحد وجوده. بالطبع، كان عليه أن يأتي إلى الوجود في القرن العشرين البعيد. . .

تناقصت الأمطار، التي تساقطت في وسط الليل، حتى انتهت تدريجيا كما ابتدأت. وابتعدت إلى منطقة أخرى حتى تتساقط بغزارة. ولم تعد تتساقط نقاط المطر إلا نادرا فوق أفدي. بينما كان الوقت يدنو من بزوغ الفجر الذي اغتسل بمياه الأمطار، وتزركش بالنجوم المنثورة في السماء. وأخذت الآفاق تنشر النور تدريجياً. أما البرد فكان يأتي من التربة الرطبة، ومن الأعشاب الندية المغتسلة بمياه الأمطار.

ولكن، وحسب الواضح، لم يشعر أحد من الكائنات الحية في تلك الساعة، في هذه السهول بتلك السعادة، كما شعر بها أفدي كاليستراتوف، هذا مع العلم أن صحته كانت في خطر.

وعلى الرغم من كل هذا فقد حالف الحظ أفدي: فالهواء الذي شحن بالدفء طيلة يوم البارحة، لم يبرد خلال الليل، ولهذا لم يبرد أفدي، بغض النظر عن أنه قد تبلل من الرأس إلى القدمين. وبدأت الجروح والكدمات تؤلمه، ولكنه لم يتمكن من تحديد أكثر المواقع ألماً، ومكنته هذه الآلام من أن يشعر بماضيه وحاضره ومستقبله، وأخذ يشعر بالحياة من جديد، ويتعامل معها كقدر محدد له، ولهذا قدر تقديراً عاليا إمكانية متابعة الحياة والتفكير، وفي تلك الساعة عندما إنتهى المطر، جلس أفدي تحت جسر الطريق الحديدي، الذي وصل اليه بشق النفس، وبعد أن بذل قصارى جهده. . .

كانت الأرض تحت هذا الجسر جافة تقريباً، والتجأ أفدي إلى هذا المكان كما يفعل المشردون، وسر أنه وجد مثل هذا الجسر الذي يقيه من الأمطار، حتى يفكر بما عليه أن يفعله وتحت هذا الجسر عم الهدوء، وأي حركة كانت تثير الصدى، وكأنه يجلس تحت قبب المعابد العالية في القرون الوسطى، وتعاظم الضجيج عندما كانت القطارات تمر من فوق الجسر، ويشبه ذلك قعقعة السلاح الذي بدوي بشدة الاعصار، ويبتعد تدريجياً. وفي تلك اللحظات أخذ أفدي يفكر، وتطورت الأفكار، التي ظهرت عنده تدريجياً، ودون حدود واستقطبت روحه دون معوقات. فكر أفدي بيسوع أحياناً، وببيلاطس أحياناً أخرى، حتى انتقل بأفكاره، إلى تلك الأزمنة حتى أن هدير وضجيج القطارات، التي تمر من فوق الجسر لم يمنعاه من تصور نفسه وسط أولئك اليهود الصاخبين، المنتظرين إعدام يسوع فوق الجلجلة، تصور أفدي الموقف كلياً، وكأنه يرقبه عن كثب. تذكر موسكو، وكيف ذهب الى متحف بوشكين، وسمع أغاني الجوقة البلغارية، وتذكر ذلك المغني البلغاري، الذي يشبهه لحد بعيد، ومثل وجه ذلك المغني أمام ناظره. وهو يستمع إليه بإصغاء، يا لتلك الايقاعات الصوتية التي صدحت بها حناجر المغنيين البلغار، حتى حسنت من وضعه الروحي والفكري، أما بالنسبة لوالده دياكون كاليستراتوف فقد أحب التراتيل الكنائسية، وكان يبكي من شدة الإصغاء والتفاعل معها. وذات يوم أعطى شخص ما لوالده نص صلاة مدهشة لراهبة معاصرة، كانت تلك الراهبة في عمر الشباب، وعملت مربية في بيت الأطفال، ولقد ترهبنت في سنوات الحرب بعد أن استشهد حبيبها، الذي عاشت معه شهراً ونصف، في معركة بحريه، إذ كان على إحدى البواخر الحربية، التي تم إغراقها بواسطة غواصة المانية. قرأ دياكون كاليستراتوف «وثيقة الروح» تلك، التي اتحدت فيها المشاعر والبكاء والصلوات، وفي كل مرة يعيد قراءتها، كان يذرف الدموع بغزارة. وكان يحب أفدي الصغير، عندما يقف في زاوية البيت، إلى جانب البيانو القديم ويقرأ بصوت ناعم الصلوات عن الباخرة التي غرقت، وحفظ أفدي هذه الصلوات عن ظهر قلب، وارتسمت صورة تلك الإنسانة المربية في بيت الأطفال في ذاكرته.

«الان وعندما أخذت خيوط النور الأولى تبرز إلى العالم، وما دام الكون نائماً أمام بزوغ الشمس، أتوجه إليك أيها العليم بكل شيء، وارسل إليك صلواتي. سامحني يا سيدي، إني أفصح أمامك عن إرادتي، ولم أتذكرك في بداية الأمر، وها أنا أعود لإزعاجك بعملي، ولكني أعيش من أجل أن أقرأ هذه الصلاة، ما دمت حياً في هذا العالم.

أنت الرحيم العظيم والمحق، فسامحني لأنني أشغلك بدعواتي الخاصة، ولكن في

دعواتي وصلواتي لا توجد مصالح أنانية ـ فأنا لا أطلب أي شيء من خيرات الأرض، ولا أصلي إليك حتى تطيل أيام عمري. إنني أعمل لإنقاذ أرواح البشر، وسوف أتابع عملي هذا، فأنت أيها المتسامح الأعظم، نرجوك، أن لا تبقينا في الظلمة، ولا تسمح لنا بالبحث عن مبررات لانفسنا في إختلاط الخير والشر في هذا العالم. ولا تسخر من بني الإنسان. وعن نفسي، فلا أملك الحق أن أفتح فمي. فأنا لا أخاف من أي مسلك محفوف بالخطر. ولو قدر لي أن أحترق في النار، أو أدخل إلى ظلمة ليس لها نهاية، فالأمر سيان. فهنا أنت وحدك أيها المعلم العليم الخالق، وعليك أن تحدد الإختيار.

أرجوك شيئاً واحداً، وليس لدي أسمى من ذلك، إن عبيدك أولئك قد أخطأوا في فهم كلامك، حتى النساك، الذين أخذوا يرفضون التفاخر والبطلان، حتى يكون في أفكارهم شيء من التقرب إلى روحك يا سيدي.

أرجوك بخصوص شيء واحد، أن تحقق المعجزة: فدع تلك الباخرة تسبح وتنهي رحلتها السابقة من يوم ليوم، ومن ليلة لليلة، ما دام الليل والنهار يتعاقبان، ضمن المسار الذي حددته لها في دوران الأرض الفلكي. دع تلك الباخرة تسبح عبر طريقها، الذي لم يتغير من المحيط إلى المحيط، وحتى تصطدم الأمواج على جوانبها، وحتى يدوم ضجيجها وصخبها، ودع ذرات الماء المتطايرة تتحول الى أمطار غزيرة، دعها تتنفس تلك الرطوبة المرة المتطايرة، ودعها تسمع صرير المنصة، وهدير الآلات في أحشائها، وأصوات النورس، عبر الرياح التي تجري على اثر الباخرة. ودع الباخرة تتجه إلى مدينة النور على شاطىء المحيط البعيد، على الرغم من أن الوصول إليه مستحيل لأي كان، وخلال قرون. . .

هذا هو كل شيء، وأكثر من ذلك لا أرجو شيئاً في صلواتي الليلية والنهارية، وأرجوك أن تسامحني أيها العظيم الرحيم، لأنني أتوجه إليك بمثل هذه الدعوات بخصوص الباخرة التي غرقت، ولكنك أنت معقد الآمال الكبيرة في الدنيا والآخرة. أنت كنت، وستبقى الموجود في كل مكان، والأعظم من أي كان، بل أنت الخالق لبداية كل البدايات. ولهذا، إننا بدعواتنا إليك نسير في الحاضر، كما في الماضي، وكذلك في الأيام المقبلة. ولهذا، عندما انتهي، ولا يبقى أحد يطلب منك، فدع تلك الباخرة تسبح في المحيط، وخارج حدود الأبدية. آمين». .

لم يفهم أفدي، لماذا تذكر في تلك الليلة صلوات الراهبة. وعندما خطرت على باله فكرة، لو أنه صادف تلك الفتاة، التي قدمت إليهم في أتشكودك وهي تركب الدراجة النارية، لكان قد قرأ لها تلك الصلاة، بالطبع لكان الأمر مضحكاً. إبتسم أفدي رغماً عنه،

ولقب نفسه بالأبله الضائع، وتصور، كيف كان لها أن تنظر اليه، وهو متكور على نفسه تحت الجسر في حالة لا يحسد عليها، وكأنه لص متسكع،أو من قطاع طرق فاشلين وبماذا كانت ستفكر، لو كان سيقرأ لها صلواته عن الباخرة التي غرقت، لحسبته مجنوناً، دون أي شك، ولكانت على حق، ولكن حتى الآن، وعلى الرغم من أنها كانت ستنظر اليه بازدراء، فإنه كان يرغب برؤيتها. . .

وهكذا، وحتى طلوع الفجر، جلس أفدي تحت الجسر. وفوق رأسه كانت تمر القطارات المسرعة عبر السهول، وفكر، أكثر من أي شيء آخر بموضوع المهربين، وأين أصبحوا الآن، وماذا حصل معهم. ربما أنهم إجتازوا محطة جلباك ـ ساز، وسافروا بعدها مكملين طريقهم. وأين الآن بتر وخا ولينكا والآخرون؟ وأين غريشان، الذي يصعب القبض علي؟ وأسف أفدي، أنه ارتكب خطيئة كبرى، حتى أنتصر عليه غريشان، وحقق رغبته السوداء، وأن ذلك قد انتهى بصورة سيئة، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد حسب ان هذه المعاناة التي مر بها، كانت ضرورية بالنسبة له، هذا على الرغم من أنه لم يتمكن من إصلاح هؤلاء المهربين، ولكن المادة اللازمة لعمله في الجريدة، كانت غنية بين يديه، ولقد حصل على هذه المواد بجهوده ومعاناته الخاصة.

بعثت هذه التصورات شيئاً من الراحة في نفس أفدي، ولكن روحه لم تستقر، وكان قلقه تجاه لينكا، الذي كان بالإمكان إنقاذه، وإعادته إلى الطريق الصحيح،ولكنه لم يتمكن.

تذكر أفدي الآن كل شيء تمكن من معرفته ورؤيته في سهول موينكوم. ، بما في ذلك اللقاء مع الذئاب، وكيف قفزت الذئبة الرمادية من فوق رأسه، بدلاً من أن تغرس أنيابها في جسمه. يا لغرابة ذلك، ولقد حفظ في ذاكرته تلك النظرة الحاقدة والقاسية من عينيها الزرقاوين.

ها هي الشمس تبزغ من جديد على الطريق الحديدي، وبدأت الحياة تسير دورتها الجديدة. وبدا السهل رائعاً بعد الليلة الماطرة: لم يشتد الحر بعد، بينما بدت السهول الفسيحة وكأنها تتنفس بارتياح، والطيور تغرد في أعالي السماء، بشتى ألحانها. وفي السهول كانت تتحرك من الأفق، إلى الأفق القطارات الطويلة والسريعة،التي تسير متأرجحة، وهي تذكر بالحياة المفعمة بالنشاط خارج عالمه.

عم الإنسجام والهدوء في ذلك الصباح كل السهول المحيطة، التي ارتوت خلال الليلة الماضية بمياه السماء الخيرة.

عندما ارتفعت حرارة الشمس قليلاً، قرر أفدي أن ينشف ثيابه، وعند ذلك ارتعب خوفـاً، إذ شاهـد ثيـابـه قد تمزقت، ومن العيب أن يظهـر أمـام النـاس فيهـا، بينـما كانت الكـدمـات تغطي جسمـه، والكثـير من الجروح والخدوش النازفة، ومن الجيد، أنه لم يكن لديـه مرآة، ولـو أنـه شاهـد وجهه في المرآة، لكان قد خاف من منظره. وقد أدرك دون مرآة، ماذا حصل معه، إذ كان يصعب عليه أن يلمس وجهه.

وعلى الرغم من وضعه هذا، فقد وجد في نفسه القوة لاقناع نفسه، بأن هذا الوضع هو أفضل بكثير مما كان من الممكن أن يحصل. ويكفي أنه قد بقي على قيد الحياة، وهذه سعادة لا توازيها سعادة أخرى.

عنـدمـا أخذ يخلع ثيابه تحت الجسر، وجد هوينه والنقود الموجودة في جيبه غير صالحة كليـاً. فالهـويـة قد تمزقت عندما سقط، وتبللت بالمطر، وتحولت إلى كتلة ورق مبللة. ومن النقـود لديـه قطعتـان نقـديتـان، إحداهما من فئة الخمس والعشرين والثانية من فئة العشرة روبلات. وبهذه النقود كان على أفدي أن يصل إلى موسكو، وبعد ذلك إلى بريوكسك.

سيطـرت على أفـدي أفكـار مأساوية كئيبة، فبعد الطرد من المعهد الديني كان على أفـدي أن يعيش في ظروف صعبـة وقـاسيـة. حصـل على موافقـة أختـه فارفارا لبيع البيانو العتيق، الـذي تعلمت العـزف عليـه في صغـرها. ولقد دفعوا له في مخزن الأدوات الموسفيه المستعملة نصف الثمن مقـابـل البيـانـو، شارحـين له أن الأدوات المـوسيقيـة قد أصبحت متوفرة، وليست صناعة نادرة، فهي كثيرة في كل مكان، حتى المسجلات المتنوعة قد ملأت المحلات التجارية، فوافق على هذا الثمن، لانه لم يكن لديه مخرج آخر. وبقي الان، دون أي شيء.

بدأ يوم جديد، وهذا يعني أنه من الضروري متابعة الحياة، وها هي الحياة الطبيعية تمسك بالشاب المثالي أفدي كاليستراتوف من حنجرته.

أمضى أفـدي ليلتـه بطـولها مفكراً بوضعه وهو يقبع تحت الجسر، وكان عليه الان أن يقـرر، كيف عليـه أن يتـابع طريقه من تلك النقطة، كما كان عليه أن يفكر، كيف عليه أن يحصل على خبز يومه.

وهنا ابتسم الحظ لأفدي: فعندما طلع الفجر، اتضح أنه، من تحت ذلك الجسر يمر طريق يربط القرى المجاورة ببعضها ومن خلال الوضع العام، تبين أن السيارات التي تمر من تحت ذلـك الجسـر قليلة. لم يكن من الـواضح، كما كان على أفدي أن ينتظر رفاقا لطريقه، ولـذلـك قرر أفـدي أن يسير بنفسه، حتى أقرب نقطه لتقاطع الطرق، ومن هناك عليه أن

يصل إلى محطة جلباك ـ ساز. أخذ أفدي ينظر من حوله : بحث عن عصا يتكىء عليها خلال طريقه. كانت ركبته اليمنى، التي عطبت عند وقوعه من القطار، تؤلمه جداً. أخذ أفدي يبتسم : «ربما غريشان قد قذف تلك العصا، التي ضربني بها بتر وخا الضربة الأخيرة؟ فهي الآن لم تعد تلزمه، » لم يجد أي عصا، ولكنه شاهد سيارة تقطع السهول وتتجه نحو الجسر القابع تحته.

وكانت تلك سيارة شحن، وفوق قاطرتها صنعت غرفة خشب من قبل السائق العامل عليها،والى جانب السائق كانت تجلس إمرأة، تحمل طفلاً على يديها. توقفت السيارة فوراً. كان السائق كازاخي، أسمر الوجه، نظر إلى أفدي من نافذة السيارة المفتوحة وبدت على وجهه الدهشة.

ـ ما بك أيها الشاب، هل قتلك الغجر، ؟ـلم يعرف أفدي لماذا سأله هكذا فأجاب :

ـ كلا ليس الغجر. أنا وقعت من القطار.

ـ هل أنت سكران؟

ـ لا أشرب مطلقاً.

تحدث السائق والمرأة بعطف عن الشاب، إذ كانا يتكلمان باللغة الكازاخية وفي كلامهم كانت تتردد كلمة «بيتشارا»[1]

ـ تعال، إلى السيارة إننا مسافرون إلى جلباك ـ ساز، وإلا بقيت هنا وحيداً في هذه السهول، أيها المسكين، فالسيارات نادراً ما تمر في هذه المنطقة.

بالكاد تمكن أفدي أن يوقف دموعه عن التساقط، متأثراً بالموقف الإجرامي الذي مارسه أولئك المجرمون، وفرح أفدي كالطفل الصغير.

ـ شكراً أيها الاخ. ـ قال أفدي، وهو يضع يده على صدره. ـ لقد أردت أن أطلب منكم ان تأخذوني معكم، اذا كنتم تتجهون إلى جلباك ـ ساز، إنه يصعب عليَّ المسير، رجلي تؤلمني جداً. شكراً.

خرج السائق حتى يساعد أفدي على الصعود الى السيارة، وهو يقول:

ـ تعال إلى هنا، سوف أساعدك على الصعود أيها المسكين. أصعد، فلا تخف: في الأكياس صوف، أنقله من السوفخوز لتسليمه في المركز. سيكون لك مقعد ناعم ومريح. ولكن عليك أن لا تدخن.

ـ إنني غير مدخن نهائياً. فلا تخف ـ قال أفدي بكل صراحة، ـ إنني كنت تحت المطر طيلة الليلة، لقد تبللت كلياً، فسأجد الدفء هنا. . .

ـ لا بأس، لا بأس، لقد حذرتك، دون خلفية. إستر ح يا مسكين. نظرت المرأة من النافذة، وقالت شيئاً ما للسائق.

ـ سألت الزوجة: هل تريد أن تأكل؟ ـ ترجم السائق لأفدي مبتسماً.

ـ أريد جداً ـ أعترف بصراحة ـ شكراً. فإذا كان لديكم ما يؤكل فأعطوني من فضلكم، سأكون لكم من الشاكرين.

تناول أفدي زجاجة مملوءة بلبن الغنم الحامض، ورغيف من الخبز المخبوز في التنور، وأعتقد أن هذا قد أرسل إليه تكفيراً عن عذابه الليلة الماضية.

أكل أفدي، ثم خلد للنوم العميق فوق أكياس الصوف، التي فاحت منها رائحة العرق والشحم. قطعت السيارة السهول، التي مازالت تحتفظ برطوبة جوها بعد المطر الغزيز في الليل.

كانت هذه الرحلة بالنسبة لأفدي، كفرصة للمثول إلى الشفاء بعد المرض.

استيقظ أفدي عندما توقفت السيارة.

ـ وصلنا فإلى أين تريد أن تتجه؟ ـ خرج السائق من وراء المقود، وأخذ ينادي الشاب النائم في مقطورة السيارة. ـ أيها الشاب، هل أنت حي؟.

ـ حي، حي شكراً، ـ رد أفدي ـ هل وصلنا إلى جلباك ساز؟

ـ نعم، نحن في المحطة، يلزمنا الآن أن نتجه إلى مستودع الخامات الحيوانية، وأنت إلى أين؟.

ـ أريد النزول هنا في المحطة. شكراً لكم مرة أخرى على مساعدتكم. وشكراً أيضاً لزوجتكم. لا أجد الكلمات المناسبة حتى أشكركم كما يجب.

نزل أفدي من المقطورة بمساعدة السائق، وهو يئن من الألم الشديد.

ـ هل وضعك سيء أيها المسكين، إذهب إلى المستشفى، تلزمك عصا، فيهون السير عليك ـ تحدث السائق لأفدي ناصحاً.

لزم أفدي نصف ساعة حتى وصل إلى بناية المحطة، على الرغم من قرب المسافة. وجد في طريقه قطعة خشب، فأخذها، وأصبح يتكىء عليها ـ هكذا أصبح من الأسهل عليه الخمع في مسيره.

وعند الطرق، وفوق القناطر العالية كانت تشع المصابيح الكهربائية القوية، وأنوار الرافعات بالقرب من القطارات القادمة والمغادرة، وعلى ساحة المحطة، ومن الأصح القول، على كل المدينة ـ المحطة، وفي السهول القريبة كانت تضج المكبرات، وتصفر

الصفارات الخاصة بالقاطرات. هذا بالإضافة إلى مكبرات الراديو الخاص بالمحطة، والذي يعلن عن وصول ومغادرة قطارات الركاب. وبعد دخول أفدي بين الناس، شعر على الفور بحرارة الحياة. فمن حوله كان يسرع الناس في مختلف الإتجاهات، وهم يسعون بحيوية للقيام بأعمالهم، هذا مع العلم أن محطة جلباك ـ ساز واحدة من أكبر المحطات في تركستان.

كان على أفدي أن يقرر، كيف له أن يسافر من هنا، وأي قطار سيختار. وكيف له أن يتصرف، وكل ما يملكه خمسة وثلاثون روبلاً، مع العلم أن بطاقة السفر حتى موسكو في المقطورات العامة تساوي ثلاثين روبلاً، هذا إذا وجد المكان.

وكيف له أن يشتري المأكولات؟ وماذا عليه أن يعمل بالنسبة لرجله، والجروح والكدمات والآلام في جسمه؟ وهل يذهب إلى المستشفى المحلية، أم يتابع طريقه على جناح السرعة؟ غرق أفدي في تفكيره، وسار عبر محطة القطار المكتظة بالناس أما ثيابه الممزقة، ومنظره العام، الكدمات والجروح، وهو يحمل تلك الخشبة الهشة، وما إلى ذلك، فقد كان يلفت إنتباه الناس ـ بنظر البعض اليه بشفقة والآخرون باستفسار وقد لاحظ أفدي عندما خرج إلى الساحة، ليطلع على برنامج القطارات، أن هناك أحد رجال الميليشيا يسير خلفه، ثم خاطبه قائلاً، وهو ينظر إليه بنظرة ثاقبة لا تبشر بأي خير:

ـ قف أيها الشاب، ماذا تعمل هنا؟ ومن أنت؟

ـ أنا. ؟

ـ نعم أنت.

ـ أريد أن أسافر، أنظر إلى البرنامج.

ـ هل توجد وثائق لديك؟.

ـ أي وثائق؟

ـ وثائق عادية: هوية شخصية، جواز سفر، وثيقة من مكان العمل.

ـ يوجد، ولكنني، قد. . .

ـ اخرج أوراقك.

حاول أفدي أن يتملص وهو يقول بخجل:

ـ هل تفهمني، أنا، يعني أيها الرفيق، الرفيق الـ. . .

ـ الرفيق الضابط، ـ قال رجل الميليشيا بصوت فيه شيء من الغضب.

ـ نعم، أيها الرفيق الضابط، عليَّ أن أقول لكم. . .

ـ ما الذي ستقوله لي، ـ سنعرفه منك فيما بعد. أما الآن فاعطني أوراقك.

لم يخرج أفـدي في الحـال تلك الكتلة المبللة من الـورق إلا أنـه وبعـد لحظـة تفكير، أخرجها من جيبه وقدمها للضابط قائلاً:

ـ تفضل، هذه هي هويتي.

ـ هذه هويـة: ـ نظـر المـلازم إلى أفـدي مشككـاً به. ـ هل تسخـر مني وتريد ضياع الـوقت؟ هذه هويتـك، ضعهـا في جيبك وسر معي إلى القسم،سوف ندقق في الأمر هناك. ونعرف من أنت.

ـ نعم أنـا، أيهـا الرفيق الملازم... خجل أفدي من منظره ـ ومن الخشبة التي يستند إليها، ومن الناس الذين تجمعوا حولها، وقال بارتباك: ـ هل تفهمني، أنا مراسل صحيفة.

ـ يا لك من مراسل ـ إستغرب الملازم معتقداً أن الشاب الموقوف يكذب بوقاحة ـ سر معي أيها المراسل.

ضحك الناس الذين تجمعوا حوله متفرجين على وضعه وساخرين منه.

ـ يا له من كذاب، ـ يقول إنه مراسل.

ـ ربما تقول إنك وزير الخارجية؟.

كان على أفدي أن يسير خلف الملازم، الذي امتلكه الغضب، عبر صالة الانتظار. حتى شاهد جميع الناس الذين كانوا يصادفونه، وهو يسير خلف الضابط وضعه المأساوي، وهم يهمسـون ويضحكـون. وعنـدمـا مر أفـدي من جانب أفـراد أسرة يجلسون على مقعد ...بي إلى جانب أغراضهم، وصلت إلى أسماعه الكلمات التالية:

الفتاة الصغيرة: ماما، ماما، أنظري من هذا؟

الأم: هذا مجرم يا طفلتي، قد ألقى القبض عليه عمك الشرطي.

صوت الرجل: أنه ليس مجرماً، بل نصاب صغير، سراق وليس أكثر.

صوت المرأة: لا تقل هذا يا ميشا. إنه من حيث المنظر بسيط، ولكن إذا صادفك في مكان مظلم، لقتلك دون أدنى شك...

ولكن المفاجأة الأساسية والغريبة ستأتي بعد قليل. فبعد أن دخل خلف الملازم عبر أحد أبواب عرفة فسيحة، وجد نفسه في غرفة الشرطة المرتبة، وذات النوافذ الواسعة المطلة على الساحة العامة. وهناك كان شرطي برتبة أخفض، يجلس خلف الطاولة، بالقرب من الهاتف، وقف على الفور عندما شاهد الملازم،وقال له:

كل شيء على ما يرام، أيها الرفيق الملازم.

ـ اجلس يا بيكبولات ، لقد وجدنا عصفوراً آخر ، ـ وأشار الملازم إلى أفدي برأسه وهو يقول : ـ أتشاهد كم هو جميل ، زد على ذلك أنه صحفي .

نظر أفدي ، متلفتاً إلى مختلف الجوانب ، فتوقف عند نقطة،وكاد يصرخ من رؤية ما شاهده أمام عينيه . ففي الزاوية اليسرى ، إلى جانب باب الدخول كانت وجوه معروفة من قبله ، تقبع خلف شبكة من الحديد الثخين ، تفصل الغرفة المجاورة من الأرض إلى السقف . هناك كان يجلس المهربون ، جامعو الحشيشة شخصاً ، شخصاً : بتر وخا ، لينكا ، ماتشاخ ، كولا ، ومهربان آخران ، وشباب اخرون ، كان مجموعهم عشرة ـ إثني عشرة تقريباً . هذه كل الجماعة ، عدا غريشان ، إنه لم يكن موجوداً بينهم .

ـ ماذا أصابكم أيها الشباب؟ كيف حصل ذلك؟ سأل أفدي بصورة عفوية .

لم يجب أحد من المهربين عن سؤاله ، حتى لم يتحركوا في أمكنتهم ، إذ كانوا يجلسون وراء الشبكة على الأرض مكتظين إلى جانب بعضهم البعض ، وقد تغير لون وجوههم ، وغلب عليهم الحزن واليأس ، حتى بدوا غرباء للغاية .

ـ هل هؤلاء ، هم جماعتك؟ ـ ضحك الملازم بإستغراب .

ـ طبعاً ـ أعلن أفدي ـ إنهم زملائي .

ـ هكذا إذن ، إستغرب الملازم ، وهو ينظر بانتباه إلى أفدي ، ثم التفت إلى المهربين وسألهم ، ـ هل هو من جماعتكم؟ .

لم يجب أحد بكلمة . إلتزم الجميع الصمت ، وهم يخفضون أبصارهم .

ـ إنني أسألكم ، أنتم بالذات ، ـ غضب الملازم . ـ فلماذا لا تجيبون؟ فليكن كما تريدون . فسوف ترقصون عندي كما يجب،وكما ترقص أسماك الشبوط فوق المقلاة ، سوف تتذكرون ما أقوله لكم ، عندما سيحكم على كل منكم حسب القانون رقم ٣١٧ . عند ذلك سوف تغنون الأغاني المهجرية . ولا تأملوا ان صغر أعماركم ، يغفر لكم ذنوبكم ، وأن هذه هي المرة الأولى لمحاكمتكم . كل ذلك محسوب حسابه ، نعم ، نعم ، إن ذلك لا يغفر لكم . لقد قبض عليكم بالجرم المشهود ، وأشار الملازم إلى الحقائب والقماطر المعروفة من قبل أفدي ، والمملوءة بالحشيشة ، والمعجونات من غبارها ، ولقد وضعت تلك الحقائب والقماطر على الأرض ، بعضها كان مفتوحاً ، وبعضها ممزقاً ، حتى تبعثرت الحشيشة منها ، وانتشرت في الغرفة رائحة السهول القنبية . وعلى الطاولة ، بالقرب من الهاتف تبعثرت علب الكبريت وعلب الزجاج المملوءة بالمعجون . ـ سوف تصمتون كما يجب لقد أسأنا إليكم ، أليس كذلك ، لقد قبضنا عليكم مع الأدلة القاطعة ـ كرر الملازم ، وهو يحتد غضباً ـ وهذه

الإثبـاتـات وهـذه المـوجـودات المحسوسة، هذه هي مخدراتكم، ـ وقف وأخذ يركل القماطر والحقـائب برجله . ـ فمن جماعتكم، لم يهرب إلا واحـد خبيث، قد هرب من الطـوق، وهو أيضـاً، سوف يجلس في هذه الـزاويـة معكم خلف الشبكـة، يا لكم من حقـراء، قفوا، لمن أقول قفوا! أخذتم راحتكم، قفوا وانظروا إلى هنا، دون أن تزيحوا أبصاركم! لمن أقول! لا تزيحـوا أبصـاركم! فمجـرمون حقراء من أمثالكم أطلقوا النار عليَّ من تحت عربات القطار. ولن أغفـر لكم ذنـوبكم، ولن أرحمكم، فلا تنتظـروا الرحمة أيها الحقراء، يا لكم من صبية، لقد بدأتم بتسليح أنفسكم، فماذا سيكون فيما بعد، فأنا عدوكم إلى الأبد، وأنا أستطيع أن أناضل ضدكم. وسوف أصطادكم في كل القطارات، وعلى جميع الطرق. وسألقي القبض عليكم، كما تحاصر الكلاب المسعورة، ويصعب عليكم أن تهربوا مني.

كان صوت الملازم يزداد رنيناً من الغضب، ـ وهكذا فأنا أسألكم، من هذا الإنسان الممـزق الثيـاب، الـذي يقول عن نفسه إنه صحفي؟ من هذا الشخص؟ ـ وأمسك بأفدي من يده، وسحبه حتى الشبكة. ـ أجيبوا، ما دمت أسألكم بالطريقة الحسنى! هل هو من جماعتكم؟.

صمت الجميع للحظة. نظر أفدي إلى وجوههم الكئيبة، ولم يكن بإمكانه أن يتصور هؤلاء الشبـان الأقـويـاء، الـذين كانـوا البـارحة يوقفون القطارات في السهول، ويمرحون وقـذفـوا به من القطـار، يجلسون الان في الشبكة، بلا أحزمة على سراويلهم، بلا أحذية، حفـاة كليـاً (لقـد أجـبر وهم على خلع أحـذيتهم حتى لا يهربـوا عنـدمـا يخرجـون لقضاء حاجتهم)، ومناظرهم كئيبة تثير الشفقة.

ـ اسألكم للمـــرة الأخـــيرة، ـ قال المـلازم وقـد سيطـر عليـه الغضب كليـاً. ـ هذا الشخص، الذي ألقيت القبض عليه، هو منكم، أم لا؟.

ـ كلا، ليس منا، ـ أجاب بتر وخا عن الجميع بحنق، ورفع نظره إلى أفدي بلا رغبة.

ـ كيف يا بيـــوتـر، كيف ليس منكم؟ ـ إعـترض أفـدي، وهـو يتكىء على الخشبـة ويقترب من الشبكة، ـ هل نسيتموني؟ إنني آسف لوضعكم هذا، فكيف حصل هذا؟

إعـترضـه الملازم قائلاً: «المكان هنا ليس مخصص لتعازيك. فالآن سوف أسأل كلاً على حدة، ـ كان الملازم يتكلم بلهجة التهديد ـ وإن كذب واحد منكم ـ وهذا سيتضح فيما بعد، ـ سوف يزيد عقابه، فتكلم أنت!ـ وتوجه الملازم بالكلام إلى ماخاتش.

ـ ليس منا، ـ أجاب ماخاتش، وهو يلوي شفتيه المبللتين.

ـ أما الآن فقل أنت، ـ أمر الملازم لينكا.
ـ ليس منا، ـ أجاب لينكا وتنهد بعمق.
ـ ليس منا، ـ أضاف كولا، ذو الشعر الأشقر، قبل أن يسأله الملازم.
وهكذا أجاب الجميع بالرفض. ولم يعترفوا بأنهم يعرفون أفدي.
إن تصرف المهربين قد أثر على أفدي كاليستراتوف، لأن الجميع قد رفضوا التقرب منه. وباختصار، إن ذلك قد أهان أفدي، وشعر كأن القشريرة تجتاح جسمه ثم ارتفعت حرارته، ودار رأسه من شدة الصداع والألم.
ـ كيف بإمكانكم أن تقولوا انكم لا تعرفوني؟ ـ في هذه الحالة، لم يفهم ما يقول.
ـ فأنا الذي . . .
ـ إسمع أيها المراسل لصحيفة «نيويورك تايمز» ـ قاطعه الملازم ساخراً. ـ يكفيك ثرثرة «فأنا» «فأنتم». لا تحاول أن تكثر من الكلام أكثر من هذا، بدونك لدينا الكثير من الأعمال، فاذهب من هنا، ولا تزج نفسك في موضوع، لا شأن لك به، ولا تتقرب من هؤلاء، فلهم يوجد قانون، والقانون لا يرحم. فكل من ينتج أوينشر المخدرات أويتاجر بها يعاقب حسب الأحكام العرفية. فمع أمثال هؤلاء، الحديث قصير جداً. وأنت أيها الصديق المراسل، إذهب من هنا بسرعة. إذهب ولا تعد إلى هذا المكان مطلقاً.
عم الصمت قليلاً. بينما تابع أفدي كاليستراتوف وقوفه،وهو يحول ثقله من رجل إلى أخرى.
ـ هل سمعت ما قاله لك الرفيق الملازم؟ ـ قال الشرطي، الذي كان يملأ طوال الوقت خلف طاولته بعض الاستمارات. ـ إذهب ما دام لديك وقت. قل شكراً واذهب.
ـ هل يوجد لديكم مفتاح لهذا الباب؟ ـ أشار أفدي إلى القفل المعلق فوق باب الشبكة الحديدي.
ـ وما يهمك أمره؟ بالطبع يوجد، ـ أجاب الملازم دون أن يفهم ما يقصد أفدي.
ـ إفتح الباب إذن، ـ قال أفدي.
ـ وماذا تريد غير ذلك، ومن أنت؟ ـ إستغرب الملازم. ـ اذا لم تذهب فإنني . . .».
ـ هذا ما أبغيه، أريد ان تضعني الآن خلف هذه الشبكة، فمكاني هناك. تكدر وجه أفدي، وخرج عن طوره كما كان في تلك اللحظة، في القاطرة، عندما أخذ يقذف الحشيشة الغالية الثمن في الهواء، ـ أطلب منكم أن تعتقلوني، وتحاكموني ـ صرخ أفدي بصوتٍ عالٍ، ـ كما ستحكمون هؤلاء البؤساء، الذين تاهوا في هذا العالم، الذي كثرت فيه

التناقضات، والأعمال الشريرة الكثيرة. فعليَّ أن أتحمل المسؤولية، كما يتحملونها هم. فأنا قد مارست العمـل الـذي مارسـوه. فافتح البـاب وضعني معهم، فأمـام المحكمـة سوف يؤكـدون أنني ارتكبت الخطأ مثلهم،وسـوف نعرب عن أسفنا لقيامنا بهذه الأعمال، وسيغفر الإعتراف لنا خطأنا..

هنا، وضع الشرطي الأوراق جانباً، وهب من مكانه قائلاً:

- إنه مجنون أيها الرفيق الملازم. انظر إليه، فهو واضح للعيان، إنه مجنون، وغير طبيعي.

- أنا في كامل قواي العقلية، - اعترض أفدي. - ويجب معاقبتي بنفس العقاب. ففي أي شيء ترى جنوني؟.

- توقف، توقف، - تردد المـلازم. يبـدو أنـه خلال خدمتـه الطـويلة والصعبة في الميليشيا، لم يصادف مطلقاً مثل هذه الحالة الغريبة، فحدث من شئت عن هذا، فلن يصدقك.

عم الصمت، وهنـا غص شخص ما، ثم انفجـر باكياً. كان ذلك هو الشاب لينكا الذي استدار نحو الجدار، وشرع يبكي، بينما حاول بتروخا أن يخرسه مهدداً، وهو يهمس شيئاً في أذنه.

- إذن. فلنـذهب أيهـا الـرفيق - قال المـلازم لأفـدي بصوت عادي، ولنتحدث على حدة، وهناك سأستمع إليك بكل انتباه، فلنخرج إلى مكان آخر. تعال، تعال، إسمعني، كما أقول لك.

خرج المـلازم مع أفـدي إلى صالـة الإنتظـار، المليئـة بشتى المسـافـرين من مختلف القوميات. قاد الملازم أفدي إلى مقعد خال، واقترح عليه أن يجلس ثم جلس إلى جانبه، ثم قال له بتودد، لم يتوقعه أفدي:

- أرجوك رجاءً حاراً، أيها الرفيق، أن تتركنا نقوم بعملنا. وإذا ارتكبنا أي خطأ، فلا تغضب. إن عملنا صعب وشاق. فأنت نفسك قد شاهدت. أرجوك، أن تسافر الى الجهة التي تريد السفر إليها. فانت طليق، ولكن عليك أن لا تعود إلينا، فهمت ما أقول! اتفقنا؟

في الـوقت، الـذي استعد فيه أفدي للإجابة، وفكر كيف سيشرح للملازم قصته، ويطرح تصوره بخصوص هؤلاء الشبان المعتقلين، نهض الملازم، وسار مسرعاً بين الناس. أمـا المسـافـرون، الـذين لا يوجـد لديهم عمـل ما، عادوا ينظرون بسخرية الى أفدي، إذ أنه كان يختلف كثيراً، حتى بين هذا الجمهور المتنوع من الناس: محطم القوى، وجهه مليء

بالكدمات، ثيابه ممزقة كلياً، يستند إلى خشبة بدلاً من العكاز وأثار أفدي في نفوس الناس الفضولية والسخرية بآن واحد، زد على ذلك، انه وقبل قليل قد قاده شرطي إلى هنا.

أما وضع أفدي فقد ساء تدريجياً . . . إرتفعت حرارته، وازداد الألم والدوران في رأسه حتى لم يعد يطاق، فأحداث اليوم الفائت، وأمطار الليل، ورجله المتورمة، التي لم يعد يتمكن من المسير عليها، واللقاء المفاجىء، غير المتوقع مع المهربين، المهددين الآن بالعقاب القاسي، لقاء أعمالهم الإجرامية. كل هذا لم يمر بالنسبة له دون عاقبة: أخذت القشعريرة تغزو جسد أفدي، فأصبح يرتجف في بداية الأمر، ثم إرتفعت حرارته، فجلس على المقعد متكوراً على نفسه، يخفي رأسه بين كتفيه، ويعجز عن النهوض من مكانه ليتناول العكاز التي تدحرجت إلى الأرض، ليس بعيداً عن قدميه.

وهنا، وأمام نظره الخافت من الدوران، شعر أفدي، وكأنه يسبح في الضباب. وأخذ يفقد تصوره الدقيق للأشياء من حوله: وجوه وأجسام الناس أخذت تطول، ثم تقصر، والتحم الشخص مع الآخر. سيطر الدوران على أفدي، واختلطت أفكاره، وأصبح من الصعب عليه أن يتنفس. جلس أفدي وحيداً في هذه الصالة الكبيرة، والخانقة لكثرة الناس فيها: «آه كم ساء وضعي ـ فكر أفدي، ولأية درجة كان الناس غرباء، لا أحد يساعد الآخر. يا لهذا الفراغ من حولي، وأي عزلة لا تطاق». انتظر أفدي معتقداً ان هذا الوضع، سوف ينتهي بعد حين، وسينهض من جديد، وعندها سيحاول مساعدة أولئك المهددين بالسجن لمدة طويلة. أما مسألة رميه من المقطورة، على أمل أنه سيموت، فأصبحت مسألة قديمة، ومن الدرجة الثانية. إن أولئك المجرمين القتلة الأغبياء، كان من الممكن أن يثيروا في نفسه الحقد، والرغبة بالثأر، وليس الرحمة، ولكن المثالي أفدي كاليستراتوف لم يرغب في استيعاب دروس الحياة، ولم تنجح هنا الحجج المنطقية. كان يدرك، أن فشل مهربي الحشيشة ـ هو فشله أيضاً، أي الفشل الذي يحمل الخير للأفكار الغيرية. لقد بدا له أنه عاجز عن التأثير على مهربي الحشيشة، لانقاذهم من المشاركة القذرة، ومع هذا، لم يكن بإمكانه إلا أن يتفهم كيف طعن نتيجة تسامحه هذا، وإلى أي نتائج مصيرية يمكن أن يقوده هذا. . .

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن العالم لا يخلو من الخيرين، ولقد وجد أمثال هؤلاء الطيبين حتى في محطة القطار، بين جمهور الناس الغرباء عن بعضهم، إذ كانت إمرأة مسنة، تضع على رأسها منديلاً، تغطي به شعرها الأشيب، تجلس إلى جانب أغراضها على المقعد المقابل لأفدي، فأدركت من خلال وضعه أنه يتألم، وبحاجة إلى المساعدة. فاقتربت

منا، وخاطبته بحنان الأم :

- أيها المواطن! يا بني! هل تعاني من شيء؟

- يبدو أنني مرضت، ولكن لا تقلقي عليَّ، - حاول أفدي أن يبتسم.

- كيف لي أن لا أقلق؟ ماذا حل بك يا بني، هل وقعت من مكان ما؟

إن حرارتك تبدو عالية، - قالت هذا بعد أن وضعت يدها على جبهة أفدي - وعيناك تبدوان وكأنهما مريضتين، عليك ان لا تغادر المكان وأنا سأذهب للبحث عن طبيب المحطة، يجب تحويلك إلى مستشفى، فلا يجوز تركك على هذه الحالة . . .

- لا تقلقي، الأمر بسيط، - قال لها أفدي بصوت واهن.

- لا، لا، أنت أجلس هنا قليلاً، وخلال دقيقة سأعود . . . طلبت المرأة من جارتها أن ترقب لها أغراضها، وذهبت العجوز التي تعاني من آلام في قلبها إلى جهة ما.

لم يعرف أفدي كم غابت هذه المرأة، فلقد ساء وضعه جداً. وها هو الآن يدرك سر مرضه : لقد كان يعاني من التهاب حاد في الحنجرة والبلعوم، حتى كان من الصعب عليه أن يبلع لعابه. وفكر أفدي، أنه مصاب بمرض الذبحة الخانقة».

لقد وهن جسمه كلياً، وأراد أن يضطجع ويتمدد على الأرض - ويدعْ الناس يطأون عليه - وأن ينسى، وينسى، وينسى . . .

كاد أفدي أن يغفو ولكن عندما تحرك الناس في صالة الانتظار، فتح عينيه فشاهد الشرطة يخرجون المهربين من خلف الشبكة، والشرطة تحيط بهم من مختلف الجهات، بينما سار الملازم الغاضب في المقدمة - أخذ الناس يبتعدون عن طريقه، وخلفه سار المهربون مكبلين بالقيود رتلاً - الواحد خلف الآخر - بتروخا، ماخاتش، لينكا، كوليا، واثنان اخوان من المخربين، واخرون، كان عددهم جميعاً يقارب العشرة أشخاص. تابعوا المسير حتى خرجوا من المحطة.

وقف أفدي بصعوبة في مكانه وأخذ الخشبة العكاز وسار يخمع على أثرهم. لقد بدا له أنه يسير بسرعة، ولكنه لم يتمكن من اللحاق بهم، كما أن المتفرجين من البشر قد حالوا دون أن يسرع أكثر، ولكن عندما نقلوا المهربين، شاهد السيارة التي أقلتهم : فبالقرب من باب المحطة كانت تقف سيارة مغلقة. لها باب حديدي من الخلف، وفي أعلاه نافذة من القضبان، بينما كان يقف شرطيان خلف السيارة ويأخذان كل واحد من المهربين من تحت إبطيه، ويدفعان به إلى داخل السيارة.

ثم جلس في السيارة خفر الحراسة، وأقفل الباب. وإلى جانب السائق جلس

الملازم، وغادرت السيارة مختفية بعيداً عن ساحة المحطة. توقع الناس مختلف المقولات:
ـ لقد قبضوا على مجرمين. عصابة كاملة.
ـ انهم أولئك الذين قتلوا الناس في بيوتهم.
ـ يا للرعب من كل هذا!
ـ هل هؤلاء مجرمون؟ إنهم أولاد صغار.
ـ تقول، أولاد؟ صبية هذا الوقت، يقتلون من يرغبون، دون أن يرجف لهم جفن عين.
ـ كلا، ليس كذلك، فهم أناس عاديون يجمعون الحشيشة. إنهم أولئك، الذين يهربون الحشيشة، إنهم كثر هنا، تصطادهم الشرطة في قطارات الشحن...
ـ مهما اعتقلت، سيكون قليلاً، إنهم كثر... !
ـ يا لهذه الظاهرة الغريبة... !
هكذا انتهت الملحمة للمهربين، بينما شعر أفدي في نفسه بفراغ غير مفهوم..
عاد أفدي إلى صالة الانتظار، يجر رجليه جراً. نسي المكان الذي جلس فيه، فسار على التوكل، وهنا صادفته تلك المرأة العجوز، ذات الشعر الأشيب.
ـ هذا هو، قالت العجوز للممرضة، ذات الرداء الأبيض، ـ فإلى أين ذهبت يا بني، لقد بحثنا عنك في كل مكان، وهذه الممرضة قدمت من أجلك. فعندك حرارة قوية، وخاف الطبيب أن يكون مرضك معدياً.
ـ لا اعتقد ذلك ـ قال أفدي بصوت ضعيف.
وضعت الممرضة يدها على جبهة أفدي.
ـ درجة حرارة عالية، ـ قالت هي ـ هل معدتك مضطربة؟ وعندك إسهال، ذو رائحة كريهة؟.
ـ كلا.
ـ على أي حال يجب الذهاب إلى قسم الصحة، هناك يوجد طبيب سيفحصك كما يجب.
ـ أنا جاهز
ـ وأين أغراضك؟
ـ لا توجد لدي حوائج؟...

- ٤ -

في مستشفى محطة جلباك ـ ساز، التي نقلوا أفدي كاليستراتوف إليها، كانت طبيبة مناوبة تدعى عليا إسماعيلوفنا ـ إنسانة كازاخية متجهمة. فحصت المريض، وقالت برزانة: فبالنسبة لرجلك، سوف يفحصك طبيب مختص، أما الآن، فسوف نعالجك بالضمادات الحيوية، حتى لا تنتشر العدوى. وعليك أن تحدثني أيها المريض بكل شيء جرى معك. إنني أسأل، ليس من باب الفضولية، بل كطبيبة... ومن بين اللقاءات الممكنة، يحصل أحياناً لقاء ما، لا يجوز إلا أن يعترف الإنسان، بأنه قد نظم من قبل الإله، ولكن مهما كانت المخاطرة، فإن مثل هذه اللقاءات سوف تؤدي إلى نتيجة ما، يبلغها الإنسان فيما بعد. وعند ذلك، وللحظة ما، يصبح الأمر بالنسبة له رهيبا، وخاصة عندما يفكر: كيف سيكون الأمر، لو أن هذا اللقاء كان بلا جدوى...؟ وخاصة أن تطور اللقاء مرتبط بالبشر أنفسهم، وليس بالإله.

لقد حصل مع أفدي كاليستراتوف شيء يشبه ذلك: في مساء اليوم الثالث قدمت إليه في المستشفى تلك، التي كان بإمكانه أن يحلم بها فقط، لأنه لم يعلم، من هي. أما بالنسبة للحلم، فمن الممكن أن يتم كل شيء في الدنيا...

عند الظهيرة وبعد الحقن وتناول الأدوية الأخرى، انخفضت الحرارة ولم تعد إلى الإرتفاع أكثر من سبع وثلاثين درجة وثلاثة أعشار الدرجة. ولكن تورم الرجل لم يضمحل، زد على ذلك أن ضلعا من أضلاعه اليمنى كان مكسوراً، إذ ظهر الكسر من خلال الصور الشعاعية. ولكن، وبشكل عام فإن صحه قد أخذت بالتحسن وشعر أفدي أن الخطر قد زال عنه. ولقد كانت الطبيبة عليا إسماعيلوفنا طبيبة ممتازة بكل معنى الكلمة، وكانت تمتاز ليس بمعرفتها الطبية وحسب، بل بطريقة معالجتها، وطريقة محادثتها مع الناس، إذ كانت تزرع الثقة في نفوس المرضى، والهدوء، وقوة الإرادة. وتعتقد أن العامل النفسي كان يساعد المرضى على مقاومة المرض بصورة جيدة. وشعر أفدي بعد كل هذه المعاناة، والهزات النفسية، إلى أي درجة يكون ضرورياً للانسان أن يهتم به الأناس الآخرون. وبكلمة صريحة،من الممكن القول إنه فرح لفرصة المرض هذه، ودخوله إلى المشفى، إذ تم تقديم العلاج له على يديّ طبيبه جيدة، ـ وهكذا شعر أفدي بالهدوء والراحة في مشفى المحطة البسيط، الموجود في الحديقة الهادئة.

كانت نافذة الغرفة ذات الستائر البيضاء، من جهة الحديقة مفتوحة. فالحر لم ينخفض بعد. وخرج الشخصان اللذان معه في الغرفة إلى الحديقة للتنزه والتدخين، بينما

إضطجع أفدي لوحده في الغرفة، فأخذ يقيس حرارته بنفسه، وبالقرب من النافذة سمع أفدي طرق حذاء نسائي مدبب الكعبين، وصوت إمرأة تسأل عنه لدى المرضة المناوبة. فمن كانت تلك المرأة؟ أما الصوت فلقد كان معروفاً من قبل أفدي تقريباً، وبعد لحظة فتحت الممرضة الباب وقالت:

- هذا هو، إنه يضطجع هنا.

- مرحبا - قالت الزائرة - هذا انت كاليستراتوف؟.

- أنا، أجاب أفدي دون أن يصدق عينيه.

إنها تلك الفتاة، التي أدهشت عقله وتفكيره، هي التي جاءت يوماً، تقود الدراجة النارية في اتشكودوك. ارتبك أفدي، وهو يسمع ما قالته، وأدرك معنى كلماتها، لانه كان مستعداً منذ زمن لفهمها من الإشارة. عرف أن الفتاة تدعى إينغا فيدوروفنا، ولقد قدمت إلى المستشفى، لأن عليا إسماعيلوفنا كانت صديقتها منذ ثلاث سنوات،أي منذ تلك الأونة، التي قدمت فيها إلى هنا للقيام بأبحاث علمية. وقد حدثتها عنه، إذ أثار هذا الحديث إهتمامها: إن كلاً من أفدي وهي - إينغا فيدوروفنا، يقومان بأعمال مشتركة، ترتبط بقضية الحشيشة، لأنها تشرف على دراسة حقول موينكوم، والأعشاب فيها .وقدمت للتعرف إليه، لربما كان يحتاج إلى بعض المعلومات... فإن المعلومات العلمية تفيد الصحفي إفادة كبيرة.

آه يا إلهي، فعن أي معلومات علمية تتكلم هذه الإنسانة، فقد أصم ظهورها المفاجىء أذنية، إلا أنه، وبصورة غريبة قد حزر عما يدور الحديث. وعندما شاهد عينيها. بدا الأمر له في تلك اللحظة، وكأنه لم يكن لدى غيرها من الفتيات مثل هاتين العينين، - وهكذا يكتشف عالم الفلك نجماً جديداً مجهولاً، بين ملايين النجوم، أما بالنسبة للإنسان الجاهل في هذا العلم، تبدو جميع النجوم واحدة. وبدا الأمر وكأنه قد ذاب من نظرة واحدة....

كل هذا قد إتضح لأفدي فيما بعد، عندما بقي وحيداً، وهدأ قليلاً. أما في تلك الدقائق الأولى فقد بدا كمجنون حقيقي. ولكن إينغا فيدوروفنا، أعادت ذلك إلى أن درجة حرارتي كانت عالية، وبي شيء من الهذيان، فالمجنون فقط يقول على الفور: «من أين عرفت، إنني كنت أفكر بك طوال الوقت؟». وفي الإجابة، رفعت حاجبيها مستغربة، وابتسمت بدلال، حتى بدت أجمل من قبل بكثير. ولو أنها تعاملت مع هذه العبارة، التي تفوه بها أفدي ككلام سخف أو وقاحة، لكان أفدي قد حكم على نفسه بأشد العقوبات،

ولعن نفسه، ولكن الله كان رحيماً، وكانت إينغا ذكية، ولم تعط لكلامه أهمية خاصة. ثم تذكر وإياها بمرح، كيف قدمت إليهم في أوتشكودك، وكيف شاهدا بعضهما لأول مرة، خلال لحظات عابرة. ومما أمتع إينغا فيدوروفنا ذلك الحديث، كيف كان مع زميليه السابقين بتروخا ولينكا، عند الظهيرة في مكان مكشوف، وحومت من فوقهم الطائرة المروحية، وعندها كانوا مضطرين للإختفاء بين الحشيش. واتضح أن إينغا فيدوروفنا، كانت في تلك الطائرة مع بعثة علمية من طشقند: دعاها أحد العاملين في معهد طشقند للبحوث في مجال البحث عن الطرق الكيميائية ـ البيولوجية للقضاء على قنب الحشيشة في أمكنة نموها، للسفر معه، والآن أصبح الأمر واضحاً لأفدي، فالنضال ضد هذا الشر، كان يجري للقضاء على تعاطي المخدرات من خلال القضاء على النبات، الذي يحتوي على المخدرات، وكما يتضح أن حل هذه المعضلة الدولية، لم يكن بالأمر السهل، وعلى وجه الخصوص، ومن خلال توضيح إينغا فيدوروفنا يتبين، أنه من الممكن إيجاد المحاليل الكيميائية للقضاء على قنب الحشيشة، من حيث الأساس. ولكن أدى إستعمال المحاليل الكيميائية إلى توجيه ضربة إلى نظام التكاثر للقنب، وحملت هذه الطريقة معها شراً أكبر من ذلك الأساسي ـ فقد أضرت تلك المحاليل بالتربة، ولن تعد الأرض ـ خلال مدة أدناها مئتي عام ـ صالحة للاستعمال، ولهذا ظهر سؤال: هل من الممكن القضاء على الطبيعة من أجل القضاء على المخدرات؟ هذا الاسلوب غير صحيح نهائياً. ولقد تخصصت إينغا فيدوروفنا في مجال البحث عن الطرق الأكثر سلامة لحل هذه المعضلة الخاصة بعلم العلاقة بين الأحياء وما يجاورها. آه يا إلهي، ـ فكر أفدي ـ لو أن الطبيعة قد إتسمت بسمة التفكير، لكانت قد شعرت بالإثم الأكبر على عاتقها لقاء العلاقة القائمة بين هذه النباتات البرية والإنحطاط الخلقي للانسان.

لقد إعتبر أفدي هذه العلاقة مع إينغا فيدوروفنا «مرحلة جديدة في مصيره»، ولم يسمح أفدي كاليستراتوف لأي تضخيم رومانسي. ففي اليوم الثاني، وهو عائد إلى بريوكسك أخذ يكتب لها رسالة مطولة، زد على ذلك، أنه في كل محطة يتوقف فيها القطار أكثر من خمس دقائق، كان يرسل لها البطاقات البريدية. لقد كان تعلقه بها أكبر بكثير من أي تصور، وبلغ التوتر الإحساسي عنده أوجه، وتعاظمت أشواقه تدريجياً منذ اللحظة الأولى، التي شاهد فيها أفدي إينغا فيدوروفنا.

لقد كتب لها: «لا أعلم ماذا حل بي ـ شيء لا يدركه العقل: كنت أحسب نفسي، أنني من ذوي الطباع الهادئة، وأن العقل والعواطف في علاقة جدلية، وتوازن ضروري، أما

الآن فلست في وضـع منـاسب لتحليل وضعي . زد على ذلك، إنني لا أرغب في التحليل . فأنا كلي في سلطة السعادة، غير المرئية، التي إنهالت عليَّ كالانزياح الجبلي ولقد رأيت في أحد الأفـلام السينـمائيـة، كيف كانت عاصفـة ثلجية، بيضاء تكنس كل شيء في طريقها ـ وأنا سعيد، لأن هذه العـاصفـة قد حلت بي، ولم يكن في العالم، ولن يكون إنسان آخر، سعيد مثلي. لقد حالفني الحظ، وأنا الآن، مثلي مثل الإنسان المتوحش، الذي يرقص وبيده دف. وأشكـر مصـير ي على كل ما قدمـه لي في هذا الصيف: إنني بقيت على قيـد الحياة بعد أن أوشكت على المـوت،ومنحني أن أعـرف ما يصعب معـرفته خلال حياة واحدة، وبإمكاني أن أقـول، إن الحب في أطـر الشخصيـة هو ثورة حقيقيـة للروح، فلتحيا ثورة الروح الدائمة- الروح، التي بإمكانها أن تحلق وتنبعث في آن واحد.

أعذريني يا إينغا، على هذه المشاعر. ولكني أحبك، وليست لدي القوة ولا الكلام، لأعبر لك عن كل شيء، وأقول لك، ماذا تُعنين بالنسبة لي. .

إسمحي لي الآن أن أنتقـل لأحـدثـك عن عملي: لقد كنت في إجتماع أسرة التحرير للصحيفـة، وحـدثت باختصار عما حصل معي. طلبوا مني مقالة. والآن ينتظرون. . وربما أكتب عدة مقالات بخصوص هذه القضية الملحة. وإذا تحقق ما أتوقعه، فإنني سوف أعمل في هذه الصحيفـة بشكـل دائم. ولكن مازال الـوقت مبكـراً للكـلام عن ذلـك. المهم أنني سوف أباشر العمل غدا. فأنا لم أسجل أي معلومات خلال رحلتي، وعليَّ الآن أن أتذكر كل شيء حسب التسلسل.

ومهما يكن من أمر مصائر المهربين، الذين تنتظرهم أحكام قاسية عقاباً على تهريب ونعاطي وتوزيع المخدرات ـ وهذا شيء محتم ـ فإن مصائرهم لن تتركني، دون قلق. لانهم بالنسبة لي أناس أحياء بكل مصائرهم المرة والقاسية. وخاصة يؤلمني مصير الشاب لينكا. يا له من شاب صغير بضيع حياته! وهنا تبرز تلك القضية الأخلاقية، التي تكلمنا عنها كثيراً يا إينغـا. أنت محقـة كليـاً يا إينغا. إن أي عمل شرير وأي جريمة إنسانية، في أي نقطة من العالم تخصنا جميعا، حتى لو كنا بعيدين عنها، ولم نعلم بها، ونحن لا نرغب بأن نعلم عنها. ونضحـك من حين لآخـر: أنظـروا: إلى أي حد قد وصـل أولئـك، الـذين نسميهم عادة أعـداءنـا ولكن الصحف محقـة في عملها، إنها تكتب عن الجرائم التي تجري خارج حدود بلادنا، وفي هذا يوجد معنى عميق. ففي العالم يوجد ما يسمى بالتوازن العام للطموحات الإنسانية، الناس ـ هم الكائنات المفكرة الوحيدة في الكون، وإذا أردنا أو لم نرد، فإن هذه السمـة، هي من أسمى الميـزات التي نصنفهم، ونحن سوف نصـل إلى هذا، بغض النظر

عن كل التناقضات، وفي هذا يأتي إنقاذ العقل فوق الأرض.

كم هو جميل يا إينغا، أن أستطيع الكتابة إليك عن كل ما يهمني، عسى أن أجد التجاوب في روحك ـ وإني لعلى ثقة من ذلك: أخاف أن تضجري من رسائلي المتتابعة ـ لدي الرغبة الكبرى في أن أكتب لك الرسالة تلو الأخرى، دون توقف، وإلا لما تمكنت من تحمل الفراق. أرغب في أن أكون دائماً معك، ولو بأفكاري. كم تتصاعد الرغبة في كياني، حتى أعود من جديد إلى سهول موينكوم. وهناك، أعود إلى قرية أتشكودك حتى أراك من جديد، قادمة فوق دراجتك النارية، التي قدمت إلينا عليها آنذاك، وزرعت في عالمي أفكاراً كنائسية جديدة، وبذور الحب حتى العبادة. من المخجل، أن أعترف لك، ولكنني قد دهشت جداً لرؤيتك، حتى أشعر الآن، أنني عاجز عن التخلص من شعور العبودية والإعجاب لقد نزلت من السماء، كالآلهة في طلعتها المعاصرة...

والآن، وأنا أتذكر تلك اللحظات، لا أستطيع أن أغفر لنفسي، أنني لم أتمكن، عندما صدف لي أن أكون مع المهربين، من أن أغيرّ في معاناة التوازن الإنساني قيد أنمله، وأن أزيح الشر قليلاً، وأضيف درجة من الخير. لقد تصورت، أنهم سوف يخافون من الإله، ولكن النقود كانت بالنسبة لهم أغلى من أي شيء. والآن تعذبني فكرة، كيف سيكون بإمكاني أن أساعد أولئك المهربين، الذين جمعني معهم المصير، وعشت معهم تجربة حياة خاصة. إني أقصد التوبة. نعم، أردت إرشادهم إلى هذه الطريق. والتوبة ـ واحدة من أسمى المنجزات في تاريخ تطور الروح الإنسانية ـ مشهر بها في أيامنا. ومن الممكن القول أنها خرجت من الحياة الأخلاقية للإنسان المعاصر. ولكن كيف من الممكن للإنسان أن يكون إنساناً بدون الندم والتوبة، دون تلك الهزة والعودة إلى الرشد، الذي يبلغه الإنسان من خلال معرفة الأخطاء ـ وهل يتم ذلك في العمل، أم في الأفكار، أم من خلال تعذيب النفس، أو محاكمة الذات؟... الطريق إلى الحقيقة ـ هو الطريق العادي إلى الكمال...

آه، يا إلهي، ها أنا أعود من جديد إلى أفكاري، أعذريني يا إينغا، إن هذا يعود إلى مشاعري، التي تملأ كياني، وإنني دائماً أفكر بك، ويبدو لي دائماً. إنني لم أبح لك بواحدٍ من ألف، مما أريد أن أقوله لك...

كم أرغب، وبأسرع ما يمكن أن أراك! ها قد مضى أسبوع بأكمله ولم نر بعضنا ـ اه كم أرغب برؤيتك من جديد....

ان هذا الشوق المتزايد، ـ هو الشيء الوحيد الذي يقلقني الآن. أما كل المشاكل

الحياتية الأخرى، فقد إنقشعت عن خاطري بشكل عجيب، وفقدت أهميتها فجأة، وبدت لي هذه المشكلات المعاشية غير هامة نهائياً. . . »

أشرف شهر تموز على الإنتهاء، وحل اليوم، الذي خرجت فيه من مبنى أسرة تحرير الصحيفة، منقبض النفس. كنت حزيناً، لان المحرر قد غيرَ رأيه بمقالاتي عن السهول، وكذلك رفاقي في أسرة التحرير، الذين شجعوني للسفر طلباً للمادة الجيدة، ها هم يتصرفون على شكل مغاير، وكأنهم قد ارتكبوا خطأ ما بحقي.

امـا بالنسبـة لي، فكـان ذلـك مؤلـماً للغـايـة. عندما أشعر، أن الناس يحسون أنهم أخطؤوا بحقي. إن هذا يعـذبني للغـايـة، وأرغب على الفـور أن أحـررهم، في أسـرع ما يمكن، من حالة تأنيب الضمير، حتى لا يشعروا بالخجل أمامي. وأشعر عند ذلك، كأنني السبب المباشر في إرتكابهم للخطأ. . .

حرجت من مبنى الصحيفة، وقررت أن لا أعود إليه ثانية، وأن لا أحرج أحداً على الإطلاق. وقررت أن لا أعود، إلا إذا وجهوا لي الدعوة في حال الضرورة واذا لم أعد ضرورياً لهم، فالأمر متعلق بهم. وسأعلم ساعتها، أنه لم ينجم أي شيء عن عملي، ولا يحق لي أن امل بشيء.

سرت في الشارع في هذه الآونة الجميلة من صيف روسيا الرائع، ولكني لم أشعر بأية سعادة خاصة. فكم حاولت واجتهدت، لأكتب مقالاتي، لأعبر من خلالها عن شعور الأل في أعـماني تجاه هذه الظـاهـرة. لقـد كتبت المقـالات عنهـا بكـل صراحة واعتراف، ولكن تدخلت هنـا بعض التصـورات حول سمعـة البلد (ويصعب التصور كم نخفي من الأسرار عن أنفسنا بالذات). . وهذه الآراء حالت دون ظهور مقالاتي،التي حصلت على مواضيعها ومادتها بهذه الصعوبات إلى النور. ويصعب التعبير عن مدى تأثري وإنزعاجي. ومما ببدو أكثر غرابة ـ أن المحرر قد سمح لنفسه أن يقول:

ـ على أي حال، يجب التفكـير حول الكتـابـة عن كل هذا إلى الجهـات المسؤولة، حتى نتخذ القيادة التدابير اللازمة.

نعم، هكذا قال. ولكني لم أصبر، واعترضت على ما قاله:

ـ إلى متى سوف نقنع أنفسنا، ونؤكد على أن الأزمات عندنا شيء رائع؟

ـ عن أي أزمات تتحدث؟ ـ قال المحرر بصوت ينم عن عدم الرضى.

ـ عن أزمة تعاطي المخدرات التي تعتبر من أكبر الأزمات الإجتماعية.

وبهـذا خرجت، والشيء الـوحيـد، الـذي دعم وجـودي، كان إسجامي الكلي مع

رسـائـل إينغـا، التي قرأتهـا مراراً، ويـدق قلبي بذكـرهـا. وبالطبع يوجد في الدنيا تبادل في المشاعر والخواطر عن بعد ـ وإلا فكيف يمكن تفسير كل ذلك : إن رسائلها كانت تتحدث عما أفكر به شخصياً. وتعكس كل ما تعاني منه روحي، ويُقلق مشاعري. ولقد زرعت هذه الرسائل الثقة في نفسي من أجل تحقيق أحلامي : كلا، لم يخدعني المصير، ولم يسخر مني، وخاصة أن النساء الشابات المعاصرات لا يرغبن التعلق بأولئك الرجال الفاشلين، من خريجي المعاهد الدينيه، ومن ذوي التصورات الكنائسية القديمه حول الأخلاق، والفهم الإنسانية. وأن أسهمي ضعيفة للغاية أمام قدرات الشبان السوبرمانيين. ولكن في رسائل إينغا وجدت الثقة الكبرى، ولن أخف إذا قلت، إن الاحترام والصراحة هما الشيئان الأساسيان في رسائلها. وتبادلني المشاعر بكل صراحة، وكل هذا قد جنح قواي وأعاد الثقه في نفسي والسعادة إلى عالمي، إنني وجدتها هي بالذات، إينغا الحبيبة، وربما في هذا سحر الحب ـ في الشعور المشترك، والطموح المتبادل من أجل اللقاء بين الإثنين . . .

ولكن، وحتى تلك اللحظة لم نناقش أية قضية حياتية بيننا، ومما زاد شعوري بالسعادة، ان المعضلات والمشاكل الحياتية موجودة، ويجب العمل من أجل حلها. ومن الضروري لي إيجاد عمل عضلي دائم، من شأنه أن يكفي الأسرة. وحتى الوقت الحاضر كنت أعيش على حساب بيع الكتب القديمة، التي كان يملكها أبي، وهذا كان يسبب لي الإزعاج الدائم. لقد فكرت، أنه من الضروري أن أسافر إلى آسيا، وأن أعيش هناك، وأعمل بأي عمل حتى أكون إلى جانبها، وكنت على إستعداد أن اعمل بأي عمل عضلي عادي في أعمال البحوث العلمية التي تقوم بها إينغا، وأساعدها حتى تحقق النجاح في مجال بحثها، زد على ذلك أن تلك البحوث لم تكن بالنسبة لي دون أهمية. ففي هذه القضايا كانت تتوحد اهتماماتنا المشتركة : لقد حاولت إجتثاث مسألة تعاطي المخدرات عن طريق الجهود الأخلاقية، بينما تعمل هي لحل هذه المعضلة بشكل آخر ـ بالطريقة العلمية، ولقد شجعتني حماستها لدرجة كبيرة. وكان من الصعب القول، ان عملها كان عملاً معاصرا، سهل المنال، أوسيمنحها أريحية خاصة في حياتها المستقبلية. وبكلمة الممكن القول، ان إينغا كانت الإنسانة الأولى تقريباً، التي عملت بكل جدية من أجل القضاء على قنب الحشيشة البري بالطرق العلميه. ومن المهم الإشارة إلى أن العامل الأساسي في إختيارها لهذه المهمة الصعبة، كما يبدو لي، كان ذلك، أنها من سكان المنطقة ودرست أيضا في عاصمة المنطقة ـ طشقند، وكل هذا، وغيره، قد أثر على طبيعة إختيارها لهذه المهام، وطبيعة إهتماماتها الأولية.

كانت عند إينغا بعض المصاعب الأساسية في الحياة. سبق ونزوجت من طيار حربي، ولم يمض على زواجها ثلاث سنوات، حتى افترقا، وكان ذلك بعد أن أنجبا ولداً، وبدا الأمر، وكأن الطيار يسعد الآن للزواج من فتاة أخرى. ولهذا كان عليهما أن يلتقيا للمرة الأخيرة، حتى يضعا نقطه النهاية لعلاقتهما، ويقررا مصير إبنهما. وكان الطفل إيغوريوك عند جدته وجده الطبيبين في «جمبول» ولكن إينغا كانت ترغب في أن يعيش إبنها معها دائما. وكتبت لي في رسائلها، إنها تطمح إلى أن تأخذ إبنها معها في الصيف إلى جلباك ـ ساز، خاصة بعد أن وعدوها بمكان له في روضة الأطفال الخاصة بأبناء العاملين بالطرق الحديدية. لقد فرحتُ لهذا الخبر، وأجبتها، أنه من الممكن لها أن تعتمد عليَّ بكل شيء.

عند ذلك، كتبت لي، انها نريد أن تلتقي بي في الخريف خلال فترة عطلتها السنوية، وأن تسافر معي إلى أهلها وطفلها في جمبول. لقد تأثرت جداً بهذه الرسالة، وأجبتها، أنني على إستعداد، وفي أي لحظة أن أسافر اليها، وأكون تحت تصرفها، وكنت أرغب ان أنطلق دائما من مصالحنا المشتركة، وقبل أي شيء، من اهتماماتها، ورأيت أن سعادتي تتجلى في أن أكون مفيدا وضروريا لها.

كل شيء كان يتجه نحو الخريف، الذي سوف يقرر فيه مصيرنا. وعشت طوال الوقت في أحلام وردية، وقلقت جدا، كيف سنسافر إلى أهل إينغا وإلى الطفل إيغوريوك في جمبول. كيف لا، وأن هذه المناسبه هي التي ستقرر كل شيء ولكن هذه الرحله كانت تحتاج إلى مصروفات شتى. فأيجار الطريق وحده عبء كبير. وكنت أطمح أن مقالاتي عن موينكوم سوف تفيدني ماديا، لكن وللأسف، كل شيء هنا قد تحطم، ولهذا بسبب منى سعيت للعمل، ولو لفترة مؤقتة، كمدقق في فترة الليل، في المطبعة المنطقية، وحصلت من هذا العمل على نقود قليلة.

وهكذا، حل النهار الذي إستلمت فيه رسالة من إينغا، تسأل فيها: «هل سيكون بإستطاعتي أن أسافر إلى جلباك ـ سار في الأيام الأخيرة من تشرين الأول ـ وبعد ذلك سيكون بإمكاننا أن نسافر سويه، ونقضي أعياد أكتوبر في جمبول معا...

هرعت إلى مركز بريد المدينة كالمجنون، حتى أرسل إليها برقيه... وكان يلزمني أن أبيع بعض الكتب في أسرع وقت، حتى أحصل على بعض النقود، التي تمكنني من السفر إليها.

وجد أوبير كاندالوف الشاب أفدي كاليسراتوف في محطه القطار، عندما كان يبحث عن جماعة للسفر إلى منطقة موينكوم من أجل «الصيد».

أما الـذي كلف أوبـير كانـدالـوف بهذا العمـل، كان قد أخذ بعين الاعتبار الجذور الأسـاسيـة له: فكـانـدالـوف ـ إنسـان محنك، عمل سابقاً بمهمة قومندان في فوج الإطفاء التـابـع للخطـوط الحديدية، وقبل ذلك كان يخدم في الجيش، في قسم التغريم، وهذا يعني الكثير، ونظم العمليات في السهـول على خير وجه، زد على ذلك أن كاندالوف بالذات كان يتسم بميـزات دقيقـة. لقـد أخذ بالحسبان أنه في حال تقديم خدمات لإدارة المنطقة في تنفيذ الخطة الخاصة بإنتاج اللحوم فإنه سيحوز على ثقة الجهات المسؤولة في المنطقة، ويعود إلى الحزب. وكان قد فصل من الحزب، ليس بسبب سرقة أو تصرف شرير، ولكنه ارتكب خطيئة لا تسيء إلى أحد على الاطلاق، ولا تسيء للدولة، ولم يستخدم سلطته في قسم التغـريم، الـذي كان يعمـل فيه من أجل مصلحته، ولكنه كان قد ارتكب خطيئة في إجبار بعض ضعفـاء الشخصيـة من المتعصبـين الطـائفيـين والمـدمنين على تعاطي المخدرات أن يدفعوا ضرائب فوق المحددة. وهل يؤسف على مثل هؤلاء؟. وكم من الممكن ان يعاقب على هذا؟ فيكفيه أن زوجته قد تركته، ولهذا أخذ يشرب بكثرة، مع العلم أنه لم يكن سابقا من المـلائكـة. وإذا نُظـر إلى المـوضـوع بجـدية، فإنه إنسان فعال. وهكذا لقد كلفوه بهذا العمل الهام، وتمكن خلال فترة قصيرة أن يكوّن جماعة، فذهب في الهزيع الأخير من الليل إلى المحطـة، وأخـذ ينظر إلى الناس، بعينين ثاقبتين، فوجد بعض المحتاجين الذين وافقوا على أن يسـافـروا معـه إلى موينكـوم، حتى يحصلوا على النقود بسرعة. وهكذا صادف في طريقه أفدي كاليستراتوف.

وافق أفـدي على إقـتراح كانـدالـوف ليس لانه محتاج فقط: لقد حصل معه شيء لم يكن يتوقعه، بل أقلقه لحد بعيد ـ فهو لم يجد إينغا فيدوروفنا في جلباك ـ ساز، رغم أنه قدم بنـاء على دعـوتهـا. وهنا خيّم عليه اليأس رغم أنه لم يعرف سبب عدم قدومها. لقد سافر بالطـائـرة، ولـزمـه لهذا أن يسـافـر عبر موسكو، التي عمل فيها طيلة يومه للحصول على بطـاقـة. ومن ألمـا ـ آتـا سافـر بالقطـار، فوصل خلال يومين، وعندما وصل إلى البيت، في ساحة المخبر بالقرب من المشفى. وجده مقفلاً. وفي قفل الباب وجد رسالةً صغيرة من إينغا فيدوروفنا، وفيها تطلب من قسم البريد أن يسلم حاملها رسالة بإسمها. توجه أفدي إلى بريد المحطة. كانت الرسالة له، فأعطوه إياها فوراً. دخل إلى الحديقة، وقلبه ينبض بسرعة. جلس على المقعد، وأخذ يقرأ:

«أفـدي، أيهـا القريب الغزيز، سامحني فلو علمت، أن الأمر سيحصل هكذا لكنت قد أرسلت لك خبراً سريعـاً حتى لا تأتي. ورغم علمي أنـك قد أصبحت في الطـريق فقد

أرسلت لك برقية. فالأمر يا أفدي، إن زوجي السابق قد وصل إلى جمهول فجأة، من أجل إنهاء قضية إبننا إيغوريوك، وعليَّ أن أسافر فوراً إلى هناك، وربما أنني، قد أثرته جدا حتى قدم بهذه السرعة: لقد كتبت له، أنني أرغب في تنظيم حياة جديدة مع إنسان أحبه جدا لقد كان من الواجب عليَّ أن أضعه في صورة الأمر، لأنه يوجد عندنا طفل مشترك

سامحني مرة اخرى، يا حبيبي، هكذا حصل وربما سيكون الامر أفضل. فعلى أي حال من الضروري أن نُحل هذه القضية، ووجدت أنه من الأفضل، إنهاء هذا الموضوع الآن.

عندما ستذهب إلى البيت، سيكون الباب مقفلاً، سأترك المفتاح عند موظفة المخبر ساؤ لا عليمبايفا. إنها إنسانة جيدة. وأنت تعرف أين مخبرنا. خذ من فضلك المفتاح. وعش في البيت، واشعر بنفسك، وكأنك في بيتك، وانتظرني. ومن المؤسف أن علينا اسماعيلوفنا قد سافرت الآن لقضاء عطلتها، ولو أنها لم تسافر لكان من الممتع لك أن تلتقي بها، فهي تكن لك الإحترام الكبير. أفكر أنني خلال أسبوع سأنهي الموضوع، وأعود، وسأعمل حتى يكون الأمر على ما يرام، ولم يعد لدينا أي شيء يعيق حياتنا، أرغب جدا في أن ترى إيغوريوك، وأفكر بأنكما سوف تتصادقان، وأرغب في أن نعيش سوية. وقبل ذلك، وكما كنا ننوي، علينا أن نذهب إلى أهلي حتى تتعرف إلى أبي فادور كورمتش، وأمي فير ونيكا أندريفنا، فلا تغضب يا أفدي الحبيب، ولا تحزن. فأنا سأعمل كل شيء على خير وجه.

إينغاك

ملاحظة: إذا أتيت بعد يوم العمل فعنوان عليمبايفا شارع اباي البيت رقم ٨٤١، إسم زوجها داوربيك أكسانوفيتش.

خلص أفدي من قراءة الرسالة بسرعة. لقد صعق من الأمر. فالأمور أخذت منحى آخر، لم يكن يتوقعه نهائياً. فلم يذهب أفدي إلى عليمبايفا، حتى يأخذ المفتاح منها، وبقي في صالة الانتظار حتى يفكر قليلاً، ما عليه ان يعمل. وضع الحقيبة في مستودع الامانات حتى لا تثقله، وذهب إلى الحديقة، جلس هناك قليلا، ثم أخذ يسير بالقرب من المشفى الذي يعرفه جيداً. وجد طريقاً ضيقاً، بين المحطة والمدينة، فأخذ يسير فيه ذهابا وايابا...

حل فوق السهول وقت الخريف الاخير. أصبح الجو باردا بسا، وسائرت الغيوم البيضاء كالأمواج المزبدة في عرض المحيط، وسبحت في السماء الصافي خلال شهر تشرين الأول. تعرت الأشجار، حتى النصف تقريبا، وتحت الأشجار، أخذت تكنس الأوراق

الصفـراء البنيـة. وكذلك الحدائق البيتية والخضراوات الموسمية، قد إصفرت أوراقها، وفي شوارع جلبـاك ـ ساز كان يعم الهـدوء. وفي الهـواء، كانت تطـير أنسحـة لعـاب الشمس وتـلامس الـوحـه بين تارة وأخـرى، كل هذا حمل لأفـدي الحـزن والكآبة. وفي المحطة التي كانت تثير الإهتـمام بكـبرهـا وضخـامتهـا في وسـط السهـول الفسيحـة، كان الضجيج، والصخب يتـزايـد، حتى يشعـر الإنسـان ان الحيـاة ندور دورتهـا الكـاملة، دون أن تتوقف لدقيقة واحدة، متلها مثل نبض القلب. والقطارات تنجه حسب خطوطها العديدة، حاملة النـاس والبضـائع على إختلافها، والأصوات تنطلق عبر مكبر ات الصوت معلنة عن قدوم ومغادرة القطارات، وما إلى ذلك من خدمات.

تذكر أفدي من جديد تلك الأيام الصيفية، وتذكر النهايه للمهربين. ومن جديد عاد أفـدي كاليسـتر اتـوف إلى التفكير بمسألة النوبة والندم، وكلما تعمق في تفكيره، كلما اقتنع أكثـر، أن النـوبـة ـ فضيـة تنمو وتتطور بقدر التجربة الحياتية، وكبر الضمير، ورقة المشاعر الخـيرة المكسبـة، التي يتر بى ويتفق عليهـا العقـل الإنسـاني. فالإنسان وحده الذي يشعر بشعـور النـدم. والندم ـ هو شعور أبدي، واهتمام دائم بذاته، ومن هنا ينجم أن أي عقاب ـ على عمل شائن ما، أو على جريمة ما، يجب أن يجد في نفس المعاقب الندم، وإلا لكان هذا الأمر كعقاب الوحش.

عاد أفـدي أدراجـه إلى المحطـه، والافكار تتصارع في رأسه. وهنا تذكر ذلك الملازم العصبي، وأراد أن يذهـب إليـه، ويسألـه كيف انتهى مصـير أولئـك المهـربـين للحشيشـة ـ بنر وخا، لينكا، وغيرهما. لقد شجع أفدي ان يقوم بهذا الأمر شيء آخر: حاول بكل قواه أن ينسى قليلا تلك الأفكار القلقة حول إينغا فيدوروفنا، والتي تعصف في عالمه كالصاعقة. وأصبح يرى أن مصيره مرتبط إرتباطاً وثيقاً بتلك الإنسانه،وستحدد مستقبل حياته من خلال العمـل الجـاري في جمبـول البعيدة. وفكر، طالما أنه عاجز عن فعل أي شيء هنا، فلا يجوز التفكير بهذا نهائيا، ويجب الهروب، والهروب بعيدا عن هذه الأفكار، ولكن، وللأسف، لم يجد أفـدي ذلـك المـلازم العصبي. و عنـدمـا طرق أفـدي باب قسم الميليشيـا، إقترب منه شرطي وسأله:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أرى الملازم، ـ أخذ أفدي يشرح له الموضوع، وقد شعر أنه لن يصل إلى نتيجة، وخاصه عندما سأله الشرطي:

ـ ما كنية الملازم، الذي نسأل عنه فالضباط كثر عندنا؟!

ـ للأسف لا أعرف كنيته، ولكن في حال رؤيتي له، سوف أعرفه فوراً.
ـ ولماذا تسأل عنه؟
ـ كيف أقول لكم ـ أريد التحدث إليه فقط.
نظر الشرطي بتمعن إلى أفدي، وقال:
ـ فتش حيثما شئت، ربما تجد ملازمك.

ولكن في الغرفة، وخلف تلك الطاولة، كان يجلس، في هذه المرة، إنسان آخر يتحدث بالهاتف. إعتذر أفدي، ونظر قبل أن يخرج، إلى خلف الشبكة الحديدية، التي كان يجلس خلفها المجرمون، فلم يجد هناك أحداً.

ومهما حاول أفدي أن يتهرب من هذه الأفكار، كان يعود إليها من جديد، متصوراً «ماذا حصل مع إينغا»؟ ولم يذهب للحصول على المفتاح، الذي تركته له إينغا، وكان يعرف: إذا أخذ المفتاح، ودخل لبيت إينغا الخالي، سيشعر بالحزن والكآبة بصورة أكبر. وكان بإمكانه أن ينتظر في محطة القطار لو علم، كيف تجري أمور إينغا، ومتى ستعود. وحاول أفدي أن يتصور ماذا يجري هناك في جمبول، وكيف تعاني حبيبته من المصاعب، وليس بمقدوره أن يساعدها بشيء. وكيف سيكون الأمر في حال إجبار والديها لها، على العودة إلى زوجها، من أجل تربية إبنها، كي لا يعيش يتيماً، ربما ستتغير الأمور في هذا الاتجاه أيضا. وعند ذلك لا يبق له إلا أن يعود من حيث أتى، فارغ اليدين. وتصور أفدي زوج إينغا ـ الطيار الحربي، بثيابه الجميلة، وشخصه العسكري الرفيع، في بزته العسكرية والنجوم على كتفيه، وأدرك أفدي أن موقعه، بالمقارنة مع الطيار ضعيف، وعاجز عن المنافسه ولكن أفدي كان على ثقة، إن الرتبة العسكرية والشكل الخارجي لا يلعبان أي دور بالنسبة لإينغا، ولكن من يعلم، أن الأمر بالنسبة لأهل إينغا ليس سيان: من سيكون صهرهم ـ الطيار الحربي، والد إيغور، أو الإنسان غريب الأطوار. والذي لا عمل له؟.

حلى المساء، ومع إنتشار الظلمة، ازداد حزن أفدي. وساد في المحطة المملوءة بالناس جو هادىء نسبيا، ولكنه خانق من كثرة المدخنين. ووصل حزن أفدي إلى أوجه. وبصور نفسه في غابة مظلمه، لا أنس فيها، وحيداً. ورياح الخريف، أخذت تهب فوق هامات الأشجار. فربما سيتساقط الثلج، ويغطي الغابة، ويغرق كل شيء في الثلج. ونسي كل شيء. . . أراد أفدي أن يموت، ولو علم في تلك الساعة، أن إينغا لن تعود، أو ستعود مع ذلك الضابط كي تأخذ أغراضها وكتبها، وتسافر مع الطيار الحربي، لكان قد خرج، وقذف نفسه تحت أول قطار، دون أي إبطاء. . .

في هذه الساعة المتأخرة من ذلك المساء، وهو في هذه الحالة، التي لا تطاق، إلتقى أفدي كاليستراتوف في محطة جلباك - ساز أوبير - كاندالوف، وهو يجمع الفرقة المناسبة «لسفرة» موينكوم. ويبدو أن كاندالوف كان من ذوي النظرة الثاقبة. وعلى أي حال، أدرك أن أفدي يعاني من أزمة روحية خانقة. ولم يجد لنفسه مكاناً. وفي واقع الأمر، عندما إقترح أوبير - كاندالوف على أفدي أن يسافر معهم إلى موينكوم ليومين، وسيكون بإمكانه أن يحصل على نقود كثيرة. وافق أفدي على الفور. وكان على إستعداد أن يعمل أي عمل كان، حتى لا يجلس وحيداً وينتظر «الطقس الجميل بالقرب من البحر»، زد على ذلك لقد فكر أنه، وحتى يعود من موينكوم ومعه النقود، سوف نعود إينغا فيدوروفنا، وينضح كل شيء: إما أن يبقى دائماً مع حبيبته، وإما أن يسافر، ويبحث عن طرق أخرى لمتابعة الحياة... ولكنه كان يخاف من الشيء الأخير، ويهرب من التفكير بهذا...

في ذلك المساء أخذ أوبير - كاندالوف أفدي إلى قسم الإطفاء، وهناك نام أفدي ليلته في سرير شاغر...

وفي صباح ذلك اليوم، إتجه الفريق بتمام عدده وعدنه إلى رحلة الصيد في صحراء موينكوم - سافر الجميع إلى العمل المريح...

وعقدت المحكمة لمحاكمة أفدي كاليستراتوف وأعضاء المحكمة هم خمسة مدمنون قساة - أوبير-كاندالوف، ميشاش، كيبا، هملت - غالكين وأبوريغن أوزيوكباي. واذا قلنا بدقة أكثر، فإن هملت غالكين وأبوريغن أوزيوكباي كانا أخف حدة من الاخرين، وحاولا تخفيف وحشية الآخرين، ولكن دون جدوى.

وانحصر الأمر في كون أفدي قد تأثر حتى المساء تأثرا كبيرا بما شاهد من مذبحة وحشية ضد الضباء.. وأخذ كما فعل آنذاك في المقطورة - يقنع الاخرين بعدم صحة تصرفاتهم، وأدى هذا إلى إنزال العقاب به. لقد أثر به منظر قتل الضباء، فأخذ يطلب من الآخرين أن يوقفوا هذه المذبحة، وطالب الصيادين المتوحشين أن يكفوا عن عملهم هذا، وان يخشوا الله، ويطلبوا التوبة، ولقد حرض أفدي كلا من هملت - غالكين وأوزيوكباي أن ينضما إليه في موقفه هذا، وعندها سوف يتركوا أوبير - كاندالوف ومساعديه. وكان على أفدي ومن يوافق معه أن يطلقوا صفارة الخطر، وبعد ذلك سوف يفكر كل منهم بالإله، وعظمة الخالق، وسوف يطلب الرحمة منه، وسوف يصلي طالبا العفو على ما ارتكبه هؤلاء الناس بحق الطبيعة الحية. ولهذا، إن التوبة الخالصة، هي وحدها، التي بإمكانها أن تنقذهم

أخـذ أفـدي يصـرخ، وهـو يرفع يديه إلى السماء، ويطلب من الآخرين أن ينضموا إليه، حتى يطهروا أنفسهم من الشر، ويعلنوا عن توبتهم.

بدأ أفـدي في تصـرفه هذا، وكأنه قد مسه الجنون، وكان مضحكاً، إذ أخذ يصرخ، ويـدور وكأنـه أمـام لحظة نهاية العالم، ـ وبدا الأمر له وكأن كلُ شيء يطير إلى هاوية جهنم الماحقة والساحقة.

أراد أن يتـوجـه إلى إلـه أولئـك، الـذين قدمـوا إلى هنـا للحصـول على النقـود الكثيرة... أراد أن يوقف المجزرة الكبيرة في صحراري موينكوم الواسعة والتي تنفذها هذه القوة الهائلة المدججة بالآليات العصرية...

أراد أن يذلل ما يستحيل تذليله...

عنـد ذلـك، وبـاقـتراح من ميشـاش، لفـوا على يديه حبلاً، وقذفوا به إلى مقطورة الشاحنة، فوق جثث الضباء المقتولة.

ـ نم هنـاك، أيهـا.... وتحسس أنفـاس الضبـاء. ـ صرخ ميشاش بصوت أبح من التعب. ـ ومـا عليـك الآن إلا أن تنـادي إلهـك. فربما يساعدك أيها... وسينزل إليك من السماء عندما يسمعك...

حل الليـل، وبـدا القمـر فوق صحـراء موينكـوم، التي شهدت اليوم عملية الصيد الدامي، كما شهدت كل الاحياء من الحيوانات، بما فيها الذئاب، ورأت بأعينها كارثة العالم...

إن أصحـاب الكـارثة، عدا أفدي كاليستر اتوف، الذي وصل إلى موينكوم في ذلك اليوم مصادفة لحظة اليائس، قد إحتفلوا جماعياً، تحت ضوء القمر...

ولقاء موقفه هذا عُقدت المحكمة لمحاكمته...

سحب ميشـاش وكيبـا أفـدي من مقطورة الشاحنة بعنف وقادوه إلى أوبير، وأجبراه على أن يمثل أمامه على ركبتيه. بينما كان أوبير ـ كاندالوف يجلس على صندوق خشب فارغ، وهو يفرد أطراف معطفه الواسع بكل أريحية، ويحرك رجليه في جزمته الجلدية القاسية بخشونة، وعدم مبالاة.

وبدا تحت ضوء مصابيح السيارة ذا شخصية هائلة، أكبر من الواقع، وشريراً لدرجة لا تصور. وإلى جانب شعلة النار، التي مازال يفوح منها رائحة الشواء الدسم للحم الضباء الطازج، كان يقف كل من هملت ـ غالكين وأبو ريغن ـ أوزيوكباي. وبدا على الإثنين انهما قد شبعـا جداً، وأخـذت بهما الخمرة قليلاً. وبدت عليهما الإبتسامة، وهما ينتظران مسرحية

المحاكمة لأفدي. ضحك أحدهما بصوت عالٍ، وهم يسخرون منه.

- ماذا نتج عندك؟ قال أوبير أخيراً، وهو ينظر بسخرية إلى أفدي، الذي مثل أمامه، جاثياً على ركبتيه - هل فكرت جيداً؟

- فكوا الحبل عن يديّ - قال أفدي.

- عن يديك؟ ولماذا أوثقنا يديك، هل فكرت بذلك؟ جرت العادة أن نوثق أيادي الرافضين المتآمرين، المتمردين، المخلين بالنظام والقوانين. نعم أيدي المخلين بالنظام هل سمعت ما أقول؟ المخلين بالنظام.

التزم أفدي الصمت.

- اننا سنحاول أن نفك وثاقك، ونحرر يديك. ولننظر كيف ستتصرف - قال أوبير بشفقة:

- أطلقوا سراحه. - أمر أوبير، فإنها تلزماه الآن.

- لماذا علينا أن نفك وثاقه. - قال ميشاش بغضب وحقد، وهو يفك الحبل عن يديّ أفدي، من خلف ظهره. - فأمثال هذا، يجب أن يقتلوا على الفور كما تقتل الجراء. بل يجب دفن هؤلاء تحت أعماق الأرض.

والآن فقط، عندما حرروا يديه، شعر أفدي، كيف جرى الدم في عروق يديه وكتفيه، بينما قال له أوبير-كاندالوف:

- ها نحن قد نفذنا طلبك. فما زالت الفرصة أمامك متوفرة. وفي البداية خذ واشرب،-وقدم أوبير له كاساً مملوءاً بالفودكا.

- كلا، لن أشرب مطلقاً. - قال أفدي رافضاً، رفضاً باتاً.

- إجرع أيها القذر. - وقذف أوبير بمحتويات الكأس في وجه أفدي.

ومن المفاجأة لم يعرف أفدي كيف سيتصرف، بينما إنهال الآخران عليه ضرباً، ولم يتوقف ميشاش وكيبا عن الضرب، حتى أوقعاه على الأرض.

- إنك تكذب أيها الوقح، فسوف تشرب! - صرخ ميشاش - إنني قلت، أن أمثال هذا يجب أن يقتلوا فوراً، فاسكب يا أوبير الفودكا، مرة أخرى. فسوف أصبها له في بلعومه، وإذا لم يشرب فسوف أقضي عليه كالكلب.

حاول ميشاش وكيبا مطولاً، وجرحا وجه أفدي بالكأس الزجاجية، حتى سال الدم منه، وغص أفدي مبتلعاً الفودكا، والدم بآن واحد، وهنا استدار أفدي، وأخذ يقاوم بيديه ورجليه. بينما قال هملت - غالكين، وقد أحزنه وضع أفدي، وهو يدور حول المتقاتلين: «لا

حاجة لذلك أيها الشاب، دعوه وشأنه، فالأمر له، وإذا لم يشرب هو فنحن سنشرب». أما أبـو ريغن ـ أوزيـوكبـاي، فقـد مكث خلف زاوية السيارة، وأخذ يرقب الوضع من هناك، دون أن يعلم كيف له أن يتصـرف: إمـا ان يبقى في مكـانـه، وإما أن يهرب بعيـداً عن المصيبـة. . . أمـا أوبـير ـ كاندالوف، فقد بقي جالساً فوق صندوقه، كما يجلس الملك فوق العرش، وكأنه يشاهد عرض «سيرك» جميل.

تقدم هملت ـ غالكين من أوبير، وأخذ يقول له:

ـ أوقفهم، يا أيها العزيز، أوبير، فإنهم سوف يقتلونه، ونحاكم جميعاً.

ـ عن أي محاكم تتحـدث. ـ قال أوبـير بتعـالٍ ـ وهل توجد محاكم هنا في موينكوم؟ فأنـا المحكمـة هنـا. ومن سيحتـج على هذا فيـما بعد. فربما أكلته الذئاب. فمن رآه، ومن سيبرهن عدم صحة ذلك؟

فقد أفدي الوعي، وسقط تحت أرجلهم، فأخذوايضربونه بجزماتهم.

وآخـر ما تذكـر أفـدي، قبل أن يفقد وعيه، كانت إينغا: فكيف سيكون وضعها فيما بعد، فلن يحبها أحد، كما أحبها هو. .

لم يعد يسمع أفدي أي شيء، ودارت به الأرض، وغطت عينيه غشاوة رمادية سميكة.

ولسبب ما، تذكر الذئبة، التي قفزت فوقه في ذلك اليوم الحار في السهول القنبية. . فصاح فجأة:

ـ انقذيني، أيتها الذئبة. .

شعـر أفـدي شعوراً حدسيا، وكأن الذئبين أكبارا وتاشينار يقتربان الآن من مكانهما، الـذي شُغـل في تلك الليلة من قبـل النـاس. وفي واقـع الأمر كان الذئبان يعودان فعلاً إلى عرينهما، وهما يتوقعان، إن الناس قد غادروا منطقتهم. وتوجهوا إلى مكان ما، بعيد من هنا . .

ولكن كتلة الشاحنة السوداء، كانت تقف في مكانها بكل ما توحيه من مخاوف. ومن هنا، كانت تأتي الأصوات، ووقع الضربات المتلاحقة على شيء ما .

كان على الـذئبين أن يغيـرا إتجـاههما، ويعودا إلى السهول، ويسيرا إلى جهة غير معـروفـة. مع العلم أن قواهما قد أنهكت كليـاً. . . لقـد أزعـج النـاس حيـاتهـما في النهـار والليل. . . سارا بهدوء، بينما كان القمر يضيء جسميهما، وهما يضمان ذيليهما إلى بطنيهما .

أما المحكمة، وبالأحرى المحكمة الجزائية فقد كانت منعقدة. . . وهؤلاء السكارى لم يلحظوا كيف وقع أفدي فاقداً للوعي، وتابعوا ضربه بقوة.

ـ قم، قف على قدميك أيها الوجه السمج. حاول كل من ميشاش وكيبا أن يوقفاه على قدميه بالقوة، ولكن دون جدوى، وتابع أفدي الأنين فاقداً للوعي. وهنا جن جنون أوبير ـ كاندالوف، وأمسك بأفدي، الذي يقف بمساعدة الإثنين الآخرين، معلقاً كالكيس، فأمسكه من رقبته بشدة وأخذ يشتمه:

ـ هكذا يلزمك أيها المجنون، لقد أردت أن تهددنا بالإله، وأن تخيفنا، وأن تعمي أعيننا بواسطة إلهك، فيا لك من وقح. فلن يخيفنا الإله ـ ولسنا من أمثال أولئك الذين تخيفهم أيها الكلب. وأنت من؟ إننا ننفذ مهمة الحكومة، وأنت ضد الخطة. يا لك من كلب. هذا يعني أنك ضد المنطقة ـ فأنت أيها الوغد عدو للشعب والدولة. ولأمثال أولئك من المندسين والمخربين، لا يوجد مكان فوق هذه الأرض. حتى أن ستالين قد قال ذات مرة: «من ليس معنا فهو ضدنا». ويجب القضاء على أعداء الشعب من الجذور. دون أي شفقة. وإذا لم يستسلم العدو إبن. . . . يجب تدميره كلياً. وفي الجيش يعاقب أمثالك بالشنق. حتى لا يشوب جَونا أي شائب كان. وأنت أيها الفأر الكنائسي، ماذا كنت تعمل؟ تقوم بالتخريب، وتعيق تنفيذ المهمة. تريد أن تقودنا إلى تعاليم كنيستك. نعم، إنني سوف أخنقك، كما يُخنق العدو، وسوف يقول لي الناس «شكراً»، يا لك من وغد! تفكر ان ستالين لم يعد على قيد الحياة، فلن يوجد الإنسان الذي سيحاكمك؟ فأنت أيها الوغد القس، قف الآن على ركبتيك. فانا الآن أمثل السلطة بالنسبة لك ـ أرفض هذا الإله الذي تدعو إليه، وإلا لكانت نهايتك.

لم يتمكن أفدي أن يركع على ركبتيه، فوقع. ثم رفعوه من جديد، وأخذ أوبير يصرخ بوحشية:

ـ أجب أيها الوغد. تنكر للإله وقل، لا يوجد إله.

ـ يوجد إله. ـ قال أفدي بصوت خافت.

ـ هكذا إذن. ـ جأر ميشاش، وكأنه قد أصيب برصاص. ـ فانا قد قلت لك أيها العاهر، وأنت تقول العكس، حتى تغيظني.

كاد أوبير أن يختنق من الغضب، وأخذ يهز أفدي بحنق ويقول:

ـ عليك ان تعرف أيها الناسك، سوف نقيم لك الآن حفلة كونسرت، لن تنساها إلى الأبد. إسحبوه أيها الشباب إلى تلك الشجرة، سوف نعلقه. سوف نعلق الوغد.

وتحت أرجله سوف نشعل النار. حتى يحترق تدريجياً.

حمل الثلاثة أفدي إلى العارضة الخشبية الملتوية، الموجودة فوق الوهدة. ثم أمر أوبير ـ كاندالوف الشاب كيبا بصوت أجش:

ـ هات الحبل.

ـ هرع كيبا مسرعاً إلى غرفة قيادة الشاحنة، بينما خاطب أوبير الآخرين مهدداً:

ـ أين أنتم. فأنت يا أوزيوكباي، ما بك تقف جانباً، وأنت يا ابن. . . تقف وكأنك ممثل، ماذا حل بكم؟! اركض إلى هنا. وإذا لم تتصرفوا كما يجب، فإنني لن أسمح لكم بشرب جرعة واحدة من الفودكا. وهنا هرع هؤلاء السكارى يجتهدون لإرضائه، وتعليق أفدي البائس.

تحول هذا التصرف غير اللائق للأشقياء إلى عمل شرير، وجنوني يهدف للقضاء على حياة هذا الشاب أفدي.

ـ آه. لو كان لدينا هنا صليب ومسامير لكنا قد صلبنا هذا الكاهن ولكن في هذه السهول من الصعب إيجاد ذلك. ـ قال ميشاش، وهو يكسر الغصون ـ عند ذلك كان الأمر مناسباً، أن أراه مصلوباً.

بينما قال أوبير ـ كاندالوف، وقد وجد مخرجاً:

ـ لا ضير في الأمر، سوف نربطه بالحبل، وسيكون الأمر أفضل مما لو صلب بالمسامير. وسنمد يديه ورجليه ونوثقها جيداً، كما تصلب الضفدعة. ولن يتحرك بعد ذلك نهائياً. وليبق معلقاً حتى الصباح، وليفكر: يوجد إله أم لا. سأمارس عليه عملية تربوية، حتى لا ينساها طيلة حياته. يالك من قس قذر. وسأريك أين يقضي السرطان شتاءه! ففي الجيش قد ربيت من أمثالك كثيراً. فهيا أيها الشبان، أمسكوه جيداً. إرفعوه إلى ذلك الغصن، إرفعوه إلى الأعلى. ثبتوا يده هنا، ورجله هناك.

كل شيء جرى بإتقان خلال ثوان، لأن أفدي كان عاجزاً عن المقاومة. ولقد تم تثبيته من يديه ورجليه جيداً إلى الغصن المنحني، حتى بدا كجلد ضحية، قد علق ليجف. كان يسمع أفدي الأصوات والشتائم من حوله، وبدت له، وكأنها من مكان بعيد. لقد أنهى العذاب كل قواه. ومن ذلك الجانب الموجود فيه الكبد شعر أفدي بألم لا يطاق، وكأن شيئاً قد تمزق أو انفجر ـ يا للألم الشديد الذي أخذ يعاني منه، حتى فارقته قواه بالتدريج. ولم يعد يهمه أمر إشعال النار من قبل هؤلاء السكارى تحته. وأصبح الأمر بالنسبة له سيان. ولكن النار لم تشتعل لأن ما جمعوه من الحشيش اليابس كان قد تبلل بالثلج، الذي

سقـط عشيـة ذلك اليوم، وقد حاولوا كثيراً، فلم يشتعل. . . ولم يخطر على بال أحدهم ان يرش عليه البنزين. وكان يكفيهم ان أفدي كاليستراتوف قد علق، كما يعلق اللعين. وكان منظـره يشبـه المعلق أحيـاناً، ويشبه المصلوب أحياناً أخرى. ولقد بعث هذا المنظر في نفوس الموجودين شيئاً من المرح العبثي، وخاصة في نفس أوبير ـ كاندالوف، إذ بدت أمامه لوحة واسعة من السهول، وأن هناك شخص معلق في أعماقها.

ـ هكـذا، سيكـون عقـاب كل واحد ـ هدد أوبير، وهوينظر إلى أفدي المعلق ـ إنني على استعـداد أن أعلق أي إنسـان ليس معنـا، وحتى ينـزل لسانه من فمه، رغماً عنه. من الضروري أن أعلق كل من يقف ضدنا. عند ذلك سيكون الجميع موحدين فوق الأرض، ولا يعـد أحـد يعـارضنـا. ولسار الجميع آنذاك صفاً واحداً منظماً. . . فلنكمل أيها الشباب رحلتنا هذه، لنجمع ما لم يقع من الضباء. . .

ـ وافق الجميـع مع أوبـير، واتجهـوا إلى السيـارة، بينما أخذ أوبير يغني بعض كلمات أغنية قديمة خطرت على باله:

ـ سوف نشد بناطيل الخيالة.

ونعلق فوق الأحزمة المسدسات.

واحد إثنان ـ واحد. . . إثنان. . .

اخذ يردد هؤلاء «القوميساريون» وهم في نشوة السكر: «واحد، اثنان ـ واحد. . . اثنان. . .» وهم يتناقلـون فيما بينهم زجاجتي فودكا من عيار النصف ليتر، يشربون من فوهة الزجاجة.

بعـد وقت قصـير، إشتعـل محرك السيـارة، وسطع نور مصابيحها، ثم تحركت بهدوء نحـو السهـول. عم الظـلام. وهدأ كل شيء من حوله، وبقي أفدي مربوطاً إلى الشجرة، وحيداً في هذا العالم. وفي صدره كان يزداد الألم بصورة لا تطاق. وأحشاؤه تتمزق من شدة الألم. . . وفقـد الـوعي، كما تفقـد الطبيعـة بعض الجـزر الصغـيرة عنـد سقـوطهـا تحت المحيطات. وآخر ما خطر على بال أفدي، فكرة جزيرته الحبيبة، إذ قال:

ـ آه يا جزيرتي في أحضان نهر أوكا. . . من سينقذك أيها المعلم؟.

وهنا شعر، وكأن القطرات الأخيرة من الحياة قد نضبت. . .

عنـدمـا أخـذ يطبق عينيـه بدت له مياه كثـيرة، لا نهايـة لها، وقـد طفت على وجه الأرض، حتى لم تعـد واضحـة نهاينها، وخريرها كان يتعالى، ويتعالى، ومن فوقها تعالت أمواج بيضاء، دون صخب، وليس واضحا من اين تأتي هذه الأمواج، وإلى أين تمضي.

لكن، وبـالكـاد رأى أفـدي في نهايـة هذا البحـر شبح إنسان، تعرف من خلاله إلى ملامح شخص أبيه دياكون كاليستراتوف، وسمع أفدي فجأة صوت والده واعظاً إياه - إذ كان يقرأ له بصوت عال صلواته المحببة عن الباخرة التي غرقت، كما كان يقرأ له في الطفولة وهو يقف إلى جانب البيانو القديم. ولكن المسافة الآن بين الإثنين كبيرة. ورغم المسافة كان الصوت ينساب فوق البحر برتابة، وانسحب بعيداً فوق الفضاء الكوني:

النور ينبلج لتوه في السماء، ولكن العالم مازال نائماً. . .

. . . أنت أيها الـرحيم، العظيم، سامحني، إنني أتوجه إليك بطلبي هذا. ولكن في صلواتي لا أطلب منفعـة شخصيـة - وأنـا لا أطلب أي مكـاسب من مكاسب الأرض، ولا أطلب إطـالـة عمـري. بل أستغفـرك، كي تنقـذ أرواح البشر. ولن أكف عن طلبي هذا، فأنت أيهـا الغفـور لا تبقنـا في الظلمة، ولا تسمح أن نبحث عن المبررات لأنفسنا في صراع الخـير والشـر في هذا الكـون. ولا تحرم البشر من حسن البصر. أما بخصوص نفسي، فلن أجـرؤ على فتـح فمي. فأنـا لا أخـاف أن ألقي قرارك برحـابـة صدر ورضـاء وتسليم، أن أحـترق في جهنم، أم أدخـل إلى جنتـك، التي ليس لها نهايـة. أنت الـذي تقرر مصيرنا، فأنت الخالق لهذا الكون، الذي يعجز النظر عن الإحاطة به. . .

أطلب منك شيئاً واحداً، وليس عندي أغلى من هذا الطلب. . .

أرجوك أن تفعل شيئاً واحداً، أن تخلق المعجزة، التي ستسمح لتلك الباخرة أن تتابع طريقهـا كالسـابق، يومـاً بعـد يوم، ومن ليلة لأخـرى، مادام النهار والليل يتعاقبان حسب المسـار، الـذي رسمته، حسب دوران الأرض في هذا الكون، دع هذه الباخرة تسبح، عبر طريقها الذي لم يتغير من المحيط إلى المحيط، وحتى ترتد الأمواج على صفحاتها، وتستمر صفـارتهـا تدوي بقـوة. ودع الرذاذ المنطلق من المحيط يتحول إلى مطر فضي، دعها تتنفس تلك الرطوبة المرة الفواحة، دعها تسمع الصرير القوي فوق سطحها، وهدير الآلات من الأسفل، وأصوات النورس، مع الرياح المنسابة خلف الباخرة، ودع الباخرة تتابع طريقها إلى المـدينـة المنـورة إلى شاطىء المحيط البعيد، على الرغم من أن الوصول إليه غير ممكن إلى الأبد. آمين».

بسـط القمـر نوره طوال الليـل فوق سهـول موينكـوم، وكـان النـور قوياً، على غير عادتـه، بـبر الهيكـل المبشر المعلق فوق العارضة. ويذكر هذا الهيكل الإنساني طيراً كبيراً، بسط جناحيه، وأراد التحليق، لكنه قتل، وعلق فوق غصن شجرة.

وعلى بعـد كيلومتر ونصف من هذا المكـان، توقفت تلك السيـاره المغطاة بالمشمع،

الذي يخفي الأعمال القذرة، التي إرتكبوها، وهناك خلدوا للنوم فوق جثث الضباء المقتولة، وفاحت من السيارة رائحة إقياء أوبير ـ كاندالوف، وعبر الهواء انطلق الشخير القوي. لقد ابتعدوا وأبقوا أفدي وحيداً خلال الليل. ـ لقد أرادوا أن يعلموه: دعه يفهم، ماذا يعني بدونهم، إنه عند ذلك سوف يشعر بعزلته، وربما سوف يتنكر للإله، ويخشع أمام القوة. . .

صُمم هذا العقاب لأفدي من قبل الممثل السابق هملت ـ غالكين، بعد أن شرب كثيراً من الفودكا، كما يشرب الماء الزلال. ولقد إقترح هملت ـ غالكين هذه الفكرة حتى يرضي أوبير ـ كاندالوف: «دع هذا المؤمن يعاني من الخوف، ويفكر: إننا قد ربطناه، وسافرنا بعيداً دون رجعة» وتوقعوا أنه سيناديهم، طالباً المعذرة، ولكن لم يحصل ذلك.

عند طلوع الفجر، إقتربت الذئاب بحذر من المكان، الذي كانوا قد أسسوا فيه عرينهم. سارت الذئبة أكبارا في المقدمة، وخلال المسير طوال الليلة، ضعفت وتقعرت خاصرتاها، وخلفها سار تاشينار الرهيب كبير الرأس، وهو يعرج قليلاً. وفي مكانهما القديم لم يكن هناك أحد، فالناس قد ابتعدوا عن ذلك المكان خلال الليل. ولكن الوحوش كانت تسير في هذه الأرض حذرة لدرجة كبيرة، كما لو كانت تسير في أرض مزروعة بالألغام، وخلال المسير كانا يجدان أشياء غريبة: النار الخامدة، العلب الفارغة، الزجاج المكسر، رائحة المطاط الحادة، الحديد، المازوت والزيوت، التي نزلت من السيارة والقناني الكحولية الفارغة.

قرر الذئبان أن يغادرا **هذا المكان** نهائياً. وفجأة توقفت أكبارا في مكانها، رافعة أذنيها، وهي تنظر إلى الإنسان الذي كان على بعد أمتار عنها، معلقاً من يده ورجله على جنبه ورأسه يتدلى إلى الأسفل. قفزت أكبارا إلى خلف الشجيرات، وتبعها تاشينار. ولكن الإنسان لم يتحرك، وبقي في وضعه، والريح تهب على الحشائش، وتحرك شعر أفدي فوق جبهته البيضاء، التصقت أكبارا بالأرض، وتحفزت كالنابض، وحضرت نفسها للوثبة الأولى. فشاهدت أمامها كائناً ليس أغرب منه بين المخلوقات. ـ الإنسان، الذي سبب المصيبة الكبرى لهذين الذئبين. تحفزت أكبارا إلى الخلف قليلاً، حتى تجمع قواها، وتقفز إلى الأمام على هذا الانسان، وتغرس أنيابها في حنجرته.

وفي هذه اللحظة الحاسمة عرفت الذئبة أكبارا هذا الإنسان. ولكن أين شاهدته؟ نعم، إنه ذلك الإنسان الغريب، الذي التقت به في الصيف، عندما خرجت مع أسرتها للتنزه بين الأعشاب، ذات الرائحة القوية. وتذكرت أكبارا في تلك اللحظة ذلك اليوم الصيفي، وكيف كانت جراؤ ها تلعب مع هذا الانسان، وكيف عطفت عليه، وقفزت من

فوق رأسه، بعد أن جلس من الخوف على الأرض. وهويغطي رأسه بيديه، وتذكرت تعابير وجهه الخائف، وعينيه الحزينتين، وكيف هرب عارياً بعيداً عن ذلك المكان. . .

أما الآن، فإن هذا الانسان معلق على غصن منخفض، كما يعلق الطير الذي صرع بين الغصون، ولم تفهم الذئبة، هل كان حياً، أم ميتاً. فالإنسان لم يتحرك، ولم يصدر منه أي صوت. رأسه يتدلى إلى جانبه، ومن زاوية فمه كان يسيل الدم. كاد تاشينار أن يهجم على هذا الانسـان المعلق، ولكن أكبـارا منعتـه بحركة ما، ثم اقتربت من الإنسان ونظرت بإمعـان إلى سمات وجهـه، وعـوت بصـوت خافت: لقـد ماتت جميع جرائها. وذهبت كل حيـاتهـا في موينكـوم بلا معنى. ولم يكن بإمكـانها أن تذرف الدموع هنا. . . فهذا الإنسان عاجزٌ عن فهمها ومساعدتها، ونهايته كانت قريبة، ولكن حرارة الحياة ما تزال تحتفظ ببعض بقاياها في روحه.

فتح أفدي عينيه بصعوبة، وقال هامساً للذئبة النائحة:

ـ ها أنت قد أتيت. . . !، ـ وسقط رأسه إلى الأسفل بلا إرادة.

كانت هذه الكلمات هي كلماته الأخيرة.

في هذه اللحظـة سُمـع صوت محرك السيارة العسكرية، التي بدت في السهل مسرعة في مسيرها، وزجاج نوافذها يلمع قليلاً. ها هو أوبير ـ كاندالوف يعود مع جماعته إلى مكان الجريمة. . .

لم يبطىء الذئبان في مسيرهما، فتحركا على الفور، مسرعين أكثر فأكثر. إبتعدا عن المكـان دون أن ينظـرا إلى الخلف ـ لقـد غادرت ذئـاب موينكـوم موطنهـا في تلك السهـول العظيمة، إلى الأبد. . .

عاشت أكبـارا وتـاشينـار عاماً كاملاً في منطقة الداش القصبية. وهناك أنجبت أكبارا أكبر بطن لها من حيث العدد، إذ أنجبت خمسة جراء، مرة واحدة. كبرت الجراء قبل ذلك الوقت، الذي حلت فيه مصيبة أخرى، عندما إحترق القصب. وفي هذه الأماكن، قامت الـدولـة ببنـاء السكـك الحديدية وإقامة الجسور والمنشآت لتصنيع خامات المعادن، وتطلب الأمر حرق القصب.

ولهذا، وفي مساحة واسعة للغاية، تقدر بمئات الآلاف من الهكتارات، حول جزيرة الـداش حُرقت مزروعـات القصب القديمة. وبعد الحرب العالمية الثانية، تم الكشف عن بعض مكـامن الخـامـات المعـدنيـة النـادرة. وهكـذا تم بناء منشأة صناعية ضخمة في هذه السهـول«مجهـولة الإسم، ودخلت ضمن تسمية «الصندوق البريدي» وما أهمية القصب،

عنـدمـا ستنتهي البحـيرة بمجملهـا، ولـو كانت بحـيرة هامـة، فلن يتوقف أحد عن تنفيذ الخطة، وخاصة عندما يجري الحديث عن الخامات النادرة، فمن أجل مثل هذه الخامات، من الممكن تعرية الأرض، كما تخلع اليقطينة من أوراقها.

في بدايـة الأمـر، قامت فرقـة من الطيارات بالتحليق فوق أدغال القصب وأخذت ترش بعض المواد سريعة الإشتعال، حتى يشتعل القصب عند اللحظة المناسبة.

الهبـوا النـار في منتصف الليـل، واشتعـل القصب المـرشـوش بمادة حارقة بسرعة كما يشتعـل البـارود، وأقـوى بكثـير من إشتعال الغابات الكثيفة. ارتفعت السنة اللهب حتى السماء، وغطى الدخان السهول الفسيحة،كما يغطي الضباب الأرض في أيام الشتاء.

ومـا أن وضـع عدد من أعواد الثقاب، حتى التهبت النيران من كل جانب. حاولت الـذئـاب المستـوطنـة بين القصب أن تنقـذ جراءها، وهي تحملها بأسنانها من مكان لأخر. واتسعت النيران في منطقة الداش. طارت الطيور فوق البحيرة، أسراباً كثيرة، وهي تنشر أصواتها إلى مسافات بعيدة، عبر السهول، واستنفر كل ما عاش منذ الأزل، وحتى الوقت الحـاضـر في منطقـة القصب، بدءاً من الخنـازير البرية، وحتى الأفاعي في معاناة قاسية من هذا الحـريق الهـائـل، زد على ذلـك أن هذه المنطقة كانت تربي كافة أنواع المواشي. وهذا المصير القاسي ألم بالذئاب أيضاً: لقد أحاطت النار بها من كافة الجهات، ولم يعد بإمكانها أن تبقى على قيد الحياة إلا بالسباحة عبر البحيرة.

تركت أكبـارا وتـاشينـار ثلاثـة من الجـراء تشتعـل بالنـار، وأخـذا إثنين من أولادهما بأسنـانهـما، وحـاولا أن ينقـذاهما بالسبـاحـة عبر الخليـج. وعنـدمـا وصلا على عجل الى الشـاطئ المقـابـل، تبين، وعلى الرغم من اجتهاد الأبوين إن يرفعاهما عالياً عن الماء - ان الجروين قد إختنقا.

وهكـذا كان على أكبـارا وتـاشينـار أن يغـادرا إلى مكان جديد. فقصدا في هذه المرة الجبال. وقالت لهما غريزتهما، إن الجبال هي الوحيدة، التي يمكن العيش فيها الأن.

سار الذئبان طويلاً، مبتعدين عن الحرائق والدخان، الذي عم الافق، كما خطط له البشـر. وقطـع الـذئبـان مسـافـة طويلة عبر سلسلة جبـال كورداي. وكان عليهما أن يجتازا الطـرق في أكثـر من نقطـة، مخاطـرين بحياتهم أمام سرعة السيارات وأنوارها المبهرة والخطرة بالنسبة للذئاب.

وبعد منطقة كورداي، وصل الذئبان الزوجان إلى جبال أك - تيوز، وبدا الأمر لهما أن المخـاطـر تحيق بهما هنـا أيضـاً، فقـررا أن يتـابعـا طريقهما إلى أمكنة أبعد. اجتازت اكبارا

وتاشينار سلسلة جبال أك ـ تيوز، ووصلا إلى منخفض أيسك ـ كول . فكـــان عليهما أن يتوقفا لأن البحيرة قد أصبحت أمامهما .

وهنا بدأت أكبارا وتاشينار حياتهما من جديد .

ومـرة أخـرى أنجبت أكبـارا جراء ـ ففي هذه المرة وضعت أكبارا أربعة جراء . كانت هذه المحاولة هي الأخيرة واليائسة لمتابعة الذرية .

هناك في إيسك ـ كول، إنتهت قصة هؤلاء الذئاب بتراجيديا رهيبة .

★ ★ ★



القسم الثالث

يبحث الناس عادة عن مصيرهم، أما المصير فيبحث عن الناس. . . . تجري الحياة ضمن تلك الدائرة. . . وإذا كان من الصحيح، إن المصير يطمح إلى تحقيق هدفه، فإن ما حصل في هذه المرة، قد تم ببساطة نادرة، ومن هنا جاء كل شيء لا يصدق كالقدر. . .

لم يعلم بازارباي نويغوتوف في ذلك النهار أنه سيرافق الجيولوجيين إلى الجبال حتى أنه لم يعلم أن الجيولوجيين يحتاجون لمرافق، فهم الذين بحثوا عنه، وهم الذين اقترحوا عليه أن يذهب معهم.

وصل الجيولوجيون إلى منطقة «تامان» على مقطورة جرار زراعي، بنقل الأعلاف للأغنام.

ـ لماذا يسمى هذا المكان بـ«تامان»؟ ـ سأل أحد الجيولوجيين.

ـ ولماذا تسأل؟ ـ أجاب بازارباي.

ـ لا لشيء، بل حباً بالمعرفة. . .

ـ «تامان» تعني المنخفض. وترى أن هذا المكان إلى جانب الجبال، مثله، مثل الحضيض، أو النعل بالنسبة للجزمة. ولهذا أطلق عليه الناس إسم «تامان».

ـ إذن هكذا! ومن هنا إذن قد أتى لقب «تامان» والانتفاضة المسلحة التي دخل اسمها التاريخ؟ .

-لا أعلم أيها الأخ عن هذا شيئاً. وعليك أن تسأل الجنرالات حول هذا الموضوع. أما بالنسبة لعملنا، فهو بعيد عن هذه المسائل المعقدة.

وهكذا، وصل الجيولوجيون إلى منطقة تامان، وهناك صرحوا بأنهم يجهلون الطريق على الواقع، ويعرفونه على الخريطة فقط، ومن الأفضل أن يرشدهم أحد السكان المحليين عبر هذه الجبال. ولماذا لا! خاصة أنهم سيدفعون أجرة لمن يرافقهم. وليس في الأمر من صعوبة ـ أن يسير هذا المرافق أمام أربعة رجال عبر ممر جبال «أتش ـ تاش». ويقول هؤلاء الجيولوجيون، أنهم سوف يأخذون من هناك عينات من الأرض لدراستها، وهذا شيء مفهوم بالطبع، إنهم ينقبون عن الذهب ـ فهم لا يبحثون إلا عن الذهب، وإذا وجدوا شيئاً من هذا فإن جائزتهم ستزداد. ولنترك هذا الأمر لهم، أما بالنسبة لبازارباي فكان عليه أن يعود حتى المساء إلى مقر الرعي، حيث كان يقضي فترة الشتاء مع قطعان الغنم. هذا هو كل شيء.

أما بالنسبة لهؤلاء الشبان الجيولوجيين فقد كانوا بخلاء بالنسبة للنقود، كغيرهم من سكان المدن. فأخذ بازارابي يشتكي: ليس لدي الوقت حتى أذهب مرافقاً، زد على ذلك أن القيادة في السوفخوز تراقبني بإستمرار، فالأمر بالنسبة لكم غير مهم، أما أنا، فعيون القيادة عليّ، ويسألون عني، وسيقولون، أين الراعي الأول بازارباي نويغوتوف؟ ولماذا يغادر، في الوقت الذي عليه أن يعمل مع جماعته؟ فمن سيجيب عن كل هذا؟ ـ وهنا تحمس الشبان، ووعدوه بخمسة وعشرين روبلاً«ولماذا عليّ أن أخدمهم مجاناً، فالنقود من الدولة، والخزينة لن تنقص إذا ما دفعوا الأجرة. وربما أنهم يطمعون بالحصول على مكسب إضافي. فدعهم يدفعون كما يجب».ولا يكلف هذا الأمر بازارباي أية مصاعب حتى يرافق الجيولوجيين إلى المكان المقصود ـ سيركب حصانه ويسير أمامهم. زد على ذلك أنه كان في الحالات الطبيعية يذهب إلى تلك المناطق لقضاء حاجته اللازمة وغير اللازمة، ويترقب أين سيكون عرس أو حفلة زواج أو موت، أو حفلة سكر حتى يذهب على الفور، وعندما كان يسافر لاستلام أجور العاملين، كان الراعي، والمساعدون، والحارس، وخاصة زوجته (هي أيضاً من عداد العاملين)، وكذلك المشرفون على التوليد والمساعدون وغيرهم، كانوا جميعاً يقلقون: ربما سيعود بازارباي في الليل سكراناً، يثبت نفسه فوق الحصان بصعوبة، وهو يحمل رواتب العاملين، الذين ينتظرونه بفارغ الصبر. ولقد إشتكت زوجته إلى مدبر السوفخوز هذه المسألة. ولهذا أصبح المحاسب بورونباي يأتي بنفسه لتسليم الرواتب. ويقول أنه، وحسب القانون، على كل إنسان أن يذهب لإستلام راتبه، حتى يوقع على

جدول الرواتب. فدع كل منهم يذهب بنفسه، طالما هكذا يريدون. . .

واذا ماذهبت مع الجيولوجيين سيكون في جيبي خمسة وعشرون روبلاً. ولكن الطريق إلى أتش ـ تاش وعر وصعب المسلك، من كثرة الحجارة فيه. وفي بعض الأماكن توجد منكسرات حادة، بالكاد، وبشق النفس يجتازها الإنسان، وإذا ما وقع الإنسان فسيكسر رقبته حكماً. بالطبع، إن الجبال، هي الجبال، وليست ملعباً مستوياً، تركض فيه ضمن دائرة، وبعد ذلك يعطونك ميدالية، حتى تعلقها على رقبتك. ولماذا يستغرب الإنسان ـ فلم تكن في العالم عدالة نهائياً، وهي غير موجودة الآن ـ فهنا يعمل الإنسان في الشتاء والصيف في الجبال الخالية من الطرق المعبدة، وليس هناك أي أثر لشبكة المياه، ولا للغاز أو الكهرباء، وعليه أن يعيش في هذه الظروف الصعبة ويرعى الاغنام طوال العام، ويتنشق الروائح الكريهة، بينما يركض هناك شاب في خفافة بيضاء، ويهرول بسرعة قليلا على خطوط الملعب، أو يدخل الكرة من تحت عارضة الفريق المعادي له، فيهب الشعب في الملعب مصفقاً، ويهتف له من الفرح، ويطير هو في الهواء من السعادة، ويلمع نجم هذا اللاعب، ويكتبون عنه في الصحف في كل مكان، أما الذين يعملون ويكدحون من الصباح حتى المساء، دون إستراحة، وبلا مأذونية، فهم يعيشون بصعوبة، وبالكاد تكفيهم رواتبهم. ويشرب الإنسان كأساً لتحسين مزاجه، فتغضب الزوجة منه، وتكاد تضربه. وعليك أن تعطي إنتاجاً جيداً، وحتى لا تبق أية نعجة دون إخصاب، وعليك أن تعطي أغناماً ذات أوران جيدة، وصوفاً طويلاً ونظيفاً ودقيقاً. بينما يهدد البعض أنهم سيجدون صوفاً إصطناعياً دقيقاً بدلاً عن الصوف الطبيعي، ولكن أين ذلك الصوف الإصطناعي!

وعندما نباشر بقص الصوف، يأتي إلينا المئات من المراقبين، كالصقور، ويكنسون كل الصوف حتى البقايا، عليك أن تسلمها كاملة، لأن هذا الصوف، كما يقولون، مطلوب للحصول على القطع النادر، وتُدفع مقابل الصوف الطويل والدقيق أسعار عالية. . . . هذا القطع النادر ضروري جداً لهم، وكل شيء يذهب بلا معنى. فليمحق الشيطان كل هذا، بما فيها الأغنام والناس، وكل هذه الحياة الرعوية. . . .

راودت الأفكار المزعجة بازارباي خلال الطريق. ولهذا التزم الصمت طوال الطريق، ونادراً ما كان يتوجه إلى الجيولوجيين السائرين خلفه، وهو يحذرهم، من المصاعب والمخاطر على الطريق. . . كان بازارباي قلقاً للغاية، وكل هذا بسبب «زوجتي اللعينة. . . يالها من إنسانة خبيثة! انها تتدخل في كل شيء، وعليّ أن أضرب لها تحية. لقد رفعت صوتها في هذه

المرة أكثر من اللازم، وبحضور غرباء. وإذا لم أتصرف هكذا، فسوف تقوم بأعمال مزعجة أخرى. وهكذا، إن الحياة تسير ليس كما يجب! وليس عبثاً قال القدماء: الزوجة في الليل قطة ناعمة، أما في النهار فهي أفعى لاذعة. يالها من زوجة! تصرخ وتقول: يلزمك أن تغادر إلى أي مكان، حتى لا تعمل، ولماذا يلزمك أن تذهب مع هؤلاء الجيولوجيين! لدينا أعمال كثيرة، فالأغنام تلد، والأولاد الصغار يحتاجون عناية والأكبر في المدرسة، لقد أصبحوا مشاغبين، وكيف الأمر في العطلة، سيأتون، وعليَّ أن أحضر لهم الأكل، ولو فُلِتُّ من العمل فلن يساعدوني في شيء، زد على ذلك أنهم يدخنون، وقريباً إذا استمر الوضع هكذا، سوف يشربون الفودكا كالمدمنين، فمن سيراقبهم في المدرسة، فالمدير - مدمن، وفي البيت بمن سيقتدون؟! وأنت تذهب إلى حيث يطيب لك، تبحث عن مكان تشرب فيه. وشيء جيد أنّ الحصان يحملك إلى هنا، وإلا لكنت قد متَّ مخموراً في مكان ما على الطريق.

- يا لها من إمرأة عجيبة! فمهما ضربتها، وعلمتها، (كانت آثار الضرب على جسمها طوال الحياة، حتى أطلق الناس عليها لقب «ترسون الزرقاء») فإن ذلك دون جدوى، فليس بإمكانها أن تخرس لسانها السليط، إذ لا يتسع عقلها لذلك.

وفي هذه المرة أخذت تصرخ هذه الشريرة أمام الجيولوجيين بلا سبب. وكم كنت قد حذرتها وضربتها، وخنقتها حتى تقفز عيناها من محجريها! وكانت تعطيني كلمة أنها لن تعود إلى ذلك مرة أخرى، ولكن أين ذلك!. ولقد وجد أسلوباً حتى يخرسها. ناداها إلى البيت، وكأنه يريد أن يتحدث معها، وعندما دخلت، حشرها في الزاوية، وحدق في وجهها، وجهاً لوجه - حتى إنقطعت أنفاسها من الخوف، وهنا نظر إلى عينيها الخافتتين، وإلى وجهها الأزرق المتجعد، ولحظ في عينيها المتعكرتين كل الحزن والبؤس، الذي عاشته خلال عمرها، وكل المصائب والمآسي، والفشل والحقد. كل هذا كان واضحاً في نظرتها، وعلى فمها الأسود المائل عن وضعه الطبيعي. عند ذلك كره نفسه، وقال مهدداً:

- آه! أيتها الكلبة، حاولي مرة أخرى أن تفتحي حلقك، فسوف أسحقك كبيضة القمل! - وقذف بها جانباً.

أخذت الزوجة السطل بصمت، وأغلقت الباب خلفها، وذهبت لتقوم بأعمالها. أما هو فقد غير تعابير وجهه، وخرج ثم إمتطى حصانه واتجه مع الجيولوجيين نحو الجبال. . . .

شيء جيد، أن الحصان مازال طيباً - وهو السعادة الوحيدة، ولقد حصل عليه من محطة تربية الخيول، بعد أن رفضه شخص مختل العقل للونه، فلا يعرف الإنسان شكله،

ـ كميت أو أسمر داكن ـ وهل جودة الحصان في لونه؟ إنه حصان ذو خبرة جيدة في المسير عبر طرق الجبال، يعرف أين يطأ. والمهم أنه يتحمل العمل بصبر وقوة، ومثله مثل الذئب الشجاع . إنه جاهز دائماً . وبكلمة كان عند بازارباي حصان جيد، لا شبيه له عند الرعاة في كل المنطقة، إلا عند بوستون، بطل العمل في السوفخوز، إذ يوجد عنده حصان جيد، ونادر، وسريع، وكان بازارباي وبوستون لا يحبان بعضهما طيلة حياتهما، وفعلاً إن حصان بوستون ذو لون ذهبي جميل، وقد سماه بـ«دونكول». كان بوستون محظوظاً، فلديه حصان لا يذم، ويبدو من فوقه كفارس شجاع، وخاصة أنه تزوج من إمرأة شابة ـ أرملة إرنازار، الذي وقع في هوة قبل ثلاثة أعوام، وغطاه الجليد في جبال علا ـ مانغيو، وبقي مدفوناً في ذلك المكان . . . .

سار الرجال عبر الجبال واحداً تلو الآخر، ولهذا كانوا يلتزمون الصمت، زد على ذلك أن مزاج بازارباي لم يكن على ما يرام، بعد خلافه مع زوجته، ولم يكن مستعداً للحديث وهكذا مشى الركب . كان الشتاء في نهايته، وقد انقشع الثلج عن بعض صفحات الجبال المنحدرة انحداراً شديداً، والواقعة قبالة الشمس، حتى أخذت تفوح رائحة الربيع من جهتها . كان الجو هادئاً ، وواضحاً في تلك الساعة فوق الأرض . وفي الجهة المقابلة كانت البحيرة العظيمة، التي أخذت تلمع لمعاناً أزرق صافياً في أحضان الجبال، ومن فوق الجبال ارتفعت شمس الظهيرة تشع بنورها الدافء .

بعد قليل أوصل بازارباي الجيولوجيين إلى المضيق بين الجبلين، ـ وعند ذلك برزت أمامه المرآة اللامعة لبحيرة إيسك ـ كول، واختفت المناظر الجميلة خلف الجبال. وبدت الصخور المعلقة من أعالي الجبال، وكأنها تهيب المارة. وانتشرت الحجارة والصخور في هذه المنطقة الخالية من السكان . وعن أي شيء سوف يبحث هؤلاء الجيولوجيون هنا؟ ـ أخذ يفكر بازارباي، وهو ينظر من حوله. قرر في نفسه، أنه، ومجرد أن يُوصل الجيولوجيين إلى مكانهم، سوف يعود فوراً . وبدا له أن شعب جبل أتش ـ تاش ليس طويلاً، كجاره الشعب الموازي له، والذي يقود إلى منطقة البحيرة، وقرر أنه سيعود من خلال طريق شعب ـ «باشات»، فمن هناك سيكون الطريق أقصر الى البيت. وقبل أن يودع الجيولوجيين وضع الخمسة والعشرين روبلاً في جيبه، ثم توجه اليهم وهو يقول:

ـ تبدون أصدقاء جيدين، أيها الرجال ـ ابتسم بوقاحة، وهو يمسح شاربيه، ـ وأنا أيضاً، لستُ بولد، وهل لي أن أعود من هنا، وأودعكم وحنجرتي عطشى وجافة، يا ترى؟ .

اراد بازارباي أن يشرب كاساً واحدة، ولكنهم تكرموا بقارورة ذات النصف ليتر

ـ هي نفسها ـ القارورة الخضراء، من إنتاج مصنع الأغذية المحلي. قدمها له أحدهم قائلاً: «خذ واشربها في البيت! ومجرد أن شاهد بازارباي القارورة تغير مزاجه فوراً، وابتسم من كل قلبه، وأخذ يساعد الجولوجيين على الاستقرار في هذا المكان، ويشير لهم من أين سيأخذون الحطب، وأين من الأفضل أن ينصبوا خيمتهم. وأخيراً شد بازارباي عند الوداع على يد كل منهم. ولم ينتظر حتى يطعم حصانه، ما كان قد حمله من العليق في الخرج: لا بأس عليه، ليست أول مرة يصبر على عدم تناول الطعام. اعتلى صهوة جواده فوراً وتحرك عائداً. وكما خطط سابقاً، وجد الطريق فوراً، ونزل عبر شعب «باش» وعلى جانبي الطريق هنا، كانت قد نمت الأشجار المتفرقة والنور يعم المكان، أكثر من الطريق الأول عبر أتش ـ تاش، والأهم هنا غزارة الأنهار والسواقي، ولهذا أطلق السكان المحليون على هذا المكان اسم «شعب الباشات» (أي شعب الينابيع).

أما القارورة في جيب الواقي من المطر، الذي وضعه بازارباي فوق فروته النصفية، قد أقلقت راحته. وخلال مسيره، كان يتلمسها ويفتش عن المكان المناسب. وعند أي نهير سيستريح قليلاً. كان يعرف عياره جيداً، إذ كان بإمكانه أن يشرب نصف قارورة بسهولة، وأن يشرب الماء بعدها، ويتابع المسير. والمهم بالنسبة لبازارباي في مثل هذه الحالة أن يتمكن من الجلوس فوق سرج الحصان، وعند ذلك فالحصان أمين سوف يوصله إلى البيت بكل أمان،وكانت تقول المرأة المعذبة كوك تورسون، أن بازارباي يخفي الشيطان تحت إبطه، فهو لم يقع ولا مرة عن الحصان.

رأى ساقية جانب الطريق، تجمدت بعض أطرافها، وكان الماء يتدفق من بعض الأماكن فوق الحجارة النظيفة. وبدا هذا المكان بالنسبة لبازارباي مناسباً ومريحاً، فمن حوله تنمو نباتات البر باريس وغيرها، والثلج كان قليلاً هنا، إذ كان بإمكان الحصان أن يشرب ويأكل قليلاً. خلع العنان من فم الحصان، وأخذ الخرج الذي يحتوي على عليق الشوفان من فوق السرج، وفك الرباط، وعلقه تحت فم الحصان، الذي أخذ يقضم الشوفان بنهم، وهو يتنفس بأريحية مطبقاً عينيه قليلاً، وكأنه يطرد التعب عنه، أما بازارباي فقد وجد مكاناً مناسباً، إلى جانب الماء، أخرج القارورة، وأخذ يتنعم برؤيتها. نظر إلى لونها، ولكنه لم ير أي شيء غير عادي. أخذ النهار ينحسر تدريجياً، ويقترب من نهايته، وانحرف الظل في الجبال، ولم يبق على غروب الشمس إلا ساعة تقريباً، ولكن بازارباي، لم يغادر إلى مكان. فتح قارورة الفودكا بظفره السميك، على مهل، وشمَ رائحتها، ثم هز رأسه متنعماً، وباشر بتناول الجرعة تلو الأخرى، وكل جرعة، كانت أكبر من سابقتها. ثم انحنى وشرب من

الساقية ماءً عذباً بارداً، حتى دخلت إلى فمه مع الماء بعض قطع الجليد. لقد تغيرت ملامح وجه بازارباي، فسعل قليلاً، ثم تأوه، وهو يغلق عينيه، منتظراً، حتى يصل الكيف إلى رأسه. إنتظر تلك اللحظة، التي سيكون فيها العالم المحيط به - الجبال والصخور وغيرها، كلها أشياء متحركة، وتسبح كما في الضباب، وتطير. وانتظر حتى يسخن رأسه، ويسمع أصواتاً غريبة، وضجيجاً غير محدود فجمدفي مكانه، وانكمش على نفسه، كمن يسلم نفسه - حسب العادة - للسكر. وفي لحظة الارتخاء هذه، سمع صوتاً، من مكان قريب، وكأن طفلاً يبكي، - فماذا يمكن أن يكون هذا؟ ومرة أخرى سمع أصواتاً غريبة خلف الشجيرات، وبين البر باريس، خلف الأحجار الكثيرة، وكانت هذه الاصوات تشبه مواء الجراء الصغيرة. . . . تملك بازارباي الحذر، وشرب جرعة من القنينة «للشجاعة» ثم تركها واستند إلى الحجر، ومسح شفتيه بشدة، ووقف يرهف السمع بانتباه: بالتأكيد، إنه لم يخطىء، هناك ثمة وحوش صغيرة تعوي، وتموء.

كان ذلك عرين ذئاب، وهذا العواء، هو صوت أبناء أكبارا وتاشينار، الذين فرغ صبر هم، بعد أن انتظروا والديهم طويلاً. وبعد الهروب الكبير من موينكوم، وبعد سنة عاشاها بعد الحريق في قصب الداش، لم يولد هذا البطن حسب الموسم، بل مبكراً، إذ انجبت أكبارا أربعة جراء في بداية الربيع.

اقترب بازارباي من العرين، وهو ينظر إلى الفتحات. ولو كان بازارباي صاحياً، لكان قد فكر، أنه لا يجوز أن يقترب من هذا المكان، ولا أن يبحث عن وجر الذئاب بين الشقوق. لقد أفادته التجربة الحياتية: نظر بدقة إلى الأثر فوق الثلج، فشاهد الأثر الواضح المتتابع - أمر مفهوم، فالذئاب قد استخدمت كل حذرها، وسارت كل الوقت على الأثر القديم نفسه. وهناك وجد بازارباي مقبرة كاملة من العظام بين الحجارة، قُضم بعضها ومازالت بعض العظام الأخرى كاملة، هذا يعني أن الوحوش كانت تحمل ما تصطاده إلى هنا، وفي هذا المكان، وفي مأمن عن أعين الناس كانت الوحوش تأكل صيدها غير مسرعة. ومن خلال عدد عظام الساق والمفاصل المتبقية من مأكولات الذئاب اتضح أن الوحوش تعيش هنا، منذ أمد بعيد. وأصبح من السهل الآن الوصول إلى باب العرين، ومن الصعب استيعاب، لماذا لم يخف بازارباي من الدخول إلى المغارة، التي كان من الممكن أن تكون الوحوش الكبيرة فيها، ولكن الصغار الجائعة، كانت طوال الوقت تعوي، وكأنها تنادي أهلها لإطعامها.

ولم يعلم هؤلاء الصغار، أن أكبارا قد ذهبت للصيد في هذه المرة مع زوجها تاشينار

في ظروف قاسية (فبالنسبة للذئاب حلت فترة قاسية في بداية الربيع ، عندما ضعفت كل الحيوانات ، وقضي على كافة الماعز الهزيل ، أما قطعان الماعز القوية فقد ذهبت إلى المناطق الصخرية الصعبة بالنسبة للذئاب ، وهناك ستلد . أما بالنسبة لقطعان الماشية فقد أصبحت تأوي إلى الحظائر المقفلة ، وفي هذه الظروف القاسية كان من الصعب على أكبارا أن ترضع صغارها من الحليب الذي شح لضعفها ، ولعدم وجود الغذاء فيه . لقد ضعفت أكبارا حتى لم تعد تشبه نفسها ، فكبر رأسها ، ونحلت أطرافها ، وتهدل ضرعها . ولكن الذئاب ، تمتاز عن غيرها من الوحوش بقدرتها على الصبر والتحمل ، وبإمكانها أن لا تأكل خلال عدة أيام متتابعة . ولكن الذئبة المرضعة ، لا تقدر على الصبر طويلا ، بلا أكل . واضطرت هذه الحياة أكبارا أن تخاطر بنفسها ، وأن تذهب مع زوجها تاشينار لتصطاد حيواناً كبيراً ، ولو كان من المقدر لها أن تموت لماتت الجراء أيضاً ، إذ أنها مازالت في طور الرضاعة الأولى)

سار تاشينار ، حسب عادته ، خلف أكبارا ، وكان عليهما أن يجدا الفريسة بسرعة ، وأن يلتقطاها بسرعة ، وأن ينهشا اللحم بنهم وحشي ، قطعة بعد قطعة ، وأن يركضا فوراً إلى أولادهما ، وكان على أكبارا أن تجمع خلال الطريق أكبر كمية ممكنة من الحليب للجراء .

في ذلك النهار كان الطريق متنوعاً ، فأحياناً كانت تسير أكبارا وتاشينار تحت نور الشمس ، وأحياناً في ظل الصخور تحرق الجليد المتبقي من الشتاء ، في الأماكن التي لا تصل إليها الشمس . في هذا الوقت من السنة تلجأ جميع الحيوانات الصغيرة والزواحف للاختباء تحت الأرض ، بينما تغادر الحيوانات البرية إلى الجبال الصخرية ، وتمضي قطعان الغنم الأيام الأخيرة في الحظائر المغلقة ، وعلى الرغم من كل ذلك لم يتوقف الذئبان عن المسير السريع تقريباً عبر الجبال ، بدت الحياة أمامهم معقدة . وكان صيد الحيوانات الكبيرة - كالخيول أو البقر ، أو الجمال ، أمراً صعباً ، إذا لم تتآزر مجموعة من الذئاب معاً . ومهما كان تاشينار قوياً . فيصعب عليه أن يجر الصيدة الكبيرة إلى العرين . ففي المرة الأخيرة ، وقبل يومين ، قتل تاشينار حماراً ، كان يرعى بالقرب من الجبل ، وفي الليل غادرت أكبارا العرين وأكلت من لحم الحمار حتى شبعت ، ولكن من الصعب أن يجد تاشينار كل يوم حماراً يرعى بالقرب من الجبل وحيداً . وجرت العادة أن تكون الحمير مع أصحابها ، ولهذا خرجت أكبارا إلى الصيد بنفسها حتى تشبع في مكان بعيد .

في بدايه الأمر شعرت أكبارا بشيء من عدم الثقة ، وقلقت جداً ، وفي بعض الأحيان كانت ترغب بالعودة من منتصف الطريق ، - كانت قلقة على الجراء : أنهم بحاجة إلى

الدفء والحليب، ـ ولكنها تمالكت إرادتها، وأجبرت نفسها أن تنسى أولادها لبعض الوقت. وعندما وجدوا، بالقرب من البحيرة أثراً لبعض الحيوانات، انبعثت في عالمها غريزة الصيد، وسيطرت على كل شيء في عالمها.

حالف الحظ أكبارا وتاشينار: سارا مقتفيين الأثر الجديد، وخلال الطريق نزلا إلى منخفض فسيح، حيث كانت ترعى ثلاثة من ثيران الياق، يبدو أنها تخلفت عن القطيع. كانت الذئاب قد التقت بهم قبل سنة، وأيضاً في ظروف حاجة قصوى، اذ لم يبق لأولئك الذئاب أي وسيلة أخرى، إلا أن تهاجم أياً كان من الحيوانات التي تصادفها. والآن لم يكن لدى أكبارا الوقت للبحث عن صيد سهل. ولم يكن بالقرب من هذا المكان أي بشر يعيق الصيد، نظرت أكبارا وتاشينار من حولهما، وهجما مباشرة عندما شاهدت الثيران الذئاب وهرعت راكضة بسرعة، تعدو وتجأر، ولكن الذئاب لحقت بها وأوقفتها ـ كانت جوانبها تطرق كالمطرقة، من الاعياء ـ ولم يعد أمامها إلا أن تهاجم الذئاب بقرونها. وساد للحظة شيء من التعادل: الشمس في السماء والجبال الخالية والصمت التام، وغياب الناس. كل ذلك كان في مصلحة الذئاب أكثر مما كان يخدم المجترات. لقد رغبت الثيران في تجنب هذا الصدام، ولكن الوحوش لم ترغب في الابتعاد ببساطة، ولم يكن بإمكانها أن تنسى الجوع المضني الذي تعاني منه. كان عليهما أن يتابعا المعركة، وأن يقتلا واحداً من منهم، حتى يتمكنا من العيش، ويمنحا الذرية القدرة على متابعة الحياة. لم تكن هذه الثيران كبيرة، ولا صغيرة، بل متوسطة الحجم مكتنزة اللحم. وشعرها قد طال في نهاية الشتاء. وأدركت هذه المجترات، ذات الذيول الطويلة ضرورة متابعة القتال ضد الذئاب، إذ لم يكن مجال للاستسلام. فأنزلت رؤوسها من الخوف والغضب، وأخذت تخور بحنق، وهي تحفر الأرض بأظلافها. أما الشمس فرست سعفها بقوة، حتى أخذ الثلج يذوب فوق حجارة، وهناك في ذلك المنخفض، ووجهاً لوجه التقت الحيوانات ـ آكلة الأعشاب، مع الوحوش ـ آكلة اللحوم. هومت الذئاب حول الثيران، وهي تقفز من مكان إلى مكان، وهى تنتظر اللحظة المناسبة، ولم يكن لدى أكبارا متسع من الوقت ـ فصعارها تنتظر عودتها، ولهذا قذفت نفسها في المقدمة، مخاطرة بنفسها، نحو ذلك الثور، الذي حسبته أنه أضعف من الآخرين. كانت عينا الثور مليئتين بالدم، ورغم كل ذلك إكتشفت أكبارا في نظرة نقطة الضعف، وعدم الثقة، على الرغم من أنه كان من الممكن أن تخطىء. ولكن تغيير الرأي كان غير ممكن أيضاً، وبوثبة قوية استقرت أكبارا فوق رقبة الثور. وحسم الأمر خلال ثوان. وفي الوقت الذي أخذ الثور يهز رأسه ليرمي الذئبة على الأرض ويغرس [illegible] في جسمها، قفز

تاشينار من جهة أخرى، ليغرس أنيابه في حنجرة الثور، ويقطع عروق رقبته، ويفرغ دمه، ويعطل عمل عقله.

وهكذا حصل، لكن، وقبل أن يقوم الذئب بذلك، تمكن الثور من أن يقذف بأكبارا إلى الأرض، وكاد أن يغرس ساحليه في بطنها، ويقتلها بصورة نهائية إلا أن أكبارا، قد انسحبت كالأفعى من تحت ضربة ساحيه، وقذفت بنفسها من جديد على رأس الثور، وعضته بشدة في سنام كتفه القوي، الذي نما عليه الشعر القاسي الذي يجرح جوانب الفم لخشونته.وفي هذا الهجوم أظهرت أكبارا طبيعتها الوحشية، مؤكدة على حقيقة وجودها من خلال المبدأ الوحشي القائل: «أقتلُ من أجلِ أن أعيش». ولكن الضحية هنا لم تكن سهلة المنال ـ فالثور ليس ظبية أو أرنبة، تخضع فوراً للقوة، ويغض النظر عن أن الثور نزف الكثير من دمه، فقد كان بإمكانه أن يتابع المقاومة، وربما كان بإمكانه أن يخرج منتصراً. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد لمع النجم الذي يحمي أكبارا: ففي هذه اللحظة بالذات قذف تاشينار بنفسه من الجانب الآخر وغرس أنيابه في حنجرة الثور، الذي كان مشغولاً بعراك الذئبة. وكانت القذفة المميتة، والضربة القاضية التي كان يوجهها تاشينار حسب عادته، فلقد وضع في هذه القفزة كل قوته، فتأرجح الياق، وخرشار بادمه، وهوى على الأرض بعد أن قطع تاشينار حنجرته، وهو يجأر بصمت ويرتجف، حتى جمدت عيناه، وفي الوقت الذي جرت فيه المعركة، غادر الياقان الآخران المكان بسرعة قصوى، وإلى مسافة بعيدة، ثم أخذا يسيران على مهل، وهما يبتعدان في هذا المنحدر وكأنه لم يحدث أي شيء.

أما الذئبان، فقد أخذا ينهشان الياق، قبل أن تنقطع أنفاسه، فلم يكن لديهما الوقت للانتظار، وحتى تقطع الصيدة أنفاسها، ولم يكن لديهما الوقت للتفكير، من أي مكان سيبدأن بأكلها. مزقت أكبارا جلد الياق مستخدمة أنيابها تارة وقوائمها ومخالبها تارة أخرى، وهي تلتهم بنفس الوقت اللحم الساخن، قطعة بعد أخرى. كان يلزمها أن تبلع أكبر كمية ممكنة من هذا اللحم، حتى تعود خلال مدة قصيرة إلى العرين، حيث كانت تنتظرها الجراء الصغيرة، ولم يتأخر تاشينار عنها. كان يهمر بوحشية، غير محدودة، ويفضم بأضراسه القوية مفاصل ثور الياق، ويقطعه إلى أشكال هشة: كان ينصرف كالجزار المتوحش.

سار كل شيء كما كان مقرراً، يأكل الذئبان اللحم بنهم، ثم يسيران في طريقهما، حتى يصلان بأسرع ما يمكن إلى عرينهما، وفي الليل يعودان من جديد، حتى يأكلا مره أخرى، ويأخذان معهما ما تبقى من اللحم إلى أمكنه عيشهم وعن هذا فيما بعد ـ أما في تلك اللحظة فان الذئبين تابعا أكل اللحم بنهم ووحشية. . .

أمـا في تلك المغـارة، تحت الصخـرة الكبـيرة، حيثـما كان عرين الذئاب، فقد بكت الجـراء طويـلاً، وتكومت فوق بعضها حتى تشعر بالدفء، ثم تفرقت باحثـة عـن أمهـا، وعـادت فتجمعت فوق بعضهـا من جديـد، وعنـدمـا سمعت وقع الخطى تقترب من باب المغـارة. (عنـدمـا دخـل بازاربـاي)، أخـذت تعـوي أكثـر من قبـل، وهي تحاول السـير على قوائمها الضعيفة نحو باب المغارة، مما سهل مهمة هذا الإنسان. جمد بازارباي من الخوف. دخل إلى المغارة الضيقة متلمساً الجدران الصخرية. أمسك الجراء، ودس بثلاثة منهم تحت ردائه، وأمسك بالرابع من رقبته، وعندما خرج من ظلمة المغارة، أغلق عينيه من شدة النور فوق الجبـال العـاليـة، وتنفس ملىء صدره. كان الهـدوء يعم المنطقة. ولم يسمع إلا صوت تنفسـه. فالجـراء الثـلاثـة قد استقـرت في أمكنتها تحت ردائه، أما الرابع الذي كان يمسكه بيـده، فقـد حاول أن يتخلص من القبضـة، ولكن دون جدوى. أسـرع بازاربـاي، وهـو يتنفس بصعوبة، أخذ فروته، واتجه نحو الساقية. وفيما بعد سار كل شيء كما يجب: وضع الجـراء الأربعـة، ـ التي قرر أن يخطفهـا حتى يبيعها ـ على الأرض، وكان بارارباي على ثقة أنه سيبيعهـا بسعـر جيـد، ففي العـام المـاضي باع راع مجموعة جراء ولدت من بطن واحد إلى ادارة حديقة الحيوان، وقبض ثمن كل جرو خمسين روبلاً.

أمسـك بازاربـاي الخرج من تحت رأس الحصان النهم، ونثر الشوفان على الأرض، ووضـع في كل عين من عيني الخـرج اثنـين من الجراء، ووضع الخرج فوق الحصان، وربطه بأحـزمـة السـرج، حتى لا يلوح على جانبي الحصـان، ويعيق مسـيره عند السرعة: يجب مغادرة المكان، قبل أن يفوت الأوان، ياله من حظ جيد! يجب أن أسرع بالاختفاء من هنا، قبل أن تعود الذئاب، ـ كان بازارباي يدرك ذلك جيداً. وتذكر بازارباي قنينة الفودكا التي لم يشربها حتى نهايتها، والتي وضعها إلى جانب الصخرة .اوبعد أن صعد ظهر الحصان، لم يعد يسأل حتى عن الفودكا. فالرب معها، إنه سيتقاضى نقوداً كثيرة مقابل الجراء، وبإمكانه أن يشتر ي أكثر من عشر قناني، مثل هذه «النصية»وفي أحلامه الوردية هذه أخذ يحث الحصان. إذ كان عليه أن يعود قبل أن تغيب الشمس، وأن يخرج من هذا الشعب المخيف.

فيما بعد، سوف يستغرب بازارباي بالذات، كيف تصرف هكذا، وكيف لم يخف من الذئاب. زد على دلك أنه لم يكن لديه سلاح عندما دخل الى مغارتها وكيف كان الأمر، لو أن الـذئبـة، والـذئب كانـا بالقـرب من المكـان. . . . فالضبية الناعمة، التي لا تقدر على شيء، ندافع عن أولادها، وتهاجم العدو. . . .

ولكن بازارباي سيفكر بكل هذا في وقت لاحق. وسيصبح الأمر مخيفاً عندما سيتصور

العقـاب الأليم على ما جنت يداه. وفي تلك اللحظـات أخـذ يحث حصـانـه الكميت الـداكن، حتى يركض أسـرع عبر الطـريق الحجـري في شعب باشات، وكلما اجتاز مسافة كان بازاربـاي ينظـر إلى الشمس، التي أخـذت تنخفض خلف ظهـره، حتى تختفي خلف الجبـال، ومن فوقهـا برزت بعض الغيوم المبكرة، كان من الضروري الاسراع، للنزول من الجبـل إلى المنطقـة الفسيحـة حول البحـيرة - فهنـاك الأمكنـة مفتـوحة من كافة الجهات، وبإمكان الإنسان أن يغادر إلى أي جهة يرغب فيها، وليس الأمر كما في هذا الشعب الضيق. . .

وكلما اقـترب بازاربـاي من منطقـة البحـيرة، ومن المنـاطق المسكونة، كلما ازداد ثقة بنفسه، وأصبح أكثر وقاحة. لقد أراد أن يتباهى بصيده الثمين، وفكر، أليس من الأفضل، لو مر إلى أحـد أصـدقـائه من الرعاة الذين يشرب معهم الخمرة، حتى يريه صيده، ويحتفلا به، ويشربا مئة غرام بصحة كل واحد من الجراء الأربعة - فهو لن يبقى مديناً لأحد، بعد أن يحصل على النقود مقابل البضاعة الحية. وبدأ يأسف، أنه ترك في الجبل، عند النهير قنينة فيهـا نصف محتـواهـا من الفودكا: إيه! انها كانت تكفي لكأس كاملة. . . نعم، لقد أردت أن أفـرح نفسي! ولكن حدسي كان يقـول لي، أن الفـودكـا موجـودة في كل مكـان، ومن الأفضـل إيصـال الجـراء بأمـان في بدايـة الأمـر، وإطعامهم كما يجب. وعلى الرغم من أنها قوية، فما زالت حتى الوقت الحاضر بحاجة إلى رضاعة الحليب، وقبل وقت قصير جداً قد تفتحت عيونها، لكنها ما زالت عاجزة عن النظر كما يجب. عسى أن يكون وضعها في الخرج جيـداً، ولا تموت خلال الطـريق، ولم يفكـر بازاربـاي، بل لم يخطـر على بالـه مطلقـاً، أنها تركض خلفه ركضاً سريعاً، ويعلم الله وحده، بماذا سينتهي هذا الأمر. . . .

أكلت أكبارا وتاشينار من لحم الياق حتى شبعا، ثم عادا إلى عرينهما: سارت أكبارا في المقدمة، وخلفها تاشينار. تعاظمت رغبة أكبارا في أن تصل على عجل إلى صغارها في المغـارة، تحت تلك الصخـرة، وتضطجـع حتى تلتف من حولهـا، وتسـتر يـح معها قليلاً، وتطعمهـا الحليب السـاخن، وتعـود في الليل، بعد أن تستر يح جيداً إلى الياق المقتول، في المنخفض لتتابع مع تاشينار أكل اللحم المتبقي.

هذه هي الحيـاة - عليـك أن تسـرع إلى هنـاك، وأن تسـرع إلى هنا، ويقال عادة: أرجل الذئب تطعمه. . . ولو كان الأمر كذلك فقط. . . . فعلى الجيفة تجتمع عادة مختلف الحيـوانـات المفـترسة، ومن بينهم الوحوش، التي تهجم على صيد الآخرين بوقاحة، وعند ذلـك لا ينتهي الأمـر بلا قتـال، يصـل لدرجـة القتـال الدامي في كثير من الأحيان. ولكن

الحقوق هي حقوق، والقوة في شريعة الغاب هي حق. . .

أخذ قلب أكبارا يدق بسرعة، قبل أن تصل إلى المغارة، فقد شعرت، أن الأمر ليس كما يجب. وثمة طير كان يرافقها كالظل، وشعرت بشيء رهيب يدخل نفسها في ضوء الشمس قبل المغيب، وخيم النور القرمزي فوق قمم الثلوج، وأصبح قاتماً وأكثر حزناً بالتدريج. ومع التقدم من المغارة أخذت تحث مسيرها، وتركض بسرعة، دون أن تنظر إلى تاشينار، أو تنتظره، ولقد أطبق عليها شعور حدسي مبهم، حتى أخذت تنهب الأرض بسرعة، وهنا أغاظها شعورها برائحة غريبة في هواء ذلك المكان: لقد فاحت في المكان رائحة شديدة لعرق حصان، كما شعرت برائحة خمرة كريهة: ما هذا؟ ومن أين أتى هذا؟ قفزت الذئبة عبر الساقية، متسلقة الطريق الوعرة بين الاشجار، وهي تسير إلى المغارة، تحت الصخرة. دخلت الى المغارة، وجمدت في مكانها في بداية الأمر، ثم أخذت تشم ككلب الصيد جوانب المغارة الخالية والعش الميتم من الجراء. خرجت بسرعة، فالتقت عند الباب بذئبها تاشينار فشدته بحنق وغضب، وكأنه قد ارتكب خطئاً بحقها، وكأنه عدوها، وليس الذئب الأب لأولادها والزوج لها. أما تاشينار، الذي لم يعرف ما الامر فقد دخل إلى المغارة، وخرج على عجل ودفع بأكبارا حتى تتبعه إلى ضفة النهر. تحسست أكبارا الأثر، وهي تركض إلى الأمام، ثم إلى الخلف، حتى تعرف حقيقة الأمر. أدركت أكبارا أن شخصاً ما كان في هذا المكان، من خلال الآثار المتبقية - فها هو - الشوفان المنثور فوق الأرض، والمبلل بلعاب الخيل، وتلك كومة من روث الحصان، وتلك قنينة، تصدر منه رائحة الخمرة الكريهة ارتعدت أكبارا عندما استنشقت السبيرتو القوي في الفودكا. وها هي آثار الإنسان فوق الثلج، آثار جزمة جلدية، ففي مثل هذه الجزمات يسير الرعاة. يا له من عدو لدود! أتى إلى هنا على حصانه، يحمل هذا السائل الكريه في قنينته، وسلب العش، وخطف الصغار! فكيف الأمر، إذا أكلهم! ومن جديد هجمت أكبارا على تاشينار، الذي لم يخطىء في شيء، وعظته كالمسعورة، ثم عوت، وأخذت تركض في ذلك الاتجاه الذي اقتفت فيه الأثر. وما كان على تاشينار إلا أن تبعها على الفور.

ركض الذئبان حسب الأثر، دون أن يفقداه، حتى خرجا من الشعب، وتابعا المسير نحو المنطقة التي يسكن فيها الناس، إذ كان يقودهما الأثر إلى منطقة البحيرة. . . .

أما باراباي الذي خرج من الشعب قبل قليل، فقد اتجه إلى المنطقة المفتوحة، عبر الهضاب المنخفضة، والمراعي الصيفية، وبانت أمامه زرقة البحيرة الداكنة. بعد ساعة سيصل إلى البيت، بينما نزلت الشمس في حضن السماء، عند نهاية الأرض، واختفت بين

قمم الجبال العالية، وهب نسيم بارد من جهة إيسك كول:«عسى أن لا تموت الجراء من البرد» ، ـ فكر بازارباي، ولكن لم يكن لديه ما يلف به الجراء كي لا تبرد، وقرر أن ينظر كيف حالهم، في الخرج، وهل مازالوا على قيد الحياة، واذا ماتوا فمن العيب أن يحملهم ميتين، ـ فلمن تلزم الجراء الميتة! أسرع بازارباي في فك أحزمة السرج، حتى يسحب الصرة، وينظر إلى الجراء، وكيف حالها، لكن الحصان أخذ يبول، مبعداً رجليه عن بعضها، ورذاذ البول يتطاير من حوله. وفجأة، توقف عن صب البول الغزير، وصهل بقوة، وقفز بعيداً عن مكانه، وكاد يفلت من يد بازارباي.

ـ قف! ـ صرخ بازارباي على الحصان. ـ لا تلعب!

ولكن الحصان قفز بعيداً، وكأنه ابتعد عن النار، وعلى الفور علم بازارباي ما في الأمر. شعر وكأن البرد قد غطى ظهره، وأحس باقتراب الذئاب الراكضة، اعتلى بازارباي ظهر الحصان، وتمسك بشعر رقبته، بينما أخذ الحصان يعدو بسرعة قصوى. إنحنى بازارباي فوق رقبة حصانه، وأخذ ينظر من حوله، بينما كان صوت الذئاب قد أصبح قريباً. واتضح أن الحصان قد فزع، عندما قفزت الذئاب من فوق الصخور. وأخذت تحاول أن تلتف عليه. أخذ بازارباي يصلي، متذكراً الآلهة، مع العلم أنه لا يتذكرهم في الأيام العادية، وكان يبصق على كل المعتقدات. هذه نتيجة مرافقة الجيولوجيين، الذين نزلوا على رأسه كالثلج من السماء: «فليختنقوا بهذا الذهب الذي يبحثون عنه!».

ندم على ما فعله، وأخذ يطلب السماح من زوجته: «اني أعطيك كلمة! لو بقيت على قيد الحياة ـ أنني لن أضربك أبداً» وأسف، انه اختطف الجراء: «لماذا لزمه أن يمس هذه الجراء؟ ومن أجل ماذا دخل إلى تلك المغارة؟: لو ضربت رأس كل منهم بحجر لكان الأمر قد انتهى ـ أما الآن إلى أين سآخذهم»؟ أما الخرج من خلفه فقد كان مربوطاً بأحزمة السرج وكان من الصعب أن يقذف الجراء وهو يعدو، بينما كان الحصان يزيد من سرعته، وعمت الظلمة حتى لم يعد يلحظ أي إنسان كان ـ أن مصيره المخيف هذا لا يهم أحداً. وفقط حصانه الأمين، كان لا يدخر جهداً في ركضه، وقد جن جنونه من الخوف.

ولكن بازارباي قد أسف، أكثر من أي شيء آخر، أنه لو كان لديه سلاح، لكان قد لقم كل منهم رصاصة، دون أن يخطىء. وهنا وفي هذه المنطقة، لدى كل راع يوجد سلاح في البيت، ولكن من يحمل سلاحه معه أينما ذهب! «آه، لو علمت أنه سيحدث معي هكذا!» ـأخذ بازارباي يزيد من صراخه، حتى يخيف الذئاب بالقوة التي لديه، وكان كل أمله مرتبطاً بالحصان ـ إنه حصان جيد وأصيل . . .

كانت المطاردة، مطاردة حياة او موت . . .

هكذا عدت الذئاب في الوهاد التي غلبت عليها الظلمة قليلاً ـ الخيال فوق الحصان مع الجراء المخطوفة في الخرج، وخلفه تعدو أكبارا وتاشينار. أحست الذئاب أن الجراء الصغار مع هذا الرجل، فأخذت تصلي على طريقتها، وتهدد باسلوبها. ولو أن الحصان قد تعثر لمرة واحدة، وللحظة واحدة! ولو أنهما لم يأكلا كثيراً من لحم الياق، لكان بإمكانهما أن يسرعا في الركض، ولتمكنا خلال فترة قصيرة أن يلحقا بالمختطف، ولكان بإمكانهما أن يردياه قتيلاً، وكان الثأر الدموي قد أكد العدالة في الصراع العنيف من أجل متابعة الذرية.

ولو كانا الآن، كما كانا في سهول موينكوم، خلال عملية الصيد التي قاما بها لصيد الظباء، فانطلقا بأقصى ما لديهما من قوة ولحقا الصيد الثمين في المكان المناسب. والفارق في الأمر أن الذئاب كانت فارغة البطون، ومستعدة كل الاستعداد للمطاردة الخاطفة.

وقد لاقت أكبارا صعوبة أكثر في الركض، لأنها أجهدت نفسها في استيعاب أكبر كمية من لحم الثور كاحتياط، حتى تتمكن من إطعام صغارها، ورغم كل ذلك فلم تستسلم للأمر الواقع، وبذلت كل ما لديها من قوة، ولو تمكنت من بلوغ الخيال لما توانت ثانية واحدة ووثبت عليه، ودخلت في معركة معه، مهما كانت قاسية، ومهما كانت النتيجة. بالطبع كانت ثقتها تنبع من وجود تاشينار ـ القوة الخارقة إلى جانبها، ولكن فيما يتعلق بمسألة الموت، فإن كل واحد يموت لوحده. . . . أما هي فكانت مستعدة لاستقبال أي موت، مقابل أن تلحق بهذا الإنسان، وتمسك به فوق الحصان السريع. . . آه لو تمكنت من ذلك. . . .

وعلى الرغم من أن الحصان كان سريعاً تحت بازارباي، فقد جن جنونه عندما شاهد بطرف عينيه أن الذئبين، قد أصبحا على مقربة منه من الجهة اليمنى، وهما يحاولان أن يقطعا طريقه إلى منطقة البحيرة. لقد عمل الذئبان حتى يعود الحصان إلى الخلف، ويطاردانه نحو الجبل، ـ وعند ذلك، ودون أي شك، سيقع بين مخالبهما ـ عاجلاً أم آجلاً ـ ويلتقيان به وجهاً لوجه. وهكذا حصل ـ لقد أسرع الحصان بإتجاه المنعطف نحو الجهة اليسرى، عائداً باتجاه الجبل، ولكن الخيال، كان يدرك جيداً أبعاد المسألة. كيف لا، وهو إنسان، قادر على معرفة مناورة الذئاب، وفي هذا بالذات تجلى خطأ الذئاب.

وثمة ناحية أخرى، أنقذت بازارباي، إذ بانت أنوار البيوت التي أصبحت قريبة من المكان. ـ هكذا حالف الحظ بازارباي! ـ كان ذلك بيت بوستون أركونشيف. نعم، هو بالذات، بوستون بطل العمل، الذي يكرهه بازارباي جداً، ولكن الوقت الآن غير مناسب

للتفكير: من يكره ومن يحب ـ وأي فرق الآن؟ فكل روح حية كانت الآن عزيزة عليه، كحياته بالذات. المهم أن يجد أياً من البشر على الطريق ـ هذه هي السعادة! وفي هذا الخلاص! أخذ بازارباي يصيح. وضرب الحصان بكعبي جزمته، ـ فأسرع الحصان بقوة جديدة نحو ذلك المكان الذي يقيم فيه رعاة الأغنام، ولكن هذه الدقائق بالنسبة لبازارباي استمرت قرناً بطوله، قبل أن يتجرأ على التفكير، أنه يأمل بالنجاة من هذا المأزق. وها هو بيت بوستون أصبح قريباً، والمحرك الكهربائي يصخب بصوته وكأنه الرشاش الآلي، دون توقف وهبت كلاب الرعاة بنباحها الشديد، وهي تركض لملاقاته. ورغم كل ذلك لم يتأخر الذئبان ـ بل كانا يقتربان أكثر فأكثر، إذ تعب الحصان، وقصرّ وأصبح بازارباي يسمع عواء الذئاب من خلفه. «آه، يا إلهي، أرجوك، أنقذني فقط! أخذ يهمس بازارباي وهو يتضرع بخشوع: ـ سوف أقدم لك سبعة رؤوس من المواشي ضحية!» أنقذني يا إلهي! أنقذني!.

بالطبع لم تمض ساعة واحدة، حتى ينسى كل هذه الصلوات، وكل ما وعد به، هذا هو طبع الانسان. . . .

ولكن، وفي هذه اللحظة، عندما هرع الرعاة إليه، لم يكن فيه أي قوة، وسقط بين أيديهم، وهو يكرر:

ـ الذئاب، الذئاب، طاردتني الى هنا! الماء، ماء، أعطوني ماء!

أما الذئبان، وحسب التقدير، كانا قد توقفا بالقرب من هذا المكان، ولم يعودا إلى الجبال، بل بقيا ينتظران الفرصة المناسبة للهجوم والثأر. وفي المكان الذي يستقر فيه بوستون مع قطعانه، قام الرعاة، وحرسوا الأغنام بيقظة، وأقفلوا أبواب الحظائر، وبين الفترة والأخرى يصرخون، ويحدون، وصعد أحدهم إلى السطح، وأطلق عدة عيارات نارية. بينما أخذت الكلاب تنبح بشدة، دون انقطاع، ولكنها لم تبتعد عن ساحات البيوت، محتفظة بأمكنة قريبة من النور. أثارت نذالة الكلاب، أصحابها، فأخذ أحد الرعاة يحرض كلابه، بصوت أبح، وهو يقول:

ـ جيبوا! هاتوا! أمسكوه! يالكم من كلاب! أنتم ليس لمحاربة الذئاب، بل للنوم والأكل فقط! تقدموا! يا أقطش، جولبارس، جيسان، باربالان! إلى الأمام! هاتوه، هاتوه! يا لكم من كلاب نذلة! ربضتم على ذيولكم، انكم تخافون العراك مع الذئاب!

ـ الكلب ـ كلب، ـ قال له شخص آخر معترضاً. ـ ما بك قد غضبت منهم؟ بإمكانهم أن يعضوا الخيال من جزمته، أما بالنسبة للعراك مع الذئاب، فهذا ليس شأنهم! فماذا تريد! لا يوجد كلب في العالم أقدم على مقاتلة الذئاب. دعهم وشأنهم في النباح!

ولكن بازارباي لم يتذكر على الفور، لماذا تركض الذئاب خلفه، وفقط عندما قام أحد الشبان من أجل ربط واطعام حصان بازارباي، شاهد شيئاً ما يتحرك في الخرج، فسأل بازارباي عن ذلك: «ما الذي في الخرج يا بازارباي؟ ان ثمة شيء يتحرك هناك. . . هنا تذكر بازارباي وأجاب:

ـ في الخرج؟ هناك جراء ذئاب صغيرة. فليأخذها الشيطان، أربعة جراء صغيرة، أخذتها من المغارة في جبل باشات، ولهذا طاردتني الذئاب.

ـ إذن هكذا! هذا شيء رهيب، انها مخاطرة. فعلاً مخاطرة! من المغارة بالذات؟ أحمد ربك، أنك تمكنت من الهروب. . . .

ـ هل هم أحياء في الخرج؟ لم يختنقوا، خلال هذه المطاردة العنيفة؟

ـ تسأل عنهم! فهل هي مشمش ناضج حتى تخاف عليها؟ انها حية، وقوية كالكلاب.

ـ هاتها، حتى ننظر إليها! ونرى شكلها، كيف هي؟

نزع الخرج عن ظهر الحصان، وحمله إلى بيت بوستون. وقُدر أن يحدث هذا في بيت بوستون ـ الشخص الرئيسي هنا، رغم أنه لم يكن موجوداً في ذلك المساء: كان عنده اجتماع دوري في مركز المنطقة، وسوف ينتخب بوستون مرة أخرى عضواً في إدارة السوفخوز.

دخل بازارباي إلى بيت بوستون، وكأنه بطل، ولم يبق عليه إلا أن يرضخ للأمر الواقع: ففي نهاية الأمر، لينظر الناس له ليس كممثل لهم، بل كضيف.

ليس من الصحيح أن بازارباي، لم يدخل إلى هذا البيت، قبل هذه المرة. فخلال السنوات العديدة، التي كان يسرح فيها بازارباي في جوار بوستون، وعلى مسافة سبعة كيلومترات من هنا، دخل بازارباي إلى هذا البيت ثلاث مرات: المرة الأولى عندما كانت حفلة ذكرى الراعي إرنازار، الذي سقط في الشق الجليدي عند إنكسار جبل المانغو، والمرة الثانية شارك في دفن أحد الموتى، بعد نصف سنة من موت إرنازار، إذ ماتت الزوجة السابقة لبوستون أرزيغول، التي أثنى عليها الناس كثيراً. وعند ذلك حضر بازارباي الدفن، كغيره من الرعاة والسكان في المنطقة: كان الشعب سابقاً جاهلاً، يتخبط في الظلمة، أما الآن فكم من الأحصنة، والتراكتورات والشاحنات التي لا تعد. والمرة الثالثة كانت هذه، ليس بمحض إرادته، بل عندما قررت قيادة المنطقة أن تقيم اجتماعاً انتاجياً، حتى يقدم بوستون أركونشيف للرعاة تجربته، لم يرغب بازارباي آنذاك بالحضور، ولكن كيف يمكن للانسان أن يتملص! فلقد أجبروه، وهكذا كان من الضروري أن يستمع لمحاضرة، دامت نصف

نهار: كيف يجب العمل، حتى لا تموت الخراف الوليدة، وحتى تعطي الأغنام أكبر كمية من اللحوم والصوف. وبكلمة كيف كان عليهم أن ينفذوا الخطة، وهل في هذا ذكاء عظيم!
ـ فهو يعرف كل شيء بدونهم: في الشتاء على الإنسان أن يقدم العلف للأغنام في الوقت المناسب، وفي الصيف يجب أن ينهض الراعي مبكراً، وينام متأخراً. وبشكل عام على الإنسان أن يعمل بشكل جيد، وأن يهتم إهتماماً كبيراً بالمراعي والأغنام. ويجب على الراعي أن يعتني بالخراف الصغيرة. وبوستون، ليس وحده الذي يعمل، ولكن بعض الناس يكونون محظوظين، وبعضهم لا يحالفه الحظ. زد على ذلك أنه يوجد عند بوستون مولد كهربائي ـ فطوال الليل النور في البيوت، وفي الملحقات، وحول البيت، وفي الساحات. والسؤال هنا: لماذا؟ تمكن من الحصول على محركين ـ عندما يعطل أحدهما، يشغل الآخر، وهكذا. أما عند الرعاة الآخرين فلا يوجد إلا محرك واحد، وكذلك بالنسبة لبازارباي، إذ لا يوجد إلا محرك واحد يستخدمه طيلة العام. والعمل بمحرك واحد صعب: أحياناً يعمل، وأحيانا لا يعمل، وخاصه أن الوقود ليست متوفره دائما، فأحياناً ينقلون الوقود، وأحياناً يتأخرون، وإما يترك العامل المختص بهذه المحركات العمل هنا، ويذهب إلى المدينة، فهناك الشباب يعيشون أحسن من هنا. وهذا ما يحصل عادة ـ فحسب التقارير المقدمة ـ في جميع محطات الرعي توجد كهرباء، أما في واقع الأمر فلا يوجد شيء من هذا القبيل...

وفي نهاية المطاف فمن هو الأحسن؟ ـ بالطبع بوستون، زد على ذلك أنه لا يشرب. ومن السيء؟ ـ بالطبع بازارباي، ومن على شاكلته، زد على ذلك أنهم يشربون الخمرة. وطالما أنت سيء فليعاقبوك كما يشاؤون، ولو حاولت أن تعلن عن رغبتك بمغادرة المكان، فإن الجميع ضدك، والميليشيا تقف ضدك، وتسحب جواز سفرك، ولا يعطونك أي وثيقة. اذهب واعمل أيها العزيز، ولن تذهب من هنا. الآن لا يرغب أحد بعمل الرعي، فمثل هؤلاء المجانين قلائل، الجميع يرغبون بالعيش في المدينة: فهناك تعمل ساعات العمل المقررة، وتذهب بعد ذلك تستريح كما تشاء، وبكل أريحية. فلا يلزمك أن تشعل الموقد في شقتك، والكهرباء متوفرة ليلاً ـ نهاراً، والمياه الباردة والساخنة تحت تصرفك طوال الوقت، حتى التواليت داخل الشقة، على بعد خطوات عن السرير. ولكن مع القطيع، أيُّ حياة نعيش؟ وكم تتطلب الخراف الصغيرة من عناية، ويوجد ما يقارب من ألف وخمسماية رأس من الأغنام، فحاول أن تعتني بها كما يجب. وهنا ليس لدينا دقيقة استراحة، في النهار، ولا في الليل، فكل الألف والخمسماية رأس تتطلب العناية منك كما يجب، وحاول هنا، أن

تتخلص من الأوساخ، وأن تكون لطيفاً، وأن لا تضرب الزوجة، وأن لا تشتم المساعدين، ولا تسكر. . . . وبعد كل هذا: من السيء؟ بالطبع بازارباي وأمثاله . . .

واذا لم يعجبهم شيء ما. فإنهم يشيرون بالإصبع ـ أنظر إلى بوستون أركونشيف، إنه متفوق في عمله، انه مثال نموذجي . . . وهكذا، حتى تصبح الرغبة كبيرة في عالمي، أن أصفع هذا المتفوق! نعم، إن بوستون محظوظ، فالناس يذهبون للعمل عنده، ولا يتركونه، يعملون كأسرة واحدة، أما بازارباي وغيره من الرعاة فقد بصقوا على محركاتهم المعطلة، وأخذوا يعيشون حسب الطرق القديمة، فيقضون لياليهم تحت ضوء المصباح الكير وسيني والمصابيح اليدوية، أما عند بوستون فيوجد مولد كهربائي نوع م ي ١١٥٧ يعمل كالساعة يطقطق خلف بيته، ويسمع صوته لمسافة بعيدة، ونوره يعم المنطقة أيضاً، حتى عندما اقتربت الذئاب المتوحشة من هذا المكان، خافت، بعد أن كانت تركض، بسرعة فائقة، وأشرفت على إدراك هدفها، ولكن عندما رأت النور، وسمعت صوت المولد، توقفت على الفور.

الكلاب كانت تنبح بإستمرار، لا تبتعد عن البيت، في الوقت الذي كانت فيه الذئاب مازالت بالقرب من المكان، إنها تخاف الإقتراب من الذئاب . . .

نعم، إن بوستون محظوظ ـ كل شيء في بيته وحوله على ما يرام، ففي البيت نور قوي، ونظافة واضحة، على الرغم من أنهم يعيشون بالقرب من الأغنام، فقد كان من الضروري أن يخلع الإنسان جزمته، ويقذف بها مع الجوربين عند المدخل، ويدخل بالجوربين الصوفيين إلى الغرفة.

إذا كان الإنسان محظوظاً، فهو محظوظ في كل شيء. وسابقاً لم يلاحظ بازارباي أن أرملة إرنازار غوليومكان، الذي قتل في الجبل، إنسانة جيدة، تهتم بنفسها. أما الآن، فقد أصبحت زوجة لبوستون، وهي ـ كما يُلاحظ ـ سعيدة، على الرغم من المصيبة التي حلت بها، ولم يزد عمرها عن الأربعين عاماً، وربما أقل، لديها إبنتان من إرنازار، تدرسان في المدرسة، وها هي الآن قد أنجبت لبوستون منذ فترة قصيرة ولداً، بالاضافة للابنتين من الزوجة الأولى، واللتان تزوجتا. تتسم غوليومكان بذكائها، وتعرف جيداً أن زوجها بوستون وبازارباي يكرهان بعضهما، فهي لم تبدِ أي إنزعاج، واستقبلته برحابة صدر، وعطفت على وضعه وهي تقول: ـ تفضل، فأنت جار، تفضل، أجلس على السجادة، كيف حصل هذا الهجوم عليك، لم نسمع سابقاً، أن الذئاب تطارد الخيالة، فالحمدلله، والخلود لأرواح الأسبقين الافاضل. أنهم أنقذوك من المصيبة. أما زوجي ليس في البيت: إنه في الإجتماع

الـدوري في المنطقـة، وهـو سيعـود قريبـاً، لقـد وعدوه أن يعيدوه على سيارة المدير «غاز».
أجلس، أجلس، يجب أن نشرب الشاي بعد هذه الحادثة، وانتظر قليلاً، سوف ينضج الطعام.

أمـا بازاربـاي، وبعـد أن وقع في هذه الحالة، فقد قرر أن يجرب صاحبة البيت، وكم هي جادة بدعـوتهـا لهذا الضيف غير المرغوب فيه، كان يرغب في الشرب، وأن يعود لنفسه بعد هذه المعاناة، ولهذا جمع وقاحته وأخذ يستقر في مكانه.

ـ تقـولـين شاي! إن الشـاي مشروب النساء، ـ قال دون حياء. ـ أعذريني ألا يوجد مشروب، أثقل من الشاي، في بيت الغني بوستون؟ فأمجاده قد ذهبت بعيداً من هنا!

هذه شخصيـة بازاربـاي البـائسـة: وحتى لو لم يعطـوه الخمرة، فقد كان راضيا لمشاهدة تغير وجه زوجة بوستون. فإن هذه الوقاحة من جهة بازارباي لم تكن لتتناسب مع طبيعتها. ولمـاذا كان عليـه أن يتصنـع وضعـاً رسمياً، فهم ليسوا من البكوات ولا من الباشاوات، بل رعاة في سوفخوز مثلهم.

ـ عليـك أن تعـذرني، ـ أجـابت، وقـد قطبت حاجبيهـا. ـ ان بوستـو ن لا يحب أن يشرب. عسى أن تفهمني!، ويكره هذا. . . .

ـ أعـرف، أعـرف، أن بوستـونـك لا يشرب! ـ قاطعها بازار باي، دون خجل ـ إنني قلت هذا، هكذا. شكراً على الشاي. لقد فكرت، أنه على الرغم من أنه لا يشرب، فانه يستقبل الضيوف ويقدم لهم ما يرغبون. . .

ـ كلا، لا تفكـر هكـذا، ـ خجلت غوليـومكـان ونظـرت إلى رسكـول الجالس إلى جانب بازارباي، وعند ركبتيه كانت تلك الصرة الغريبة، التي تحتوي الجراء.

نهض ريسكـول، إذ أراد أن يذهب لشـراء الفـودكـا، ولكن ظهر هنا الطالب مراد، مساعد بوستون، الذي لم ينه دراسته في المعهد التر بوي. وبعد أن عاد فاشلا تجول في عدة سوفخوزات، وعمل في بعضها، ولكنه لم يستقر إلا عند بوستون. وهنا توجه ر بسكول إليه قائلاً:

ـ إسمـع يا مراد! هل توجـد عنـدك قنينـة فودكـا «نصيـة»؟.أنـا أعرف، أنك تخشى بوستون، فلا تخفْ، أنا مسؤ ول أمام بوستون. هات قنينتك بسرعة، سوف نحتفل بصيدة بازارباي.

ـ للاحتفال! أنا جاهز دائماً! ـ ضحك مراد بمرح.

وبعد نصف الكأس الأول، أخذ بازار باي يعود إلى وضعه الطبيعي تدريجيا، وأخذ

الخـوف يتقلص في أعـماقـه، وعـادت إلى عالمـه ميـزات التفـاخـر والـوقـاحة، فتمدد على السجـادة، وكأنـه في بيتـه، وأخـذ يحدث، كيف حصل الأمر، وسحب الجراء من الخرج، وأخـــذ ينظـر إليهم بتمعن لأول مرة. كانت الجـراء تعبـة، ولم تستجب لأي حركـة كانت. وحـاولت الجـراء الأربعـة الإختفـاء، وكأنها تبحث عن من يدافع عنهم. ثم أخذت تتأقلم تدريجيـاً، إذ شعـرت بالدفـء، وأخذت تزحف، وهي تعوي، وتندس بالقرب من الناس، وهم ينظرون، دون أن يفهموا أي شيء، - كانت تبحث عن أمها، تفتش عن ضرع أمها. نظرت صاحبة البيت نظرة حزينة، وهزت رأسها، وهي تقول:

- ألا ترى أنهم صغـار ضعفـاء! كالأطفـال الـرضعاء المساكين، على الرغم من أنهم أولاد ذئب. فالصغـير صغـير مهـما كان. إنهم سوف يمـوتـون عندك من الجوع، ألا تعتقد ذلك؟ فلماذا هذا؟

- ولمـاذا سيمـوتـون؟ - شعر بازارباي بالإهانة. - انها كائنات لا تخاف الموت. سوف أطعمهم أي شيء خلال يومـين، وبعـدهـا سوف أسلمهم الى حديقـة الحيـوانـات وهناك يعرفون كيف ينعاملون معهم. فالقيادة عندما ترغب بشيء فإنها تجيد مختلف الأعمال. وإذا ما أرادوا، فإنهم يعلمـون الـذئـاب أن ترقص في السـيرك. ومقـابـل العروض في السيرك، الناس يدفعون النقود، ربما أن هذه الجراء، لها مستقبل في السيرك.

كان الجميع هنا، على الرغم من أن صاحبة البيت قد أبدت إنزعاجها وعطفها على الجراء. كان الجميع يضحكون، وقدمت النسوة من البيوت المجاورة لرؤ ية الجراء الصغيرة، وأخذن يتهامسن فيما بينهن، بينما قالت صاحبة البيت:

- يوجد عندنا يا بازارباي هنا خراف يتيمة، مازالوا يرضعون الحليب، فكيف تعتقد لو أطعمنا الجراء هذه بقناني الخراف اليتيمة؟

- كيف! ، - أخـذ يضحـك بازاربـاي. - النعـاج سترضع جراء الذئاب. هذا شيء رائع! تعالوا نحاول!

حلت السـاعـة التي سيتـذكرها كل منهم فيها بعد بشيء من الرعب. لقد هدأ الناس قليلا، وأطعموا الوحوش البرية حليب الغنم. كانت جراء الذئاب ساذجة ومرحة، وأحدى الجـراء - كانت أنثى زرقـاء العينـين. استغـرب الأهـالي من هذه الظاهرة، إذ لم يعتقد أحد منهم، أنـه توجـد ذئـاب زرقاء العيون، وفرح الناس لفرح إبن بوستون الصغير جداً الذي يدعى كينجـوش. فهـو لأول مرة يرى هذه الـوحـوش الصغيرة في البيت. واستغرب الناس كيف كان يلعب هذا الصبي الـذي لا يزيـد عمـره عن السنة والنصف، وأخذ بتحدث مع

الجراء بلغته غير المفهومة بعد، وكيف كانت عيناه تشعان من الفرح، وهو ينسجم في اللعب مع الجـراء. كما انسجمت الجـراء الأربعـة مع الصبي، وكأنها أدركت أن هذا الصبي هو الكـائن الـوحيـد القـريب منها هنا. أخذ الكبار يتحدثون: انظروا إن الصغار يفهمون لغة بعضهم، وحاولوا أن يعرفوا لدى أمه غوليومكان، ماذا يقول الصبي الصغير للجراء. فابتسمت غوليومكان، ونظرت إلى طفلها بحنان، وأخذت تلاطفه بمودة:

ـ آه يا بني، يا أجعد يا جعيداني، يا جرويا جريواني! ترى كيف انسجمت الجـراء الصغيرة معك! أنظر، ما أنعمها، يا لها من جراء رمادية! هل ستكون صديقاً لها؟

وهنا قال بازارباي عبارة، لسوف يتذكرها فيما بعد:

ـ كان ذئب واحد في البيت، أما الآن فأصبحت خمسة. فهل تريد أن تكون ذئباً؟ فتعال أضعك في العرين مع الذئاب، وهناك ستكبر معهم...

ضحك الجميع من أعماقهم للطرفات، وهم يحتسون الشاي، ولقد إحمرت وجنات بازارباي ومراد من شرب الفودكا، اذ أنهم وخلال وقت قصير قد أنهوا «القضية» وهم يأكلون الشحم واللحم الدسم. وعمت النشوة الجميع حسب الكمية التي شربوها. وفي ساحة البيت عم الهدوء ـ توقفت الكلاب عن النباح، أما الكلب الكبير جيسان الأحمر، طويل الشعر، فقد وقف عند عتبة الباب المفتوح. وقف طويلاً، وهو يلوح بذنبه، دون أن يخطو خطوة واحدة إلى داخل البيت، فقذفوا له بقطعة خبز، فالتقط الخبز قبل أن يسقط على الأرض، وطبق أسنانه عليها بشدة، وعند ذلك حمل مراد، الذي سيطرت عليه نشوة الخمرة، أحد الجراء، وهو يضحك، وقربه من الكلب، قائلاً:

ـ تعال يا جيسان، خذه! خذ، أقول لك خذه! ـ ثم وضع الجرو الصغير الخائف أمام الكلب.

ومما أثار استغراب الحاضرين، أن جيسان قد نبح بحقد، وضم ذنبه إلى بطنه، وأحنى رأسه وهرب من المكان. ولم يعد ينبح إلا بعد وقت، إذ سُمع صوته، وهو ينبح بالقرب من النافذة ذليلاً، خائفاً. ضحك الجميع، وارتفع صوت بازارباي فوق صوت الجميع، وهو يقهقه:

ـ من العبث أنك تحاول يا مراد! لا يوجد في العالم كلب لم يخف من رائحة الذئب! فماذا تريد، فهل تريد أن يصبح جيسان ليثاً؟ هذا لم يحدث من قبل.

توقف الجميع عن الضحك، عندما أخذ الصبي الصغير كينجوش يبكي. لقد خاف على الجرو، وحاول الحفاظ عليه، ودافع عنه أمام ضحك وألعاب الكبار غير

المفهومة .

أما بازارباي ، فقد وضع الجراء الأربعة في الخرج ، وسافر بعد قليل ، إذ كان حصانه قد استراح . ولهذا غادر بازارباي المكان بسرعة وحيوية . كما ركب كل من مراد وريسكول حصانه ، وأخذا السلاح معهما ، شاعرين بالنشوة بعد أن شربا الفودكا . ولكن مراد قد شرب أكثر فبدا أكثر نشوة من الآخرين . تطوع هذان الشابان لمرافقة بازارباي ، حتى لا يحدث أي شيء كان مع الضيف الذي غادر بيت بوستون .

وقبل أن يخرج بازارباي من البيت ، شعر بنشوة خاصة ، إذ كان في مركز اهتمام كل من كان في البيت ، وأعطى الخرج الذي يحتوي الجراء إلى مراد وهو يقول : خذ يا مراد ضعه فوق السرج ، بينما أخذ السلاح المعلق على الجدار ، فوق جلد الذئب الكبير . ونظر إليه بتمعن فأعجبه جداً - إنه سلاح جيد ، صنعت قصبته من الفولاذ الأسود اللامع ، وتفرح العين بشكله الجميل ، وهو مخصص لاصطياد الطيور الكبيرة . وجلد الذئب هذا المعلق إلى الجدار ، هو جلد ذلك الذئب الكاسر الذي أرداه بوستون قتيلاً بطلقة واحدة . وعن هذا الحدث يعرف الجميع .

- إسمعي يا غوليومكان ! - قال بازارباي بصوت هادىء ، وهو ينقل نظره الذي سبح في النشوة ، من السلاح إلى صاحبة البيت . عصفت في رأسه فكرة مجون ؛ لو أنه قد صادف هذه المرأة غوليومكان في مكان ما ، بعيداً عن الانظار . . . لقد تعود أن يغتصب النساء ، أحياناً في الحقول ، أو على طريق ما . أحياناً كان يحظى بلقاء ما ، وأحياناً كان يفشل . ولكنه لم يدخر أي قوة في أي لقاء كان ، وكان يقارن بين غوليومكان من جهة وزوجته المنهكة كوك تورسون . أراد أن يضربها الآن على رأسها لأنها ، هي التي صادفته وأصبحت زوجته ، وليست غوليومكان . وهنا تمالك إرادته وقال : - في بيتكم كل شيء جيد ، فأنت صاحبة بيت ممتازة . ماذا أردت أن أطلب منك؟ إنني أخاف يا غوليومكان ، أن الذئاب ستطاردني من جديد . فما تقولين ، لو أخذت هذا السلاح معي ، وغداً سوف أرسله لكم مع شخص ما من جماعتي . . . .

- ضع السلاح مكانه ، من أجل الله ! ، - قالت غوليومكان بحدة . - فلم يسمح بوستون لأحد أن يمس سلاحه . ولا يجب مطلقاً أن يمس أحدٌ كان هذا السلاح .

- وأنتِ بدونه ، ليس بإمكانك أن تتصرفي بهذا السلاح؟ . ضحك بازارباي بخبث وتصور نفسه أنه قد حشر المرأة ، وسوف تحين الفرصة المناسبة لموافقتها .

- كيف تفكر هكذا !؟ سيأتي بوستون ، ويرى أن السلاح غير موجود في مكانه . ولماذا

عليَّ أن أعطيك إياه . . . . زد على ذلك أنني لا أعلم أين الطلقات . إن بوستون يخفيها بنفسه . ولا يسمح لأحد كان أن يمسها .

لقد سب بازاربـاي في نفسه بوستون بأقذع السباب : ليدفن عظامه بنفسه! كم هو بخيل ومقيت هذا البوستون! حتى أن زوجته أصبحت مثله ، وكاد أن يقول لها : فليقتلك هذا السلاح ، ولكن ريسكول تدخل على الفور ، وحل النقاش ، إذ قال ضاحكاً :

ـ لا حاجة للقلق أيها الصديق ، سوف أرافقك مع مراد ، على حصانينا ، إذا أردت ، ومعنا أسلحتنا إلى بيتك . لدينا متسع من الوقت ، والليل بطوله أمامنا ، أما هذا السلاح ، فمن الأفضل أن لا تمسه ، وعلقه في مكانه . فأنت لا تعرف حقيقة الأمر : بوستون هو بوستون الذي لم يتغير . وهو يحب النظام!

جهزوا أنفسهم للخروج ، ولكن ريسكول إضطر للتأخر دقيقتين ، حتى يداعب بوستون الإبن . أخذ كينجوش يبكي عندما وضع بازارباي الجراء في الخرج ، وتألم الصبي جداً عندما أخرجها من البيت ، وأخذ الصبي يقاوم أمه ، راجياً إعادة الجراء التي أحبها جداً . . . .

عندما خرجوا من ساحة البيت ، أخذ يحدث مراد عن حادثة مشابهة ، إعتقد أنها سوف تحمل البهجة إلى قلبي رفيقيه عبر الطريق :

ـ قبل فترة وقع خلاف في منطقتنا ، انتشرت أخباره على مجال واسع ـ سوف تضحك كثيراً! ألم تسمع يا بازارباي بتلك القصة؟

ـ كلا ، لم أسمع ، ـ أجاب بازارباي .

ـ لا ، انه في واقع الأمر خلاف كبير جداً . أقسم!

ـ حدثنا ، حدثنا أيها الطالب! ـ أخذ ريسكول يشجعه على الكلام ، وهو يحث الحصان بكعبي قدميه .

ـ إتصل ، يعني ، أحد القادة في المنطقة برئيس تحرير جريدتنا المنطقية ، وأخذ يقول : لماذا ، تنشرون على صفحات جريدتكم «فجر الاشتراكية» الدعاية لأمريكا الرأسمالية؟ . أما رئيس التحرير ، الذي درسنا معه في السنوات الماضية ، ونعرفه : أنه نذل ومراوغ ، لا أعرف من أمثاله إلا القلائل ـ ومن هذه الكلمات أخذ يتلعثم في كلامه . . «ن نـ نحن عن أمريكا لـ لا نعرف ، لا ، لم يكتبوا! س سـ سامحونا عن أي ، أي دعاية تتـ تتكلمون؟» وهنا أجابوه : «كيف لم يكتبوا؟ ذلك الشعار العريض الأسود . ألم تراه؟ ـ «بوستون ينادينا للسير خلفه»؟» هذا هو راعينا المتفوق بوستون أركونشيف ، عنه ، وعن عمله قد كتبوا . «هذا

واضـح، أنهم قد كتبـوا عنه، ولكن الكثير ين يقرأون في الصحف العناوين فقط «ها، ها، ها! يا لها من مسألــة! أليست عظيمـــة؟» وهكـــذا، كيف لنـــا أن نكـون؟» ـ يسأل رئيس التحرير. أما رئيس القسم فيجيبه: «أعطوا أمركم للمتفوق أن يغير إسمه».

ـ قف، قاطعه بازارباي، ـ وهل في أمريكا يوجد عندهم بوستونهم أيضاً؟

ـ كلا، ضحك مراد. ـ فبوسطن مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي إحدى المـدن الـرئيسية، أصغر بقليل من نيويورك، أما عندنا فبوسطن تعني ـ الفروة الرمادية. هل أصبح الأمر واضحاً؟

ـ تفـو، يا للشيطـان! حقاً! وافق بازارباي، وهو يأسف أنه لم يتمكن من التأثير على بوستون نهائياً. وهكذا، فان بوستون، هو الفروة الرمادية. . . .

في تلك السـاعـة بسطت الليلة رداءهـا الأسود، ذي النجوم فوق الجبال والبحيرات البعيـدة، حتى كان من الممكن أن يميـز الإنسـان المحـلي الجبل العالي. تابع الخيالة الثلاثة طريقهم وهم يمـــزحـــون، دون أن يفكـــروا للحظـة، أنهم، وفي تلك الليلة، قد ارتبطـوا ببعضهم بروابـط وثيقـة، في هذا المصـير القـاسي. . . . ومـع ابتعادهم عن البيت أخذت أحـاديثهم تخف تدريجيـاً، حتى أصبحت بالكـاد تسمـع قرقعـة حوافـر خيولهم. . . . ومن خلفهم كان يسمـع صوت ضجيـج محرك بوستـون المعـروف، الذي يعم نوره دائرة في وسط الظلمة الحالكة، التي تخيم فوق منطقة الجبال، وضمن بقعة النور هذه كان بيت الراعي وملحقاته.

على مقربة من هذا المكان، كانت تختفي الذئاب. . . .

ـ ٢ ـ

تمكنت غوليـومكـان بصعـوبـة من إقنـاع طفلهـا الصغير بأن ينام، وهي تعده بشتى الأشياء، وتبثه عطفها وحنانها، أما هي فلم تنم ـ كانت تنتظر زوجها: كان عليه أن يعود بين دقيقـة وأخـرى. وعنـدما نبحت الكلاب في الساحة، وضعت على كتفيها شالاً دافئاً واقـتربت من النـافـذة. أشعت مصابيح السيارة «غاز»، وهي تلتف عند الحظيرة الكبيرة التي تحتـوي على النعـاج الأمهـات، ورأت غوليـومكان، كيف خرج بوستون من السيارة وودع السـائق، ثم أغلق باب السيـارة، التي غادرت لتـوهـا المكـان عائـدة. علمت غوليومكان، أن زوجها لم يدخل إلى البيت أولاً: في مثل هذه الحالة كان يقوم بجولة حول حظائر الأغنام، ويتفحص ما يدور هناك، ويسأل الحارس قدورمات، كيف العمل، وهل

من جديد خلال اليوم الفائت، وكم من النعاج قد ولدت، وهل كان يوجد طرح....

أشعلت غوليومكان النار في الحطب الذي حضرته مسبقاً، حتى تستقبل زوجها بالدفء والأكل الساخن، والشاي اللذيذ، الذي بدونه لا يقدر بوستون على العيش بسعادة. وأخذت غوليومكان ترهف السمع لوقع خطى زوجها. وعندما يطأ العتبة، ستنعم بشعورها المسبق، أن زوجها سوف يقترب من طفلها كينجوش، ويقبله، وعندها سيشعر الصغير بالبرودة من شاربي أبيه، ويتململ في فراشه، وهو يحرك شفتيه وأحياناً كان بوستون، هو الذي يشرف على نوم الطفل، ويداعبه قبل ذلك طويلاً. وأحياناً كان يغسله، بعد أن يغلق الباب جيداً، ويعم الدفء أرجاء البيت. اعتقد الجيران أن بوستون قد أصبح في سنوات كبره محباً للأطفال ـ سابقاً لم يكن يحبهم هكذا، إذ كان يحب العمل أكثر من الإهتمام بالأولاد. أما بالنسبة لأولاده الكبار فقد أصبحوا أهلاً لأطفال ويعيشون حياتهم الخاصة بهم. ويأتون إلى أبيهم في المناسبات فقط. وكما يقال، الولد الأخير، هو المحبب أكثر من بقية الأولاد. وهذا بالطبع مفهوم بالنسبة لغوليومكان جيداً، إذ تعرف أسباب تعلق بوستون بالطفل الصغير كينجوش. فهما لم يعتقدا في أي وقت من الأوقات ـ لا هو، ولا هي ـ أن الظروف ستسمح لهما أن يصبحا زوجين، وأنه سيخلق لديهما طفل: فلو لم يستشهد إرنازار زوج غوليومكان فوق الجبل، ولو لم تمت زوجة بوستون الأولى، بعد إرنازار بقليل، لما كان قد حصل هذا القران بين بوستون وغوليومكان. وهما يدركان أهمية، عدم تذكر الماضي بالنسبة لسعادتهما، رغم أنهما يعرفان: كل منهما في وحدته، يفكر بماضيه.... أما الصغير ـ فهو مشترك، يربطهما ببعضهما برباط متين، وخاصة أنه جاء بثمن باهظ: إن الطريق نحو المنحدر، قد شق بمبادرة من بوستون، ومساعده إرنازار، الذي إستشهد أمام عينيه، وبقي هناك في أعماق الشق الجليدي.. وفقط هذا الطفل، أخذ يملأ تلك المعاناة القاسية في روحه، لأن الحكماء قد قالوا: الولادة وحدها، هي التي تمحو آثار الموت.

وها هو بوستون يطأ العتبة، فهبت غوليومكان لملاقاة زوجها، ومساعدته على خلع جزمته. جلبت الماء والصابون، والمنشفة. وأخذت تسكب الماء على يدي زوجها بهدوء دون أن يتكلما عن شيء، فالحديث سيكون بعد قليل. وعندما تناول طعام العشاء، وشرب الشاي، بدأ بوستون متحدثاً إلى زوجته الحبيبة، إذ قال: «كم من الحوادث والغرائب تحصل في هذا العالم يومياً!». وأخذ يتحدث بوستون عما شاهده، وعما علمه من جديد، وشعرا بالسعادة في هذه اللحظات، إذ لا شيء يعكر صفوهما في وحدتهما. الحديث الخاص بين الناس المقربين من بعضهم، يكون شيقاً، ومعروفاً، كما يعرف الإنسان موقف قاربه

عند الشاطىء. إذ يعرف أين الضحل، وأين العمق. تذكرا كيف التقيا بعد سنة من موت زوجته أرزيغول، وقررا أخيراً أن يتزوجا، عند ذلك، قدم بوستون من الجبل إليها، وهي تقدلن في بيتها السابق على شاطىء البحيرة، وكيف تركا الحصان، الذي كان يمتطيه بوستون مربوطاً، وجلسا في الباص المحلي، وشعرا بإحراج لأول مرة أمام الناس، المحليين، الذين يعرفوهما جيداً. وغادرا سوية إلى إدارة تسجيل الزواج في المنطقة، وهناك وقعا الأوراق المطلوبة على عجل، وخرجا مسرعين، ولم يرغبا بعد هذا أن يجلسا في الباص نفسه، ولم يرغبا بلقيا الناس المعروفين لديهم في الشارع. سارا نحو البحيرة وابتعدا عن الشاطىء، وعن بيتها مسافة طويلة. وفي ذلك اليوم من أيام الخريف، كانت زرقة بحيرة إيسك كول رائعة الجمال، لا تشوبها أمواج، وعند ذلك، وفوق موقف القوارب، الذي تحيط به الأعشاب الطويلة، شاهد بوستون قاربين مربوطين إلى قاعدة الموقف، فتوقف ناظراً بتمعن. كان القاربان يهتزان فوق تموجات الماء الخفيفة، ومن تحتها كان يبدو القاع الرملي النظيف.

«أنظري! الماء من كافة الجوانب، الجبال، الأرض، هذه هي الحياة. وهذان القاربان، يشبهاننا، نحن الإثنين. فإلى أين سيحملنا الموج - سوف نتذكر ما كان، وما عشناه أصبح من فعل الماضي، والآن علينا أن نعيش حياتنا، فتعالي نكون سوية إلى الأبد. فأنا، من الممكن القول، قد أصبحت كهلاً. ففي الشتاء سوف أبلغ التاسعة والأربعين. وعندك الأطفال الصغار الذين يحتاجون إلى عناية واهتمام، حتى يأخذوا أمكنتهم في الحياة... فلنذهب، سوف نجهز أنفسنا، ومن جديد سوف تعودين إلى الجبال، يا ابنة صياد الأسماك، ولكن، وفي هذه المرة ستكونين معي.... إنني عاجز عن الحياة لوحدي...»

لم تعرف غوليومكان، لماذا بكت آنذاك، وتذكرت تلك اللحظة والقاربين كثيراً. وكيف أخذ بوستون يحدثها طويلاً حتى تهدأ، وتكف عن البكاء.... وفيما بعد، وعندما كانا يجلسان ويتحدثان، كانت تعتقد غوليومكان أن الحديث مع الإنسان القريب هو كالنظر إلى الموقف، الذي يعرفه الإنسان جيداً. وفي هذه المرة لاحظت غوليومكان أن زوجها قلق أكثر من العادة. تناول بوستون المنشفة من زوجته وأخذ ينشف يديه تحت نور المصباح، كان بوستون أطول منها بقدر الرأس، تأنى قليلاً، وهو يمسح يديه. ناظراً، قاطب الحاجبين، وهو يضيق أجفان عينيه الخضراوين، ويبدا وجهه الأسمر من نور الشمس، والجاف قليلاً من الرياح، وكأنه قد اكتسب اللون الأحمر قليلاً، كلون العسل المائل إلى السواد قليلاً. ماذا

كان يعني كل هذا؟ بعد أن أنهى بوستون تنشيف يديه، إقترب في بداية الأمر من الصبي، وركع على ركبتيه عند السرير الخشبي، الذي صنعه له بنفسه. قبل إبنه بشفتين خشنتين من الريح، وهو يتمتم كلمات حنونة. ابتسم دون إرادة، عندما شعر كينجوش بالقبلة، وتحرك في فراشه.

ـ لقد قال لي قدورمات، أن بازارباي كان هنا في غيابي. ـ قال بوستون وهو يستعد للجلوس، لتناول الطعام، ـ ان هذا أمر ليس جيداً...

أدركت غوليومكان ما يقصده، فاحمرت وجنتاها، وبالكاد تمالكت نفسها عن الغضب: وماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لقد دخلوا إلى البيت كلهم. أراد أن يتباهى بصيد الجراء، ولقد أُعجب كينجوش بالجراء... وقدمت لهم الشاي...

ـ إنني لا أتكلم عن هذا. لقد أتى وذهب، فالأمر ليس بذي أهمية ولكن هذه المسألة تبدو لي سيئة للغاية...

ـ وماذا في الأمر من سوء؟ ـ لم تدرك غوليومكان ما يقصد بوستون ـ فأنت نفسك قد قتلت الذئاب. وهذا الجلد من السنة الماضية، يعلق إلى الجدار، على أحسن شكل، وتتباهى به. ـ أشارت إلى جلد الذئب فوق الجدار.

ـ إن الجلد معلق، حقاً، ـ أجاب بوستون، وهو يلتفت نحو زوجته. ـ إنك محقة، لقد قتلت يوماً أحد الذئاب، لأن الحياة هكذا قد تكونت في هذا العالم، يوجد الذئب، ويوجد الإنسان، ولكنني لم أغز مرة على صغار الذئاب، حتى أختطف الجراء الصغار منه. أما بازارباي، فهو إنسان لئيم الطبع، سرق الجراء، وترك الذئاب المتوحشة، في أبشع صورة من صور غضبها حرة طليقة. إنه بهذا قام بعمل يضرنا مضرة كبيرة. فالذئاب تعيش هنا ـ وليس لها من مكان آخر تذهب إليه. والآن، أنت تدركين مدى الغضب في نفوسها...؟

أثرت كلمات بوستون على غوليومكان. فتنهدت على طريقة النساء، وعدلت من وضع ضفيرتها التي تدلت على صدرها.

ـ يا للمصيبة! وما الذي حمل هذا الوغد إلى منطقتنا؟ ولماذا كان عليه أن يمس جراء الذئاب هذه؟ إنها صغيرة جداً، ومنظرها محزن للغاية ـ فأي كان يحب أولاده، حتى الحيوانات المتوحشة، فمن لا يعرف هذا. وكيف لم أدرك هذا على الفور.

ـ إنني أعتقد يا غوليومكان، ـ تابع بوستون حديثه بقلق. ـ فأي ذئاب كانت تلك؟ أليس تلك نفسها؟ ـ صمت بوستون وأضاف: ـ وحسب كلام قدورمات، أن الذئاب قد هاجمت بازارباي من جهة شعب باشات.

ـ وما في هذا الامر؟

ـ إنني أقصـد بكـلامي، ربما كانت هذه الذئاب من الجماعة القادمة ـ الذئب تاشينار والذئبة أكبارا. أنهما زوجان رهيبان.

ـ أتـرك تلك الطـرفـة من بالـك! ـ أخـذت غوليـومكان تضحك. ـ فهل توجد لدى الذئاب أسماء، كأسماء البشر؟ ياهذا الكلام الذي تقوله!

ـ أي طرفات! إنني لست في أريحية حتى أروي النكات. إننا نعرف هذين الذئبين، لانهما لا يشبهان الذئاب المحلية. لقد رآهما البعض أيضاً. إنهما زوجان قويان وعنيدان، لا يقعـان في الفـخ، ويصعب على الإنسـان أن يصطـادهما. يا لهذا السكـير الوغد! لماذا كان يلزمـه أن يدخـل إلى مغـارة هذين الذئبين بالذات، وأن يقضي على ذريتهما من أساسها. وأنتِ تستغربين، أن لهما أسماء! فالذئب تاشينار قوي للغاية، بإمكانه أن يقتل الحصان. أما الذئبة أكبارا، فهي أم غيورة، ذكية. بل ذكية للغاية! ومن هنا بالذات تأتي خطورتهما.

ـ كفاك، يا زوجي، لا تضحك عليّ! فهل أنا طفلة بالنسبة لك؟!

ـ ضحكت غوليـومكـان ساخـرة، ـ فأنت تحدث عنهم، وكأنك قد عشت معهم منذ الطفولة... فكيف يكون مثل هذا؟

إبتسم بوستون بتواضع ومحبة، وقرر أن لا يخيف زوجته، إذ قال:

ـ لا بأس، لا تفكـري بكـل هذا. وانسي ما قلتـه، لقـد أردت أن أضحـك قليلاً. أفـرشي لنـا، حتى ننام، لقد أصبح الوقت متأخراً، يجب النهوض في الصباح الباكر، فأنت تعرفين أن موسم الولادة بين الأغنام قد أوشك على الوقوع، ولم يتبق إلا يومين، وكثيرٌ من الأمهات تلد في الليالي أوفي الصباح الباكر، وخاصة تلك التي تحمل توأمين، أوثلاثة توائم.

خلدوا للراحة، بعد أن أطفأوا الأنوار، وقبل أن يغفو بوستون ـ وكان يخلد للنوم عادة على عجـل ـ تحدث لزوجتـه قليـلاً عن الاجتـماع إذ ناقشوا فيه، وليس لأول مرة، موضوع الشباب، ولماذا لا يرغبون بالعمل في تربية الأغنام، وماذا يجب عمله، وكيف يمكن تطوير العمل، وهنا سمع وقع حوافر الخيل في الساحة. نهضت غوليومكان من الفراش، واقتربت من النافذة وهي تضع الشال على كتفيها، فشاهدت كيف كان يقترب خيالان من الحظيرة بسرعة والأسلحة في أيديهم.

ـ أنهما ريسكول ومراد ـ قالت هي، ـ لقد أوصلا بازارباي وعادا.

ـ يالهما من غبيين! ـ همس بوستون، أما غوليومكان لم تغف فوراً. فغطت إبنها بصورة أفضل، لأنه كان يتكشف خلال الليل كثيراً، حتى يخلع الملابس أحياناً عن جسمه. ياله

من صبي! إنه يعذب أمه كثيراً خلال نومه، وخاصة عندما تريد أن تنام. أما اليوم فقد جفا النوم أجفانها نهائياً، إذ كان النهار غريباً، وليس كباقي الأيام، وكل ذلك بسبب بازارباي هذا، الذي وقع كالحجر فوق الرأس، وهو بالنسبة للزوج بوستون كالسكين الحادة، إذ أن بوستون إنسان هادىء لا يحبُ الضجيج ولا الصخب، ولا يحب الوقحاء من أمثال بازارباي، على الرغم من أن الأخير لم يسيء مباشرة لبوستون، بالطبع، أن بازارباي ليس صديقاً له، ويحسده على أن الأعمال تسير عنده على خير وجه.... ولكن هذا النجاح في عمل بوستون يتطلب الكثير من الأعمال، التي يعجز عنها بازارباي. وغداً، منذ الصباح الباكر يبدأ العمل، ويستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يعمل وعليه أن يرقب بعينيه كل شيء...

اقتربت غوليومكان من النافذة، ونظرت في الظلمة ذات اللون الألمينيومي، بينما كان القمر يسبح فوق الجبال العالية، والنجوم تلمع بكل بريقها. وحتى الصباح سوف يختفي، والنجوم ستخبو، ولكن في هذه الساعة المتأخرة، بدأ الليل، وكأنه أبدي في هذا الهدوء القاتل في أحضان الجبال، وكان صوت المحرك الكهربائي هو الشيء الوحيد الصاخب في هذا الليل.

من الصعب القول، كم عانت غوليومكان حتى غفت قليلاً، الا أنها وبعد قليل من نومها، ومن بين نباح الكلاب الكثيف، سمعت صوت عواء طويل. إستيقظت غوليومكان رغماً عنها، فسمعت بوضوح عواء الذئاب الأليم، المرتفع نحو السماء، والذاهب بعيداً بكل أسى ومرارة. شعرت غوليومكان برجفة في جسمها، فاقتربت أكثر من زوجها، والتصقت به، ثم تحول العواء إلى بكاء مرير، وأنين وشهيق معذب لوحش معذب عذاباً أليماً.

- إنها أكبارا! - قال بوستون بصوت أبح عندما استيقظ من النوم، ورفع رأسه بسرعة عن الوسادة مستطلعاً الأمر.

- عن أي أكبارا تتكلم؟. لم تفهم غوليومكان عما يتكلم زوجها.

- الذئبة! - قال بوستون، وأخذ يستمع بإصغاء الى عواء الذئاب، ثم أضاف:

- وتاشينار يعوي معها أيضاً. ألا تسمعين، إنه يجأر، كما يجأر الثور أمام المقصلة.

جمد الزوجان صامتين، حابسين أنفاسهما.

أووي - أووي... - ومن جديد عادت الذئاب مرة أخرى وأخرى لمتابعة البكاء الحزين، الذي انتشر في رحاب هذا الليل غير المحدود.

- مالها، - همست غوليومكان والرعب يسيطر عليها.

ـ كيف تسألين مالها؟ إن الوحوش تحزن وتتألم!
صمت الإثنان.

ـ يا للمصيبة! ـ نهض بوستون. وقال بصوت غاضب. ـ نامي أنت بهدوء. وراقبي الصبي حتى لا يستيقظ، ولا تقلقي، فأنتِ واعية، ولستِ طفلة صغيرة! إن الذئبة تعوي في مكان ما، قريباً من هنا، تبكي على أولادها، فما علينا أن نعمل الآن! وأنا سوف أذهب الآن، لأراقب الأمر عند الأغنام.

قال هذه الكلمات، ولبس ثيابه على عجل، ثم خرج دون أن يطفىء النور، وانتعل حذاءه، ثم عاد إلى الغرفة، وأطفأ النور، وخرج مقفلاً الباب خلفه. سمعت غوليومكان وقع خطاه بالقرب من النافذة، وهو يبتعد ويشتم ببعض الكلمات. ثم ناد الكلب: «جيسان، جيسان! تعال إلى هنا!» ـ

ابتعد حتى لم تعد تسمع غوليومكان وقع خطاه. وهنا، عادت الذئبة إلى العواء من جديد، وكان الذئب زوجها تاشينار، يعوي مشاركاً إياها في هذه المصيبة. وفي هذا العواء كان يتجسد الكره الكبير، وانقلب التهديد إلى بكاء، ومن جديد عادت الذئاب إلى التهديد والوعيد والغضب الشديد، واليأس القاتل، ومرة أخرى عادا إلى الرجاء والبكاء. . . .

من الصعب تحمل هذا العواء، الذي لم يعد يطاق. سدت غوليومكان أذنيها، ثم ذهبت ووضعت المزلاج خلف الباب، خائفة من أن تدخل الذئاب إلى البيت. كانت ترتجف، وهي تلف نفسها في منديل صوفي، وعادت إلى فراشها، دون أن تدرك ما عليها أن تفعل. خافت من أن تعود الذئاب إلى العواء مرة أخرى، وعندها سوف يستيقظ كينجوش الصغير خائفاً في هذه الظلمة، عندما يسمع هذا العواء الأليم.

تابعت الذئاب عواءها، وهي تنتقل من مكان لآخر وعلى مسافة قريبة، وتتجول في تلك المنطقة، ومن جهة أخرى كانت تعوي الكلاب بشراسة. ولكنها لم تجرؤ على مغادرة ساحة البيت. وفجأة دوت طلقة حادة، تصم الآذان، ثم طلقة أخرى، أدركت غوليومكان، أن بوستون والحارس الليلي قدورمات يطلقان النار لإخافة الذئاب.

بعد هذه الطلقات صمتت الكلاب، وصمتت الذئاب. «الحمدلله، وإلا قامت الذئاب بهجوم ما»ـفكرت غوليومكان بإرتياح، ولكن روحها مازالت قلقة، وشعرت بإرهاق نفسي لا يطاق. أخذت كينجوش النائم، وحملته إلى فراشها ووضعته في الوسط، حتى ينام الطفل بين والديه. وعند ذلك عاد بوستون إلى البيت.

ـ لقد أقضوا مضجعي ، وحرموني من النوم ، فليحرموا من الراحة ، ـ قال بوستون بغضب وكان يقصد الكلاب والذئاب ، وكل من سبب هذا ، وبالطبع ذلك الحيوان بازارباي . فياله من وحش! ـ تابع كلامه بغضب وهو يعود لفراشه .

لم تعد غوليومكان تقلق زوجها بالأسئلة . يكفيه أن الذئاب لم تسمح له بالنوم . وخاصة كان عليه أن ينهض منذ طلوع الفجر ، ويذهب إلى الأغنام ـ فهو ليس من الرعاة الذين يسمحون لأنفسهم أن يناموا حتى وقت متأخر .

استراحت غوليومكان ، عندما شاهدت زوجها قد خلد للراحة ، وهو يتنعم باحتضان ابنه الصغير ، ويقول له كلمات حلوة ودودة . كان يحب بوستون ابنه كينجوش حباً كبيراً ، ولذلك أسماه كينجوش بك ، أي البيك الصغير ، بل الأمير الصغير في السلالة ـ وخلال العهود الماضية سعى الرعاة ، وحلموا بأن يصبحوا أمراء ، ولكن القدر وسخريته ، لن يسمح للرعاة أن يصبحوا أمراء ، وبقوا رعاة . ولم يكن بوستون في هذا المجال إنساناً مميزاً .

عادا إلى النوم من جديد مع الطفل كينجوش ، الذي نام في الوسط ، ولكنهما إستيقظا مرة أخرى على صوت عواء الذئاب الحزين ، وأخذت الكلاب تنبح في ساحة البيت بكل ما أوتيت من قوة في حناجرها .

ـ ماذا حصل في هذا اليوم ! يالهذه الحياة ! ـ قالت غوليومكان بغضب ، ثم ندمت على ذلك ، ونهض بوستون صامتاً . وبدأ بارتداء ثيابه كما يجب . ـ لا تذهب ، ـ طلبت غوليومكان . ـ دعهم يعوون قدر طاقتهم . إنني خائفة ، لا لزوم لذهابك ، لا تخرج !

لم يرفض بوستون طلب زوجته ، وهكذا ناما في بيتهما الصغير ، ليلة مظلمة في الشمال ، وهما يستمعان ، رغماً عنهما إلى ولولة الذئاب . لقد تجاوز الوقت منتصف الليل ، وأخذ يقترب من طلوع الفجر ، بينما تابعت الذئاب ولولتها ، وهي تزعج الناس بعوائها الحزين والشرير .

ـ لقد أذلت أرواحنا بهذا العواء ، فماذا تريد؟ ـ قالت غوليومكان وقد فرغ صبرها .

ـ ماذا تريد؟ فالأمر واضح ماذا تريد ، أنها تطلب أبناءها ، ـ أجاب بوستون .

ـ انها ليست هنا ، فمن زمن بعيد أخذوا هذه الجراء من هنا .

ـ ولكنها من أين تعرف هذا؟ ـ أجاب بوستون ، ـ أنها وحوش وتعرف شيئاً واحداً : ان الأثر قادها إلى هنا ، وهذا المكان بالنسبة لها بمثابة نهاية الكون ، وهو بصيص النور الوحيد وحاولي أن تذهبي وتشرحي لها كل شيء ـ إنني لم أكن في البيت ساعة حضور

بازارباي، ولو كنت، لفركت رقبة هذا الحيوان. لقد أخذ الجراء، أما نحن فعلينا أن ندفع الثمن . . .

وتأكيداً لكلامه، عوت الذئاب بصوت عالٍ بالقرب من ذلك المكان، وكان العواء حزيناً كئيباً وثقيلاً على النفس، وأحياناً كانت الذئاب تولول بشراسة.

إن المصيبة قد أعمت الذئاب. لقد تاهت وهي تدور في الظلمة. وخاصة كان يسمع عواء أكبارا الشديد، كانت تنوح كالإمرأة فوق المقبرة، وتذكرت غوليومكان، كيف كانت تنوح وتبكي بمرارة، وتضرب رأسها بالجدار، عندما إستشهد زوجها إرنازار في الجبل، وسيطر عليها الحزن القاتل. وبذلت أقصى ما لديها من قوة إرادة، حتى تمالكت مشاعرها، ولم تحدث بوستون بما تشعر، وبما تفكر في هذه اللحظات.

وهكذا تمدد الزوجان، دون أن تغفو لهما عين، أما الطفل كينجوش، الذي لم يرتكب أي إثم كان في الحياة بعد، فقد كان ينام نوماً عميقاً، وخلال هذه الفترة التي استمعت فيها الأم غوليومكان إلى عواء أكبارا، وولولتها على الجراء المخطوفين، إزداد قلقها وتعاظم بخصوص طفلها، على الرغم من أنه لا يهدده أي خطر.

لاح فوق الجبال ضوء خفيف للفجر المبكر. وتقلصت الظلمة في الأفق، بعد أن قامت بمهمتها الليلية، وبرقت النجوم، وبعد قليل اتضحت معالم الجبال البعيدة والقريبة وانقشع الظلام نهائياً عن سطح الأرض الفسيحة . . .

في هذه الساعة انسحب الذئبان أكبارا وتاشينار إلى الجبل، نحو شعب باشات. وكانت تبدو أشباحهما كلما إرتفعا فوق الأماكن المرتفعة، وتذوب في المجهول كلما سارا في المنخفضات والوهاد. سار الذئبان مكتئبين منكسي رأسيهما ـ لقد عز عليهما فقدان أولادهما، وتعبا للغاية من العواء والمعاناة والولولة طوال الليل. ولهذا لم يخطر على بالهما أن يذهبا إلى ذلك المنخفض، حيث بقي جزء كبير من صيدتهما، الثور الذي قتلاه البارحة مساء. وحسب العادة، كان لم يتوان كل منهما عن ملء بطنه حتى النهاية من اللحم الطازج، ولكن، في هذه المرة، لم ترغب أكبارا أن تعود إلى صيدتها الشرعية، ولم يجرؤ تاشينار أن يقوم بذلك، دون موافقة القائدة.

عند طلوع الشمس، أخذت أكبارا تركض بكل قوتها، وكأن أولادها الصغار ينتظرونها. ولقد انتقل هذا الخداع الذاتي والإقناع النفسي إلى تاشينار، وها هما الآن يركضا في الشعب ـ كان يدفعهما إلى الأمام الأمل في رؤية صغارهما في أقصر وقت.

تكرر كل شيء ـ أخذت أكبارا تزحف على بطنها بين الأعشاب، ودخلت مسرعة

إلى المغارة، تحت الصخرة الكبيرة، وشمت زواياها الفارغة، واقتنعت من جديد، أن صغارها الرضعاء غير موجودين. لم ترغب بالإستسلام للأمر الواقع، فخرجت من المغارة وقد جن جنونها من هول المصيبة، فعضت تاشينار الذي اصطدم بها عن غير قصد عند باب المغارة، وأخذت تركض إلى جانب النهير، وهي تشم الآثار التي تركها بازارباي خلال وجوده مساء البارحة، كان كل شيء هنا لا يطاق ومعاد لها، وخاصة تلك القنينة المفتوحة، والموضوعة إلى جانب الحجر، وقد بقي نصفها من الفودكا، التي أخرجت الذئبة عن طورها لكره رائحتها. ولذلك أخذت أكبارا تجأر، وتعض نفسها، وتحفر الأرض بمخالبها، ثم عوت عواء طويلاً، وهي تضرب وجهها، وتبكي بصوت عالٍ، وكأن أحداً ما قد أهانها إهانة قاتلة، ومن عينيها الزرقاوين الرائعتين تدحرجت الدموع المعكرة بغزارة.

لم يكن إلى جانبها أحد حتى يساعدها على تحمل مصيبتها، ولم يكن أحد حتى يبكي لبكائها. باردة كانت تلك الجبال العظيمة...

- ٣ -

في صباح اليوم التالي، وفي الساعة العاشرة تقريباً، استعد بازارباي نويغوتوف لمغادرة البيت إلى مركز المنطقة، وأراد أن يضع السرج على حصانه، إلا أنه شاهد خيالاً يتجه نحوه. فماذا لزمه في هذه المنطقة؟ كان الخيال في فروة صفراء غير مزررة، وعلى رأسه قبعة من فرو الثعلب، كان يسير بسرعة على الطريق الغربي الصغير، جالساً فوق حصانه بوقار. عرف بازارباي الحصان على الفور، ودقق النظر، فتأكد أنه لم يخطىء - أن ذلك الخيال كان بوستون أركونشيف، يعتلي صهوة حصانه دنكوليوك. أثار ظهور بوستون في هذه المنطقة في نفس بازارباي شيئاً من عدم الرضى، واشمأز، ثم قذف السرج جانباً، وقرر أن ينتظر وصول جاره، غير المحبب لنفسه. وحتى لا يفكر بوستون، بأن بازارباي يستقبله بترحيب، أخذ ملء قبضته من القش اليابس، وأخذ يحك - وبر الحصان، وتصنع أنه مشغول بالعمل. تكون عند بازارباي شعور غريب، وكأن بوستون قد باغته في وضع حرج، أخذ يتجول في ساحة البيت، ثم ألقى نظرة على الحظائر، والرعاة المشغولين منذ الصباح بأعمالهم، وتأكد أن كل شيء على مايرام. بالطبع كان بازارباي يحسد بوستون على النظام الجيد عنده، وأنه يعمل بشكل خلاق، ولهذا كان يحوز دائماً على بطل العمل في المنطقة. (الألسنة الحاقدة كانت تقول: لو عادت تلك الأيام لنُفي بوستون كالاقطاعيين إلى سيبيريا). أما بالنسبة لبازارباي فهو راعٍ آسيوي عادي، وأمثاله في هذه المناطق لا يعدون

ولا يحصون في الجبال والسهول. إنهم يرعون ملايين الأغنام، والحيوانات الأخرى التي لا تسمح للأعشاب أن ترتفع فوق الأرض، وتأكلها بمجرد بروزها، وفيها بعد كل حسب عمله. فبوستون، يختلف كثيراً عن بازارباي، وخلال هذه اللحظات وقبل وصول بوستون، جالت في خاطر بازارباي عدة أفكار: «ماذا أصاب إقطاعينا بوستون، حتى شرف في هذا الصباح الباكر؟ لم يحدث هذا من قبل! . لم يفهم بازارباي الأمر. فلماذا حصل هذا؟ ومن أجل ماذا؟ «قرر أن يدعو بوستون إلى البيت، طالما حدث هذا، ولكن عندما تصور وضع بيته، غير المنظم، وقبل كل شيء وضع إمرأته البائسة، الشريرة كوك تورسون (هل من الممكن مقارنتها مع زوجة بوستون غوليومكان!) رفض فكرة دعوة بوستون إلى داخل البيت.

إقترب بوستون من ساحة بيت بازارباي. أوقف حصانه، ونظر من حوله، وعندما شاهد صاحب البيت يقف في الطرف الآخر، توجه نحوه. سلما على بعضهما بجفاء، ولم ينزل بوستون عن ظهر حصانه، وتابع بازارباي عمله، ولم ير أي منهما في تصرف الآخر ما يزعجه.

ـ من الجيد، أنني وجدتك، ـ قال بوستون وهو يمسح شاربيه بكفه.

ـ كما ترى إنني هنا. وما في الأمر، إذا لم يكن سراً؟

ـ لا يوجد أي سر، بل يوجد أمر محدد.

ـ بالطبع إن إنساناً مثلك، لا يأتي لأمر بسيط ـ قال بازارباي بصوت عالٍ. ـ أليس صحيحاً ما أقول؟

ـ صحيح.

ـ اذن، إنزل عن الحصان، طالما قدمت بعمل.

ترجل بوستون بصمت، وأسرع يربط حصانه دنكوليوك إلى مربط الخيل كعادته. وفي هذه المرة لم ينسى حل حزام الحصان، حتى يستريح، وحتى يتحرك بأريحية، ثم نظر من حوله، وكأنه يقوّم الوضع حول بيت بازارباي.

ـ ما بك تقف؟ ـ وماذا تنظر؟ خاطبه بازارباي بشيء من الانزعاج الذي أخفاه بصورة سيئة. ـ أجلس على جرن الخشب، ـ اقترح بازارباي، ثم جلس على غطاء الجرار الذي كان بالقرب منه. ا

نظرا إلى بعضهما نظرة جافة. وكل ما كان في بوستون، لم ينل يوماً إعجاب بازارباي: فروته الثمينة، التي خيطت بشكل جيد، وأطرت بفرو حمل أسود. وكانت غير مزررة فوق صدره العريض، وأنه قوي الجسم، وعيناه صافيتان، ووجهه كالعسل الأسمر، وبكلمة،

إن بوستـون بأكمله لم يعجب بازاربـاي، الـذي يصغـره بخمس سنـوات. ولم يعجب بازاربـاي أيضـاً، أن بوستـون قد نام البارحة مع غوليومكان في فراش واحد. شعر بازارباي بكل هذا، رغم أن الأمر لا يهمه لا من قريب ولا من بعيد.

ـ حدث يا بوستون ما عندك، إنني أستمع إليك، ـ قال بازارباي.

ـ إنـك تفهم يا بازاربـاي لأي أمـر قدمت، ـ بدأ بوستـون، ـ ها أنت قد أخـذت الخـرج، وربطتـه إلى سرج حصـانـك، عليـك أن تعطيني هذه الجـراء يا بازارباي. يجب إعادتها إلى مكانها.

ـ إلى أي مكان؟

ـ يجب وضعها في المغارة.

ـ ألهذا قدمت إذن! ـ قال بازارباي بإحتيال. ـ لقد فكرت، لماذا قدم بطل العمل من الصبـاح البـاكر إلينا. تركت أعمالك، وتجشمت عناء الطريق، ربما نسيت يا بوستون، أنني لست راعياً عندك، فأنا أيضاً صاحب أرض مثلك، وعليك أن لا تأمرني.

ـ لماذا تتكلم عن هذا؟! ماذا حل بك، هل يصعب عليـك أن تسمعني بهدوء؟ فإذا فكرت أن الذئاب سوف تنسى ما حدث البارحة، فانك تخطىء جداً، يا بازارباي.

ـ وماذا يخصني في الأمر! دعها لا تنساها، ولماذا عليّ أن أفكر بهذا، وما يخصك في هذا الأمر من شيء؟

ـ انه يخصني جداً، والبارحة لم تغمض لنا عين، طوال الليل كان الذئبان يولولان ملء حنجرتها. وهذه الوحوش لن تهدأ حتى نعيد أولادها. إنني أعرف طبيعة الذئاب جيداً.

لقـد ظهـر بوستـون أمامه بمظهر الراجي، ومن هنا شعر بازارباي بالكبرياء وأراد أن يتبختر، ويهزأ من بوستون، ويظهر قدر نفسه. ولم يكن ليتصور عقله حتى في الأحلام، أن بوستون بذاته سوف يأتي إلى بازارباي راجياً. وقرر بازارباي في نفسه، طالما أن الأمر حصل هكذا، فعليه أن لا يترك نصيبه من العجرفة. زد على ذلك، أنه خطرت لباله فكرة شريرة أخرى: شيء عظيم أن الذئاب لم تسمح لهم بالنوم! شيء جيد أنه لم يداعب غوليومكان. حبـذا لو كان هذا دائماً! وقـال وهـو ينظـر بطرف عينه إلى بوستون: عليك يا بوستون أن لا تقلق راحتي، وتوجع رأسي! هل تعتقد انني مجنون! فلست من أجل هذا قد أخذت الجراء، حتى أعيـدهـا بخشـوع، يبـدو أنـك لا تفهم ما تقول! وبعد كل هذا، لديك إهتماماتك، ولـدي إهتـمامـاتي، ولا يهمني الأمـر: نمت مع زوجتك أم لم تنم، فالأمر بالنسبة لي لا قيمة له، ولا يخصني.

ـ فكرْ يا بازارباي بما تقول، لا تجب بسرعة، ودون تفكير.

ـ وماذا عليّ أن أفكر؟

ـ من السيء أن تقف هذا الموقف. ـ قال بوستون، وبالكاد ملك أعصابه عن الغضب. وأدرك أنه إرتكب خطيئة كبيرة. وكان عليه الآن أن يستخدم الحجة الأخيرة لديه، فقال له وهو يحاول أن يحافظ على اتزانه السابق، ودون غضب: ـ إذن في مثل هذا الحال، تعال نتعامل معاملة البائع والمشتري، وحسب الأصول ـ فأنت تبيع، وأنا سأشتري! فأنت على أي حال، تريد أن تبيع هذه الجراء، فأطلب منك أن تبيعني إياها، وقل ما تريد من الثمن ـ وأنا سأدفع لك ما تريد!

ـ لن أبيعها! ـ ووثب بازارباي نصف وثبة في مكانه. ـ لن أبيعها لك مهما دفعت! ومن أنت حتى أبيعها لك! هل تفكر أنك وحدك تملك النقود، وغيرك لا يملكها! إنني أبصق على النقود التي تملكها. إنني على إستعداد أن أقتل هذه الجراء، ولن أبيعها لك. أتسمع؟! فلا يهمني الأمر ـ من أنت وماذا تريد! إسمع كلامي، واركب حصانك وغادر المكان، فسيكون هذا أحسن لك بكثير!

ـ لا تثرثر يا بازارباي، تعال نتكلم كلام الرجل للرجل. فأي فرق بالنسبة لك، لمن ستبيع جراء الذئاب الصغيرة؟

ـ يوجد فرق! وليس مطلوب منك أن تعلمني. فأنا عالم بدونك، وإذا أردت أن توسع الخلاف، فإنني سوف، أكيدك كما يجب في اجتماعك الحزبي، الذي تحاول أن تبرز من خلاله، وكأنك أنت بطل العمل لكل المتقدمين، وكأنك أكثر ذكاء من الآخرين، وبإمكاني أن أدبر لك الأمر هكذا، حتى تنسى من أين تشرق الشمس، وإلى أين تغيب. وأدبر الأمر لك حتى لا تنسى ذلك طوال حياتك!

ـ يا للغضب الذي يملأ نفسك! ـ استغرب بوستون بصراحة، وهو يهدء بازارباي قائلاً: ـ توقف عن تهديدي، وعن الوعيد، واشرح لي، لماذا أنت غاضب هكذا؟

ـ تسأل، لماذا أنا غضبان؟ ألا تعرف! فأنت تتصرف ضد السلطة. مفهوم! تتصور أنك وحدك الذكي! فالقيادة تطلب القضاء على الذئاب وكافة الوحوش. في كل مكان، وأنت قررت أن تدافع وتحمي الذئاب. وليس فقط، بل قررت أن تعمل على تكاثرها ـ هكذا يستنتج من موقفك؟ وهكذا فكرت بعقلك الكولاكي! إنني اختطفت بطناً كاملاً، وهذا يعني، أنني قدمت خدمة جليلة للدولة، وأنت تريد أن تعيدها إلى المغارة، وتريد أن تكبر وتتكاثر ـ أليس كذلك؟ وتريد أن تشتريني وترشيني!

ـ لا أريد أن أشتر يك، ولا أن أرشيك ـ وحبذا لو لم ترك عيناي! إنني أر
جراء الذئاب. وعبثاً تحاول أن تخيفني وتهددني حتى بالمحكمة. وعليك في البد
وأن تحرك مخك قليلاً، فماذا تعمل ومن أنت بعد كل هذا! ففي بداية الأمر حا
على الذئاب الكبيرة، إذا كنت بطلاً! وقبل كل شيء الذئبة، طالما ذهبتَ إلى
كنت عاجزاً عن ذلك، فقل لشخص آخر، حقيقة الأمر، ودعه يقوم بذلك، إ
القدرة الكافية.

ـ ومن سيكون هذا ـ ربما تقصد شخصك؟

ـ نعم، لربما كنت أنا! أما الآن، فأين ستجد هذه الذئاب ـ إجمع الريح
وطالما قمت بنهب وتخريب عشها، فمن الصعب الآن أن تجد الذئب والذئب
حتى تقتلهما، وهما الآن يتجولان، وسوف يقضيان على كل حيوان يجدانه
وخاصة المواشي، سوف يثأران في كل ساعة من الإنسان ـ وحاول أن تقف
فكرت بذلك؟

ـ تكلم! تكلم! أخيراً ظهر محامي الذئاب، إذهب وبرهن على ما ت
سيسمعك أو يصدقك؟ إنك تتحدث عن الذئاب، كما تتحدث عن الناس
تخدع عقول المستمعين إليك، إني أراك على حقيقتك! إني أقول لك شيئاً آخر.
إلى هنا حتى تضغط عليّ. . .

ـ لم يكمل بازارباي كلامه، وخلع القبعة عن رأسه الأصلع، ووثب نحـ
ـ الثور الغبي لا يعطي ولا يأخذ في الكلام ـ وهكذا وقفا وجهاً لوجه. تصاعدت
وخنقهما الحقد الدفين فيما بينهما.

ـ وماذا تريد أن تقول لي بعد هذا؟ ـ قال بوستون، وقد بح صوته من التـ
ما تريد، ليس لدي الوقت!

ـ لقد عرفتك سابقاً، إنك بخيل وحسود، وتسخر كل طاقتك لتجمع المال
ولهذا تذهب إلى الإجتماعات ـ وهل تعتقد أن الرعاة لا يقومون بمهامهم، إلا
إلى الإجتماع. ولكن، لا أحد يعرف، أنك حاسد للآخرين، وتختنق كالكلـ
يحظى إنسان ما بغنيمة، والآن أنت تحسدني، لأنك، ليس أنت الذي حصلت عـ
وليس أنت الذي نهبت الجراء، ولهذا كله تشتعل حسداً، ولا تقدر على نوم الليا
يحصل بعض الناس على مكسب ما.

ـ «تفو عليك!» ـ لم يصبر بوستون. ـ كيف لي أن أتحدث إلى مثل هذا الو

إنـني مجنـــون! لو علمـت، لما قدمت! إن الحــديث قد انتهى! الآن، حتى لو أعطيتني هذه الجراء، لما أخذتها. إذهب، وشأنك، وافعل ما تريد!

غضب بوستون جداً. إقترب من حصانه، وسحبه بحركة قوية، وشد الحزام، حتى تأرجح الحصان في مكانه، ونقل قوامه من مكان لآخر،ووثب إلى السرج على عجل. كان حانقـاً لدرجـة كبـيرة، حتى أنـه لم يسمـع نداء زوجـة بازاربـاي، تأخرت الزوجة المسكينة قليـلاً، خرجت من البيت، وشـاهـدت كيف يتحـدث زوجهـا بازاربـاي بصوت قوي مع شخص آخــر، ويحرك يديـه بغضب وعنف، وفكـرت: مع من يتحـدث هكـذا؟ ربـما أن بوستون قد قدم اليه فجأة، وعلى أي حال، ما الذي لزمه حتى قدم إلينا؟ ولكنها أدركت، أن خلافـاً ما، بين الـرجلين، فأسـرعت إليهـا، ولكنها لم تتكمن من الوصول قبل أن يغادر بوستـون المكـان، وأصبـح على مسـافة لا بأس بها، يحث حصانه الذهبي، وبدا من خلال حركاته غاضباً للغاية، ضغط على قبعته المصنوعة من فرو الثعلب، وضرب الحصان، حتى أخذ يعدو مسرعاً، وارتفعت أطراف الفروة من على جانبيه كالجناحين.

ـ بوستـون! بوستـون! يا بوستـون! إسمعني ـ أخـذت تصـرخ كوك تورسون، ولكن بوستون لم يلتفت ـ فمن يعلم، ربما لم يسمع، وربما لم يرغب بالإلتفات والاجابة.

ـ لماذا تصرفت هكذا مع هذا الإنسان وأزعجته؟ ومن أجل ماذا كان الخلاف بينكما؟

ـ أخذت كوك تورسون تخاطب بازارباي بشدة.

ـ هذا ليس من شأنك! فلا تصرخي. لماذا تنادينه، وما يلزمك منه؟ هل يقربك؟

ـ إنه حضر إليك مرة واحدة في حياته، وأنت كيف تصرفت؟ ومن أنجبك على هذا الشكل حتى تكون نشازاً في العالم؟ أنت وحش لئيم، وليس إنساناً!

أثـارت كلمات زوجتـه فيـه الغضب النهـائي، فوثب من مكـانــه، وصعـد إلى جرن الخشب، وصرخ في اثر بوستون:

ـ سوف أدوس أمك! إنك أخطأت العنوان! تعودت، أن الناس ينحنون أمامك! يا ابن الـ. . . سوف. . . أمك.

ـ كف عن السبـاب! كفـاك! ـ أخـذت كوك تورسـون ترجو زوجها، وتطلب منه أن ينزل عن جرن الخشب: ـ أضربني أفضل، لماذا تهين الإنسان؟ وماذا فعله بالنسبة لك؟

ـ إبتعـدي، أيتهـا القذرة! ـ دفعها بازارباي. ـ ما شأنك؟! إنه اعتقد، أن بازارباي سوف يستقبله بالترحيب والتبجيل، ويعطيه الجراء من أجل الله، وكما يريد! إنه أخطأ العنوان!

ـ إنـك تتصـرف هكذا من أجل جراء الذئاب؟ ـ استغربت كوك تورسون . ـ فكرت أن هناك سبب ذو شأن! هذه نهاية الكون! يا لك من حقير . . . !

في ذلك اليوم غادر الذئبان عرينهما ، وليس فقط ، بل ابتعدا عن المكان كله ، ولم يعودا إليـه في الليـل ، وأخـذا يتجولان في أمكنة أخرى ـ إذ كانا ينامان في أي مكان منطويين على نفسيهـما ، وأحيـانـاً يتجـولان في المنطقـة . ولم يحاولا الإختفاء ، إذ كانا يتصرفان بفضاضة ، وكأنهما لم يعودا يخافان من الناس . وفي تلك الأونة كان الرعاة يشاهدون هذين الذئبين أكبارا وتـاشينـار في أمـاكن قريبة ، لم يتوقعوا أن يروهما فيها . كانت الذئبة تسير في المقدمة ، منحنية الـرأس ، وكأنهـا قد فقـدت عقلهـا . أما الذئب فكان يسير ـ حسب عادته ـ خلفها . تكون تصـور عنـد النـاس ، وكأن هذين الـزوجين يبحثان عن حتفهما ، وخاصة أنهما كانا يقتحمان المخـاطـر . وفي أكثر من مرة كانا يقتربان من البيوت . ويثيران ضجةً وصخباً بين الكلاب ، التي تهرب من طريقهما . كانت الكلاب تنبح بشدة خارجة عن طورها ، وأعطت تصوراً أنها سوف تقوم بهجوم ، ولكن الذئبين لم يعيراها أي إنتباه ، حتى عندما كان الرعاة يطلقون النار خلفهما ، كان الذئبان يتابعان سيرهما ، وكأنهما لم يسمعا العيارات النارية . وأصبحت مقاومة هذين الذئبين الغريبة حديث الناس . ولقد تحدث الناس عنهما أكثر من قبل ، عندما أخذت أكبـارا ومعهـا تاشينـار بمهـاجمة الناس . ففي أحد الأيام حاولا الهجوم على سائق الجرار في وضـح النهـار ، ومـرة أخـرى في منتصف الطريق ، بينما كان يجر الحشيش اليابس في مقطورة الجرار . سمع صوتاً ما في المحرك ، نزل حتى يستطلع الأمر . بقي مدة طويلة ، وهو يصلح في المحـرك ، مستخـدماً مختلف المفاتيح ، وفجأة لاحظ ، على مسافة قريبة ، ذئبين يسيران عبر الثلج الـذائب نحـوه . استغـرب أكثر من أي شيء آخر ، تلك العيون الجاحظة للذئبة ، لقد حدث فيها بعد ، والرعب يسيطر عليه ، كيف هجم عليه الذئبان وأعينهما جامدتان لا يرمش لهما جفن . وكانت الذئبة أخفض بقليل من الذئب ، وعيناها زرقاوان .

كانت تلك الـذئبـة غريبة الأطوار . وبدت عيناها ذابلتين ، وكأنها تبكي . من حسن الطـالـع ، أن الشـاب قد تصرف بسرعة ، وصعد إلى غرفة قيادته ، وكذلك ، أن المحرك قد اشتغـل على الفـور ، وإلا كان عليـه أن يديـره من خلال «المناويل اليدوي» . وهكذا ، لقد ساعـده الحـظ ، اشتغـل الجرار ، فخاف الذئبان وابتعدا قليلاً ، ولكنهما لم يغادرا المكان ، بل تابعا المحاولات للإقتراب من السائق من هذه الجهة ، أو تلك .

وفي حادث آخـر ، وبـإعجـوبـة ، أنقذ الراعي الشاب . والحادث كان في وضح النهار

يضـاً، إذ كان قد ذهب راكباً حماره من أجـل جمع الحطب الجـاف للتدفئة. من بين الثلوج الذائبة. وخلال فترة قصيرة جمع بعض الحطب وفجأة فوجىء بذئبين، قفزا على حين غرة على الحـمار، وقبـل أن ينهق أرديـاه قتيـلاً. جرى الهجوم خلال ثوان، وسال دم الحمار على الفـور. ركض الـولـدُ والمنجـل في يده، حتى وصـل إلى قرب البيت، فوقـع وأخـذ يصرخ بصوت لا يشبه صوته، وعندما هرع الناس من البيوت مع أسلحتهم، واتجهوا إلى المكان، كان الذئبان قد غادرا المكان على مهل منهما إلى خلف الهضبة، حتى إطلاق العيارات النارية لم يجبرهما على الإسراع في مشيتهما...

وبعـد فترة قصيـرة قام الـذئبـان بمجزرة حقيقية بين النعاج التي ولدت لتوها، والتي سيقت إلى مرج قريب لترعى، لم ير أحـدٌ متى وكيف حصـل: هب النـاس عنـدمـا كاد الـذئبـان أن ينهيـا جميع النعاج، وهربت بعضها نحو البيوت، وبلغ عدد النعاج التي مزقتها أنيـاب الـذئبـين خمسـة عشـر رأسـاً. كانت جميعها قد قتلت فوق المرعى. لقد قتل الذئبان النعـاج بوحشيـة، إذ قضـيا حناجرها. لقد قتلاها دون معنى، ليس من أجل أن يأكلا، بل مجرد عملية ثأر، لا أكثر.

وهكـذا أخـذ الناس يحسبون حساب بطش أكبارا وتاشينار. فانتشرت الأخبار عنهما. ولكن النـاس أخـذوا الـوجهـة الخارجية للموضوع، ولم يعرفوا حقيقة الأمر كما يجب، جاهلين الأسباب الفعلية لهذا الثأر. ولم يعلموا بالحزن الشديد للأم ـ الذئبة لاختطاف أولادها.

ـ ٤ ـ

تسكـع بازاربـاي، وتنقـل من مكـان إلى آخـر، وهـو يشـرب الفـودكا التي اشتراها بالنقود، التي حصل عليها من ثمن الجراء، وتنزه في المطاعم على شاطىء البحيرة في تلك الفـترة الشتـويـة، إذ كان الـرواد قلائـل، أمـا الفـودكا فكانت موجودة بشكل دائم. وكان بازاربـاي يسكـر حتى يفقـد وعيـه وينام على الأرض، حتى بانت فوق صلعتـه النـدوب الكبـيرة، وهنـاك وخـلال شربه مع زملائه كان يحدث حديثاً واحداً، كيف استقبل بوستون الذي يعتبر نفسه عظيماً، وكيف أهان ذلك البخيل الأفعى، الإقطاعي الذي لم يحاكم بعد كما يجب، كما حوكم غيره في السنين السـابقـة، وتم تصنيفهم كأعـداء طبقيين وأعدموا. إني آسف لتلك الأزمـان الغـابـرة. حبـذا لو تعود. كيف لا، ففي العشرينات والثلاثينات كان بإمكان أي رجل من رجال الميليشيات أن يقتل الإقطاعي أو الأغنياء مباشرة في بيته. وبهذا الخصوص كتبت العديد من الكتب، وأذاعوا الأخبار عنها في الإذاعة، ويذكر الجميع كيف ضغـط أحـد الإقطـاعيـين على فلاح وقسى عليه في الحساب ذات يوم، فحوكم الإقطاعي

وأعدم في وضح النهار أمام أعين الجميع، حتى لم يعد يتجرأ أحد أن يهين الفقراء. كان يحب بازارباي أن يحدث، متلذذاً بكلماته، كيف طرد بوستون من عند بوابة بيته، وكيف شتمه وسبه عندما قدم بوستون إليه على حصانه. أما جماعة بازارباي في تعاطي الكحول فلا يعملون أي شيء في الشتاء، بعد أن ينهوا عملهم في المطاعم الصيفية في بيوت الإستراحة. كانوا يشربون، ويشربون، حتى لم يعودوا يسمعون إلا قرع الكؤوس والزجاجات الفارغة في الزوايا العابقة بالدخان من السجائر الرديئة، وهكذا كانوا يسكرون سوية وينامون كيفما صادف لهم أن يناموا، وعندما يصحون يعودون إلى السكر من جديد. وهكذا تابع بازارباي أحاديثه عن بوستون، حتى وصلت الأخبار الى مسمعه. ولهذا جرى بينهما خلاف كبير في الإجتماع عند مدير السوفخوز.

عشية ذلك الإجتماع لم ينم بوستون طيلة الليل، وهو يتقلب من جنب إلى جنب، إذ عصفت في عالمه الأفكار القلقة. كل شيء إبتدأ من أن الذئاب أخذت تدور حول مقر الشتاء، ومن جديد أخذا يكرران تلك الاسطوانة التي يصعب سماعها، والتي تعصر الروح عصراً. ومرة أخرى قامت غوليومكان من الخوف، وحملت إبنها كينجوش ووضعته بينها وبين زوجها، وهي تمسح على رأس صغيرها، وعلى جسمه، وكأن شيئاً ما يهدده. شعر بوستون وكأن القشعريرة تغزو جسمه، رغم أنه كان يفهم، أن المرأة من حيث طبيعتها تخاف من الظلمة، والأصوات غير المعتادة.

حاول بوستون عدة مرات أن ينهض من فراشه، حتى يطلق عياراً نارياً، ولكن زوجته لم تسمح له، فلم ترغب أن يتركها وحيدة، ولو لدقيقة واحدة، وفيما بعد خلدت للنوم قلقة وخائفة. ولكن بوستون لم يتمكن من أن يتغلب على الأرق، وخطرت لباله عدة أفكار ووصل إلى نتيجة مفادها، أنه كلما عاش أكثر في هذا العالم، كلما أصبح الوضع أكثر تعقيداً وصعوبة، وليس الأمر في متابعة الحياة، بقدر ما هو في تفهم معنى الحياة. وأن بوستون لم يفكر بكل هذا سابقاً، ولم يخطر له هذا على بال، أما الآن ففجأة أخذ يفكر بضرورة إيجاد الإجابة عن حقيقة الأشياء ومعناها الفعلي.

عاش بوستون، منذ طفولته حياة كدح وعمل، وكان مصيره في الحياة صعباً وقاسياً: والده إستشهد في الحرب العالمية الثانية، عندما كان يدرس في الصف الثاني، ثم توفيت والدته. عاش أخوة وأخوات بوستون الأكبر منه مستقلين عن بعضهم، والبعض منهم قد توفي. وكان عليه أن يعمل ليكفي نفسه، وأخذ يعمل، كما يعمل الآن، ومن يوم ليوم كان يزيد من نشاطه، دون أن يتهاون ولو في شيء عن تحقيق أهدافه، معتقداً أنه بالعمل وحده

بإمكانه أن يحقق ما يطمح إليه، بل في العمل وحده ينحصر معنى الحياة، وهكذا كان يعمل ويعمل ويجبر الآخرين، الذي يعملون تحت قيادته، أن يعملوا مثله. ولقد علم الكثيرون ممن عملوا معه معنى الحياة، إذ أنهوا مدرسته، وتخرجوا أناساً ناجحين، مدربين على العمل، ويقدرون الحياة من خلال العمل. وكل إنسان لم يطمح لإدراك هذا الهدف، كان غريباً بالنسبة لبوستون، ولم يحبه ولم يفهمه. وحسب أمثال هؤلاء، أناساً فاشلين، وكان جافاً في التعامل معهم، ويبتعد عنهم. وكان يعرف أن الكثيرين من هؤلاء، لم يحبوه، وحقدوا عليه من خلف ظهره، ولقبوه بالبخيل، والإقطاعي، وتأسفوا لأن بوستون قد ولد متأخراً، وإلا لكان قد مات في غياهب سيبيريا، ولكن بوستون لم يناقش هؤلاء الحاقدين يوماً، وكان يثق كل الثقة أن الحقيقة إلى جانبه، ولم يكن إلا ذلك، وإلا لانقلب الكون رأساً على عقب، انه كان يثق كل الثقة بذلك، ومتأكد كلياً، كما هو متأكد أن الشمس تشرق من الشرق. وأن القدر الأعمى قد أجبره مرة أن يركع، وأجبره أن يندم بمرارة، ومنذ تلك اللحظة عرف صعوبة ومرارة الشك. . .

- ٥ -

قبل حادث الموت المأساوي، عملت غوليومكان مع زوجها المرحوم إرنازار ثلاثة أعوام: كان عاملاً ممتازاً، يتقن عمله بإخلاص وكان إنساناً أميناً وصادقاً. بينما كان بوستو يعتمد على أمثاله في العمل ضمن جماعته. أتى إرنازار إلى بوستون ذات يوم بنفسه، وهكذ بدءا عملهما المشترك: سافر في الخريف إلى بوستون الذي كان يقيم مع الرعاة وقطعا الأغنام في منطقة بيشكونغ قبل أن يحل الشتاء. وقال لبوستون: «انني قدمت للتحدث اليك: لقد مللت العمل مع من لا يقدره، ومهما اجتهد الانسان، فاذا لم يكن قائد المجموعة صاحب خبرة في عمله، فان كل العمل يكون غير مجد، وهكذا تمضي السنين، والابنتان تكبران، ولم يبق إلا القليل حتى تتزوجا. ان الزمن يمضي بسرعة، ومهما عملت وعملت، فكل عملي دون نتيجة أو وفر. حتى البيت الذي بنيته كان عليَّ كالحمل الثقيل، واستدنت الكثير من الديون. وكل الناس يعرفون، كيف تنتهي الأمور. أما العمل معك فأتصور أن يكون مفيداً، ولا أخفي عنك، إنني أحلم بالعمل معك، لتحقيق بعض الوفر. زد على ذلك أنك تحصل يا بوستون على المكافآت التشجيعية مقابل الصوف النظيف، والتكاثر الجيد، والوزن وغير ذلك من الأولويات التي يمتاز بها عملك. وهذه المكافآت غير قليلة. وهكذا فكرت أن أطلب منك، اذا لم تعارض هذا الموضوع، أن تتكلم مع المدير،

عله يبعثني إليـك كراع أول، وسأكـون يدك اليمنى. إنني لن أخيب أملك، وسأكـون كفوأً للعمل، وتدرك بذاتك، أنني لو كنت أنوي غير ذلك، لما تحدثت معك هذا الحديث. . .

كان يعرف بوستون إرنازار منذ فترة بعيدة، وخاصة أنهما يعملان في سوفخوز واحد، زد على ذلـك أن غوليـومكـان كانت تقـرب زوجتـه أرزيغـول، وبالتالي كانا على درجة من القرابة، والمهم، أن بوستون قد وثق بإرنازار ثقة كاملة، ولم يندم على هذا فيما بعد مطلقاً.

ومن هنـا بدأت العـلاقـة، مع هذه القصـة الحيـاتيـة غير المعقدة. إنخرط إرنازار في العمل فوراً، ودون صعوبة، لأن إرنازار مثله، مثل بوستون رجل عمل حقيقي. ومن وجهة نظـر الآخـرين، إن «المجـانـين» من أمثـاله قلائل: لقد تعامل مع مواشي السوفخوز وكأنها مواشيـه الخـاصـة. فهـل هو مجنون؟! ومن هنا تأتي جميع ميزاته الأخرى ـ كان يعمل وكأنه يعمل في بيته، واعتنى بالممتلكات العائدة للسوفخوز كما يعتني بأموره الخاصة. ومن حيث طبيعتـه الخـاصـة، كان إرنـازار محبـاً للعمل. وكان يتسم بهذه السمة منذ الطفولة إذ منحته الطبيعـة هذه الصفـات، وطور هذه القدرة خلال الحياة العملية، وكان على الناس في هذه المنطقـة أن يتسمـوا جميعـاً بهذه الصفات، ولكن البعض يستخدمون هذه الصفات بما يخدم مصـالحهم الخـاصـة، بينـما يعمـل الآخـرون من أجل الجميع. واذا فكر الإنسان كم عدد أولئك الكسالى، الذين يشغلون المناصب في كل مكان ـ من الكبار وحتى الصغار، رجال ونساء. وكأن الناس لا يفهمون، كم من المصائب والمآسي قد حلت في حياتهم وتحل كل يوم بسبب الكسـل. ولكن بوستـون وأرنـازار كانا إنسانين مجدين، محبين للعمل، وكانا يشبهان بعضهما من حيث الطبيعة والأخلاق، كل هذه العوامل لعبت دوراً إيجابياً في أن يعملا معاً بصداقة ومودة، ويتفهما بعضهما من خلال نظرة واحدة، ولكن حدث هكذا، حتى أن هذه الميزة قد لعبت دوراً مصيرياً في حياتهما. . .

على أي حال، من يعرف، أن هذا كان سيحدث، أم لم يكن. . . والأمر يرتبط في أن بوستـون وقبـل فترة طويلة من ظهـور جماعات العمل، والأسر الإنتاجية، كان قد إنطلق من تصـوراتـه الخـاصـة، وطالب في كل مناسبة، أن تكون لدى جماعته مساحة من الأرض يستخـدمهـا بشكل دائم. إن هذا الهدف بسيط وواضح كالحقيقة، وأعرب عنه بوستون بلا مراوغـة، ولكن من وجهـة نظـره كانت مسألـة ذات جوهـر خاص، فلتكن عنـدي أرض للرعي، ودع القطعـان تكـون مسجلة على إسمي، وأنـا سوف أكون مسؤولاً عنها، وليس المشـرف العـام في السـوفخـوز، الذي لا يهمه الأمر حتى لو سال المطر عبر السقف، ولتكن عندي المراعي في الجبال من أجل الرعي في الصيف، حتى لا أرسل مع قطعان الأغنام إلى

أمكنة بعيدة للبحث عن المراعي، ودع الجميع يعرفون، أن هذه المنطقة من المراعي مسجلة على إسمي ـ أنا بوستون، وليس على إسم إنسان آخر، وحتى أتصرف بهذه المراعي كما يجب وكمالك غيور عليها، وكعامل فعال فيها. وعند ذلك سوف أعمل أكثر بمئة مرة، وأقدم للدولة نتاجاً كبيراً فوق الخطة، وأكثر بكثير مما لو أستخدمت الأراضي العامة، كما لو كنت أعمل كفلاح أجير، الذي سينتقل في الخريف القادم إلى مكان مجهول.

كلا، لم تتم فكرة بوستون هذه. في بداية الأمر وافق الجميع، وقالوا، ان هذا شيء صحيح، ومسألة عقلانية، وحبذا لو كل جماعة كانت مسؤولة عن مساحة من الأراضي، ودع الناس يشعرون بأنفسهم، أنهم أصحاب مصلحة حقيقية، وحتى يشعر الأولاد والأسر بهذا. وعرفوا هذا جيداً، وعملوا سوية فوق أرضهم، ولكن مجرد أن طرح أحد الإقتصاديين السياسيين المحليين من ذوي النباهة: أليس هذا نوع من الاقتحام على المبادىء الاشتراكية المقدسة؟ ـ عند ذلك يسير الجميع خلف أولئك، وأخذوا يتكلمون على عكس ما قالوه قبل قليل، ويبرهنوا على ما هو ليس ضرورياً للتأكيد. ولم يرغب أحد في أن يكون موضع شك. وفقط بوستون أركونشيف ـ الراعي الأمي ـ تابع التأكيد على فكرته في كل اجتماع للسوفخوز أو إجتماع للمسؤولين في المنطقة. كان الحضور يستمعون إليه، وتروق لهم الفكرة في البداية، ثم يأخذون بالضحك. كل ما يفكر به بوستون يظهر على لسانه، لأنه لا يفقد شيئاً، ولا يسرحونه من العمل، ولا يريد أي منصب، ولا يخاف من تحطيم مستقبله، ياله من انسان سعيد! وفي كل مرة كانوا يجيبونه بمختلف الأقوال والنظريات ـ وكان يجيب على طروحات بوستون المسؤول الحزبي في السوفخوز كوتشكوربايف، الذي حصل على دبلوم من المدرسة الحزبية في المنطقة، وتكونت بين بوستون وكوتشكوربايف علاقة تشبه حالة السخرية. وطوال المدة التي كان فيها كوتشكوربايف مسؤولاً حزبياً في السوفخوز، كان بوستون يفكر في طبيعته، ولم يصل إلى نتيجة واضحة ـ فإما أن كوتشكوربايف كان يصور نفسه ساذجاً، يحب الكلام كثيراً (من المحتمل أن هذا قد أعطاه أولوية)، وإما كان هو كذلك في واقع الأمر. أما مظهره الخارجي فكان متورد الوجنتين كالطواشي ـ ناعماً كالبيضة الملساء، حسن الهندام دائماً، إذ لم يخلع ربطة العنق نهائياً، يحمل حقيبة في يده، لم تفارقه أبداً. مشغول بصورة دائمة فالأعمال أعمال، ـ يسير بسرعة، ويتكلم كالرشاش، وكأنه يقرأ جريدة على عجل. كان بوستون يفكر أحياناً: ربما أن كوتشكوربايف يتكلم في نومه، كما في حياته العادية.

ـ أيها الرفيق أركونشيف، ـ انتقد كوتشكوربايف بوستون من خلف منصته ـ لقد

حان الـوقت لك أن تفهم ، أن الأرض ملك للشعب عامـة . وهكـذا جاء في الـدستـور. الأرض في بلدنـا تعـود للشعب ، للشعب فقـط ، وليس لأي شخص ويمكن القـول إنـك تطلب لنفسـك ، أرضـاً تستخـدمهـا كمراعٍ شتوية وصيفية ، وكأنك تريد أن تفرض عليها ملكيتـك الخـاصـة ، كما تطلب أن تؤمن لكَ الـدولـة السكن والعلف ومـا إلى ذلـك . اننا عاجـزون عن تحقيق ذلـك ، وليس بإمكاننا أن نحرف مبادىء الإشتراكية . هل فهمت إلى أين تتجه ، وإلى أين تريد أن تقودنا؟

ـ لا أرغب في أن أقـودكم إلى أي مكـان ، ـ لم يستسلم بوستـون . ـ فإذا لم أكن أنـا صاحب العمـل ، بل الشعب ، فدع الشعب يذهب ويعمـل في مكـاني ، وأنـا سأنتظر كيف ستكون النتائج . فاذا لم أكن أنا سيداً في عملي ، فمن سيكون في نهاية المطاف سيداً لهذا العمل؟

ـ الشعب ، أيها الرفيق أركونشيف ، مرة أخرى أقول لك ـ الشعب السوفيتي والدولة عامة .

ـ الشعب؟ ومن أنـا ، حسب وجهـة نظـرك؟ إنني لم أفهم أي شيء منـك ، ولمـاذا أنا لستُ بالـدولـة؟ فأنت مسؤول حزبي ، عالم شاب ، فأريـد أن أعـرف ماذا علموك هناك في مدرستك؟ إنني لم أفهم كلامك؟

ـ أنا أيها الرفيق أركونشيف ، لن أسير خلفك ، لأنك تحاول أن تقنعنا بفكرة إقطاعية لا معنى لها ، وعليك أن تعرف أن وقتكم قد مضى ، ونحن لن نسمح لأحد ما أن ينال من أسس الإشتراكية .

ـ الأمـر بالطبـع واضح بالنسبـة لكم ، أيتهـا القيـادة ، أكثر منـا ، ـ قال بوستـون بسخـريـة ـ، ولكني مازلت عنـد رأي . فأنـا الـذي أعمـل ، وليس إنسـانـاً آخـر ، وكلما طرحنـا فكـرة ما ، تحاولـون أن تغلقـوا أفـواهنـا : الشعب ، الشعب ، الشعب ـ صاحب الأرض ! حسنـاً ، فدع الشعب عنـد ذلـك يحكم : المـواشي تصبح مع كل عام أكثر وأكثر ، ويوجد في السوفخوز الآن أكثر من أربعين ألفاً من المواشي الصغيرة ، ولم يحلم أحد ما بهذا العدد من قبـل حتى في الأحـلام ، والأرض الفـارغـة تصبـح أضيق ، والخطـط تنمـو وتتضخم انظروا بأنفسكم : سابقـاً كنت أحصـل على ثلاثة كيلوغرامات وسبعمائة غرام صوف من كل رأس غنم ، بينـما بدأت قبـل عشـرين عامـاً من الكيلوغـرامـين ، والجميع يعلمون بهذا ـ فخلال العشرين عاماً ، تمكنت من خلال العمل المضني أن أرفع كمية الصوف مقدار كيلو وسبعمائة غرام للرأس الـواحـد . أمـا الآن ، وخـلال سنـة واحـدة لم تزد الخطـة بأكملهـا إلا نصف

كيلوغـرام. فمن أين لي أن أحصـل على الصـوف؟ وهل عليَّ أن أمارس الطرق السحرية؟، وإذا لم أحقق الخطــة، فإن جماعتي لن تحصـــل على شيء. ولـدى كل منهم أسـرة، يريـد إطعامها، وإلا لماذا على الناس أن يعملوا سنة كاملة خلف الغنم؟ وكيف يمكن تنفيذ قسم من الخطـة، لأن الأرض مشـاع، ولا يحق لأحـد أن يملكها. وكم مشاجرة كانت بين الرعاة لاختلافهم على المراعي، وأنت مسؤول حزبي، لا تعمل أي شيء، ولا تسمح للمدير أن يعمل شيئاً ما! ألم أطلعْ على واقع الأمر؟

ـ ما يخص مسألـــة، أني أعمـل، أم لا أعمـل، ـ هذا شأن اللجنـة المنطقيـة، ولكن اللجنة المنطقية لا توافق على اقتراحاتكم المتطرفة المغامرة يا رفيق أركونشيف!

ـ وهكذا، إن حديثنا ينتهي في كل مرة دون نتيجة. . .

وهنا، قاد المصير إرنازار إلى فرقة الرعاة التي يشرف عليها بوستون، وبهذا أصبح لديه رفيق يتفهم ما يريـده، ويـدعمـه في كل ما يطـرح، وكانت زوجة بوستون أرزيغول وزوجة إرنــازار غوليـومكان تضحكان عليهما أحياناً: وجد أحدكما الآخر، حتى أصبحتما لا تختلفان عن بعضكـما في شيء ـ لا نوم ولا إسـتراحة، لا يلزمهما إلا العمل، والعمل وحده، وكأنهما خُلقا واقفين. وعند ذلك ظهرت لديهما فكرة سوق المواشي خلال فترة الصيف إلى ما بعد وادي علا ـ مانغيو. وتعود هذه الفكرة لإرنازار، إذ قال: كيف العمل، هل علينا أن نمضي طوال الصيف عند سفح الجبل، نتقاتل مع جيراننا على كل عشبة. ورأى أنه من الأفضل أن نرحـل لفـترة الصيف إلى خلف الوادي، إلى مراعي كيتشبيبل. ويقول الأقدمون، إن الرعاة في الأزمنة الماضية كانوا غالباً ما يذهبون مع مواشيهم إلى هناك. وفي تلك الأيام ألف الـرعـاة تلك الأغنيـة «كيتشبيبـل» كانوا يعرفون أن مراعي كيتشبيبل، على الرغم من صغر مساحتها تكفي لفترة جيدة، وأن الأعشاب هناك غنية، وخلال خمسة أيام تتحسن المواشي بشكل ملاحظ، كما تتحسن خلال شهر من تقديم العلف لها.

لقـد فكـر بوستـون بهذا سابقـاً، ولكن منطقـة «كيتشبيبل» مجهولة بالنسبة لهم. ولقد ذهب رعـاة الكلخـوز قبـل الحـرب خلال فترة الصيف إلى كيتشبيبـل. عبر المضيق الجبلي الـوحيـد، عبر جبل علا ـ مانغيو الجليدي. وخلال سنوات الحرب، عندما لم يبق في القرى إلا الشيوخ والأولاد، لم يعد يجرؤ أحد على مثل هذا العبور، ثم مرت الكلخوزات في حالة من العــوز، فتــوحــدت في سوفخـوز كبـير، أطلقـوا عليـه إسم من ست كلمات تشكـل شعـاراً. . . يوبيليـاً ما. ولكن السكـان المحلين أطلقوا عليه إسم «بيرك» على إسم النهر، «بيرك ـ سو» وفي هذه الحالة الصعبة، وبعد الاتحاد والتحولات نسي المسؤولون، أنه يوجد

مكـان ما في الجبـال، بإمكـان الأغنـام أن ترعى فيه مدة شهرين ـ كاملين، ومن الممكن أن تتنزه المواشي وتستريح عبر مضيق جبل «علا ـ مانغيو»وربما لم يعد يرغب أحد من العاملين بقطع هذه المسافة عبر الجبال: حتى تجتاز المواشي الجبال عبر هذا المضيق الجبلي الصعب، من الضـروري أن يتمتـع الإنسـان بإرادة قويـة وحماسة وإندفاع للعناية بالمواشي. ومن هنا جاءت المقولة منذ غابر الأزمنة، أنه عندما يتصادف القرقيزيون يسأل أحدهم الآخر: «مال جـان أم نبي» أي عسى أن تكـون المـواشي والأرواح بخـير، ويسألـون في أول الأمـر عن المواشي، فلا غرابة في الأمر ـ الحياة هي الحياة. . .

لقـد تحمس كل من بوستـون وإرنـازار لهذه الفكـرة، فحسبـوا بالقلم والـورقـة كل الاحتمالات المـرتبطـة بمسألـة كيتشيبيـل: حتى في أخفض الحسـابـات، ومع الأخذ بعين الإعتبار، أن المواشي التي ستجتاز المضيق ذهاباً وإياباً، من الممكن أن تفقد جزءاً من وزنها، فقد توصلا إلى نتيجة جيدة ـ، خاصة أن النفقات المباشرة، إذا لم يحسبوا مصروفات النقل والنفقات الخاصة، قد كانت قليلة. حقاً، إن كل هذه الحسابات كانت تكمن في أعماقها مفاجآت.

قرر بوستـون أن يتـوجـه بقـراره إلى قسم الإدارة، ثم إلى مدير السوفخوز، ولم يتجه بطلبه إلى المسؤول الحزبي، فلم يجبه، إذ توصل إلى قناعة، أنه مجرد إنسان فارغ لا معنى لكلامه: هذا لا يجوز، وذلك لا يجوز، وبإمكانه فقط، أن يخطب في الإجتماعات. وينقل، ما في الصحف من أخبـار، ويتفـاخـر بثيـابـه، وربطـة عنقـه. ولقـد حدث بوستـون مدير السـوفخـوز عن فكـرتـه: إننـا قررنـا يا إبراهيم تشوتبايفتش أنا وإرنازار أن نذهب من أجل المصلحـة العـامـة إلى المـراعي القـديمة بعد مضيق علا ـ مانغيو، وإننا سوف نذهب نحن الإثنـان للإطـلاع على الطـريق، وننظـر أي أمكنة هناك في منطقة كيتشيبيل وأي اعشاب، وبعد ذلك، سوف نعود ونسوق المواشي لفترة الصيف، وإذا كان كل شيء على ما يرام، فلتكن هذه المراعي في منطقة كيتشيبيل مسجلة على إسمه، على إسم بوستون، وإذا أراد أحـد الـرعـاة أن يذهب إلى هنـاك على أثـرهم، فلا مانـع. فالمكان يكفي الجميع، ولكن المهم، أن يحدد له بوستون المراعي، وعلى ماذا بإمكانه أن يعتمد خلال فترة الموسم. نعم، إني قدمت إليكم بهذا الطلب، قررت مع إرنـازار أن نتجـه بعـد يومـين إلى مضيق علا ـ مانغيو، أما بالنسبة للأعمال، فقد كلفنا نساءنا ونساعدين القيام بها.

ـ نعم، يا بوستون، وماذا قالت نساؤكما بهذا الخصوص؟ ـ سأل المدير ـ وخاصة، أن هذا الأمر ليس مجرد طرفة تروى.

ـ يبدو أنهما قد تفهمتا الموضوع . لماذا على الإنسان أن يغضب الإله ، فبالنسبة لزوجتي أرزيغول ، أنها إنسانة ذكية ، وكذلك غوليومكان ، زوجة إرنازار ، وعلى الرغم من أنها أصغر من زوجتي ، فهي واعية ، ولقد اتفقتا مع بعضهما ، على خير وجه ، وهذا قد سرني للغاية . وليس هناك أسوأ من مشاجرة النساء ، إذ تصبح الحياة جحيماً . . . لقد كانت بعض الحوادث . . .

ولقد حدث المدير بوستون عن عدة قضايا أخرى ، من بينها ، أنه في خريف ذلك العام يوجد معرض المنتوجات الوطنية في موسكو ، وقُرر إرسال أبطال العمل في المنطقة ، وكان إسم بوستون من بينهم ، حتى في مقدمة القائمة ، وربما أول إسم فيها .

ـ ألا يجوز لي يا إبراهيم تشوتبايفتش أن أسافر إلى موسكو مع زوجتي ؟ أن زوجتي أرزيغول تحلم منذ أمد بعيد برؤية موسكو ـ طلب بوستون .

ـ إنني أفهمك جيداً ، يا بوستون ، ـ ابتسم المدير ، ـ عندها سنرى ، ولماذا لا ؟ ولكن يجب الحصول على موافقة المسؤول الحزبي . إني سأتحدث بهذا الخصوص . ـ مع المسؤول الحزبي ؟ ـ فكر بوستون .

ـ لا تخف ، يا بوستون ، وهل تعتقد أنه سيقف ضد زوجتك ، بناء على خلافه معك ؟ فهذا ليس من عادة الرجال .

ـ ليس الأمر في هذا ، وهل هذه المسألة هامة للغاية ، إن سافرنا ، أم لم نسافر . فليس في الأمر من مصيبة ، ولكني أردت أن أتحدث معك أيها المدير . قل لي من فضلك ، هل يلزمك هذا المسؤول هنا ، ولا يمكنك أن تستغني عنه ؟

وماذا ؟

ـ أريد أن أعرف رأيك ، فلنقل إن العربة تمشي على أربع عجلات ـ وكلها في مكانها ، فاذا وضعنا لها عجلة خامسة ، فهي لا تدور ، وتعرقل عمل العجلات الأخرى . فهل هذه العجلة ضرورية أم لا ؟

ـ حسب رأيي . . . ـ كان المدير شخصاً طويل القامة ، عريض المنكبين ، ضيق العينين ذو وجه واسع ، وتقاطيع كبيرة نسبياً ، فكر جدياً ، وأخذ يصنف الأوراق فوق الطاولة ، طبق بأجفانه المتعبة . «لم ينم كما يجب ، الأشغال كثيرة» ، ـ فكر بوستون بينما قال المدير : ـ إذا قلت لك بصدق ، فإنه يلزمنا مسؤول حزبي آخر ، يكون ذكياً .

ـ وهذا ؟

نظر المدير إلى بوستون بإختصار ، وقال :

ـ لماذا نناقش واياك هذه المسألة؟ فطالما أرسلته اللجنة المنطقية، فما عليك أن تفعل هنا.

ـ اللجنـة المنطقيـة. ألا تعتقـد، ـ قال بوستـون بعصبيـة. ـ كما أعتقد أنا. ويبدو لي الأمر، وكأنه يتصنع، ولماذا عليه أن يتصرف هكذا. ولماذا يلزمه أن هذا غير صحيح. فاذا طالبت بشيء، فإنني أطـالب من أجـل المصلحـة العـامـة. والأرض التي أطـالب لها، لن أبيعهـا، ولا أعطيهـا لأحـد كان، فكـما كانت تابعـة للسوفخوز، فانها سوف تبقى كذلك، وعلى أي حال، ما دمت على قيد الحياة، وما دمت أعمل، سوف أعيش وأعمل كما يملي عليَّ عقلي وضميري.

ـ ما بك يا بوستون، تحاول أن تقنعني بفكرتك، فلا يجوز ذلك، الذي تقترحه.

ـ ولماذا، لا يجوز؟

ـ لأنه، لا يجوز.

ـ وهل هذه إجابة؟

ـ وكيف لي أن أجيب عن سؤالك؟

ـ إنني أفهمـك يا إبـراهيم تشـوبـايفتش. إنك ذات يوم قد فشلت. أردت أن تعمل خيراً، فلم يفهمـوك، وعـاقبـوك، وخفضـوا من مرتبتـك، إذ حولـوك من عضـو في اللجنة المنطقية إلى السوفخوز.

ـ صحيح. وأكثر من هذا، لا أرغب في أن يصفعوني على رقبتي: قد أصبحوا علماء.

ـ لاحظت كيف، أن كل انسـان يفكـر بنفسـه قبـل كل شيء؟ فلست ضد التفكـير بالنفس، ولكن يجب أن يفكر الإنسان بشكل ذكي. والعقاب يجب ألا يكون لأولئك الذين عملوا شيئـاً جديـداً، بل أولئـك، الـذين بإمكـانهم أن يقـدموا شيئاً، ولم يقوموا به. ولكن للأسف، عندنا كل شيء على العكس.

ـ إنك تناقش بأريحية، ـ ضحك المدير.

ـ هذا ما يبدو للجميع، ولم أعد أطيق العيش، وكأني ضيف. فأي عمل من الممكن أن ينتظـره الإنسـان من الضيف؟ وأنت نفسـك تدرك، أن الانسان في بداية العمل، يعمل يوماً ـ يومين، ثم يضجر، إذا لم يعجبه العمل... وعندنا كيف يحصل الأمر عادة: تعمل، تعمـل، في حين يتربص كوتشكـوربايف حتى يضربك بإصبعه على أنفك ـ أنت ضيف، أنت لست صاحب عمل.

ـ تعال نتفق يا بوستون، هكذا: إعمل ما يروق لك. دون أن تقول إنني سمحت لك . . .

وبناء على هذا افترقا. . . .

بعد ثلاثة أيام، وعند طلوع الفجر توجه بوستون وإرنازار نحو كيتشيبيل. الجميع كانوا نياماً، عندما امتطيا حصانيهما. فأخذ بوستون حصاناً هادئاً، إذ كان حصانه «دنكوليوك» مازال صغيراً ـ بلغ في ذلك الوقت سنتين ـ ولا يعرف الطريق عبر الجبال، وللجبل من الضروري أن يسافر الإنسان على حصان بطيء السير، ومجرب، فهناك في المضيق الجبلي لا يمكن للخيل أن تعدو بسرعة. كما ركب إرنازار على حصان جيد وهادىء. كانت الخيل في ذلك الوقت من العام، قد أصبحت قوية، ولذلك إنطلق بوستون وإرنازار بسرعة، آخذين معهما ملء خرجيهما من الشوفان، إحتياطاً من أنهما سوف ينامان في الثلج، كما أخذا الفراء المصنوعة من جلد الغنم.

يكون الطريق ممتعاً، ويحمل السرور للنفس، عندما يكون رفيق الطريق إنسان جيد، ويجري الحديث بصراحة، ودون خلفية سيئة. أما الطقس فقد كان في ذلك اليوم رائعاً، وفي المقدمة كانت تشمخ الجبال بقممها المغطاة بالثلوج، قمة خلف أخرى، وكل قمة أعلى تغطى بثلوج أكثر، وعندما ينظر الإنسان خلفه إلى المنخفض، فقد كان يلحظ البحيرة العظيمة التي لم يستوعبها النظر. وفي كل مرة، كان يرغب الانسان أن ينظر إلى بحيرة إيسك ـ كول الزرقاء كالمرآة الداكنة. فقال إرنازار مازحاً:

ـ إيه، لو يتمكن الإنسان أن يأخذ معه في الخرج شيئاً من زرقة إيسك ـ كول.

فأجابه بوستون، بنفس الاسلوب:

ـ وماذا ستطعم الحصان، بدلاً من الشوفان ـ هل زرقة البحيرة تغني؟.

ضحك الإثنان، ونادراً ما كان أحدهما ينعتق من هموم العمل اليومي، في ظروف الرعي القاسية، مع العلم أنهما سافرا من أجل البحث عن المراعي أيضاً. بعد المضيق الجبلي، ستكون الظروف أقسى، والحياة أصعب، أما في تلك الساعة، فقد شعر كل منهما بالسعادة، إذ كان الطريق، الذي سار عليه الأجداد لطيفاً معهما. ومشى إرنازار بمزاج حسن ـ كيف لا وقد أخذت فكرته تتحقق. فمنذ أيام الحرب، وخلال أربعين عاماً، لم يسر أحد ما على هذا الطريق، عبر المضيق، وهكذا أقدم مع صديقه بوستون على هذه التضحية.

كان إرنازار من حيث طبيعته إنساناً محباً للنقاش والحديث المنطقي، ومعه الآن إنسان

جيد، ورفيق ممتاز، ولقد خدم إرنازار في الجيش في قطعات الخيالة بعد الحرب، لقد كانت تجربته كبيرة، على الرغم من مرور هذه الفترة الطويلة، وحدثت غوليومكان ضاحكة أن زوجها كاد أن يصبح ممثلاً، إذ قدم مخرج سينمائي، ذات يوم واقترح على إرنازار أن يقوم بدور في فلم يخرجه، إذ قال المخرج، لو أن زوجك إرنازار عاش في أمريكا، لكان بإمكانه أن يقوم بدور الكابوي. أما غوليومكان فقد أجابته: «أعرف سينماكم، سمعت أنكم أخذتم راعياً حتى يلعب دوراً، فلم يعد، إذ أخذته ممثلة، وأنا لا أسمح لزوجي إرنازار أن يغادر». يا للسخرية، سينما!

أما بوستون فقد أخذ يفكر في المستقبل، كيف سيعودون في بداية الخريف من منطقة كيتشيبيل، وقرر في قرارة نفسه أنه سيساعد إرنازار حتى يصبح قائد جماعة في بداية الأمر، وبهذا من الممكن أن يستقر إرنازار بشكل نهائي. حان الوقت منذ أمد بعيد أن يقود جماعة الرعاة، ولا يجوز أن يبقى هكذا مدة طويلة، راعياً، ولو كان هو- بوستون مديراً للسوفخوز أو مسؤولاً حزبياً، لكان وضع الناس في الأمكنة التي يستحقونها، ولكن، وكما يقولون في أوساط الشعب «في الدنيا لا ينال كل انسان ما يستحقه».

في الجبال لم يلتقيا بالجرارات والآليات الأخرى، ومع تقدمهما في الجبال، لم يعد يقع نظرهما على بيوت الرعاة الشتوية، وتغيرت أمامهما معالم الأرض: كان الطقس هنا غريباً، أكثر قسوة وبرودة. وعند المساء، وقبل غروب الشمس بقليل، وصل بوستون وإرنازار، وعبر الطريق الحجري الصعب عبر الشعب الجبلي حتى أسفل جبل علا ـ مانغيو. وما دام النور منتشراً فوق الأرض، فمن الممكن أن يقطعا مسافة أكبر، ولكنهما تباحثا فيما بينهما، وتوصلا إلى قناعة، أنه وعند سوق المواشي، يصعب عليهما، حتى لو خرجا عند طلوع الفجر، وسارا تحت ضوء النجوم، أن يجتازا هذه المسافة الطويلة خلال النهار، وطالما الأمر كذلك، يجب أن تقضي ليلة هنا عند عقدة المضيق. ويسمي الرعاة مثل هذه الليلة ليلة الإستراحة، التي تسبق اقتحام الجبال، زد على ذلك أن هذا المكان للإستراحة يبدو جيداً، ومناسباً ـ النهر يسيل من تحت الجليد، وهنا كان منبعه، وهنا كان من الممكن أن يختارا المكان المناسب إلى جانب الصخور، حيث لا تهب الرياح الباردة من جهة الجليد. كان الرعاة يعرفون جيداً أن الريح الباردة والخطر من جهة المناطق الجليدية يبدأ في النصف الثاني من الليل ويستمر حتى طلوع الشمس. وتنحصر المهمة آنذاك في أن يجدوا المكان المناسب لحماية القطعان الكثيرة من هذه الريح الفاتكة خلال الليل، وفي الصباح ينطلقون لاقتحام المضيق الجبلي، وفي هذا ينحصر جوهر ليلة الاستراحة.

أخـذ الصـديقان يفكان أحزمة حصانيهما بعد عناء الطريق الصعب، ويهتمان بهما كما يجب، وأخـذا يستقـران لقضـاء ليلتهـما، بعـد أن وجـدا المكان المناسب إلى جانب صخرة كبيرة. تناولا بعض الكحول، ولم يكسل إرنازار في النزول عبر الشعب إلى مسافة بعيدة، حيث كانت تنمـو الأشجـار الجبليـة، وحمـل بعض الحطب. أشعـلا النـار ثم تنـاولا طعـام العشاء، وحضّرا الشاي في إبريق المينيوم، ثم أخذا يجهزان نفسيهما للنوم بعد عناء الطريق الطويل والصعب.

في الأعالي، تحت المضيق الجبلي، عمت الظلمة، وعلى الفور أخذ الجو يبرد تدريجياً ـ حل شتاء قاس. والمسافة من الصيف إلى الشتاء لم تزد عن سفريوم واحد على الأحصنة. وهب الصقيع القارس من جهة جليد علا ـ مانغيو ـ.

ـ كانا على مسافة قريبة من جليد الجبل، الذي شمخ عبر القرون، حتى بدا للناظر ان بإمكـانـه أن يصـل إليها خلال مدة قصيرة، بل أنها في متناول اليد. ولقد قرأ بوستون في إحـدى الصحف، أن هذا الجليـد قابـع فوق الجبال ملايين السنين، وبفضل هذا الجليد، من الممكن أن تستمـر الحيـاة هنـا في المنخفضات ـ يذوب الجليد تدريجياً وتتكون الأنهار التي تحمل مياهها إلى السهول الحارة، والأراضي العطشى، نعم إن الطبيعة تقوم على أسس منطقية.

ـ أتـرى يا إرنـازار؟ ـ قال بوستـون قبـل أن ينـام، ـ أي برد وصقيع هنا! أتشعر كيف يختر ق البرد الأجسام؟ من الجبد، أننا، قد حملنا معنا الفراء.

ـ ان الفـراء شيء رائـع، ـ رد إرنازار. ـ ففي الأزمنة الغابرة كان الناس يلجأون إلى الصلوات، التي تسمى ـ صلوات المضائق. هل تذكرها؟

ـ كلا، لم أذكرها.

ـ أما أنا فأذكر، كيف كان جدي يقرؤ ها.

ـ إقرأها، إذا كنت تعرفها.

ـ إنني أذكر بعض كلماتها.

ـ على أي حال، أفضل من عدم معرفة أي كلمات. إبدأ.

ـ حسنـا، سوف أقـول، وأنت عليـكَ أن ترد. إسمـع يا بوستـون، ردد معي: «أيـا سيـدي العظيم يا إلـه السـماء البـاردة، ونهـر تينغري الأزرق، لا تعرقل طريقنا عبر المضيق الجليدي. وإذا أردت أن تموت المواشي تحت الجليد، فخذ غراباً في السماء بدلاً عنها، وإذا أردت أن يموت أولادنا من الصقيع، فخذ بدلاً عنهم بومةً من السماء. ونشد الأحزمة تحت

بطـون أحصنتنـا، ونشد الرحال فوق الثيران، ونتوجه إليك بكل وجوهنا، ولكن، عليك يا نهر تينغري أن لا تقطع طريقنا، واسمح لنا أن نمر عبر المضيق إلى المراعي الخضراء، إلى المشارب الباردة، وخذ هذه الكلمات عرفانا منا بالجميل «. . . يبدو هكذا، ولا أعرف كيف تنتهي هذه الصلوات. . . .».

ـ آسف. . . .

ـ وكيف لي أن آسف؟ فمثـل هذه الصلوات لم تعـد تلزم لأحـد، الآن يُدَرسـون في المـدارس، أن كل هذا، عبـارة عن شعـوذة وجهـل وتخلف، أنظـر كيف الناس يسبحون في الفضاء الخارجي، فوق مركباتهم.

ـ ولماذا الكلام هنا عن الفضاء؟ فاذا كنا قد طرنا إلى الفضاء، فهل من الضروري أن ننسى الدعوات والصلوات القديمة؟ إن الذين حلقوا في الفضاء يعدون على الأصابع، أما بالنسبة لعددنا فوق الأرض فهو كبير جداً، وبماذا نعيش؟ إن آباءَ نا وأجدادَنا قد عاشوا من خيرات الأرض، ومـا لنـا في الفضـاء؟ فدع علماء الفضاء يحلقون في الفضاء ـ هذا شأنهم، وعندنا عملنا.

ـ من الـسهـل يا بوستـون قول ما تفكـر به، ولـكن أمثـال المسؤول الحـزبي كوتشكـوربـايف كثر، وتجـدهم في كل إجتماع يهاجمـون كل شيء قديم، ويقولون: ليس كذلـك تحتفلون بأفـراح الـزواج، لماذا لا تقبلون بعضكم في الأعـراس، ولمـاذا العروس لا تراقص حماها، معانقة إياه؟ والأسماء التي تسمون أولادكم بها غريبة. وتتحدثون، وتأكلون ليس كما يجب، وتستخـدمـون الأسماء الخارجة عن القائمة الجديدة للأسماء الجديدة، وكل الاشيـاء القـديمـة يجب أن تتغير. ويظهر بعض الناس الذين يقولون: ليس كذلك تدفنون موتاكم، ويقول آخر: ليس كذلك تبكون الموتى، يجب أن تبكوا على الطريقة الجديدة.

أعلم هذا، يا إرنـازار، وكأن كل هذا غير معـروف بالنسبـة لي. ولـو سافـرت إلى موسكـو، ويقـولـون إنهم يريـدون أن يرسلوني في الخـريف للمشاركة في معرض المنتوجات الـوطنيـة، عنـد ذلـك، أقـول لك كلمة شرف، سوف أذهب إلى اللجنة المركزية، وسوف أطرح عليهم الموضوع، أريد أن أعرف: هل أمثال كوتشكوربايف ضروريون بالنسبة لنا، أو أن هذه الظـاهـرة، هي مصيبتنـا؟ وكلما قلت له شيئـاً ما لتحسين العمل، يقول لك إنك ضد الحـزب، وهـو على استعـداد أن يسـد حنجرتك، لأنه وحده يمثل الحزب، وليس من شخص آخر يستحق أن ينتقده. هذا هو واقع الأمر عندنا! وحتى المدير نفسه تحايده، لأنه لا يريـد أن يثـير المشـاكـل معـه. فالـرب معه! المصيبة في أن أمثال كوتشكوربايف، قد ازداد

عددهم في كل مكان. . . نم، أيها الصديق إرنازار. فغداً يوم صعب وشاق. . .

وهكـذا، وهما يتبـادلان أطـراف الحـديث خلد الـراعيـان للنـوم في تلك الليلة في الشعب، بالقـرب من المضيق الجليـدي العظيم لجبـل علا مانغيـو. كانت النجـوم تلمع في أعـالي السماء فوق الجبـال، جميعها، حتى آخرها، قد غفت في السماء، واستغرب بوستون الأمـر، أن هذه النجـوم الكبيـرة والثقيلة، كل واحـدة أكبر من قبضـة يده. لم تقـع على الأرض، بل بقيت معلقة في السماء، وهي تلمع دون كلل، والريح الباردة تصفر بشدة بين الحجارة. . . . لا يتسع المكان لإله الريح. . . إنه دائماً غير راض، ودائماً يخفي شيئاً ما في داخله. . .

استمـع بوستـون الى صفيـر الـريـاح البـاردة جداً من خلال شقـوق النـافـذة في تلك الليلة الغريبة، عندها أخذ يتذكر كل حياته وخاصة الليالي الأخيرة التي عاشها مستمعاً إلى عواء الـذئـاب الأليم والحـزين، وجمـع في ذاكـرته كل ما كان قد حدث معه في الحياة قديماً. وتعـذبت روحـه من المآسي، التي سببهـا له بعض النـاس الحـاقـدين والأوغـاد، الـذين يستخـدمـون مصـائب الآخـرين من أجـل الكذب والخداع وإثارة الشائعات. آه، كم هما قويـان في عملهـما القـديم هذا، الـذي اعتـادا عليـه كتنفس الهواء! بإمكانهما أن يسببا الألم والمصـائب لأي إنسـان كان، وبـإمكـانهـما أن يسـرقا النوم من أجفان الناس ويجبراهم على العـذاب ـ من القيصـر، حتى الراعي. وهكذا، أخذ بوستون يعاني من هذه الأفكار القلقة التي تناوبت بالقدوم إلى عالمه. ويصغي أحياناً لعواء الذئاب، التي تعود من جديد للتذكير بمصيبتها، وبدا هذا العواء الأليم، وكأنه الأنين العتيق الصادر من أعماق روحه. وبدا الأمر له وكأن روحه المريضة تحوم في الظلام، خلف الحظائر، أنها هي، روحه التائهة العمياء من وقـع المصيبـة، تبكي، وتعـوي مع الـذئبـة أكبـارا. ولم يعـد لديه أي قدرة على تحمل عواء الذئبة، وأراد أن يخرس صوتها بأي شكل. «يا لك من ذئبة كثيرة العواء! فماذا للإنسان أن يفعله معها؟ وماذا يلزمك مني؟ ـ غضب بوستون ـ. لم أقدر على مساعدتك في شيء، لقد اجتهدت ولكن لم أتمكن من إعادة أولادك. صدقي يا أكبارا، لم أتمكن. أرجوك أن لا تعوي بعـد الأن!، فلا أثـر لأولادك، ولن أجـدهـا. لوركضت وبحثت عنهم على بعـد مئـة فرسـخ. لقـد باعهم في أمكنـة مختلفـة، وشـرب بثمنهم. ويصعب عليـك أن تجديهم في مكـان ما! فا عقلي يا أكبارا! فكم من الممكن أن تعذبينا؟ إذهبي، إذهبي، يا أكبارا! إنسى هذا الأمر، أخيراً، إنني أفهم جيداً، أن المسألة صعبة بالنسبة لك، ولكن عليك أن تبتعدي، وتختفي، أسأل الله أن لا تقعي تحت نظري، فسوف أقتلك، أيتها البائسة، ولن أتوقف لحظة واحدة،

سوف أطلق النار عليك، لأنك قد أقلقت حياتنا، ولا تثيري أعصابي، فالحياة بدونك صعبة وأليمة، فبإمكاني أن أقتلك، ولكن كيف لي أن أتصرف مع أولئك، الذين يسخرون من مصيبتي، فأرجوك أن تبتعدي واختفي بعيداً عن نظري، حتى لا أسمع صوتك بعد الآن! وكان بإمكاني أن أقتل آخرين، أقسم بأمي، لن تهتزيدي، أو ترتجف لثانية. فيوجد لدينا معك عدو مشترك، فلقد سرق أولادك، يا أكبارا، ويهاجمني بلسانه القذر في كل مكان، وينشر الدعاية ضدي، وعندما أفكر بهذا، وكيف تصرفت آنذاك، وأنا أتشبث بأظافري، أنزل إلى تلك الهوة الجليدية، وكيف كنت أنادي إرنازار، وبكيت وحيداً، لا يواسيني أحدٌ في تلك الجبال الجليدية التي لا ترحم. لا أريد أن أعيش. لا أريد متابعة الحياة مطلقاً. وكان بإمكاني أن أترك هذه الحياة، وبصقت عليها، وعلى كل شيء، لو لم يكن هذا الصغير عندي. ها هو الآن، إلى جانبي، منطوياً على نفسه كالزغلول، ينام، حملته أمه إليّ؛ الأمر مفهوم، الأم تخاف عواء الذئبة، والطفل ينام لأنه نظيف من الهموم، لأنه طفل بريء، لقد وهبه الله لي مقابل عذابي، ومقابل تلك الآلام التي عشتها في حياتي، وأرى فيه حياتي وأملي الوحيد والأخير في الحياة. ولكن لم أطلب لنفسي هذا المصير، فهو نفسه قد أتاني، كما يأتي النهار، وكما يحل الليل، وحقاً ما يقال: لا يهرب الإنسان من القدر، وهذا الوغد بازارباي السكير الحقير ينشر الأكاذيب عني، لقد كان بإمكاني أن أخنقه، كالكلب، لأن المسؤولين لا يمنعوه من هذه التصرفات. ومن يساعده في هذا كله ـ المسؤول الحزبي أولاً، لأن ليس لديه عمل يقوم به، ويتمسك بمقولات ذلك السكير، يريد أن يحرم طفلي. . . كيف لا أفهم مصيبتك يا أكبارا! «هكذا فكر بوستون وهو يعاني من الأرق الشديد في تلك الليلة، ورغم قدراته العقلية، وطاقته الإنسانية، ودقة ملاحظته، لم يتمكن بوستون من إستيعاب أطر مصيبة أكبارا. وعلى الرغم من أنها غير قادرة على الكلام، فهي تعاني من الآلام الشديدة. بغض النظر عن أنها عاجزة عن التعبير عنها بالكلام. ولم تقدر على أن تتخلص من هذه المعاناة التي تمزقها. فهل كان بإمكانها أن تخرج من جلدها؟ وهي تحاول دون كلل أن تبحث في الجبال والوهاد مع تاشينار، الذي كان يسير خلفها دائماً، ويحميها في كل مكان وزمان، آملين أن يجهدا نفسيهما، ويسقطا عن قوامهما، ويموتا من التعب، ويلفظا أنفاسهما أخيراً؟ ألم تحاول، أن تطفيء اللوعة في نفسها من فراق أولادها، بأن هجمت مع تاشينار على كل كائن كان يصادفهما؟ ألم تحاول أن تعود إلى عرينها، أكثر من مرة، إلى تحت الصخرة، حتى تتأكد مرة أخرى. أن المغارة فارغة، وحتى تقضي على شعور التفاؤل في نفسها، وحتى لا تخدع ثانية بالأحلام؟ . . آه، كم هو صعب هذا! وفي

تلك الأمسيــة، تجولت أكبـارا، دون هدف ما، في المنطقـة، وفجأة إستـدارت أكبـارا دورة كاملة، واتجهت نحو شعب باشات، وأخذت تعدو، وهي تزيد من سرعتها. وكأن أمراً ما، تطلب أن تكـون موجـودة هنـاك. وتـاشينـار، حسب عادته، أخذ يركض خلفها، دون أن يقصر عنها لخطوة واحدة. وأكبارا تزيد من سرعتها: أخذت تركض كالمجنونة فوق الحجارة والصخور، تثب كالمسعورة فوق المرتفعات، ومن تحت الأشجار. . . وعبر الطريق المعروف لديها جيداً، ومن خلال الممر القديم، ومن بين شجيرات البارباريس خرجت إلى مغارتها، وكم من مرة دخلت إليهـا، حتى تتأكـد، أن العـرين خال، وأنه لم يدخل إليه أي كائن منذ تلك اللحظـة التي إختفت فيهـا الجـراء. ومن جديـد أخـذت تعـوي عواءً أليماً، واشتكت بمـرارة، وهي تبحث، وتشم كل شيء، كان يرتبـط برائحـة أولادهـا الصغار: «فأين هم، وماذا حصل لهم؟ ـ أين أنتم، يا أولادي، الأربعة الصغار؟ متى ستكبر ون، حبذا لو تقسو أنيابكم، كم كان جميلاً لو مشيتم إلى جانبي الآن، آه، كم كانت قوية أجنابي! كم كنت شعرت بالعزة في نفسي، ولم تشعر قوائمي بالتعب».

أخـذت أكبـارا تركض، وتـدور حول النهـير، الـذي مازالت تفوح بالقرب منه تلك الرائحة الكريهة، المنبعثة من فوهة القنينة، وبالقرب منها مازالت بقايا الشوفان الذي أكلت الطيور بعضه. . .

دخلت من جديـد إلى المغـارة، واضطجعت، واضعة رأسها عند وركها، واضطجع تاشينار إلى جانبها، وهو يبعث الدفء في نفسها، ويحميها من البرد بصوفه الطويل والغزير.

حل الليــل، وحلمت أكبــارا أن الصغــار إلى جانبهـا، في المغـارة، وهم يتقلبـون ويعبثون، متمسكين بحلمات الثدي، آه، كم مر من الوقت وهي تحلم بإرضاعهم الحليب، حتى شعــرت بالألم الشــديــد لكثــرتـه، آه، لو أعطتـه لهم حتى آخـر قطـرة وحبـذا لو رضـع الصغـار بنهم كبـير، وهم ينخـزون، ويغصـون من كثـرة الحليب المتـدفق. وهكذا شعرت أكبارا بأريحية حلوة، سرت عبر كل أطرافها، أنها لذة الأم في مشاعرها نحو أولادها. ولكن الحليب، ولسبب ما، لم ينقص. . . فقلقت الـذئبـة ـ الأم: لماذا حصل كذلك، ولماذا آلام الضرع لم تخف، ولم تشبع الجراء؟ ولكن الجيد، هو أن الأربعة جراء هنا، إلى جانبها، تحت جنـاحهـا، هاهم ـ ذلـك الـذي يتحرك كثيراً، ويعبث بطرف ذنبه الأبيض، وهنا، ذلك، الـذي يرضـع أكثـر من الجميـع، وهـا هو الآن يغفـو والحلمة في فمه، والثالث كثير العبث والبكـاء في آن واحـد، وبينهم جروة، ذئبة صغيرة، ذات عينين زرقاوين. هذه هي ـ أكبارا

الجديدة في المستقبل . . . ثم حلمت الذئبة ، وكأنها لا تسير على الأرض ، بل تطير ، دون أن تلامس قوائمهـا الأرض ، ـ وهـا هي في سهـول موينكـوم من جديـد ، في السهـول الفسيحـة ، وإلى جانبهـا أربعـة ذئـاب صغـيرة ، وهـم أيضـاً ، لا يركضون ، بل يطيرون ، ومعهم الأب ـ تاشينـار الـذي ينهب الأرض بعـدوه السريع ، وقفزاته الطويلة . أما الشمس فكانت تشع بقوة فوق الأرض ، والريح الباردة تجري ، كالحياة نفسها . . .

وهنـا استيقظت أكبـارا ، وتابعت تمددها دون حراك ، مرغمة بالواقع المر القاسي . ثم نهضت بحـذر ، وبهـدوء كلي ، حتى تاشينـار لم ينتبـه ، وخرجت بصمت من المغارة ، وأول ما شاهـدت ، عنـدمـا خرجت من المغـارة ، كان القمر الذي يشع بنوره فوق الجبال الجليدية . كان القمـر في تلك الليلة الصـافيـة قد بدا قريبـاً ، وبـارزاً في السـماء ، بين النجـوم ، حتى تصورت ، أنه من السهل الوصول إليه عدواً . إقتربت الذئبة من النهير ، الذي يخر بأصوات مختلفـة ، وكأنـه يتكلم ، وسـارت حزينة على ضفته ، مطأطئة الرأس ، ثم جلست ، واضعة ذيلها تحت بطنها ، وأخذت تنظر بتمعن إلى القمر المدور . وفي تلك الليلة شاهدت أكبارا ، كما لم يسبق لها أن شاهـدت ، ولـو مرة واحـدة ، إلهـة الـذئـاب «بيـوري ـ آنا» الموجودة فوق القمـر . ولقـد كان شبحها فوق وجه القمر يشبه لدرجة كبيرة أكبارا نفسها ـ وكانت «بيوري ـ آنا» تجلس هناك ، وكأنها حية ترزق ، تمد ذنبها ، وتفتح فمها بشراسة . وبدا الأمر لأكبارا ، وكأن ذئبـة القمـر تراهـا وتسمعهـا . رفعت أكبـارا رأسها عالياً ، وتوجهت إلى الإلهة ، تبكي وتشتكي ، وانسـاب البخـار مرتفعـاً من فمهـا : «انظري اليّ ، يا ربة الذئاب «بيوري ـ آنا ، هذه أنا ، أكبارا ، هنا في هذه الجبال الباردة ، بائسة ووحيدة . آه «كم أعاني ! هل تسمعين ، كيف أبكي ؟ هل تسمعـين ، كيف أعـوي وأبكي ، وكـل جسمي يئن من الألم ، وضرعي قد انتفـخ من كثـرة الحليب ، ولا يوجـد عنـدي من أسقيـه أو أطعمـه ، لقد حرمت من أولادي الصغيرة . آه ، فأين هم ، وماذا حصل معهم ؟ أنزلي أيتها الربة «بيوري ـ آنا» إلى الأرض ، تعـالي إليّ ، يا إلهـة الـذئـاب ، وأنـا سأقـودك إلى تلك المنطقة ، حيث ولدت ، في السهول ، حيث لم يعد هناك مكان تأوي إليه . يبدو أنه لم يعد للذئاب مكان فوق الأرض . . . . وإذا لم تنـزلي يا أيتهـا الـربـة «بيوري ـ آنا» فخذيني ، أنا الذئبة الرمادية ـ الأم أكبارا ، إلى عندك . وسأعيش فوق القمـر ، معـك ، وأبكي على الأرض . آه ! يا بيـوري ـ آنـا آ . . . آ . . . هل تسمعيني ؟ إسمعيني ، إسمعيني ، إسمعيني ، يا بيوري ـ آنا ، اسمعي بكائي ، ونحيبي ! » .

هكذا بكت أكبارا ، وعوت ، محدثة القمر طيلة تلك الليلة ، بين الجبال الباردة . . . .

انقضت ليلة الإسـتراحـة عنـد المضيق ، فاستيقـظ إرنـازار قبل رفيقه بوستون ، ولف

جسمه بالفروة، وذهب يتفقد حال الحصانين المقيدين.

ـ هل يوجد برد؟ ـ سأل بوستون إرنازار دون أن يطل من تحت الفروة، خوفاً من البرد الشديد.

ـ الطقس هنا كذلك بصورة دائمة، ـ أجاب إرنازار. ـ الآن برد، وعندما سترتفع الشمس قليلاً، سوف يعم الدفء.

الوقت مازال مبكراً، ومظلماً قليلاً في الجبال في هذه الساعة.

ـ كيف الحصانان، هل هما بخير؟

ـ وضعهما جيد.

ـ أفكر: عندما سوف نأتي بالمواشي، يجب أن نحضر معنا خيمة، حتى ننام تحتها في الليل، وحتى يكون بعض الدفء.

ـ بالطبع، هذا أمر سهل، وافق إرنازار. ـ سنضع خيمة مزدوجة، المهم الآن أن نحدد الطريق، والباقي سهل، ويرتبط بنا.

مع بزوغ الشمس، عم الدفء الجبال، وسكنت الريح، وبمجرد أن عم النور جيداً، قام الرفيقان وشدا أحزمة حصانيهما.

وقبل أن يجلسا فوقهما، نظر بوستون، مرة أخرى إلى الصخور البارزة والجرف الشديد. لقد كانت عالية ومخيفة، وبدا الإنسان ضعيفاً، وصغيراً إلى جانبها. وها هما إرنازار وبوستون يتحديان هذه الجبال، «المضيق لا يخيفنا ـ قال بوستون. ـ فالقضية قضية حياة. وعندما يكون الأمر مرتبطاً بموضوع الحياة، فمن الصعب أن يخاف الإنسان من شيء، ويسلك شتى الطرق الصعبة ـ في البحر، وتحت الأرض، أوفي السماء، وما علينا إلا أن نسير».

في بداية الأمر، قاما بالبحث عن الطريق القديم، الذي تم تنظيفه من الحجارة وفكرا ملياً، كيف من الممكن أن يكون الطريق ممتداً عبر المضيق. وتبين أن المضيق كان يمتد عبر المنخفض الذي تتراكم فيه الثلوج بين القمتين. ونحو ذلك الإتجاه قد سارا. وهناك، وخلف ذلك المرتفع، ابتدأ، كما يتضح الانحدار إلى الجهة الثانية من جبل علا ـ مانغيو، وهناك بالذات، كانت موجودة مروج كيتشيبيل، التي تنمو فيها ـ كما حدث المسنون ـ أشجار البتولا، ويجري نهر جبلي غزير، وغالباً، ما تخفي الطبيعة الأماكن الجميلة والرائعة في زوايا بعيدة، وتجعلها صعبة المنال، ولكن عندما يجري الحديث عن الخبز الضروري

للحياة، فعلى الإنسان أن يناضل من أجل أهدافه ـ عليه أن يعـش فوق هذه الأرض. . . .

أصبح الطـريق ملتـوياً، ومتعرجاً للغاية. وعندما سمكت طبقة الثلج صعب المسير على الخيـل، وكلما تعمقـا بين الجبـال، كلما إزدادت طبقـة الثلج سماكـة. نشـرت الشمس أشعتهـا، وهـدأت الـريـح، وفي الهـدوء الكـلي كان من الممكن إحصـاء تنفس الحصـانين المسموع جيداً، كما يسمع الخيالان أنفاسهما الخاصة.

ـ ماذا تقـول؟ ـ إلتفت بوستـون إلى صديقـه سائلاً: ـ وإذا كان الثلج أطول من المسافة بين الأرض وبطن النعجة، فسيكون المسير صعباً بالنسبة للمواشي. فماذا تقول؟

ـ بالطبـع توجـد مصـاعب، يا بوستـون، ونحن نعـرف إلى أين نسـير. المهم أن لا يستمـر هذا الـوضـع الصعب كثـيراً. وإذا تعقد الوضع،علينا أن نحفر طريقاً للأغنام، وفي بعض الأماكن الأخرى من الممكن أن نطرق الممر.

ـ إنني فكـرت بنفس الشيء، يجب علينـا أن نصطحب معنـا المجاريف والمعاول. لا تنسى في المستقبل يا إرنازار، علينا أن نصطحب معنا الأدوات اللازمة.

عنـدمـا أصبح الحصانان يغوصان في الثلج حتى الركب، خلع الخيالان العنانين من أفواهما، وأبقوهما على الرسن فقط، إذ لم يعد يكفي الهواء للتنفس، وكان من الضروري أن تتنفس الكائنات بأفواهها أيضاً. أما بياض الثلج الناصع، فقد كان يبهر العيون. كان من الضروري وضع نظارات قاتمة كتلك التي يضعها الناس الآن في الشوارع. وكان عليهما أن يخلعا فروتيهما، ويلقيا بهما فوق سرجي حصانيهما. تنفس الحصانان بصعوبة، وعرقا، بينما كانت أجنـابهـما تطـرق بشـدة، ولحسن الحـظ كانت المسـافة قصيرة كي يجتازا تلك المسافة المنخفضة التي تكدست فيها الثلوج كثيراً.

كانت الشمس قد أصبحت فوق قمم الجبال المغطاة أبدياً بالثلج الكثير، ولم يكن في الطقس أي تغير سريع، إذ لم يأخذا بالحسبان بعض الغيوم المتبعثرة في السماء. والتي بدت ناعمـة ولطيفـة ككتـل من القطن المنفـوش. وعنـد ذلك لم يصدق كل منهما، أنه، وفي تلك السـاعـة، وعلى ضفاف إيسك ـ كول كان الجو حاراً، حتى كان السابحون يتمددون على الشاطىء معرضين أجسامهم لأشعة الشمس.

بقي عليهـما مسـافـة خمسماية متر، فأخذا يفكران، كم هو شيء جيد إذا كانت الجهة الأخرى من المضيق أفضل من هذه. . .

تمكن بوستـون، وإرنـازار من اجتيـاز المضيق، وتـوقفـا للإسـتراحة. لقد تعبا جداً،

وأرهقا للغاية، كما أرهق الحصانان إرهاقاً شديداً. وقف الصديقان ينظران بإرتياح إلى الأسفل إلى الطريق، التي قطعها كل منهما.

ـ انتهت المصاعب يا بوستون، ـ قال إرنازار مبتسماً. ويرقت عيناه من الفرح. هنا، من الممكن المرور مع القطعان، بالطبع، إذا كان الطقس جيداً.

ـ بالطبع، كذلك. في الطقس الجيد، والطبيعة الهادئة.

ـ هكذا، لقد قطعنا وإياك مدة ساعتين ونصف، ـ قال إرنازار، وهو ينظر إلى ساعته، ـ وكأننا لم نتعب كلياً؟

ـ أما مع قطعان الأغنام، فسوف تحتاج هذه المسافة إلى ثلاث ساعات ـ قال بوستون، ـ وربما أكثر. ولكن المهم في الأمر، أننا تأكدنا، أنه من الممكن إجتياز المضيق. أما الآن فلنتابع طريقنا. وأتصور أنه من هناك، وكما يبدو لي، سيكون النزول أسهل، وبعد قليل ستبدو لنا منطقة كيتشيبيل. هناك، ربما تكون الأرض خضراء سندسية . . .

تابعا المسير. وعلى حافتي الطريق كان الثلج يكسو الأرض، ففي بعض الأمكنة كان متساوياً أفقياً، ومكنساً من أعلاه بالريح، وحبيبات الثلج تلمع، وأحياناً تبدو المنكسرات الصخرية الحادة، ومن حولها تكدس الثلج في الظل بعيداً عن أشعة الشمس. ومن خلال كل المؤشرات، يتضح أن الثلج كان سينتهي قريباً، ويدخل الصديقان إلى عالم جديد. أرادا أن يصلا بسرعة إلى تلك المنطقة، ويريا بأعينهما كيتشيبيل ـ هدف رحلتهم. سار الصديقان في منتصف المضيق بين الجبلين، كما بين سنامي جمل. وبدا المنظر الموعود قريباً جداً. سار بوستون وهو يحرث الثلج برجليه، ويقود حصانه خلفه، وفجأة أحس بشيء إهتز تحت رجليه. وسمع صراخاً أتى من الخلف.

نظر بوستون إلى الخلف بسرعة وجمد في مكانه: لقد إختفى إرنازار تحت الأرض، لم يعد يُرى لا هو، ولا حصانه. كان الثلج يغزل ويدور من المكان الذي هبط فيه.

ـ إرنازار!ـ صرخ بوستون بقوة، حتى أنه قد خاف من صراخ نفسه، وذهب الصدى يتردد في الأماكن الهادئة.

اقترب بوستون من ذلك المكان، حيث كانت تطير ذرات الثلج، وبعد فترة توقفت العاصفة، فوجد أمامه هوة عميقة، بدت له قاتمة سوداء، وفاحت منها رائحة البرودة القارسة. عند ذلك تمدد بوستون على بطنه فوق الثلج، وأخذ يزحف حتى طرف الهوة، وهو لا يدرك بل لا يريد أن يدرك أو يصدق ما حصل. وتحول بكل جسمه ومشاعره وإحساساته وأفكاره إلى خوف، وهذا الخوف قد قيد جسمه بقيود عاتية. ورغم كل ذلك كان بوستون

يزحف ويـزحف، وثمـة قوة ما ساعدته على الزحف والتحرك، والتنفس، زحف بوستون، وهـو يستنـد على مرفقيه، ويمسـح الثلج الـذي يلتصق بوجهـه . وأدرك أن تحتـه طبقة من الجليد، وتذكر ساعتها الأحاديث والقصص عن الانزياح الجليدي، وعن الإنكسارات التي تحدث في الجليد، تحت الثلج، حيث كانت تختفي قوافل كاملة. وتذكر اللعنة المعروفة: «أن تغرق في هوة لا نهاية لها» ولكن لماذا حلت اللعنة على إرنازار، وليس على إرنازار وحده، بل على بوستون أيضاً؟

إن ذلـك كان حسب رأي الحـاسـدين له، لقـاء جشعه، إذ كان كل شيء بالنسبة له قليل. وهو غير راض عن عمل الجميع . . . لو كان يعلم، أن هذه المصيبة ستقع . . . !

زحف بوستون إلى حافة الإنكسار - وبدت أمامه هوة الانكسار حادة، عميقة، ليس فيها أي نور، ويذهب الإنكسار بعيداً، إذ لم يكن ممكناً رؤ ية قاعه، خاف بوستون وارتعد رعباً.

- إرنازار - همس بوستون ببطء - لقد جفت حنجرته كلياً، - ثم صرخ بأعلى صوته، فخرج صوت غريب ممزق: - إرنازار، أين أنت؟ إرنازار! إرنازار! إرنازار!

صمت بوستـون، فبـدا له، وكأنـه، قد سمـع صوتـاً من أسفل الهوة، يشبه الأنين، بالكاد ميز من خلالها كلمات: «لا تقترب». فصرخ بوستون:

- إرنـازار! يا أخي! الآن، الآن! أصـبر قليـلاً! الآن، الآن سوف أسحبـك! نهض بوستـون، وهـو يخاطـر بحيـاتـه. وركض حارثاً الثلج برجليه، نحو الحصان، وأخذ يجمع، ويقص عدة الحصـان: الحبـل والبلطـة، وغـيرهـا من الأدوات كانت موجـودة مع إرنازار، وسقطت معـه في الهـوة. أخـذ بوستـون السكـين وقص نهايـات الأحـزمة الجلدية، والحزام الخلفي، وحزام الصدر وأحزمة الركب، وحزام البطن، والرسن، واللجام. ووصل كل هذه الأدوات ببعضهـا حتى أصبحت حبـلاً واحـداً. جرح يديه، وسال الدم من يديه المرتجفتين من الإنفعال الشديد. وانطلق من جديد نحو الهوة، وزحف ثانية حتى الحافة مباشرة. تقدم دون أن يختار الطريق المناسب، وهو يلهث، كما في الحريق. كان يخاف، أن يموت ارنازار، دون أن يتمكن من إنقاذه.

- إرنـازار! إرنـازار! - أخـذ بوستون ينادي . - هذا الحبل، خذ الحبل! أتسمع، هذا الحبل! أتسمع؟ إرنازار! يا أخي، أجب!

أنزل الحبل الذي صنعه من عدة الحصان، وجعل في رأسه عقدة كبيرة كقبضة اليد حتى يتمسك بها إرنازار، أنزل الحبل كله في الهوة، ولكن لم يمسك به أحد كان، ولم يرد أحد

كان على نداءاته. ولم يعرف بوستون هل نزل الحبل إلى مسافة بعيدة، وأي عمق لهذه الهوة الرهيبة.

ـ أجبني يا إرنازار! أجبني! قل لي ولو كلمة واحدة. إرنازار! يا أخي! نادى ونادى بوستون، ولكن الصدى كان يردد صوته في أعماق الهوة، وفي هذه الحالة كاد بوستون أن يفقد وعيه، ـ أين أنت يا إرنازار! هل تسمعني يا إرنازار؟ ما عليّ أن أفعل؟ ـ جفت حنجرة بوستون، وكان عاجزاً عن مقاومة المصيبة، فأخذ يبكي. ويصرخ بشدة، كلمات غير مترابطة، لقد اشتكى لأبيه، الذي إستشهد في الجبهة، إشتكى لأمه، التي ماتت منذ زمن بعيد، لأولاده، لأخوته، لأخواته، وخاصة إشتكى لزوجته أرزيغول. لم يستوعب المصيبة الكبرى في عقله.. إستشهد، إستشهد إرنازار! لم يكن إلى جانبه أحد يواسيه في هذه المصيبة... التي ستبقى في أعماق نفسه طيلة حياته... وصرخ عند ذلك بوستون: «هل أنت لا تسمع دعواتي! ماذا فعلت، ومن أنت بعد هذا؟» ـ لم يعرف، ولم يدرك بوستون، لمن يتوجه بكلماته هذه.

وقف، وهو يتأرجح في مكانه، وأدرك، أن الوقت يقترب من المساء، وشعر أن الطقس يتغير فوق الجبال، إذ زحفت الغيوم على دفعات، وهبت الرياح الباردة، فما كان عليه أن يفعل؟ وإلى أين يسير؟ بينما سار الحصان الذي تركه عائداً عند الممر، وشاهده كيف أخذ يسرع المسير، ولم يكن باستطاعته أن يلحق به. وما جدوى الحصان، طالما قطع كل عدته، حتى حزام السرج الأساسي من تحت البطن، والأحزمة الأخرى. غضب بوستون وقذف السرج الذي لم يعد بحاجته. وقف حانقاً، متورم الوجه، وقد إزرق جلده، وأصاب رأسه الألم بلا قبعة (سقطت قبعته وهو ينزل الحبل إلى الهوة). فوقف ينظر من حوله بين الصخور، والجليد الأبدي فوق مضيق علا ـ مانغيو، وحيداً لا يعرف ما عليه أن يفعل، حملته الرياح الباردة إلى عالم الألم والحزن القاتلين، بالإضافة إلى المصيبة العظمى، التي تمزق روحه، فإلى أين المسير، وما العمل؟ كيف بدأ كل شيء بصورة مريعة، ومن أين أتت هذه الهزة الرهيبة على طريقهم؟ اقتفى أثر المسير، فأدرك أن إرنازار قد سقط في الهوة بمحظ المصادفة الخالصة ـ فهو قد سار على بعد متر ونصف من حرف الهوة، أما إرنازار، لتعاسة الحظ، فقد سار إلى اليمين قليلاً ـ وسقط مع حصانه في الهوة الجليدية، التي كانت مخفية بالثلج.

لم يستطع أن يساعد صديقه بشيء، ولم يكن بإمكانه أن يستسلم للأمر الواقع. فكر بوستون فجأة: حبذا لو أن إرنازار يستطيع أن يتسلق، وربما أنه فقد الوعي فقط، ـ وعند

ذلـك من الضـروري إنقـاذه فوراً، قبـل أن يمـوت هناك نهائياً. عندها من الممكن إنقاذه. قذف بوستـون فروتـه فوق الثلج، وانطلق مسـرعـاً منحـدراً إلى الأسفل، وعلى الرغم من صعـوبـة الـركض عبر الثلج في تلك الأمـاكن، قرر أن يركض ويجـد وسيلة، عله يخبر السوفخوز عما حصل من مصيبة، وفكر أن الناس سوف يرسلون أناساً مع الحبال والسلالم، والمصابيح، وعند ذلك بإمكانه أن ينزل متدلياً على الحبال إلى أعماق الهوة، سيجد إرنازار، وينقذه.

وقع عدة مرات، ومرات، وكلما وقع مرة أخرى كان يفكر خائفاً: «عسى أن لا أكسر رجلي فقط!» ومن جديد يقف، ويسرع أكثر.

ركض بوستـون آمـلاً أن يلحق بحصـانـه، على الرغم من أن الحصان قد أصبح بلا مقود وعدة. ساء الطقس مع كل دقيقة. وعبر الريح كانت تتطاير ذرات الثلج، ولكن ليس هذا الذي أخاف بوستون ـ كان يعرف أنه، في الأماكن المنخفضة لن يسقط الثلج، حتى لو كان يتساقط فوق الجبل. أما الذي كان يخيفه، هو: ماذا سيحصل مع إرنازار. فهل سينتظر المنقذين، إذا كان مازال حياً. أسرع، أسرع، وكلما أسرع أكثر كانت تدق هذه الكلمة في رأسه بقوة. قلق لأن الظلام أصبح قريباً، وفي الظلمة يصعب الركض. . .

عجز بوستون عن أن يلحق بحصانه، الذي شعر أنه حرٌ طليق، فأسرع بعدوه عائداً إلى الأماكن، التي يعيش فيها.

اختصـر بوستـون الطـريق، إذ نزل مباشرة من الطريق المختصر، وبهذا قصر الطريق والمـدة الـزمنيـة اللازمة. لقد تعذب وأرهق ليس بصعوبة الطريق، والسير عبر المنخفضات والكسـور، بقـدرما أرهق من عظم المصيبـة، التي نزلت على كاهله وحطمتـه. عصفت في رأسه الآلام من كثرة ما فكر بخطط لإنقاذ إرنازار، وبدا له الأمر أحياناً، أنه أخطأ بعودته، وكان عليه أن يبقى جانب الهوة، ولو أن عاصفة الثلـج قد أخذته. وتصور أحياناً أنين إرنازار في الظلمـة العميقـة تحت الأرض، وهـو ينـازع المـوت. وفي الأعـالي، فوق الجبال تعصف العـاصفـة الثلجيـة، وعنـدمـا يفكـر بما سيقوله لأسرة إرنازار، وأولاده، وزوجته غوليومكان يصبح وضعه لا يطاق، وبدا له، أنه سيفقد عقله.

وعلى أي حال في عالمه لم تكن المآسي وحدها، بل كانت الجوانب الإيجابية أيضاً. في ذلـك النهـار زوج أحـد الـرعـاة في أسفـل الجبـل إبنـه الطالب، الذي جاء ليقضي العطلة الصيفيـة. تفـرق الضيـوف في ساعـة متأخـرة من الليل. وآخر فريق من الضيوف غادر بعد منتصف الليل بكثير، إذ ركبوا سيارة شاحنة. أما القمر فكان يشع بنوره بقوة، وهب نسيم

بارد قادم من جهة البحيرة. وفي السهل الفسيح، كان من الصعب معرفة مرآة بحيرة إيسك ـ كول البعيدة التي تعكس نور القمر. كان الناس منغمسين في الغناء، إذ يغنون الأغنية بعد الأخرى، دون استراحة.

عندما سمع بوستون الأغاني، هرع مسرعاً إلى الطريق، وأخذ يشير بيديه للسيارة القادمة. وهكذا حالفه الحظ، فركب السيارة، ووصل إلى سوفخوز «بيرك» الساعة الثانية بعد منتصف الليل. توقفت الشاحنة عند بيت مدير السوفخوز فنبحت الكلاب، وهاجمت بوستون حتى تعضه من جزمته. لم يلفت إنتباهه إليها، وتقدم من البيت وطرق الباب بقبضة يده. فأجابه صاحب البيت بصوت قلق:

ـ من هناك؟

ـ هذا أنا، بوستون أركونشيف.

ـ ماذا حصل يا بوسكي*؟

ـ مصيبة.

في اليوم التالي انطلق المنقذون بسرعة متقدمين من مضيق جبل علا ـ مانغيو. كان عددهم ستة، بمن فيهم بوستون والمقربين منه من الاصدقاء، إذ قامت إحدى العربات المخصصة للأماكن الوعرة بنقل المنقذين،ومن هناك ساروا إلى الجبل على الأقدام، ومعهم الحبال والأدوات. سار الرجال صامتين، وبسرعة خلف بوستون، وهم يكتمون أنفاسهم، ومن ساعة لأخرى كانوا ينتظرون وصول طائرة مروحية من المدينة، تنقل على متنها ثلاثة من متسلقي الجبال المجربين.

فكر بوستون كيف سار البارحة، في مثل هذا الوقت مع إرنازار متجهين إلى المضيق دون أن يعرفا، ماذا ينتظرهما....

كان يدرك بوستون جيداً، حتى لو أن إرنازار كان على قيد الحياة، بعد أن وقع في هذه الهوة العميقة، فانه من المستحيل أن يتحمل ليلة كاملة في أعماق الهوة الجليدية. وعلى الرغم من كل هذه الأفكار، أراد بوستون أن يؤمن بالمعجزة.

بعد العاصفة، التي حلت في الليلة الماضية فوق المضيق، سقط الثلج، ثم هدأ الطقس. كان الثلج يلمع ويبهر العيون. وللأسف أن العاصفة قد كنست كل آثار البارحة، والآن عجز بوستون عن تحديد مكان الهوة بالضبط، بين كتل الجليد. وكما يحدث عادة في

الحيـاة «رب ضارة نافعـة»، إذ وجد أحد المنقذين، تحت الثلج، فروة بوستون التي قذف بها عشية المسيرة، وبالقرب من الفروة، وعلى بعد خطوات وجدوا السرج. ومن خلال أمكنة هذه الأشيـاء، تمكنـوا من تحديـد مكـان الهوة، التي غطيت بالثلج خلال الليل، وحتى هذا الـوقت كان قد وصـل متسلقـوا الجبـال، فنزلوا إلى الهوة على الفور، وحسب كلامهم، أن عمق الهوة يقارب إرتفاع بناية من ستة طوابق. . .

صعد المتسلقون، وأعلنوا أنه من الصعب جداً أن يخرجوا إرنازار. فجسمه قد إلتحم كليـاً مع طبقـة من الجليـد، وكذلك جثة حصانه، وشرحوا صعوبة إخراج الجثة كالتالي: في حال تكسير الجليد، من الممكن أن يحدث انزياح جليدي، وتصدعات أخرى، وبعد ذلك يصبـح المنقـذون أنفسهم ضحيـة، إذ ينهـار عليهم الجليـد. . . وقـال المتسلقـون، بإمكان بوستون وحده أن ينزل إلى الهوة، ويودع صديقه إرنازار، إذ لا يوجد حل آخر. . . .

فترة طويلة من الـزمن، ولسنـوات وسنـوات، كان يراود أفكـار بوستـون هذا الحلم الرهيب والمخيف نفسه، الذي رسخ في مخيلته. كان يحلم كيف ينزل إلى تلك الهوة متعلقاً بالحبل، وهو ينير الجدران الجليدية بالمصباح اليدوي، وفي جيبه مصباح آخر إحتياطي. في حال فقـدانـه للمصبـاح الأول. وفجأة يتصور أن المصباح الإحتياطي قد اختفى من جيبه، وهنا يجن جنونه من الخوف، يريد أن يصرخ، ولكنه يتابع النزول، والنزول إلى عالم الجليد تحت الأرض، وأخيراً يصـل الى جثـمان إرنازار المتجمد مع الجليد: نعم إنه إرنازار (هكذا حصـل فعـلا) يركـع على ركبتيـه، الفـروة نفسهـا، وجهـهُ مطـلي بالـدم، يعض على شفتيه، وعينـاه مطبقتـان. يا إرنـازار! ـ أخذ بوستون يناديه. ـ هذا أنا! هل تسمع، لقد، أردت أن أتـرك لك المصبـاح الإحتيـاطي، فهنـا ظلمـة قاتمـة ومخيفـة، ولكني فقـدته. هل تفهـم، يا إرنـازار، أضعتـه، وعلى أي حال، فأنـا سأعطيك مصباحي ـ خذ، هذا مصباحي. خذ، أمسك يا إرنازار، أرجوك! «يبكي بوستون، يرتجف من البكاء، ويستيقظ، والدموع تبلل وسادته.

طوال اليـوم التـالي، بقـي بوستـون معكـر الخـاطر، والمزاج، وكأنه غريب عن نفسه ـ وفي مثل هذه الأيام يكون حزيناً ومتجهماً. وعن هذه الأحلام التي تراوده، لم يحدث أحداً كان، ولم يعلـم بها أي شخص، خاصـة ـ غوليـومكان، حتى بعد أن أصبحت زوجته. ولم يحدث أحداً من أسرة إرنازار، كيف نزل إلى الهوة وودع إرنازار.

عندما عاد من مضيق الجبل إلى البيت، كان الجميع قد عرفوا بالمأساة التي وقعت. ولم يكن بالنسبة لبـوستـون أصعب من تلك اللحظـة، التي رأى فيهـا زوجـة إرنـازار، التي

أحبطتها المصيبة، غوليومكان الناحبة، وبدا الأمر له، أنه كان من الأفضل لو مات هناك في المضيق، ومن الأفضل له، ألف مرة أن ينزل في تلك الهوة، وأن يعيش تلك المأساة، وتلك المخـاوف الـرهيبـة.

عانت غوليومكان أشد أنواع العذاب والمعاناة بعد موت زوجها حتى خاف الناس أن تفقد عقلها. كانت تخرج من بين البيوت، وتركض إلى جهة لا محددة: «لا أصدق، لا أصدق، أنه قد إستشهد! أتركوني! سأجده في مكان ما! سأذهب اليه!».

وذات يوم، عند المساء هربت نحو الجبل: لقد أُرهق بوستون طيلة النهار، وجاء إلى البيت، حتى يستـريـح قليـلاً، وخـاصـة أنـه، وخـلال الأيـام المـاضية كان دائماً في وضع مأسـاوي، لم يتمكن من أن يخلع ثيـابـه، وأن يسـتريـح في فراشه، إذ كان عليه أن يستقبل المعـزين: قدم النـاس من كل المنطقـة، والكثـير ون كانوا يأتون حسب العادة القديمة، إذ يكـون إرنـازار قبـل أن يصلوا إلى البيت، وهم يرددون: «أيهـا العـزيز إرنازار، أنت أغلى الغوالي، أنت كبدنا! أين سنراك بعد الآن؟» كان يقوم بوستون بتعزيتهم، ويبث في نفوسهم الصبر والهدوء... وفي ذلك اليوم، كان المساء، أكثر هدوءاً ولم يأت أناس كثر، ولذلك قرر بوستـون أن يخلع ثيـابـه حتى الحزام، ويغتسل في بهو داره، وهو يصبّ الماء على نفسه. أما أرزيغول فقد كانت عند غوليومكان تواسيها كل هذه الأيام كما يتطلب الأمر، حسب العادة.

ـ بوستون، بوستون، أين أنت؟ ـ أخذت تنادي أرزيغول فجأة.

ـ ماذا حدث؟

ـ أركض بسـرعـة، الحق بغـوليومكان! إنها هربت إلى جهة ما، بناتها يبكين، وأنا لم أتمكن من إيقافها.

ارتـدى بوستـون قميصـه الداخلي، وهرع يركض، والمنشفة مازالت فوق رقبته، وهو يمسـح وجهـه خلال ركضـه حتى يلحق بغوليومكان، التي جن جنونها من هول المصيبة. لم يدركها فوراً. وكانت تمشي بسرعة، وتركض أحياناً، في المنحدر، متجهة نحو الجبل. فأخذ بوستون يناديها:

ـ توقفي يا غوليومكان، توقفي! الى أين أنت؟

كانت تسـير، دون أن تنظـر. أسـرع بوستون أكثر، لقد فكر، أن غوليومكان في هذه الحالة على إستعداد أن تقذفه بالتهمة في مقتل زوجها، وكان يخاف هذه الناحية، أكثر من أي شيء آخر، وكان يشعر بهذه الفكرة، وكأنها نار حارقة تحرق جسمه، فهو نفسه قد مقت

حياته، وتمزق من المأساة، ولم يكن بوسعه أن يجد الراحة لنفسه. وماذا عليه أن يجيبها، لو إتهمته؟

فهل سيحاول أن يبرىء نفسه؟ وهل التبرئة تفيدها؟ وكيف البرهنة لها؟ فأحياناً تمر بعض الحالات القدرية، التي يعجز الإنسان أن يعمل أي شيء تجاهها؟ ولكن، هذه الكلمات لن تساعدها، ولم تكن في العالم أي كلمة، بإمكانها أن تبعث الراحة في روحها تجاه تلك المصيبة. ولم تكن موجودة لديه الكلمات التي يمكنه أن يشرح لغوليومكان بها، لماذا ما يزال هو على قيد الحياة بعد كل هذا. فقال لها عندما أصبح بمحاذاتها، وهو يلهث تعباً:

- إلى أين تذهبين، يا غوليومكان؟ - توقفي، إسمعيني، فلنذهب إلى البيت. . .

لم تخيم الظلمة في تلك اللحظة نهائياً، والجبال كانت ماتزال واضحة في الضباب الهادىء للنهار المنطفأ تدريجياً، وعندما نظرت غوليومكان إليه، بدا الأمر لبوستون، وكأن المصيبة في أعماقها عبارة عن إشعاع شفاف، برزت عبر ملامح وجهها التي تغيرت كلياً، وكأنها كانت تنظر إليه من تحت أعماق الماء، كان عاجزاً عن أن يتحمل رؤية عذابها ورؤية منظرها البائس المأساوي.

البارحة كانت إنسانة في عز شبابها، مرحة للغاية. إن وضعها يؤلم أي كائن. كانت تركض، لا تعي نفسها، وفستانها الأسود الذي وضعوه عليها، قد شُق عن صدرها، والثياب الخاصة بالحداد، قد بدت عليها ككفن الإعدام، كما كانت ظفيرتها المجدولة حداداً وبؤساً، قد أصبحت شعثاء.

- إلى أين، يا غوليومكان؟ إلى أين تذهبين؟ - قال بوستون وأمسكها من يدها بحركة لاإرادية.

- أنا! أنا ذاهبة إليه في المضيق سأذهب، - قالت هي بصوت منفصل عن ذاتها.

وبدلاً من أن يقول لها: «هل أنتِ في عقلك؟ متى ستصلين إلى هناك؟ إنك ستموتين هناك وحيدةً في هذا الفستان الرقيق!»

أخذ يقول لها راجياً:

- غير ضروري ذهابك الآن. قريباً ستعم الظلمة. يا غوليومكان. ستذهبين في مرة أخرى. وأنا سأذهب معك إلى ذلك المكان. أما الآن فالوقت متأخر. فلنذهب إلى البيت. هناك البنات يبكين، وأرزيغول قلقة للغاية. فالليل قد حل. فلنذهب أرجوك يا غوليومكان.

صمتت غوليومكان، وهي تنحني تحت ثقل المصيبة.

ـ كيف لي أن أعيش بدونه؟ ـ همست بمرارة، وهي تهز رأسها ـ فكيف بقي لوحدة هناك، دون قبر، دون أن نبكيه كما يجب؟!

لم يعرف بوستون كيف يتصرف حتى تهدأ غوليومكان، وقف أمامها كئيباً، يشعر بذنبه تجاه ما حصل. أما المنشفة فما زالت فوق كتفيه الضعيفين، وهو ينتعل جزمته الجلدية القاسية كعادته، صيفاً ـ شتاء. وبدا كإنسان بائس فقير ومعدم. كان يدرك أنه عاجز عن تقديم أي شيء يعوض لهذه الإنسانة خسارتها الكبرى. ولو كان بإمكانه أن يحيي زوجها، ويتبادل معه المكان، لما كان قد تأنى ثانية واحدة، ولفعل هذا فوراً.

صمت الإثنان، وفكر كل منهما على طريقته في المعاناة.

ـ فلنذهب. ـ أخذ بوستون غوليومكان من يدها. ـ علينا أن نكون هناك، حيث يأتي الناس للتعزية بإرنازار، علينا أن نكون في البيت.

استندت غوليومكان على كتفه، وكأنه أب رؤوف بالنسبة لها، وأخذت تشتكي وتبكي، وهي تقول بعض الكلمات غير المفهومة، والدموع تنهمر بغزارة فوق وجنتيها، مرتجفة مع الغصة في حنجرتها. أمسكها من يدها، وعادا نحو البيت، والمصيبة تحرقهما حرقاً. هدأت الرياح الصيفية الخفيفة، التي تحمل عبق الأعشاب الجبلية المزهرة. وعلى الطريق كانت أرزيغول تقود إبنتي إرنازار من أيديها. وقدمت للقائهما. وعندما شاهدت غوليومكان أرزيغول عانقتها، وأخذتا تبكيان معاً، وبقوة جديدة، وكأنهما قد التقيتا بعد فراق طويل...

بعد نصف سنة من هذا الحادث، دخلت أرزيغول إلى مشفى المنطقة، بينما عادت غوليومكان منذ فترة طويلة إلى بيت أهلها في قرية الصيادين على شاطىء بحيرة إيسك ـ كول. تذكر بوستون تلك الأمسية، واغرورقت عيناه بالدموع من المشاعر، التي التهبت في داخله.

جلس بوستون في المشفى إلى جانب زوجته المريضة، وأخذ ينظر إلى وجهها الأصفر، المعذب، متحسساً الآلام التي تعاني منها. كان النهار دافئاً، خريفياً، ولذلك خرج المرضى من الغرفة، وأخذوا يتنزهون في حديقة المشفى، وهنا كان بإمكانهما أن يتناولا أطراف الحديث الذي بدأته أرزيغول نفسها.

ـ أريد أن أقول لك شيئاً ما. ـ أخذت أرزيغول تلفظ الكلمات ببطء. وهي ترفع عينيها إلى زوجها بصعوبة، ولاحظ بوستون أن وجهها، قد إزداد اصفراراً، وتغير حالها خلال الليلة الماضية، نحو الأسوأ.

ـ إنني أسمعكِ، فما تريدين قوله؟ ـ سأل بوستون بحنان.

ـ هل شاهدت الدكتور؟

ـ نعم شاهدته، وقال لي. . .

ـ تمهل، ليس من المهم، ما قاله، ستتحدث عن هذا فيما بعد. عليك أن تدرك، يا بوستون، أنه من الضروري أن نتكلم حول موضوع هام.

إنقبض قلب بوستون من هذه الكلمات. سحب منديلاً من جيبه، ومسح العرق عن جبهته.

ـ أتصور، أنه ليس من الضروري الكلام عن هذا الآن، ستمثلين للشفاء. عند ذلك سنتكلم. ـ حاول بوستون أن يغير مجرى الحديث، ولكن من خلال نظرة زوجته أدرك، أنه لا يجوز الرفض.

ـ لكل شيء وقته، ـ حركت المريضة شفتيها الصفراوين بعناد. ـ كنت أفكر هنا طوال الوقت. وماذا يمكن العمل هنا، غير أن يفكر الإنسان؟ فكرت، انني عشت معك حياة جيدة، وأنا سعيدة للحظ الذي حالفني. ولا يجوز نكران جميل الله ـ فالأولاد قد كبروا، وأوضاعهم جيدة، والآن بإمكانهم أن يعيشوا مستقلين كلياً. وبخصوص الأولاد، يوجد حديث خاص. ولكن وضعك يا بوستون يؤلمني للغاية. وأخاف عليك أكثر من أي إنسان آخر. لا تعرف أن تتعامل مع الناس بلين، ولا تملك المرونة للاقتراب منهم، ولا للانحناء أمام أحد. وأنت يا بوستون لم تعد شاباً. فبعد موتي تقرب من الناس. إنني أقصد من كلامي، أن لا تبقى أعزب، يا بوستون. تقوم بدفني، وتحي أمسية ذكراي، وبعد ذلك، لا أرغب، ولا أريد أن تبقى وحيداً. فالأولاد يعيشون حياتهم، وعليك أن تعيش حياتك.

ـ لماذا تقولين هذا، ـ قال بوستون بصوت أبح. ـ ألا يوجد عندنا حديث آخر؟

ـ نعم، عن هذا، يا بوستون، عن هذا بالذات! فعن ماذا نتحدث غير ذلك؟ فعن هذا يتكلم الناس عند الوداع. وبعد الموت لا يسعني أن أقول لك شيئاً. ففكرت هنا بوضعك ووضعي. وأنت تعرف أن غوليومكان تأتي إليَّ كثيراً. وأنت تعرف أنها ليست إنسانة غريبة بالنسبة لنا. وهكذا ألمت بها المصيبة في الحياة، وبقيت أرملة مع الأطفال الصغار. إنها إمرأة محترمة، فوصيتي لك أن تتزوجها. ولك أن تقرر فيما بعد، كيف ستكون الأمور: كل انسان يقرر مصيره بذاته. وعندما سأموت، أرجوك أن تخبرها بحديثنا هذا. . . وعسى أن يحصل، كما أريد، وستكون لأطفال إرنازار أباً حنوناً. . .

غالباً ما يسخر القادمون إلى بحيرة إيسك ـ كول من السكان، الذين يعيشون بالقرب من البحيرة: يعيشون جنب البحيرة، ولا يرونها ـ ليس لديهم الوقت. وكذلك بوستون، وصل مرة في حياته إلى جانب البحيرة، وتنعم بزرقتها عن بعد فقط.

وفي هذه المرة، وعند المساء، خرج بوستون من المشفى، واتجه فوراً إلى الشاطىء ـ أراد أن يبقى وحيداً، منفرداً بتفكيره، عند المعجزة الزرقاء بين الجبال. نظر بوستون بتمعن، كيف تدفع الرياح الأمواج الصغيرة المتساوية كالاثلام خلف المحراث غير المرئي. أراد بوستون أن يبكي، ورغب أن يختفي تحت مياه إيسك ـ كول. ورغب في متابعة الحياة، وأراد بنفس الوقت أن ينتهي منها... مثله، مثل هذه التموجات ـ تبرز الموجة، وتنتهي، ومن جديد تبرز من نفسها...

أضنت الذئاب بوستون إذ تابعت العواء طويلاً، بأصواتها الحزينة بالقرب من البيت، مما أجبره على أن يقوم من الفراش، بعد أن استيقظ الطفل كينجوش. وأخذ يبكي، فأخذه بوستون في أحضانه، وأخذ يكلمه، وهو يضمه ويقبله:

ـ كينجوش، يا كينجوش! أنا هنا معك، ما بك تبكي، وأمك هنا ـ هذه هي، ألا تراها؟ تريد القطة؟ هل أشعل لك النور؟ لا تخف، هذه القطة تموء، إنها تموء هكذا.

استيقظت غوليومكان، وأخذت تتكلم مع الصغير وتداعبه. ولكن كينجوش لم ينم. وكان على بوستون أن يشعل النور.

ـ غوليوم*. ـ قال بوستون لزوجته، وهو عند الباب، بعد أن أشعل النور. ـ أنا ذاهب لإخافة الذئاب. لقد أضجرني صوتها.

ـ كم الساعة الآن؟

نظر بوستون إلى الساعة. ـ الساعة الثالثة إلا عشرون دقيقة.

ـ أترى، ـ غضبت غوليومكان. ـ وعليك أن تنهض في السادسة. فهل يجوز هذا؟ سوف تقودنا أكبارا اللعينة إلى حالة الجنون! ما وراء هذا العقاب الذي حل بنا!

ـ لا تقلقي. ما علينا الآن أن نعمله؟ الآن دقيقة، وسأعود. لا تخافي. الآن سأعود، إن هذا عقاب لنا، ولكن لماذا! سوف أقفل الباب من الخارج. لا تخافي أخلدي للنوم.

سار إلى جانب النافذة، وهو يطرق الأرض بجزمته القاسية، التي انتعلها على عجل. دون جوارب. أراد بوستون أن يصطدم أخيراً مع الذئاب، ولذلك أخذ يقرع الأرض بشدة، ويشتم الذئاب بأقذع الكلمات. كان مستعداً لكل شيء ـ هكذا ضجر من

---

* تصغير من اسم غوليومكان (المترجم).

هذه الذئاب المسعورة بعد المصيبة، التي حلت بهم.

لم يقدر على مساعدتها بأي شيء كان. ولم يبق لديه إلا أن يضجر، وأن يتمكن من إطلاق النار على الذئاب، إذا شاهدها. وشعر بقوة البأس، إذ كانت بيده بندقية، نصف أوتوماتيك.

ولكنه، لم يجد الذئاب في مكان ما. وعاد إلى البيت وهو يشتم هذه الحياة، وكل ما في الدنيا. ولكنه لم يعد إلى النوم ثانية. تقلب في فراشه طويلاً، ودارت في رأسه الكثير من الأفكار القلقة، والتي لم تفارقه طيلة حياته.

فكر الآن بكل شيء، وأكثر من أي شيء آخر، أن العمل يتعقد من سنة لأخرى، وأن الحياة العملية قد أصبحت أصعب، إذ من المستحيل أن يبذل الإنسان قصارى جهده بإخلاص، وأن الشباب المعاصرين. قد أصبحوا وقحاء لدرجة ما. ومن الجيد بالطبع، أن المؤمنين قلائل في أيامنا، وكل إنسان يبحث عن مصلحته. ولكن قبل الحرب، وعندما شقت قناة تشويسكي الشهيرة، قدم الناس من مختلف أنحاء البلاد، وعملوا، دون أجر، وبكل طوعية. أما الآن، فلم يعد أحد يثق، ويقولون، كفاكم سرد خرافات، فهل من الممكن أن تكون مثل هذه القضايا التي تتكلم عنها. ويصعب على أي كان أن يجبر الناس على العمل بالرعي. والجميع يعلمون بذلك، ولكنهم يتظاهرون، وكأن هذه القضايا مجرد صعوبات مؤقتة، وتتكلم بهذه القضايا، فيوجهون أصابع الاتهام اليك، ويقولون إنك تدعي كذباً. وتغني، كما يقال، بصوت مستعار! ولا يرغب أحد بالتفكير جدياً، ماذا سيكون بعد هذا كله. والشيء الوحيد، الذي كان يبعث الهدوء في نفسه، هو- أن غوليومكان لم تكن تشاجره، ولم تقف ضده، ولم تدنه، لأنه يعمل طوال الوقت بالرعي، دون إستراحة، أو مأذونية. كان من الصعب أن يترك القطعان، فالقطيع ليس محركاً حتى تشغله، وتقفله بحركة سريعة. فالقطيع يحتاج إلى عناية وإهتمام على إمتداد الليل والنهار. وهذا ما يحصل، ففي كل مكان لا تكف اليد العاملة. وليس الأمر في قلة السكان، بل في أن الناس لا يرغبون بالعمل. ولكن، ما السبب؟ فبدون العمل لا يمكن أن تكون الحياة. فهذا مرض قاتل. ربما، الأمر ينحصر بضرورة الحياة والعمل على صورة أخرى؟ أما السؤال الأساسي، فكان باستمرار: أين من الممكن الحصول على عاملين للعمل في أقسام التوليد للأغنام للعناية بالخراف الصغيرة والأمهات، وما إلى هناك. وبهذا العمل لا يرغب أحد من الشباب أن يعمل. كان من الضروري العمل هناك يوماً كاملاً، ليس من وجهة نظر الخوف، بل أن الضمير يملي ذلك للإهتمام بالمواليد الصغيرة. ولهذا من الصعب جداً

اجبار الشباب على هذا العمل. فالشباب لا يرغبون بالعيش بعيداً عن المدن، والعمل بهذه الأعمال الصعبة، زد على ذلك أن الأجور كانت قليلة، ففي المدينة، ومقابل يوم العمل من ثمان ساعات في المصانع، أو في مشاريع البناء يتقاضى الشباب أجراً أكثر من أمثالهم، الذين يعملون هنا وقتاً لا محدوداً، وغالباً ما يقول الكهلة: «فكيف نحن عملنا طيلة حياتنا، وذهبنا نكدح في أي مكان صعب وشاق، وليس هناك، حيث الأريحية والراحة؟ أما الآن، فعندما يتطلب الأمر من الشباب أن يعملوا، فنجدهم لا يعملون كما يجب، وليس لديهم الحياء الكافي،» وأدى هذا الخلاف إلى عدم التوافق، وغربة الأجيال عن بعضها، ومنذ أمد بعيد أخذت أرواح البشر تتناقص تدريجياً. ومن جديد تذكر بوستون هذا الحديث. فلم يصمد آنذاك. بالطبع شيء سيء، ومن جديد أخذ يخصص كل نشاطه من أجل حث الناس على العمل، داعياً إلى أن يعمل الناس، كما لأنفسهم. ولم ير طريقاً آخر، ولهذا من الضروري، أن يهتم العامل بما يعمل إهتماماً شخصياً. وتكلم بوستون في أكثر من مكان، أن أجر العمل يجب أن يكون متناسباً مع النتائج الناجمة عن العمل. والمهم - بالنسبة للراعي أن يملك أرضاً خاصة للمرعى، وحتى يهتم الراعي بها إهتماماً كبيراً، وحتى يهتم المساعدون وأسرهم بهذه الأرض، وإلا لما كانت النتيجة المرجوة. . .

ومما يسبب الإزعاج الدائم، كان وجود المسؤول الحزبي كوتشكوربايف - الرجل الجريدة. هكذا كانوا يسمونه محلياً في السوفخوز، إذ كان يجلس إلى جانب المدير من اليمين. وينظر إلى بوستون بطرف عينه، وهو يقطب حاجبيه - عند ذلك كان الإنسان يعرف أنه قد خرج عن طوره، - ويعود ليحسن هندامه، ويركز ربطة عنقه، حتى يحافظ على وقاره، وبين الفينة والأخرى ينظر إلى بوستون نظرة حقد دفين، أما مدير السوفخوز تشوتبايف، فقد كان يتصور بدقة أفكار كوتشكوربايف، فلقد درس خلال العديد من السنين من خلال العمل المشترك طبيعة بوستون العنيدة وشخصيته القوية. كما درس طبيعة المسؤول الحزبي وتصرفاته، ومنطقه الفوضوي، دراسة جيدة إذ كان غالباً ما يفكر كلما شاهد بوستون: ها هو قد عاد من جديد، ياله من إقطاعي وعنصر جديد معاد للثورة. إن حياته أصبحت في خطر، وهو يتابع التمسك برأيه، فحبذا لو تم نفيه إلى مكان ما، كما في الأوقات الماضية - إلى سيبيريا مثلاً، أو الى . . . .

حضر اجتماع العمل، في ذلك اليوم، المستشار الجديد في اللجنة المنطقية. وهو إنسان شاب، ومتواضع من حيث منظره الخارجي. لم يكن يعرفه أحد حتى الآن في سوفخور «بيرك». كان يصغي بإنتباه إلى النقاشات الدائرة، ويسجل ما يقال في دفتره. وفكر

تشـوتبـايف، أن كوتشكـوربـايف، لن يترك الفـرصـة حتى يتكلم أمام المستشار القادم من اللجنة المنطقية. ولم يخطىء في تصوره. وبعد كلمة بوستون بدأ كوتشكوربايف، وكأنه يريد التعليق، فتكلم وكأنـه يقـرأ في الجـريدة: لقد تعود أن يطرح القضية كما في الصحف، وفي هذا كانت قوته.

- إلى أي حد، أيهـا الـرفيق أركـونشيف، - توجـه إلى بوستـون مخاطبـاً إيـاه بصورة رسميـة، - وإلى أي مدى ستخـدعـون الناس بالعبارات المليئة بالشك؟ وخاصة أن نموذج العلاقات الانتاجية في النظام الاشتراكي قد حدد تاريخياً، منذ فترة طويلة. وأنتم تريدون، أن يتصـرف الـراعي كمالـك، ويحـدد مع من سيعمـل، ومع من لا يعمل، وكم سيدفع من الأجور. فما وراء هذا الأمر؟ ولا أتصور أن هناك أي شيء إلا أنك تقف موقفاً معارضاً، بل وهجـوميـاً على تاريخ تحولاتنـا الثـوريـة. وتحاول أن تضع الإقتصاد فوق السياسة. وأنتم تنطلقـون من المصـالـح الضيقـة لقطيعكم. وبـالنسبـة لكم، إن هذه القضيـة هي أساس القضايا. ولكن عليك أن تفهم، أن المنطقة كلها، بل البلد بأكمله يهتم بهذه القضية! فإلى أي شيء تحاول أن تجرنا؟ - هل تسعى لتشويه المبادىء الإشتراكية بخصوص الملكية؟

نهض بوستون من مكانه، والدم يغلي في عروقه.

- إنني لم أحـرض أحـداً كان. لقـد تعبت، وأنا أتكلم عن هذا، فأنا لم أحرض أحداً للسير معي. وليست هذه المسألة تخص أمري كراع، فماذا يجري هناك في المنطقة، وفي البلد عامة، بل وفي العـالم أجمع، فبـدون تدخـلي، العلماء كثر في العالم. أما مهمتي فتنحصر في الرعي. فإذا السيد الحزبي المسؤول، لا يرغب أن يسمع أمور الرعي عندنا، فلماذا تطلبون مني الحضور إلى هذا الإجتماع، وتعطلون عملي إذن؟ فلا أرغب بالحديث من أجل الحديث فقـط. وربـما أن هذه الاحـاديث تلزم بعض النـاس، ولكني لست محبـذاً لها، وأرجوك أيها الرفيق المدير أن لا تطلبني لحضور هذه الاجتماعات! أرجوك أن لا تعطلني عن عملي. فمثل هذه الإجتماعات لا تلزمني!

- كيف يجوز ذلـك، يا بوستـون؟ - بقي تشـوتبـايف في مكـانه، دون حارك. - فأنت متفـوق في العمـل، وأفضـل من أي راع في السـوفخوز، وعامل مجرب. إننا نريد أن نعرف رأيك، وكيف تفكر لتحسين العمل؟ ومن أجل هذا ندعوك دائماً.

- إنـك، أيهـا السيـد المـديـر، تثير إستغرابي. - غضب بوستون غضباً شديداً. فإذا كنت متفوقاً في العمل، فأنتَ وحدك كمدير تعرف جيداً، كم يكلفني هذا من جهد. فلماذا أنتَ تصمت؟ يكفي أن أبـدأ الكـلام، حتى يقف كوتشكـوربـايف ضدي، بكـل طاقته،

ويقــاطعني في منتصف كلامي. يجلس في الإجتماع ويقضي ويفتي كحـاكم وحيـد، وأنت المدير، تجلس صامتاً، وكأن لا علاقة لك بالأمر.

ـ توقف، توقف، ـ قاطعه تشوتبايف قبل أن يكمل.

بدا الأمـر بالنسبـة للمـديـر، وكأنـه قد تساهل كثيراً: لقد كان في وضع حرج للغاية ـ ففي هذه المرة كان عليه أن يعرب عن رأيه بصراحة، ولم يعد بإمكانه أن يحافظ على حالة الحياد بين بوستون وكوتشكوربايف. وكان على المدير أن يقول رأيه بصراحة، وخاصة أمام المستشـار، على الـرغم من أنه لم يرغب في الصدام مع كوتشكوربايف، الانسان الجريدة، الـذي من الممكن أن يتحـول من موقفـه السفسطـائي إلى قوة فعـالة، وقد أخذ المدير بعين الإعتبـار، أن كـوتشكـوربـايف ليس وحيـداً في السلسلة القيـادية. وفي هذه المرة، قد صعد كوتشكـوربـايف الخـلاف، وهـو يوجـه الإتهـامات للراعي ـ ليس أقل ولا أكثر ـ «انه يقف موقف المهاجم للتحولات الثورية». ولكن من يجرؤ الآن أن يحتج على كلامه؟ ولكن كان من اللازم الخروج من هذا الوضع.

ـ توقف، توقف، يا بوستــون، لا تغضب كثــيراً، ـ قال المــديــر ووقف من خلف الطاولة. ـ تعالوا نتناقش بهدوء، أيها الرفاق، ـ خاطب تشوتبايف الحضور قلقاً، وهو يفكر كيف من الممكن مصــالحـة الحضـور، وبـالطبـع إن بوستـون على حق، ولكـن المـزاح مع كوتشكـوربـايف صعب أيضـاً. فكيف له أن يتصـرف؟ ـ فعن ماذا يجري الحديث؟ ـ تابع المديـر. ـ إن الراعي، كما فهمت، يريد أن يصبح مالكاً للقطيع وللأراضي، ولا يرغب في البقـاء كشخص يعمـل كأجـير، ويتكلم، ليس بإسمـه وحـده، ولكنه يتكلم بإسم جماعتا أيضـاً، وبـاسم أسـر الـرعاة، وعلينا أن نأخذ هذا بعين الإعنبار. فهنا، يبدولي، أنه يوج مجال للتفكـير. إن فرقـة الرعاة، هم خليتنا الإقتصادية الصغيرة، ومن هذه الخلية علينا أ نتطلق، وكـما فهمت، أن بوستـون أركـونشيف يريـد أن يمسك كل شيء بيده: المواشي المراعي، الأعلاف، والحظائر، وبكلمة كل ما يلزم للانتاج. ويريد أن يطبق مبدأ المحاس ضمن الفرقة، حتى يعلم كل إنسان، أنه بإمكانه أن يتقاضى راتباً جيداً، إذا عمل بشك جيـد، كما لو كان يعمـل لنفسـه، وليس للجـار، من الألف إلى اليـاء. هكذا أفهم إقترا بوستـون أركـونشيف، وعلينـا أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الإقتراح، ياجانتاي أشانوفيتش، ـ توجه تشوتبـايف بكلامه إلى المسؤول المنطقي.

ـ وأنا كمسؤول حزبي في السوفخوز، الذي نقوده أنا وإياك، أيها الرفيق تشوتبايف، أفهم جيـداً، أنـه لا يجوز، ولا بأي شكـل، أن نشجـع الأمـزجة الهادفة إلى تطوير ملكيتها

الخاصة في الإنتاج الإشتراكي. وهذا غريب كلياً عن دور أي إنسان، فكيف المسألة عندما يخصن الأمر مدير وقيادة الوحدة الإنتاجية. ـ قال كوتشكوربايف بصوت عال قاصداً أن يدين المدير ويهدده.

ـ ولكن عليك أن تدرك أن هذه الإقتراحات من أجل مصلحة العمل، ـ بدأ المدير بتعليل موقفه. ـ زد على ذلك أن الشباب لا يقدمون للعمل بالرعي.

ـ هذا يعني، أن العمل الإعلامي، والتحريضي، يجري عندنا ليس كما يجب.

ـ يجب تذكير الشباب بأولئك الشجعان من أمثال بافل ماروزوف، وأخيه القرقيزي كيتشان جاكييوف.

ـ إن هذا ضمن إختصاصك، أيها الرفيق كوتشكورباايف، ـ أضاف المدير.

ـ فجميع الأوراق في يديك، وما عليك إلا أن تذكر، وتحرض، ولم يعترضك أحد.

ـ وسوف نحرض كما يجب، وعليكم أن لا تقلقوا، ـ قال المسؤول الحزبي متحدياً.

ـ فلقد وضعنا عدة خطط للعمل، ولكن، من الهام جداً، خلال العملية التثقيفية، أن يتم التأكيد على إنتزاع الطموحات الأنانية الخاصة، مهما حاول أصحابها أن يخفوها، وإننا لن نسمح بخرق أسس الاشتراكية.

سمع بوستون أركونشيف هذا النقاش الحاد، الذي دار بكل جدية، وأخذ يعاني من قلق ظاهر، وصل إلى كافة أطرافه، وخاف من كلماته الخاصة عندما قال، أنه يرغب بالعمل بشكل مستقل، فوق الأرض التابعة له، حسب ما يرغب، وليس حسب أوامر الآخرين.

ـ ليست لدينا أي تنازلات نقدمها لأي كان. ـ تابع كوتشكورباايف. ـ فأشكال الإنتاج الاشتراكية إجبارية للجميع. وكلماتي هذه موجهة إلى الرفيق أركونشيف. فهو يحاول أن يحقق لنفسه دائماً ظروفاً استثنائية خاصة.

ـ ليس بالنسبة لنفسي، ـ قاطعه بوستون. ـ فمثل هذه الظروف لازمة للجميع، وعند ذلك سوف يسير العمل عندنا كما يجب.

ـ أشك في هذا الكلام!، واستغرب مثل هذا الطرح، وماذا يعني وضع الشروط من قبلك؟: إعملوا هذا، وإعملوا ذلك، فيكفي، أنك أيها الرفيق أركونشيف، في الركض وراء المراعي الخاصة لقطعانك قد قتلت إنساناً في مضيق علا ـ مانغيو. ربما تعتقد أن هذا قليل؟!

ـ تابع، تابع! ـ أخذ قلب بوستون يطرق بشدة، وحز هذا في مشاعره بقوة، وخاصة لأنه تكلم عن موت إرنازار بهذه الصورة النذلة، وبشيء من الحقارة.

ـ ماذا تقـول «تـابـع ، تابـع»؟ فهل أنا أتكلم غير الحقيقة؟ ـ وجه كوتشكوربايف له إساءة شديدة لا تطاق.

ـ نعم، غير صحيح.

ـ كيف تقول «غير صحيح» وجثة إرنازار موجودة حتى الوقت الحاضر في الجليد عند المضيق، وربما ستبقى ألف سنة في مكانها.

صمت بوستـون: لقـد تقززت وتحفزت مشاعره من هذا الحديث، لأنهم طرحوا هذا الموضوع في هذا الإجتماع، ولكن كوتشكوربايف لم يكف عن الهجوم.

ـ ماذا بكم تصمتـون، أيهـا الـرفيق أركـونشيف؟ ـ صب الزيت على النار. ـ أليس أنت الذي ذهبت حتى تفتح لنفسك بعض المراعي الجديدة؟

ـ نعم، لقد ذهبت من أجل نفسي، ـ أجاب بوستون بحدة. ـ ولكن، ليس لنفسي وحـــدي، بل من أجـــل الجميـع، ومن أجلك بنفس الـوقت، يا كوتشكـوربـايف. لأنني أطعمك وأسقيك، وليس أنت الذي تطعمني، والآن تبصق في البئر، الذي شربت وتشرب منه!

ـ ماذا يعني هذا؟ـ استغـرب كوتشكـوربايف، واحتقن وجهه بالدم. ـ فأنا أكن الجميل للحزب وحده!

ـ ولكن الحـــزب، من أين يأخـذ، حسب اعتقـادك، من أجـل أن يطعمـك؟ ـ قال بوستون بحدة شديدة. ـ فهل تسقط الخيرات من السماء؟

ـ ماذا يعـــني هذا، ومـاذا يكـــمن خلف هذا الحـــديـث الـــلامـسؤ ول! ـ تجهـم كوتشكوربايف، وهو يعدل من وضع ربطة عنقه بيدين مرتجفتين.

احتـدم الخـلاف، وهـا هما يقفـان (كوتشكوربايف وبوستون) أحدهما عند الطاولة، والآخـر عنـد الجـدار ـ وكأنهـما محكومان بالإعدام، وبدا، وكأن أحدهما، سوف يهوي على الأرض. وهنا تدخل المستشار الشاب في اللجنة المنطقية حتى يخفف من حدة الخلاف.

ـ توقفوا، أيها الرفاق، ـ قال المستشار فجأة، وهو يجلس في الزاوية، وكان قد انهمك بتسجيل ملاحظاته في دفتره. ـ يبدو لي الأمر، أن الراعي أركونشيف، في واقع الأمر، على حق، وأن العـامـل، كما تعـودنـا أن نقول، هو مكون الخيرات المادية، يملك الحق في قول كلمته. ولكن هل كان من الضروري التعمن في هذا الحديث كثيراً؟

ـ إنـك لا تعـرف، أيهـا الـرفيق ما يبيتـون، ـ أسـرع كوتشكـوربسايف للقول، ـ إن

طمـوحـات وأطـماع أركونشيف لا تعرف الحدود. وعلى سبيل المثال، منذ فترة، كان يوجد راع يدعى نويغـوتـوف. نعم هو بالـذات نويغوتوف بازارباي. وجد في الجبال مغارة ذئاب، وتمكن من جلب جراء بطن كامل، وكما يقال، إنه أبدى شجاعة لتخليصنا من قطيع ذئاب، وبهذا قضى على ذرية كاملة من جذورها. وقام بهذا الدور كما يجب. وماذا حصل فيما بعد، حسب اعتقـادكم؟ لقـد أخـذ أركونشيف بملاحقة نويغوتوف. ففي بداية الأمر، أراد شراء الجراء، ولكن عندما فشل بإغراء نويغوتوف، الإنسان المبدئي، أخذ أركونشيف يهدده حتى يعيـد الجـراء إلى مكـانها، وليس لديه أي مقصد آخر، غير أن تتكاثر هذه الذئاب. فكيف ترى هذه التصرفات؟ وكيف من الممكن أن نفهم هذا؟ ربما ترغب أيها الرفيق أركونشيف، بالإضـافـة إلى كل ما قمت به، أن تربي قطيعـاً من الذئاب خاصة بك؟ كملكية شخصية لك. ربـما، ـ حسب اعتقـادك، ـ أن السـوفخوز مجبور على تأمين الذئاب لكم؟ في البداية الأرض الخـاصـة بك، ثم الأغنـام، وثم الذئاب الخاصة! أليس كذلك، أو أخبرنا، كيف علينا أن نفهمك؟ فدع الذئاب تتكاثر، وتقتل قطعان الأغنام، وتعيش على حساب ملكية الشعب العامة؟

حتى تلك اللحظة تمكن بوستون أن يتمالك غضبه،ثم قال بهدوء:

ـ كل شيء صحيح حول الذئاب، ولكن المصيبة الكبرى ـ أن الذئاب لا تفهم، أنها تهاجم ملكية الشعب العامة.

ضحك الحضور رغماً عنهم، أما بوستون فقد تابع بعد الإنقطاع القصير قائلاً:

ـ يجب أن نتكلم هنـا ليس عن الـذئـاب، ولكن طالمـا جرى الحديث عنها، فسأقول رأيي في هذا المـوضـوع: في أي عمـل، يجب أن يكـون تعقـل ما، ولهـذا خلقنـا عقـلاء. وللأسف لدى البعض منـا العقـل لا يكفي، ولا يكفـون عن التفاخر الجاهل، وعلى سبيل المثال، تلك الحادثة مع جراء الذئاب الصغيرة، وكما قيل، إختطف بازارباي هذه الجراء، أو بالأحـرى سرقهـا من المغـارة، وارتفعت الضجـة حول هذا المـوضـوع، حتى كاد يصبح بازاربـاي بطـلاً. ولكن هذا البطـل لم يفكر في بداية الأمر، بمراقبة الذئاب الكبيرة وقتلها، وبعـد ذلـك يتصـرف كما يشـاء بهذه الكـائنـات الصغيرة. ولقد أسرع في بيع هذه الجراء، واستلام ثمنها، حتى يسكر بها. فمن أجل ماذا ذهبت إلى بازارباي، حتى يعطيني الجراء، أو يبيعني إيـاهـا، حتى أتمكن من محاصـرة وقتـل الـذئبـين الكبـيرين، وليس حتى أتـركهما مسعـورين، يقتـلان كل ما يجداه في طريقهـما، بعـد أن نهب بازارباي عشهما، ويجب تفهم هذا الموضوع، فالذئب المسعور، يساوي عشرة ذئاب عادية من حيث وحشيته.فهو لن يهدأ

حتى يثأر. وكل الرعاة يعرفون كيف يهاجم كل من هذين الوالدين بقسوة، غير سائلين عن النتائج، بعد المصيبة التي حلت بهما. والرعاة يتحدثون دائماً عن أكبارا وتاشينار ـ كما يسمونهما. أما الآن فمن الصعب قتلهما، وبإمكانهما الآن أن يهاجما الإنسان. ولقد قرأت في بعض الصحف والكتب أن أمثال بازارباي هم المستفزون الحقيقيون. وأريد أن أقول هنا أن هذا الإنسان مستفز للذئاب، لقد عمل حتى أوصل الذئبين إلى درجة، أن يكونا مسعورين. لقد قلت له، وأعود لأقول له مباشرة، أنه تصرف كجبان إستفزازي. وأقول لك أيها المسؤول الحزبي الآن، إنني لا أفهمك مطلقاً. فكم سنة قد أمضيت في سوفخوزنا، ولكنك، وحتى الوقت الحاضر، لم تفعل شيئاً، إلا أن تمضي وقتك بقراءة الصحف، وتهدد بعض الرعاة من أمثالي، وتحاول أن تتهم الناس البسطاء بأنهم أعداء للثورة وضد السلطة السوفيتية. ولكنك في مجال العمل لا تدرك شيئاً، ولا تعرف كيف تتصرف، وإلا لما كنت قد وجهت إتهامك هذا لإنسان من الرعاة الذين يكرهون الذئاب، بأنه يعمل على إكثارها. فما شأني حتى أربي الذئاب، واتهامك هذا يثير الضحك، حتى بين الدجاج. أما إتهامك الآخر، أيها الرفيق كوتشكوربايف، فلا أستطيع إلا أن أجيب عليه. نعم إن إرنازار قد إستشهد عند المضيق. ولكن لماذا ذهبنا سوية إلى ذلك المضيق؟ بالطبع ليس من باب التنزه والتمتع! وعن ماذا كنا نبحث هناك؟ وأنتَ هل فكرت أيها المسؤول الحزبي ملياً بهذا الموضوع، ما الذي قادنا إلى هناك إلا الضرورة القصوى، إذ محتاجون جداً للمراعي، وإلا لما كنا قد خاطرنا بحياتنا هكذا! وهذه الحاجة تزداد يوماً بعد يوم، حتى لم تعد تطاق. وعلى أي حال فمدير السوفخوز موجود بيننا، فليقل كيف كان الوضع عندما بدأ بعمله، وكيف كان حال الأرض والمراعي والأعشاب في المنطقة! وكيف الحال الآن؟. كان غبار القحط يعم المكان، والأعشاب قليلة للغاية، وينحصر ذلك الخطأ، في إرسال كمية كبيرة من المواشي يزيد عددها عشرة مرات عن عدد الرؤوس التي يمكن أن تطعمها هذه المنطقة. ومن هنا تبرز الحاجة، وتموت أعداد هائلة من الأغنام، ومن أجل هذا، أي من أجل البحث عن المراعي الجديدة ذهبنا أنا وإرنازار إلى كيتشيبيل. كنا نطمح أن نحسن الوضع، ولكن حلت بنا المصيبة على الطريق. وانتهت مسيرتنا بنهاية أليمة. وتوقفت عن متابعة هذا الموضوع، اذ أجبرتني المصيبة على السكوت، ولو تحقق الأمر، كما كنت أرغب، لسافرت في العام الفائت إلى موسكو، وشاركت في المعرض للمنتوجات الوطنية، وكان بإمكاني عندها أن أذهب إلى القيادة المركزية للحزب، وأخبرهم عنك، يا كوتشكوربايف. انك تدعي بالعمل والتفكير من أجل الحزب، فهل يلزم الحزب

أناس من أمثالك، الذين لا يعملون شيئاً، ولا يسمحون للآخرين بالعمل كما يجب.
ـ لقد تجاوزت حدك! ـ لم يصبر كوتشكوربايف. ـ إن هذا إفتراء! وأنت يا أركونشيف، سوف تحاسب على كلماتك هذه، من خلال التنظيم الحزبي.
ـ هذا ما أريده، إنني أريد مناقشة هذه القضايا في الإجتماع الحزبي بالذات. واذا لم أكن أتصرف كما يجب، وأفكر بما يتناسب مع مصلحة الحزب، فعليكم أن تطردوني، وعندها ليس لي مكان في صفوف الحزب، ولا أطلب العفو نهائياً. ولكن عليك أن تفكر يا كوتشكوربايف ملياً في هذا الأمر.
ـ لا حاجة لي بالتفكر، يا رفيق أركونشيف. فضميري مرتاح جداً، فأنا مع الحزب دائماً.
حاول بوستون أن يعدل من لهجته، إذ كان يلهث،وكأنه ركض إلى الجبل، وهو ينظر إلى المستشار في اللجنة المنطقية، ثم قال:
ـ أرجوك أيها الرفيق المستشار الجديد، أن تنقل كل هذا إلى اللجنة المنطقية. فدعهم يبحثون في الأمر، ويحققون معنا في إجتماع حزبي، لا أقدر على متابعة العيش بهذه الصورة.
بعد فترة قصيرة من الزمن تأكد بوستون أركونشيف، أنّ كوتشكوربايف قد اصطدم مع العديد من السكان، وبدأت الأحداث تتطور بسرعة. وفي ذلك اليوم كان قد غادر البيت إلى ساحل بحيرة إيسك ـ كول، وكانت الحدائق على وشك أن تزهر في الأيام الأخيرة من الربيع، ولم يجد بوستون الوقت الكافي حتى يرش أشجار التفاح في حديقة بيته، وكذلك في حديقة بيت صديقه الراحل إرنازار. وهكذا أصبح عند بوستون وغوليومكان بيتان ـ وحديقتان، ولذلك تطلب الأمر منهما جهوداً مضاعفة، ولكن لم يكن الوقت كافياً عند الرعاة للاهتمام بأمور البيت، فيؤجل الواحد منهم العمل في بيته يوماً بعد يوم، حتى يفوت الأوان: ومهما يكن من أشغال فقد كان من الضروري رش الأشجار، كما يجب، والا تكاثرت الحشرات بسرعة غريبة، وتأكل الحشرات الزهر ويفشل المحصول. وفي هذه المرة لم تتمكن غوليومكان من الصمت، وقالت لبوستون بصراحة: أنه، يطيل الموضوع كثيراً، وعليه أن يذهب مبكراً، ويتفق مع أحد الجيران، طالما لا يجد الوقت المناسب، وليأخذ أحد الجيران أجره على هذا العلم.
ـ أي فائدة منك في شؤون البيت؟ ـ قالت غوليومكان لزوجها بغضب. ـ طوال الوقت ـ نهاراً، ليلاً، تعمل مع المواشي، وباقي الوقت في الإجتماعات. فاذا لم تتمكن أن

تقـوم بعملك كما يجب في البيت، فاجلس يومـاً مع كينجـوش في البيت ـ لا يجوز تركه دقيقة واحـدة لوحـده، ـ وأنـا سأذهب، وأعمـل بدلاً عنـك ما هو ضروري، وكـما يجب أن يفعل صاحب البيت.

كانت غوليـومكـان على حق. ويصعب الاعـتراض على كلامهـا، وكـان عليـه أن يستمع إليها صامتاً.

هكذا سافر بوستون منذ الصباح، حتى يهتم بالحديقة، ركب حصانه دنكوليوك وكما يقال منذ القدم، إن الربيع يعطي القوة للنبات والأحياء كافة. ولهذا كان الحصان دنكوليوك في أوج قوتـه: تلمـع عينـاه بحيـويـة ونشـاط، ويلوح بمعـرفيتـه، يمنه ويسرى. ومن قوته الـوافـرة، كان يرغب في الإنطـلاق إلى الأمـام بسـرعة. ولكنه لم يكن لدى بوستون المزاج، حتى يعدو بسرعة. كان يمسك بعنان الحصان، ويمنعه من العدو حتى يتمكن من التفكير خلال الطريق بمختلف الأمور التي في رأسه. وفي الليلة الماضية، لم ينم كما يجب: تقلب في فراشه طويلاً، لم يتمكن من نسيان الاتهام الذي وجهه له المسؤول الحزبي بخصوص مقتل إرنـازار. وبعـد أن عاد إلى البيت من الإجتماع، حدث زوجته بإختصار، عما حصل،وكيف جرى النقـاش. أمـا عن الإتهـام لم يقـل لها شيئـاً. فلم يرغب أن يذكـر غوليومكان بزوجها السابق، على الرغم من أنه مرت عدة سنوات بعد ذلك الحادث. وعند ذلك سوف يكون نقـاش حول هذا المـوضـوع بينهما، وسـوف يتعكـر صفـوهما مجرد العودة إلى تلك الحادثة. خاصـة أن إرنـازار مازال موجـوداً في أسفـل الهـوة بالقرب من جبل علا ـ مانغيو، دون قبر، وتجمـد إلى الأبـد مع الجليـد في تلك الظلمـة الحـالكـة في أعـماق الارض. ولهـذا كان من الأفضـل السكـوت عن هذا الاتهـام الـذي وجه إليه. وعندما كاد بوستون أن يغفو، عادت الـذئـاب إلى العـواء خلف الحظـيرة الكبـرى، وأطالت أكبارا العواء الحزين، وهي تبكي أولادهـا المخطـوفـين. كان تاشينـار يعوي معها بصوته الخشن الأبح. وإذا كان بوستون قد تحسس مصيبة الذئاب في بداية الأمر، وتعاطف معها، فهو الآن قد تغير عن قبل، واجتاح الشـر نفسـه، حتى أنـه أراد أن يقتل هذه الوحوش المسعورة، وأن ينتهي من صوت العواء، الـذي يكـرهـه كرهـاً مقيتـاً. زد على ذلـك أن الاتهامات قد وجهت إليه، وكأنه قد إرتكب خطأ. ووصل في الليلة الماضية إلى قرار: أن يقضي على الذئاب مهما كلفه الأمر، حتى أنه وضـع الخطـة المناسبـة، من أجل تنفيذ ذلك، زد على ذلك، أن أكبارا وتاشينار قد هجما، خلال وجـوده في الإجتـماع، وخـلال نقاشه مع كوتشكوربايف، على قطيع له وقتلوا ثلاث نعاج. ولقد حدثه معاون الراعي، كيف هجمت الذئاب على القطيع، ومهما صرخ ولوح

بعصاه مهدداً، فلم تخف الذئاب، وقتلت النعاج الثلاثة، واختفت بهدوء. لقد أغاظ هذا الحادث بوستون جداً، وأخرجه عن طوره. وفكر، إذا استمر الحال على هذا الشكل، لن يبقى أمامهم إلا مغادرة هذا المكان، ومن العيب أن يهربوا من الذئاب. لم يفهم كل من أكبارا وتاشينار، أنهما بهذا العواء المستمر، قد وقعا على قرار إعدامهما: أصبح بوستون يعرف جيداً ما عليه أن يفعل، وكان على إستعداد أن يقوم بتنفيذ مهمته دون إبطاء، ولو لم يكن عليه أن يغادر في صباح اليوم التالي للقيام ببعض الأعمال المنزلية على شاطىء البحيرة، لكان قد قام بتنفيذ مهمته في تلك الليلة. ولكنه قرر: يجب تنظيم الأمور في الحديقة حتى لا تدينه الزوجة، وفيما بعد من الممكن تصفية الحساب مع الذئبين.

هكذا فكر بوستون خلال طريقه . . .

* * *

تمكن بوستون من رش الحديقة، والعزق حول الأشجار كما يجب خلال يوم واحد. وتمكن من الإتفاق مع شاب قوي في القرية، إذ قام هذا الشاب بالعمل بسرعة مقابل أجر. ولقد وعده بوستون بخروف من خرافه السود.

أنهى بوستون العمل، وقرر أن يشتري لعبة جديدة لابنه كينجوش. أراد أن يُفرح الطفل كما يجب. إنه صبي جيد، يركض ضمن جدران البيت طوال النهار، وبعد شهر تقريباً سوف يبلغ السنتين من عمره. ويتصرف الولد تصرفات جميلة، تفرح قلب بوستون الكهل، حتى أن الأب كان يفرح لكل كلمة جديدة ينطق بها الطفل، فرحاً كبيراً. ومن خلال هذا الطفل، تفهم بوستون المعنى الحقيقي للحياة، الذي يتجلى في حب الذرية، وفي تعلق الطفل بوالديه. وكان هذا الطفل، بمثابة الشعاع في مصير بوستون الحياتي. أراد أن يحب زوجته وطفله، وأكثر من هذا، لم يطلب أي شيء، ولم يرغب بأكثر من هذا في الحياة. وهل هذا، غير ذروة السعادة في الحياة. إنه لم يتكلم عن هذا نهائياً، ولكنه كان يفهم هذا في قرارة نفسه، ويدرك أبعاده كما هو، ووثق، أن الزوجة تقاسمه هذه المشاعر في أعماقها.

أسرع بوستون إلى المخزن المركزي في المنطقة الذي يسمى «مدينة»، دخل إليه، واشترى لعبة «ضفدعة متحركة» جاحظة العينين، مضحكة. سوف يفرح الطفل بها فرحاً كبيراً! خرج إلى الشارع، وأراد أن يمتطي حصانه، لكنه شعر بوخزة جوع في معدته، تذكر أنه منذ الصباح لم يأكل شيئاً.

كان المطعم قريباً للغاية، إلى جانب المخزن. قرر أن يتناول ـ ولسوء حظه ـ بعض

الطعـام هنـاك. ومـا أن دخل بوستون إلى تلك الصالة، شبه المظلمة، حتى عبقت في أنفه رائحـة الأطعمـة الـرخيصـة، التي كان يتناولها السائقون المسافرون لمسافات بعيدة. جلس بوستون بالقرب من المدخل، خلف طاولة، وفجأة سمع ـ خلف ظهره ـ صوت بازارباي.
لم يلتفت بوستون ـ انه كان يعرف أن بازارباي غالباً ما يتسكع في هذا المطعم مع أصدقائه. «يجلس طويلاً، ويشرب في وضح النهار، مع المتسكعين من أمثاله والذين ليس لديهم درهم إنسـانيـة ولا حيـاء، ولا ضمير» ـ فكر بوستون في هؤلاء. أراد أن ينهض، ويبتعد عن الشر إلى أقصى درجـة، ولكنـه فكـر: لماذا عليـه أن يغادر، قبل أن يأكل؟ طلب حساء خضار، وكستليتـة، وعلى الفـورعلم بازاربـاي، حسب ما أخـبره البعض، أن بوستـون يجلس في الزاوية. وفجأة خرست الأصوات خلف ظهره، إذ نم ذلك عن العداء المبيت. ومن جديد عادت الأصـوات إلى الضجيـج، وبعـد قليـل، أُرسـل شخص من جماعـة بازاربـاي إلى بوستـون، يدعى كورصـامات، وهو إنسان متسكع، ثرثار ومفتري، حتى أنه في أيام شبابه وخلال عراك قد إنطفأت إحدى عينيه.
ـ السلام عليك، يا بوستون، السلام ـ مد صامات يده إلى بوستون بسخرية متعددة المعـاني ـ ولم يكن لدى بوستـون من مخرج آخـر، إلا أن مد يده وسلم عليـه، ـ ما بك تجلس وحيداً هنا؟ ـ أخذ يطرح الأسئلة على بوستون ـ ونحن نجلس هناك مع بازارباي. طال الوقت، دون أن نلتقي، فلنذهب إلى هناك، إن بازارباي يدعوك.
ـ قل له إنني على عجـل من أمـري، ـ أجـاب بوستـون بوقـار. ـ عليَّ أن أتنـاول طعامي، وأغادر إلى الجبال فوراً.
ـ الوقت طويل ـ وإلى أين ستطير الجبال من أمامك؟
ـ كلا، شكراً، الأعمال كثيرة.
ـ الأمر يعود لك، من العبث أن تجيب هكذا، ـ قال كورصامات، وهو يبتعد عن بوستون.
بعـد قليـل قدم بازاربـاي بذاتـه، وقـد بدا المـرح عليه، ونشوة الخمرة تجتاح وجهه، وخلف بازارباي كان يسير أصدقاؤه الآخرون.
ـ إسمـع، ما بك تحرف أنفـك عنـا؟ ينادوك كإنسان، وأنت كيف تجيب؟ هل تعتقد أنكَ أفضل من الآخرين؟ ـ بدأ بازارباي الكلام بفظاظة، دون أن يجلس.
ـ لقـد أجبت، أنني قد تأخـرت، ـ أجـاب بوستـون بهدوء، وأخذ يحسو الشوربة من صحنـه، متظـاهـراً بالسـرعـة، على الرغم من أنه في الحالات العادية، كان سيرفض هذا

الحساء، بعد أن يتناول الملعقة الأولى.

ـ توجد لديّ قضية معك. ـ قال بازارباي، وجلس مقابل بوستون بوقاحة ليس لها مثيل.

بقي الآخرون واقفين، في انتظار المشهد المثير.

ـ أي قضايا من الممكن أن تكون بيننا؟ ـ أجاب بوستون بإستغراب.

ـ من الممكن لنا أن نتحدث يا بوستون، على سبيل المثال، عن تلك الذئاب الصغيرة. ـ تجهم بازارباي، وأخذ يهز رأسه. إلا أن بوستون قد أجابه فوراً:

ـ لقد سبق وتكلمنا عنهم، وهل يستحق الأمر أن نعود مرة أخرى إلى هذا الموضوع؟

ـ حسب إعتقادي. يستحق الأمر.

ـ وحسب رأي، لا يستحق. فلا تزعجني، سأتناول طعامي وأذهب من هنا.

ـ إلى أين تسرع أيها الكلب؟ ـ نهض بازارباي بسرعة، واقترب منحنيا إلى بوستون وقد إنقلب وجهه إلى لوحة شر ـ فإلى أين تسرع، أيها السافل؟ إننا لم نتكلم بخصوص الجراء كما يجب، وأنت، أمام الجميع، وفي غرفة المدير، قد أطلقت عليَّ لقب ـ «استفزازي» وقلت إن الذئاب قد أصبحت مسعورة بسببي، أنتَ تفكر، أنني لا أعرف ما تقصده بكلمة «استفزازي»؟ تفكر، أنني فاشي، وأنت وحدك النقي هنا؟

نهض بوستون أيضاً من مكانه، ووقفا وجهاً لوجه.

ـ كف عن الثرثرة بلسانك الوسخ، ـ صرخ بوستون على بازارباي بصوت عال ـ لم ألقبك بالفاشي، وكان من الضروري أن ألقبك بهذا اللقب. أما بخصوص تسميتك بالإستفزازي، وأنك إنسان شرير لا عقل لك ـ هذا شيء صحيح. ولقد قلت لك هذا من قبل، وأقول لك الآن، ولكن من الأفضل، إذا عدت إلى مكانك وكففت عن الإقتراب مني، والتحرش بي.

ـ وأنت عليك أن لا تأمر، كيف عليَّ أن أفعل، وأين أجلس! ـ لقد جن جنون بازارباي نهائياً. ـ فأنت لست بآمر. وأبصق عليك، وليكن أنني حسب رأيك، إستفزازي، ولكن من أنت؟ وتفكر أن الناس لا يعرفون من أنت؟ وتفكر أنك قد قتلت إرنازار، وانتهى الأمر. فأنت سافل، قد كنت تخونه مع زوجته، عندما كان إرنازار على قيد الحياة. وكان على عجوزك أن تموت، وعند ذلك قررت أن تدفع بإرنازار إلى الهوة عند المضيق، وعدت لتتزوج هذه الكلبة غوليومكان. فحاول أن تثبت العكس. ولماذا لم تسقط أنت في الهوة، بل سقط إرنازار؟ لقد سرتما عبر طريق واحد. وأنت تفكر أن الناس لا يعرفون أي شيء! أنه

قتل، وأنت بقيت حياً، فمن أنت بعد كل هذا، أنت وكلبتك غوليومكان؟ لقد تجمد إرنازار عند المضيق مع الجليد، وبقي بلا قبر، كالكلب، وأنت، أيها السافل تضاجع زوجته التي فقدت الحياة، كالكلبة الرخيصة، وتعيش متكبراً متعالياً! وتقول عن نفسك إنك حزبيّ! فيجب طردك على الفور من الحزب. وتصور نفسك أنك بطل عمل، ستاخانوفي*! يجب محاكمتك على الفور! بالكاد تمكن بوستون من أن يملك أعصابه، حتى لا يضرب بازارباي ضرباً شديداً ويشوه وجهه الحقير. وكان بازارباي يستفزه للعراك معه. وحتى يقع خلاف كبير، ربما يؤدي لموته. ولكن بوستون ضغط على نفسه، وصرّ على أسنانه من الغضب، وقال لبازارباي وهو يرتجف من الغضب:

ـ لا يوجد أي موضوع بيننا، حتى نتحدث به. فكلماتك بالنسبة لي لم تعن أي شيء، ولن أعتبرك في وقت من الأوقات. فقل وثرثر ماشئت عني. أما الآن فابتعد عن طريقي، ـ أين أنت أيها الشاب، ـ نادى بوستون العامل في المطعم، ـ خذ حسابك مقابل الطعام. ـ أعطاه خمس روبلات، وخرج صامتاً.

أمسك به بازارباي من كمه:

ـ قف! لا تسرع إلى كلبتك! ربما هي الآن مع راع آخر، مستغلة فترة غيابك، وأنت تعود الآن وتزعجها!

إختطف بوستون عن الطاولة المجاورة قنينة شمبانيا فارغة. وقال بهدوء، دون أن يبعد نظره عن بازارباي الذي إصفر وجهه فوراً.

ـ إرفع يدك! لا تجبر ني على إعادة كلامي، إرفع يدك أتسمع؟ ـ قال بوستون بغضب، وهو يهز القنينة الثقيلة القائمة.

وهكذا، خرج بوستون إلى الشارع، وهو يمسك القنينة بيده بقوة. وفقط عندما جلس فوق سرج حصانه، تذكر، وقذف القنينة من يده، وأطلق حرية «دنكوليوك». فأخذ يركض بكل قوته. خاصة أنه منذ أمد بعيد لم يركض بهذه السرعة ـ وهذا العدو السريع للحصان قد ساعده على العودة إلى نفسه، وبعد أن هدأت أعصابه ندم على تصرفه: لقد كان بإمكاني خلال لحظة أن أقوم بجريمة؛ فشكراً لله الذي أنقذني من الوقوع في هذا الخطأ، إذ كان بإمكاني أن أشج رأس بازارباي الحقير بضربة واحدة». استغرب الناس

---

* من أنصار ستاخانوف الذي حقق الخطط الخمسية بوقت قصير.

الـذين كانـوا يسـافـرون فوق قاطـرة جرار، هذه السرعـة التي ينطلق بها الحصـان، فأخـذوا ينظـرون في أثـره مفكـرين: ماذا حدث لبـوستـون، فهـو إنسان رزين، ويركض بهذه السرعة، كشاب مغـرور. لم يتـوقف بوستـون، ولم تهدأ أعصابه كما يجب، إلا عندما وصل إلى النهير. توقف عنده، وشرب الماء البارد، وبعد ذلك إمتطى حصانه. ولم يعد يسمح له بالعدو بسرعة وسار متمهلاً. كان مسروراً، أنه قد تجنب حادث قتل الكريه بازارباي.

ولكن، وعنـدمـا أخذ يتذكر ما حصل، تجهم وجهه من جديد، وانزعج للغاية عندما تذكر، أنه نسي عند حفة النافذة في المطعم، الهدية التي اشتراها لابنه كينجوش. أي تلك اللعبـة ـ الضفـدعـة التي كانت ستفـرح الطفـل، وخـاصـة أنهـا ضفـدعة كبيرة، جاحظة العينين، وتتحرك. ان شراء هذه اللعبة، كان مغامرة، لأنها غالية، وكان من الممكن شراء اللعبـة في مرة أخـرى، وفي نفس المخـزن «مـدنية»، ولكن لم يعرف بوستون لماذا خطر على بالـه، أن نسيـان اللعبـة، بمثـابـة فأل السـوء. كان من الضروري الانتباه، حتى لا ينسى اللعبة للطفل....

ان شعـوره الخـاص هذا، قد أيقظـه، وأقلقه للغاية، وتوثبت في أعماقه الرغبة لمقاومة سير الأحـداث التي لا يرغب بها، ومن خلال التفكـير بالطـريقـة الـلازمـة لقتـل الـذئاب الشريرة، حتى لا يبقى لها أي أثر في المنطقة، كاد الغضب أن يضيق الخناق على عنقه.

ومـا سينجم بعـد الآن من قضيـة الذئاب هذه، زد على ذلك أن الخلاف الذي وقع اليوم، كان أيضاً بسبب هذه الذئاب، وكاد يرتكب جريمة قتل من أجلها...

قرر بوستون أن ينفذ خطته في اليوم التالي. وخلال الليل فكر بدقائق أمور العملية، ولأول مرة في حيـاتـه المشـتركـة مع زوجته، قد أخفى عنها فكرته هذه. لم يرغب بوستون أن يتحـدث معهـا عن الـذئـاب والجـراء، التي كانت سبباً في الخـلاف مع بازارباي ولم يرغب بالتحـدث عن أي شيء يذكـره أو يذكرها بحادث موت إرنازار عند المضيق، ولهذا كله كان يمضي بوستــون أغلب أوقــاتـه في البيت صامتـاً، يلعب مع إبنـه كينجـوش، ويجيب عن استفســارات زوجتـه غوليـومكـان بكلمـة واحدة، وأحياناً بـ ـ نعم أم لا ـ. وكان يعرف أن صمته هذا، سوف يقلق زوجته، ويثير عندها بعض التفكير المبهم، ولكن لم يكن بإمكانه أن يتصــرف على عكس ذلـك، إذ كان يدرك جيـداً، أن صدامـه مع بازاربـاي والشتـائم القذرة، التي أنهالت على رأسيهما، ستصبح معروفة لديها في وقت لاحق. ولكنه حافظ على صمته، ولم يرغب في التحدث عما قاله هذا القذر بازارباي. لأن ذلك كان سيئاً وقذراً، بل لا يطاق.

لقـد فكـر بوستون أيضاً بحياته المشتركة مع غوليومكان، وأي صعوبة وتعقيد في هذه الحيـاة، وكم من الجـوانب الخفيـة والشكوك من قبل الناس نحوهما، منذ تلك اللحظة التي أصبحا فيها زوجين. وأي افتراءات لم تترصدهما، من قبل الأعداء، ولكن بوستون لم يندم على أنـه قرن حيـاتـه بحيـاة غوليـومكان ـ أرملة إرنازار، وكان من الصعب عليه أن يتصور حيـاتـه بدونهـا، وكـان يلزمـه أن يشعر بوجودها إلى جانبه دائماً. . . ولو لم يقترن بها لكانت حيـاتـه تختلف كليـاً عما هو فيـه الآن. وحياته، كان لها أن تستمر، معها فقط، وحتى لو أنها تكـون غير راضيـة عنـه في بعض الأحيـان، وعن غير حق، ولكنهـا إنسـانة وفية ومخلصة له إخـلاصـاً كليـاً، وهـذا أهم شيء في الحيـاة الـزوجيـة. ولكنهما لم يتحدثا عن هذا فيما بينهما نهائيـاً، وكـان ذلـك مفهـومـاً دون نقـاش. ولو أن الناس قد سألوا بوستون، ماذا يعني هذا الصغير الذي لا يعرف الهدوء، ويعرف بضع كلمات، هذا الطفل المبتسم، جميل العينين، ولا يعرف الجلوس فوق رجليه المنفتحتين صحة وعافية، هذا الطفل ـ عجزة أبيه، لم يتمكن بوستـون أن يجيب بشيء. كان قد فقـد القـدرة على الإجابة بالكلمات المناسبة. لقد كانت مشاعره أعلى بكثير من الكلمات، وخاصة أنه كان يرى في هذا الطفل، وعلى وجه الدقة، من خلال براءة الأطفال، التي وهبها الله لهم، كان يرى ويتحسس نفسه بالذات. . . .

كان يفهم من خلال روحه كل شيء، وأخذ يعود في الليل، وهو يضطجع إلى جانب زوجته وابنه إلى وضعه الطبيعي، ونسي تقريباً ما حصل خلال النهار في المطعم. حتى أخذ يفكر، أنه لن يحقق خطته ضد الذئاب إذا لم تعد إلى العواء هذه الليلة، وأجل العملية التي كان ينوي القيام بها، وربما سيقرر إلغاء الخطة بأكملها. أراد بوستون أن يستقر. . .

ولكن، وكأنـه من باب العنـاد، عاد الـذئبـان في منتصف الليل إلى عادتهما. وها هما يعلنان عن وجودهما فوق الهضبة، خلف الحظيرة الكبيرة، إذ أخذت أكبارا تعوي بصوتها، ويكـرر تاشينـار خلفهـا بصـوتـه الخشن. وهنـا إستيقظ كينجوش خائفاً، وأخذ يبكي، أما غوليـومكـان فقـد أخـذت تشتم هذه الحيـاة، التي لا يوجـد فيها أي هدوء أمام هجوم هذه الـوحـوش المسعـورة. غضب بوستون من جديد، أراد أن يخرج من البيت ويطارد الذئاب، ولـو إلى آخـر الـدنيا، ومن جديد، تذكر، كيف أهانه وشتمه ذلك الوقح السافل بازارباي، ونـدم على أنـه لم يشـج رأسه بتلك القنينة. ولو ضرب بوستون الوغد بازارباي بتلك القنينة الثقيلة على رأسه، لكانت نهايته قد وقعت بشكل أكيد. وبالطبع كان بإمكان بوستون، أن لا يأسف على ما فعله، بل على العكس، سوف يفـرح، أنـه تمكن من القضـاء على هذا السافل في شكل انسان. . . أما الذئبان فقد تابعا العواء. . .

أخذ بوستون السلاح، وخرج مرة أخرى، علّه يخيفهما بعيار ناري،وبدلاً من أن يطلق عيار، أو عيارين، ضغط بوستون إصبعه على الزناد حتى أطلق العيارات الخمسة في ظلمة الليل الحالكة. ثم عاد إلى البيت، ولكنه لم يقدر على النوم بعد ذلك. ولم يعرف، لماذا أخذ ينظف السلاح. جلس في زاوية الغرفة الأمامية، وأخذ ينظف بندقية الصيد ماركة «النمر» باهتمام دقيق. أخذ ينظفها بعناية، وكأنها تلزمه بعد قليل. وخلال عملية تنظيف البندقية، فكر مرة أخرى، كيف له أن يتخلص من هذين الذئبين، وقرر أن يتحرك على عجل، قبل أن يعم النور.

خافت أكبارا وتاشينار من العيارات النارية، وابتعدا عن المكان إلى الشعب القريب لقضاء باقي ليلتهما، وخاصة أن هذين الزوجين لم يملكا «بيتاً» يأويان اليه بصورة دائمة، ولذلك كانا ينامان، حيثما يكونان: كانت أكبارا ـ حسب عادتها ـ تسير في المقدمة. وقد نما شعرها، حتى أصبح طويلاً، وتهدل نسولا شعثاء على أطرافها، حتى بدت في الظلمة رهيبة. بينما كانت تبرق عيناها لهباً فوسفورياً، ولسانها يمتد من فمها، حتى بدت للناظر وكأنها مسعورة فعلاً. كلا، ولكن المصيبة لم تخمد أوارها في أعماق الذئبة، التي فقدت أولادها، ولم يكن بإمكانها أن تنسى هذه المصيبة. ولقد خدعتها الغريزة، إذ أخبرتها، أن أولادها في بيت بوستون، وليس في مكان آخر، فهناك اختفى المختطف الذي طارداه في ذلك اليوم الأسود، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول اليه. وأكثر من هذا، لم يوحي لها عقلها الوحشي بأي شيء آخر. ولذلك أخذ الذئبان يعويان بقوة في تلك الأيام، وأخذا يقتلان كل ما يصادفهما من حيوانات في تلك المنطقة، وليس من أجل تذليل الجوع، بل انتقاماً، وانطلاقا من الرغبة الجامحة في الثأر وفي إراقة الدماء في هذا العالم الذي يقف ضدهما، وضد أولادهما. أكل الذئبان من لحم المواشي المقتولة، واتجها إلى ذلك المكان، الذي فقدا فيه أثر الجراء. وعانت أكبارا معاناة كبرى، إذ لم تقدر على نسيان هذه المصيبة، فلم يمر يوم واحد، إلا وذهبت أكبارا إلى ذلك المكان مع تاشينار، وتجولا في المنطقة، باحثين عن أولادهما، وخاصة، حول المنطقة التي يقيم فيها بوستون. لقد أخذ بوستون هذا بعين الاعتبار، إذ قرر أن يقضي على الذئبين مهما كلفه الأمر من صعوبات.

في اليوم التالي، أعطى بوستون منذ الصباح الباكر توجيهاته، أن لا تساق المواشي إلى المراعي، بل يجب أن تبقى في حظيرتين، ويجب أن تقدم إليها كمية من العلف الحبوبي، وتقديم الماء لها في الساحة، أما هو فقد أخذ من القطيع عشرين رأساً من الأمهات مع أولادهن، واختار الأمهات التي أنجبت توأمين، حتى يكون الثغاء أقوى، وساق هذه

الكمية القليلة من المواشي إلى منطقة خالية من السكان، وبعيدة عن الطرق.

لم يأخذ بوستون معه أحداً، فسار وحيداً، وهويسوق القطيع بعصا طويلة. وحمل على كتفه البندقية التي نظفها خلال الليل، ووضع العبوات اللازمة فيها، سار على مهل، متزناً: كان من الضروري أن يبتعد عن الأماكن الآهلة، قدر الإمكان.

كان النهار دافئاً ـ أنه نهار ربيعي حقيقي. وامتصت الجبال أشعة الشمس، وحولتها إلى خضرة فوق الهضاب والوهاد. أما الغيوم القليلة البيضاء، فكانت تسبح بهدوء، وهي تقترب من الأرض سابحة في زرقة السماء الصافية. بينما كانت تغرد القنابر، بين الحجارة، وهي ترد على حجل الجبال ـ وبكلمة، كان الجو رائعاً، وعلى امتداد الأفق البعيد فوق الجبال التي يغطيها الثلج، والتي كان من الممكن وفي أي لحظة أن تهب العواصف الثلجية فوقها وتتكون الغيوم السوداء القادمة من مكان ما، وأن تغطي أشعة الشمس، كل ذلك، كان يذكر بأن هذه النعمة من الجو الجيد ليست أبدية.

لكن، لم تبر ز أي ظاهرة تهدد بتغير الطقس الجميل. وسار القطيع الصغير من النعاج ـ الأمهات بشكل غير منظم، نحو الجهة التي يوجهه نحوها بوستون. كانت الخراف تقفز من مكان لمكان، وتلعب مع الأمهات، وترضع الحليب خلال المسير. ولكن بوستون، كان منذ منتصف الليل، ذو مزاج سيء. وكلما فكر أكثر، كلما إزداد غضبه على الذئاب وعلى بازارباي ـ سبب كل هذه القصة الغريبة. أما بالنسبة لبازارباي، فلم يرغب بوستون بإثارة المشاكل معه، منطلقاً من مبدأ: «لا تحرك العفن، فتفوح رائحته» أما بالنسبة للذئبين، فقد كان من الضروري القضاء عليهما، إذ لم يكن هناك من مخرج آخر. إن حسابا كان بسيطاً: إن ثغاء الأمهات والخراف سوف يستقطب إهتمام الذئبين أما هو فسيجلس في مكمن. وعندما يهاجم الذئبان النعاج وأولادهن، سوف يطلق النار عليهما. وبإمكانه أن يصيبهما بسهولة. ولكن، وكما يقال: «الانسان يأمل والرب ينفذ»... وهكذا حصل...

حتى منتصف النهار، لم تظهر الذئاب في المنطقة نهائياً. وضع بوستون النعاج في مكان جيد، واضح للعيان، وجلس بوستون بالقرب منها، مختبئاً مع سلاحه بين الحجارة، والشجيرات المبعثرة. كان بوستون يصيب الهدف جيداً. ومنذ الطفولة كان يمارس هواية الصيد، وقتل الكثير من الذئاب في منطقة إيسك ـ كول. وكذلك لم يكن لديه أي شك، أنه سوف يقتل الذئبين في حال إقترابهما من القطيع. أما الأمهات والخراف التوائم فكانت تصخب أكثر فأكثر، منادية بعضها البعض، ولكن الوقت أخذ يمر. والوحوش لم تعلن عن نفسها، على الرغم من أنها في الأيام الأخرى، كانت الذئاب تهاجم الرعاة، بين حين

وأخر، وتقتل المواشي، خاصة عند الظهيرة.

أخذت الشمس ترسل أشعتها العمودية الحارة. ولو كان بوستون في الحالة الطبيعية، لكان قد غفا قليلاً، ولكن الآن، لا يجوز له أن يغفو، ولن يسمح لنفسه بهذا، زد على ذلك أنه كان قلقاً: كان من الصعب عليه، أن يسمع الاتهام بخصوص مقتل إرنازار. إن الأعداء، وخاصة كوتشكورباييف وبازارباي قد توحدا ضده، وكل منهما يدبر له مكيدة على طريقته، ويحاصره ليوقعه في مأزق. ولم يفهم بوستون، لماذا تسير الحياة هكذا: لماذا، ولأي سبب يكرهه بعض الناس؟ بالإضافة إلى قضية الذئاب هذه التي تقلق أرواحهم، ولهذا السبب، لا يوجد أي هدوء في البيت، وخاصة إذا وصلت التقولات إلى زوجته حول ما يدعيه بازارباي وأعوانه. فالمطعم كان مليئاً بالناس، عندما هاجم بازارباي بوستون وزوجته، وكم كان بين الموجودين من بشر يكرهون الخير للآخرين. . . .

أما الذئاب فلم تقترب، وأخذ بوستون يفقد صبره. وعلى الرغم من هذا كان يركز إهتمامه ونظره، ويرهف سمعه - ينتظر الدقيقة بعد الأخرى بكل جاهزية. كان من الضروري أن يشاهد الوحوش قبل أن تهاجم، ويطلق النار عليها، بمجرد أن تنطلق نحو النعاج. يجب تحيّن اللحظة، عندما تظهر الذئاب، وهذا الأمر ليس بالسهل: فبالنسبة للأغنام لا تتمتع بحاسة شم قوية، ولا نظر جيد، وبكلمة، لا يوجد أغبى منها حيوان في الدنيا. فبالنسبة للذئاب تعتبر الأغنام صيدة سهلة للغاية، ولا يستطيع إنقاذ الأغنام من الذئاب إلا الانسان وحده، ولهذا تكون الذئاب مستعدة للقاء الإنسان. وهكذا كان في هذه المرة. . .

لم تشعر النعاج بالخطر الداهم نهائياً. فكانت ترعى، وتلتفت حسب ثغاء الخراف فقط، وعندما تقترب الخراف منها تقدم الأمهات ضرعها فوراً، وأكثر من هذا، لا توجد مشكلة أخرى بالنسبة للاغنام. أما الخطر فقد أدركه بوستون وحده. . .

طار اثنان من العقائق بالقرب منه، وأخذا يقعقعان بشدة، وهما يطيران من مكان لآخر. تحذر بوستون، وجهز سلاحه، ولكنه لم يتحرك من مكانه، بل على العكس، إذ بقي في مكانه، دون حركة ما، حان وقت اليقظة. وكان على إستعداد أن يضحي ببعض النعاج، حتى يجر الوحوش إلى مكان مكشوف. ولكن يبدو وكأن الذئبين قد أحسا بالخطر - وليس من المستبعد، أن العقائق قد حذرتهما من الخطر. أنهى الطيّران القعقعة في مكان، ثم أسرعا إلى فوق بوستون، وهنا أيضاً أخذا يقعقعان. هذا على الرغم من أن بوستون لم يلفت إنتباههما - وخاصةً أنه جلس، دون حراك، خلف الشجيرة ومهما يكن من أمر فإن

الـذئبـين لم يخرجـا فوراً ـ واتضـح الأمر فيها بعد، أنها تقاسما المهمة بينها: زحفت أكبارا بين الحجارة من مسافة بعيدة، أما تاشينار فقد قدم من الجهة المعاكسة (هذا ما اتضح فيها بعد، وكان يزحف بالقرب من المكان الذي يكمن فيه بوستون مع سلاحه).

لكن لم يتضح هذا فوراً.

انتظـر بوستـون قدوم الـذئاب بحذر شديد، ولكنه لم يفهم أبداً، من أي جهة ستبرز الوحوش. وفي المحيط ساد الهدوء والصمت: الأغنام ترعى بسلام، والخراف تلعب وتقفز، والعقـاعق كفت عن القعقعـة ـ وكـل ما كان مسمـوعـاً، هوكيف يجري النهـير من الجبل، وكيف تغرد العصافير. تعب بوستون من الانتظار الطويل، ولكن، وفي هذه اللحظة شاهد بين الحجارة شبح جسم رمادي، قفزت الأغنام قليلاً، ثم جمدت في مكانها غير متأكدة من الخطـر المحـدق. تحفـز بوستـون بكل أعصابه، أدرك أن الذئاب قد أخافت القطيع، حتى تعـرف أين يختفي الانسـان: وفي مثـل هذه الحـالة، يأخذ الراعي بالصراخ، ويركض نحو الأغنـام. ولكن بالنسبـة لبـوستون كان الأمر يختلف، ولهذا لم يعلن عن مكان وجوده. وعند ذلك، وبين الأحجار الكبيرة، لاح مرة أخرى، ظل رمادي، وهجم الوحش بوثبتين فاذا به بين الأغنـام. هذه، كانت أكبـارا، فوجـه بوستـون سلاحه، وأخذ يسدد على الشعرة نحو الهـدف، وكـان على إستعداد أن يضغط على الزناد، عندما سمع حفيفاً خفيفاً من خلفه، مما أجبره على الالتفاف. وفي هذه الثانية، ودون أن يسدد، أطلق النار مباشرة على الوحش الهائل الذي يثب نحوه بسرعة. جرى كل ذلك خلال رمشة عين. أصاب العيار تاشينار وهو يثب في الهـواء، ولكنـه لم يقـع على الأرض فوراً وصـر على أسنـانه بشدة، والغضب يقدح شرراً في عينيه، ومد جسمه إلى الأمام بوحشية، مجهزاً مخالبه المعقوفة. سار بعض المسافة، نحـو بوستـون، ثم هوى صريعـاً على مسافة نصف متر عنه. وعند ذلك إستدار بوستون، ووجه سلاحه إلى الجهة الأخرى، ولكن الزمن قد فات ـ تركت أكبارا النعجة التي أصابتها بسرعة، واختفت خلف الحجارة. خرج بوستون، والسلاح بيده، وهجم نحو الذئبة، آملاً أن يصيبها بطلقة ما. شاهد كيف قفزت أكبارا عالياً، من فوق النهير، فأطلق النار عليها، فلم يصبها...

التقـط بوستـون أنفـاسـه، ونظـر من حوله متحفزاً. إصفر وجهه من الضغط، وأخذ يتنفس بصعوبة. انه لم يحقق هدفه الرئيسي ـ هربت أكبارا. تعقد الأمر الآن، أكثر من قبل ـ فالعثـور عليهـا في مكـان ما، لم يعـد بالأمـر السهـل: وسـوف تكون الذئبة حذرة للغاية، ويصعب على الصياد أن يطلق النار عليها في مكان، وفكر بوستون، كيف كان الأمر، لو أنه

لم ينظر في الوقت المناسب إلى تاشينار، وأن يصيبه فوراً من الرصاصة الأولى.

كان الأمر قد إنتهى بصورة أسوأ بكثير. فكر بوستون بما جرى، وأيقن أن الذئبين قد أحسا بالخطر، فتقاسما المسؤولية، وعندما شاهد تاشينار أن الإنسان، والسلاح في يده يهدد أكبارا، لم يعد يفكر بصيد الأغنام، وانطلق نحو العدو الرئيسي.

جمع بوستون الأغنام التي تفرقت من الخوف، وذهب بعد ذلك للنظر إلى الذئب المقتول. تكور تاشينار على جنبه. فاتحاً فاهه، وقد ظهرت الأنياب الكبيرة الصفراء، وتقززت عيناه في محجريهما. تلمس بوستون رأس تاشينار الكبير ـ الذي كان يقتل الحصان، ويحمل قسماً كبيراً منه، أما قوائمه ـ التي أخذ يرفعها بوستون قائلاً: القوة واضحة في هذه القوائم. فكم سار عليها، وكم مزق بها من ضحايا!

وبعد تردد قصير، قرر بوستون أن لا يأخذ جلد تاشينار. فالله يغنيه عن هذا الجلد، فالأمر ليس في الجلد، زد على ذلك أن جلد الذئبة قد بقي سليماً، ولهذا اعتبر بوستون أن النجاح لم يخالفه.

وقف بوستون مفكراً، ثم وضع النعجة المقتولة على كتفه، وساق قطيع النعاج نحو البيت.

وبعد وقت قصير عاد، ومعه مجرفة ومعول، وحفر حفرةً ودفن فيها جثة تاشينار، عمل طويلاً حتى أعد الحفرة، إذ أن الأرض كانت صلبة وصخرية. ويتوقف بوستون عن العمل، ويرهف السمع، وينظر من حوله بحذر، ولو عادت أكبارا، لكان سلاح بوستون في انتظارها، ولا يلزم الأمر إلا أن يمد بوستون يده ويتناول البندقية... ولكن أكبارا لم تعد فوراً، بل عادت في الهزيع الأخير من الليل... اضطجعت بالقرب من التراب المحفور متحسسة رائحة زوجها ونامت هناك حتى طلوع الفجر، ومع بروز خيوط الشمس الاولى، اختفت اكبارا...

ساد في تلك الايام، جوربيعي جميل، وأصبح من الممكن القول أن الصيف قد بدأ كما أصبح من الضروري الاستعداد لنقل المواشي إلى المراعي الصيفية. وأخذت القطعان التي أمضت فترة الشتاء في السهل. تنتقل تدريجياً إلى الوديان والشعاب الجبلية، إلى الأماكن الغنية بالأعشاب الجبلية، حتى تنتهي إلى المضائق الجبلية، حيث الجو اللطيف والمرعى العي. كانت الفترة تحتاج لعمل كبير: مرافقة المواشي، ونقل الحوائج المنزلية، والأصعب من كل هذا قص صوف الأغنام، كل هذا قد كون وضعاً متوتراً. زد على ذلك أن كل إنسان كان يعمل بسرعة أكثر للانتقال إلى المصايف، وأن يحتل الأماكن الجيدة،

وبكلمة، إن العمل كان كثيراً. . . ولدى كل شخص كانت اهتماماته الخاصة. . . .

وفي كل المنطقـة، لم يبق إلا أكبـارا وحـدهـا خرة مستقلة. فهي وحـدهـا التي لم تتأثر بالحيـاة التي تغـلي من حولهـا. حتى أن النـاس قد نسـوهـا: فبعد أن فقدت تاشينار، لم تعد أكبارا للظهور أمام أعين الناس، ولم تقترب من المقر الشتوي لبوستون، ولم تعد تعوي في الليالي.

أحـاطت المصـائب بأكبـارا، حتى خنقتهـا، فذبلت وتهـدلت أطـرافها، وأصبحت عاجـزة عن المشـاركـة في الحياة بفعالية ـ وأخذت تتغذى بالحيوانات الصغيرة التي تلقاها في طريقهـا. وكـانت تقضي أيـامهـا بحسـرة وكآبة في أماكن مختلفة، بعيدة عن الأنظار. حتى عنـدمـا قام الـرعـاة بسـوق القطعان الكثيرة العدد، والتي تبلغ الآلاف وفي حالة الصخب والفـوضى، لم تحاول أكبـارا أن تخطف خروفاً مقصراً، أو نعجة مسنة، وأصبح الأمر بالنسبة لأكبارا سيان.

لم يعـد للعـالم في حيـاة أكبـارا أي معنى. وانحصـرت حياتها الآن في الذكريات عن المـاضي. أمضت أكبـارا أيـامها متمددة على الأرض، وهي تضع رأسها فوق يديها متذكرة الأيـام الحلوة والمـرة في سهـول موينكوم، وفي سهوب الداش، وهنا في جبال إيسك ـ كول. ومثلت لوحات الماضي أمامها بكل أبعادها: كيف عاشت يوماً بعد يوم مع تاشينار، وفي كل مرة، لم تكن قادرة على تحمـل الحـزن، وكـان يضيق بها المكـان فتخرج هائمة في البراري، وتعود إلى الركود من جديد، متمددة في زاوية ما، حانية رأسها فوق يديها، ومن جديد تتذكر أولادهـا الأربعـة، التي تم اختطافها أخيراً، وأولئك الذين قتلوا في عملية الصيد الرهيبة في موينكـوم، وأولئـك الذين حرقوا خلال اشتعال القصب بالقرب من البحيرة، وكانت تتذكر رفيق عمـرهـا ـ تاشينـار أكثر من أي شيء آخر، كيف لا وهو ذئبها، وسندها القوي وحبيبها الأمين. وأحياناً تذكرت ذلك الإنسان، غريب الأطوار، الذي صادفته بين قنب الحشيشة، ـ كيف كان عاري الجسم، ضعيف الأطـراف، وكيف لعب مع الجـراء الصغـيرة، وكيف هاجمتـه وكـانت على استعـداد أن تقضم حنجـرتـه خلال وثبتها، وخاف منها وجلس على الأرض، وهـو يخفي رأسـه بيـديـه، وهـرب فيـما بعد، بعيداً دون أن ينظر إلى الخلف. . . وتـذكـرتـه فيـما بعـد، عنـدما كان في بداية الشتاء، وعند طلوع الفجر في سهول موينكوم، مصلوباً فوق العارضة، تذكرت، كيف نظرت إلى ملامح وجهه المعروفة لديها، وكيف فتح عينيه، وهمس كلاماً ما، وصمت. . .

بدت لها الحيـاة المـاضيـة كحلم، حلم لا يعود، ولكن وعلى الرغم من كل ذلك، لم

تفقد أكبارا الأمل نهائياً، لقد كانت تشعر أكبارا بالدفء في قلبها، عندما تفكر بأنها ستجد البطن الأخير. ولهذا كانت تذهب أكبارا إلى المنطقة التي يقيم فيها بوستون، ولكنها لم تعد تعوي، بعد مقتل تاشينار، بل كانت ترهف السمع من بعيد. عسى الريح تنقل إليها أصوات أولادها، الذين قد كبروا، أو تشم رائحتهم المحببة إلى قلبها . . . آه لو كان من الممكن أن تحصل تلك المعجزة! فكيف كانت ستركض أكبارا إلى أولادها بسرعة خاطفة دون أن تخاف من الناس، ولا من الكلاب، ولمعاركت، وقاتلت حتى خلصت أولادها من الأسر، وهربت معهم بعيداً، بعيداً، من هذا المكان، كما لو كان لها ولهم أجنحة، إلى منطقة أخرى، وتابعت معهم هناك حياة جديدة وقاسية، كما تقتضي حياة الذئاب . . .

انشغل بوستون خلال هذه الفترة بعدة أعمال أساسية واضافية ـ وكأن مهام الراعي والانتقال كانت قليلة عن أن تملأ وقته، فبرزت الكثير من القضايا الحكومية، لأن كوتشكوربايف، وكما وعد، كتب شكوى ضد بوستون أركونشيف إلى الجهات المسؤولة، ومن هناك وصلت لجنة للتحقيق: من كان على حق، ومن أخطأ، ولكن اللجنة انقسمت على نفسها. اعتقد بعض أفرادها، أن الراعي بوستون أركونشيف قد أخطأ، ويجب أن يفصل من الحزب، لأنه أهان شخصية المسؤول الحزبي، وبهذا أساء إساءة أخلاقية للحزب نفسه، أما القسم الآخر من اللجنة، فقد وقف ضد هذا الرأي، لأن الراعي بوستون أركونشيف قد قام بكل ذلك من أجل المصلحة العليا، وكان لنقده أهمية خاصة من أجل رفع انتاجية العمل. وحققت اللجنة مع بازارباي نويغوتوف، إذ طلبت منه تقريراً خطياً حول موضوع الجراء، التي حاول بوستون أركونشيف أن يشتريها منه لاعادتها إلى المغارة . . . بكلمة، لقد قامت اللجنة بالتحقيق على كافة الصعد . . .

لم يذهب بوستون إلى الإجتماعين الاخيرين مع أعضاء اللجنة، وكان يرد على كل طلب، أنه مشغول بنقل المواشي إلى المصيف، وأنه سيذهب إلى هناك مع أسرته لفترة الصيف بطولها، وأن الوقت ضيق لديه، ولذلك كان على اللجنة أن تحقق في الأمر بغيابه، وأنه موافق على أي عقاب تراه اللجنة مناسباً. وبهذا سر كوتشكوربايف جداً، لأن هذا الرفض بالحضور من قبل بوستون كان يخدمه.

ولكن لم يكن عند الراعي بوستون أي مخرج آخر. لقد بدأ الرحيل إلى أماكن الصيف ولا يجوز أن يتأخر في التوجه إلى تلك الأمكنة الجديدة. ففي السنوات الأخيرة كانوا يسوقون المواشي . مشياً، وقبل يوم عن الموعد المحدد، وبعد هذا كانوا ينقلون الأدوات المنزلية اللازمة إلى الأماكن التي كان بإمكان السيارات أن تصل اليها، وبعد ذلك يتم نقلها على

الخيـل والحيـوانـات الأخـرى، كما كان ينتقـل الأجداد. وهذا كان يساعد، ويسهل عملية الـرحيـل وسـوق المـواشي. وهكـذا قام بوستـون بسـوق المـواشي إلى المصيف ثم ترك مسـاعديه مع القطعـان، وعـاد خلال الليـل الى البيت، حتى يقوم في اليوم الثاني بنقل الأدوات المنزلية، وأفراد الأسرة على السيارة، ليمضوا فترة الصيف بكاملها في الجبال.

وجاء ذلك اليوم. . . .

غادرت أكبارا عشية ذلك اليوم إلى المغارة القديمة، ولأول مرة، بعد مقتل تاشينار، كانت الـذئبـة الـوحيـدة تتجنب المغـارة القـديمة، تحت تلك الصخرة الكبيرة ـ علمت أن المكـان هنـاك خال، وأنـه لم يعد ينتظرها أحد. وعلى الرغم من ذلك، أرادت أكبارا المعذبة أن تركض عبر الطـريق المعـروف لديهـا جيـداً، وأن تدخـل إلى المغـارة ـ ربما كان أولادها هناك. ولم تصمد أمام إغراء الأحلام، فاستسلمت للخداع النفسي.

ركضت أكبـارا كالمجنـونـة، دون أن تختار طريقها الأفضل، ولم تنظر أين تطأ قوائمها ـ في المـاء، فوق الحجـارة، بالقـرب من النـيران التي أشعلهـا النـاس في أماكن مصيفهم، بالقرب من الكلاب الشرسة، وأخذ الناس يطلقون النار في أثرها. . .

هكـذا أخـذت تركض أكبـارا، وحيـدة، وقـد جن جنونها، عبر الجبال، تحت القمر العـالي المعلق في السـماء. . . وصلت إلى العـرين، الـذي نمت فيـه الحشـائش الطـويلة والبـاربـاريس، حتى أصبـح من الصعب معـرفة المكان. ولم تجرؤ على الدخول إلى المغارة التي هجرتها بعد وقوع المصيبة، وأصبحت كالمسكن المنسي. . . ولم تقدر على ضبط رغبتها وأن تذهب بعيـداً عن هذا المكـان. . . وهـا هي أكبارا تقف ثانية، متجهة إلى آلهة الذئاب بيوري آنا، وبكت بمرارة وحسرة، وهي تعوي وتئن. اشتكت طويلاً من مصيرها القاسي الأليم، وطلبت من الآلهة أن تأخذها إلى عندها إلى القمر، إلى هناك، حيث لا يوجد البشر. . .

كان بوستــون في تلك الليلة سائــراً في طريقــه، عائـداً بعـد أن رافق المـواشي إلى المصيف. كان من الممكن أن ينتظـر الصبـاح ثم يسـير عائداً، ولكنه كان سيصل عند ذلك إلى بيته في المساء، وكان عليه أن ينتظر يوماً كاملاً، وبعد ذلك بإمكانه أن يحمل الأغراض على سيـارة شحن ويسـافر ليلحق بجماعته، ولم يسمح لنفسه أن يضيع كل هذا الوقت. زد على ذلك، أنه، وفي المكان الشتوي لم يبق إلا غوليومكان والصغير، وأسرة أخرى، كانت تنتظر دورها للرحيل إلى المصيف، ولم يكن أحد من الرجال في البيوت الشتوية إطلاقاً.

ولهـذا السبب أسـرع بوستـون في الليـل، وبفضل حصانه دنكوليوك الذي كان يسير

كعادته مسرعاً أصبح بوستون يشعر بسعادة خلال المسير، وكأنه على جناح طير. وتحت أشعة الشمس كانت تبدو أذناه وشعر معرفيته ذات لون خاص، بينما توترت عضلات رقبته، وأصبحت منتفخة كالأمواج الرقيقة فوق الماء. كان الطقس جميلاً، وليس بارداً. تفوح رائحة الأعشاب في كل مكان. وخلف ظهر بوستون كانت تنتصب بندقيته ـ احتياطاً للمفاجاءات التي من الممكن أن تحدث في الجبال. وعندما يصل إلى البيت سوف يعيد بوستون السلاح إلى مكانه، إذ سيعلقه فوق المسمار المثبت إلى الجدار، دون أن ينزع الطلقات الخمسة منه.

حسب بوستون أنه سيصل إلى المشتى عند طلوع الفجر، في الساعة الخامسة تقريباً، ويبدو أنه سيصل فعلاً في الوقت المحدد من قبله. وخلال المسير في هذه الليلة، تأكد مرة أخرى من أنه يرتبط إرتباطاً وثيقاً بزوجته وابنه: فبعد يوم من فراقه لهما، قد اشتاق إليهما شوقاً كبيراً وها هو يحث حصانه مسرعاً إلى البيت. ومما كان يقلقه للغاية، أن الذئبة ـ أكبارا سوف تعود للعواء بالقرب من المسكن، وتخيف غوليومكان وكينجوش. حاول بوستون أن يبعث الطمأنينة في نفسه من خلال التفكير بأن أكبارا بعد مقتل تاشينار لم تعد إلى تلك المنطقة، وعلى أي حال لم يعد أحد يسمع عواءها.

إن قلق بوستون في تلك الليلة لم يكن مبرراً.

ففي تلك الليلة، كانت أكبارا في شعب جبل باشات تشكو ـ همومها ومأساتها ـ لبوري ـ آنا، عند عرين أسرتها القديم. وحتى لو صدف، وكانت أكبارا بالقرب من بيت بوستون، لما تصرفت بأي تصرف، بعد مقتل تاشينار، وكل ما كانت تفعله، أن ترهف السمع للأصوات القادمة من جهة المشتى عسى أن تنقل الريح إليها إشارة ما، تنم عن وجود أولادها على قيد الحياة.

وهكذا جاء ذلك اليوم . . .

استيقظ بوستون في ذلك الصباح، عندما كانت الشمس تسطع على الدنيا بكل طاقتها: وصل عند الفجر، وخلد إلى النوم أربع ساعات تقريباً. وكان بوده أن ينام أكثر من ذلك، ولكن ابنه قد أيقظه، على الرغم من أن غوليومكان لم تسمح له بالاقتراب من والده. ولكنها انشغلت بتجهيز الأغراض للرحيل، فاقترب الولد من أبيه، وأخذ يوقظه مربتاً على وجنته. فتح بوستون عينيه، ابتسم وغمر كينجوش في أحضانه، وشعر بإرتياح وسعادة ليس لهما مثيل. فارتجف قلب بوستون حباً ونشوة، مجرد التفكير أن ابنه كينجوش، هو من لحمه ودمه، وينمو ويتطور بصحة جيدة، وحركات سليمة وقوية، وأنه الآن قبل أن

يبلغ من العمر سنتين بعد، قد أصبح مضحكاً، ويحب والديه حباً كبيراً، وأن وجهه وطبيعة حركاته تشبه ميزات والده لدرجة كبيرة، ولكن عينيه تلمعان برتابة، كحبتي العناب الأسود، كعيني أمه. أعجب الولد كل من ينظر إليه، ومن خلال النظر إليه، كان بوستون يفتخر، أنه أنجب هذا الولد.

ـ ماذا تريد، يا بني؟ هل ترغب بأن أنهض؟ خذ يدي. وشدني حتى أنهض! شد! شد! هكذا! كم أنت قوي! والآن أغمر رقبتي بيديك!

حتى هذا الوقت، كانت غوليومكان قد غلت الشاي الجيد، الذي يحبه زوجها، وحضرت بعض المأكولات والمعجنات. وبما أنه لا يوجد الآن ما يشغل فكرهم لا قطعان المواشي ولا حتى الكلاب التي كانت قد غادرت مع القطعان إلى الجبل، سمح بوستون أركونشيف لنفسه أن يستريح قليلاً، وأن يشرب الشاي بهدوء، ولو مرة في السنة. القلائل جداً يدركون معنى هذه الاستراحة النادرة في حياة الرعاة، لأن المواشي تتطلب الإهتمام الدائم طوال السنة، وعلى إمتداد الأيام، وعندما يكون عدد القطعان أكثر من ألف رأس كبير، ومع الصغار أكثر من ألف ونصف، فإن الكلام عن الوقت الفراغ، وخاصة في ساعات الصباح في حياة الرعاة، هو من باب الأحلام فقط. فجلسوا متنعمين بالراحة القصيرة قبل أن يباشروا بتجهيز أنفسهم للرحيل، وخاصة أنهم كانوا يستعدون لقضاء فترة الصيف بأكملها في الجبال. كان على السيارة أن تحضر إليهم عند الظهيرة، وحتى هذه الساعة كان من الضروري أن يكون كل شيء جاهزاً عندهم.

ـ آه! كم أشعر بالسعادة، ـ كانت تقول غوليومكان، ـ ما أروع كل شيء، وأي نشوة، وما أروع هذا الهدوء! لا أعلم، ما هو رأيك، أما بالنسبة لي فلا أرغب اليوم بالرحيل، تعال نبقى هنا. فقل يا كينجوش لأبيك، أنه ليس من الضروري أن نسافر لمكان.

أما بالنسبة لكينجوش فقد كان يتمتم ببعض الكلام، وينتقل بين أبيه وأمه، أما بوستون فقد وافق بكل طيب خاطر مع زوجته.

ـ ولِمَ لا؟ ولِمَ، لا نعيش هنا طيلة الصيف؟

ـ من يصدق ما تقول، ـ ضحكت غوليومكان، ـ فأنت بعد اليوم سوف تركض مسرعاً خلف قطيعك، تطير فوق حصانك دنكوليوك، حتى لن يلحق بك أحد!

ـ هذا شيء حقيقي! ـ قال بوستون موافقاً، وهو يمسح شاربيه القاسيين. هذا يعني ـ حسب عادته ـ أنه سعيد.

هكـذا تحدثـا وهما يحتسيـان الشـاي خلف الطـاولـة المستديرة الصغيرة. كان يجلس بوستـون وغـوليـومكـان على الأرض، بينـما أخـذ يركض الصغير حولهما. أراد الوالدان أن يطعماه، ولكن الصغير لم يهدأ على الأرض في ذلك الصباح، حتى عجز الوالدان عن تقديم الطعام له. فتح بوستون الباب على مصرعيه ـ أصبح الجو حاراً، ولا يعقل أن يقفل الباب ـ بينـما كان كينجـوش يقفـز من مكان لآخر، ثم خرج إلى بهو البيت، يلعب مع الصيصان الصغيرة الناعمة، التي خرجت من البيوض لتوها. وتبعت الصيصان الأم، دجاجة الحارس الليـلي قودورمـات، الذي غادر مع القطعان إلى المصيف، أما زوجته أسيلغول فقد جهزت نفسها للسفر مع غوليومكان على السيارة. وقد أتت قبل قليل اليهم، وأخبرتهم أنها جمعت أغـراضهـا، ولم يبق لديهـا، إلا أن تضع الدجاجة مع صيصانها في السلة، ولا يلزمها للقيام بهذا إلا لحظة، عندما تأتي السيارة. أما الآن فتريد أن تغسل البياض وتنشفه.

هكـذا مر ذلـك الصبـاح، أخـذت ترتفـع الشمس قويـة الحـرارة، فانشغل الجميع بأعـمالهم، إذ جمع بوستـون مع زوجتـه الصـرر، وجهـزا الأواني بينـما انشغلت أسيلغـول بالغسيـل، إذ كان يسمـع بين فترة لأخـرى، كيف كانت تقـذف الماء من داخل البيت إلى السـاحـة. وتـركـا كينجوش الصغير يلعب كما يشاء: يخرج من البيت أحياناً، ويعود ثانية، يداعب الفراخ الصغيرة أحياناً.

أمـا القـرقة، التي اهتمت إهتماماً كبيراً بالفراخ. فقد قادتهم بعيداً عن البيت، حتى تجهز لهم خلف الزاوية مكاناً في الظل. سار الطفل خلف الفراخ، وبعد دقائق لاذوا خلف الجـدار السميـك للملحق. وهنـاك بين نبات راعي الحمام، وحميض الخل، كان الجو لطيفاً وهـادئـاً. أخـذت الفـراخ الصغـيرة تنبش في الفضلات، بينما أخذ كينجوش يضحك وهو يحدث الفـراخ، وهـو يحاول أن يمس أحـدها. لم تخف القرقة من كينجوش الصغير، ولكن عنـدمـا اقـتربت «كلبة» رمادية كبيرة، بهدوء من ذلك المكان، أخذت القرقة تقاقي فزعة، معربة عن قلقها اللامحدود، وقررت أن تهرب مع فراخها بعيداً من هناك، ولكن كينجوش لم يخف من تلك الكلبة الرمادية الكبيرة، ذات العينين الزرقاوين الجميلتين. أخذت تنظر الى الطفـل بهدوء. وهي تلوح بذيلهـا بتـودد. هذه هي الـذئبـة أكبـارا، التي كانت تحوم حول المشتى طويلاً.

قررت الذئبة أن تقترب من المكان الذي يعيش فيه البشر، لأنها لاحظت، أن الناس قل عددهم منذ الليلة الماضية، وكانت الحظائر خالية من المواشي. ولم تعد تسمع أكبارا لا أصوات البشر، ولا نباح الكلاب. فقادها حزن الأم القاتل، وساقها طموحها حتى تجاوزت

كل الحظائر بحذر، وكل الساحات ولكنها لم تجد أولادها المفقودين، فاقتربت من بيوت السكن، عن كثب، وها هي أكبارا، تقف أمام الطفل الصغير كينجوش، ومن غير المفهوم كيف أحست أكبارا أن هذا الطفل يشبه كل واحد من أولادها، ولكنه من بني البشر، وعندما اقترب من رأسها، حتى يلاطف هذه الكلبة اللطيفة، اضطرب قلب أكبارا المعذب من وقع المصائب المتلاحقة. فاقتربت من الطفل، وأخذت تلحس وجنته بحنان. سر الطفل لحنانها ومداعبتها، وضحك بهدوء، وأحاط عنق الذئبة بذراعيه، وعند ذلك فرحت الذئبة، وشعرت بارتخاء كلي، فاضطجعت على الأرض عند رجليه، وأخذت تداعبه ـ لقد أرادت أن يرضع حلمات ثديها، ولكنه بدلاً من هذا، جلس على ظهرها، ثم نزل وأخذ يناديها «جيورا جيورا!»* وهو يضحك بكل سعادة، ولكن أكبارا خافت من السير أكثر من ذلك؛ كانت تعرف أن هناك يعيش البشر، لم تتحرك من مكانها، وتابعت النظر بعينيها الزرقاوين الحزينتين إلى الصبي، فاقترب منها ثانية، وهو يمسح بيده على رأسها. أما أكبارا فأخذت تلحس الولد، وهذا ما أعجبه جداً. واحتضنته أكبارا بكل ما تملك في أعماقها من حب وعناية، واستنشقت عبق رائحة الطفولة، التي كانت تفوح منه. وفكرت في قرارة نفسها، كم كانت سعادتها كبيرة، لو أن هذا الطفل البشري قد عاش معها في مغارتها، تحت تلك الصخرة العاتية. كانت أكبارا، حذرة من أن تخدش رقبة الطفل، فأمسكت قبة سترته بهدوء، وبحركة حادة قذفت به فوق رقبتها ـ هكذا تعودت الذئاب أن تختطف الخراف من القطيع.

صرخ الطفل بقوة، ولبرهة قصيرة، كما يصرخ الأرنب المجروح، سمعت الجا أسيلغول، التي كانت تسير نحو الملحق حتى تعلق البياض، صوت صراخ الطفـ كينجوش، فأسرعت ونظرت من خلف الزاوية فشاهدت كيف تحمل الذئبة كينجوش فقذفت البياض على الأرض، وهرعت تركض إلى بيت بوستون.

ـ الذئب! الذئب أخذ الولد! أسرعوا، أسرعوا!

لم يذكر كيف اختطف بوستون البندقية من على الجدار، وانطلق مسرعاً من باب البيت، راكضاً، دون وعي، وخلفه أخذت تركض غوليومكان.

ـ إلى هناك! إلى هناك! هناك كينجوش! أنظروا الذئبة كيف تحمله! ـ أخذت تصرخ الجارة، وهي تضع يديها فوق رأسها من شدة الخوف. شاهد بوستون الذئبة التي كانت تركض، وهي تحمل الطفل الصارخ بشدة فوق رقبتها.

* تعالي، تعالي.

ـ قفي ! قفي ، يا أكبارا! قفي ، أرجوك! ـ أخذ يصرخ بوستون قدر استطاعته ، وهو يركض خلف الذئبة .

أخذت أكبارا تسرع ، بينما تابع بوستون ركضه خلفها ، والبندقية في يده ، وهو يصرخ بصوت لم يعد يشبه صوته :

ـ اتركيه ، يا أكبارا! أتركي إبني! لن أقترب طوال حياتي من ذريتك! أتركي ، أتركي الطفل! يا أكبارا! اسمعيي ، يا أكبارا!

وكأنه نسي ، أن كلماته بالنسبة للذئبة لا تعني أي شيء ، أما الصراخ ، والمطاردة . فقد زاد من خوفها ، فأخذت تركض بسرعة أكثر.

أما بوستون ، ودون أن يتوقف لدقيقة ، فقد لاحق أكبارا ، وهو يصرخ :

ـ أكبارا! اتركي ابني ، يا أكبارا!

وعلى مسافة خلفه ، كانت تركض غوليومكان وأسيلغول ، وهما تبكيان بيأس ومرارة .

ـ أطلق النار! أطلق النار بسرعة! ـ أخذت تصرخ غوليومكان ، وقد نسيت ، أن بوستون غير قادر على اطلاق النار ، مادامت الذئبة تحمل الطفل .

ان صراخ المطاردة ، قد أثار في عالم أكبارا الحقد الدفين ، وبعث شر غريزة الذئاب ، فقررت أن لا تترك صيدتها ، وتابعت تمسك الطفل بقوة من قبته ، وأخذت الذئبة تركض بسرعة فائقة إلى الأمام ، وهي تبتعد أكثر ، وأكثر نحو الجبال ، وحتى ، عندما سمعت دوي طلقة الرصاص تمر من فوق رأسها ، لم تترك حملها . أما الطفل فكان يزيد من البكاء ، وهو ينادي والده ، وأمه . ومن جديد أطلق بوستون النار في الفضاء ، دون أن يعرف ، كيف عليه أن يخيف الذئبة ، ولكن ، وحتى هذه الطلقة الثانية لم تخف أكبارا ، بل تابعت عدوها نحو الوعر ، وهناك كان من السهل عليها أن تختفي عن الأنظار . أخذ بوستون يعاني من اليأس القاتل : كيف من الممكن انقاذ الطفل؟ ما العمل؟ ولأي سبب نزل هذا العقاب على رأسيهما؟ ومقابل أي آثام؟

ـ أتركي الطفل يا أكبارا! أتركيه ، أرجوك ، أتركي لنا طفلنا! ـ أخذ يلهث ، وينشج كالخيل المتعبة ، وهو يرجو المختطفة حتى تترك كينجوش .

ومرة أخرى أطلق بوستون عياراً نارياً في الهواء ، ومن جديد سمعت أكبارا صفير الرصاص فوق رأسها ، ومع الركض أصبح بوستون يقترب من الوعر ، ولم يعد لديه في البندقية إلا رصاصتان . أدرك بوستون ، أنه لو تأخر دقيقة واحدة لفقد الفرصة الأخيرة من يده ، فقرر بوستون أن يطلق النار على الذئبة مباشرة ، توقف جاثياً على ركبتيه : صوب

بندقيته نحو القوائم، ولكنه لم يتمكن من التصويب جيداً ـ كان صدره يلهث ويطرق بشدة، ويداه ترتجفان، حتى لم يعد يتمالك القوة لضبط أعصابه. ورغم كل ذلك، حاول أن يضبط ارادته، وأن يصوب عبر الفرضة، ولكن الذئبة كانت تركض، وكأنها تسبح فوق الأمواج، صوب أخيراً، وضغط على الزناد، فلم يصبها، وفعت الرصاصة في التراب، وارتفع الغبار بالقرب من الهدف، لقم بوستون الرصاصة الأخيرة وأخذ يصوب من جديد، وعندما أطلق النار، لم يسمع صوت الرصاصة، وشاهد فقط، كيف قفزت الذئبة الى الأعلى، وهوت على جنبها.

وضع بندقيته على كتفه، وركض بوستون كمن يركض في الحلم نحو أكبارا التي وقعت. بدا الأمر له وكأنه يركض ببطء، ولمدة طويلة، وكأنه يسبح في جو خال من الهواء...

شعر برعشة باردة تجتاح جسمه، وكأن الصقيع قد عم المنطقة، فركض نحو الذئبة، منحنياً، وكأنه قد طعن بخنجر في صدره، وترنح في مكانه، متعذباً، والصوت قد تحشرج في حنجرته. كانت أكبارا ساعتها ما تزال حية، وإلى جانبها كان الطفل كينجوش صريعاً، بعد أن نفذت الرصاصة عبر صدره.

فقد العالم كينونته، وجمد إلى الأبد، وتوقف الزمن، واختفت الدنيا من أمام عينيه، ولم يبق مكانها، إلا الظلام الدامس والصاخب الملتهب. لم يصدق بوستون عينيه، فانحنى فوق جسد إبنه القتيل، المضرج بالدم الأحمر القاني، رفعه عن الأرض بيدين مرتجفتين، وضمه إلى صدره، ثم تراجع إلى الخلف مندهشاً من عيني الذئبة الزرقاوين، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. ثم استدار، وقد أبكمته المصيبة، وسار نحو الإمرأتين اللتين تركضان نحوه.

بدا الأمر له، وكأن زوجته غوليومكان قد أخذت تكبر وتشمخ أمام نظره وهي تسير نحوه، حتى أصبح جسمها هائلاً وعملاقاً، واضعةً يديها المتضخمتين أيضاً فوق وجهها الواسع.

سار كالأعمى، وهو يضم الطفل المقتول إلى صدره. وخلفه سارت زوجته وهي تنوح وتبكي بمرارة وحسرة غير محدودة، فأخذتها جارتها من يدها وهي تبكي معها.

لم يسمع بوستون الذي أصمته المصيبة أي شيء من حوله. ولكن، وفجأة أحس بشيء كالرعد، أو كهدير الشلال وصخبه، قد سقط فوق رأسه لينبهه إلى العالم، الذي يحيط به. وأدرك ساعتها، ماذا حصل، وهو يرفع عينيه إلى السماء، وصرخ بقوة:

ـ لماذا، لماذا يا إلهي أنزلت هذا العقاب بي ؟!

عنـدمـا وصـل إلى البيت، وضع جثمان إبنه في السرير، الذي كانوا قد جهزوه حتى يأخـذوه معهم إلى المصيف، وهنـا وقعت غوليـومكـان بالقـرب من طفلها، وأخذت تبكي بكـاء مراً. حتى بدت وكأنهـا تعـوي. كما كانت تعوي أكبارا في الليالي. . . . وإلى جانبها جلست على الأرض جارتها أسيلغول ناحبة . . .

خرج بوستـون من البيت، ماسكـاً السـلاح بيده بعد أن وضع مشط الرصاص فيه، ووضـع مشطـاً آخـر في جيبـه، وكأنه قد إستعد للذهاب إلى الجبهة، ثم وضع السرج فوق حصانه دنكوليوك، وقفز إلى ظهر الحصان بوثبة واحدة، وانطلق من البيت، دون أن يقول كلمة واحدة لزوجته، ولا لجارتهم أسيلغول.

عندما اجتاز مسافة عن المشتى، أعطى الحرية لحصانه حتى يعدو، قدر استطاعته، فانطلق الحصـان الأصهب عبر ذلـك الطـريق، الـذي سار عليه في نهاية الشتاء إلى مشتى الـرعـاة أمـا ذلك الانسان الذي قصده، وأراد أن يجده، وأراد أن يبحث عنه تحت الأرض حتى يلقاه، فقد كان في مكانه.

في ساحـة بيت بازاربـاي كان الـرعاة يحملون سيارة شحن بالأدوات المنزلية للخروج إلى المصيف أيضـاً في ذلـك اليـوم. ولم يلحظ الناس المشغولون بتحميل الشاحنة كيف قدم بوستون من خلف الحظيرة مسرعاً، وكيف جهز سلاحه، حتى أصبح جاهزا للاطلاق، ثم علقه على كتفه من جديد.

شاهد الناس بوستون، عندما أصبح بالقرب منهم. قفز بازارباي من فوق الشاحنة، ووقف ينظر إليه باستغراب.

ـ لماذا قدمت؟ ـ قال بازارباي مخاطباً بوستون، وهو يحك في مؤخرة رأسه، وينظر إلى وجهـه الأسـود كجـذوة الحطب المحـروقة. ـ لماذا قدمت إلى هنا؟! ماذا بك تنظر هكذا؟!

ـ أضاف بازارباي، وقد شعر أن بوستون قد قدم حانقاً. ـ هل جئت مرة أخرى بخصوص جراء الذئاب؟ أليس عندك عمل؟ لقد طلبوا مني، فكتبت لهم التقرير.

ـ أبصق على كل ما كتبته، ـ قال بوستون متجهماً، دون أن يزيح نظره الساخط عنه

ـ ليس هذا ما يهمني. بل أريد أن أقول لك، أنك لا تستحق الحياة في هذه الدنيا، وعليَّ أن أحسم هذا.

لم يتمكن بازاربـاي من الانحنـاء، حتى تنـاول بوستـون سلاحـه، ودون تصويب، أطلق النـار عليـه. فقفـز بازارباي من مكانه، وأراد أن يختفي خلف الشاحنة، ولكن العيار

الثاني قد أصاب الهدف بدقة في ظهره، ترنح بازارباي، وهو يدور على نفسه ثلاث مرات، ثم اصطدم رأسه بالقاطرة وسقط على الأرض، وهو يتشبث بها، ويخدشها بأظافره. حصل كل هذا فجأة، وخلال ثوان، حتى أن البعض لم يتحركوا من أمكنتهم، إلا عندما اقتربت كوك ـ تورسون البائسة، وهي تبكي، وسقطت فوق جثة زوجها الهامدة، أخذ يصرخ الجميع وهرعوا نحو المقتول.

ـ لا تتحركوا من أمكنتكم! ـ أمر بوستون بصوت قوي، وهو ينظر من حوله. ـ كل واحد في مكانه! ـ أمر ثانية وهو يوجه سبطانة سلاحه إلى كل منهم، حسب الدور. ـ أنا سائر الآن إلى الجهة، التي يجب أن أسير اليها، ولذلك أحذركم أن لا تتحركوا من أمكنتكم! وإذا لم تفهموا ما أقول، فلديَّ الرصاص الكافي! ـ وربت على جيبه، حيث وضع الطلقات الاحتياطية.

توقف الجميع في أمكنتهم، وكأنهم قد صعقوا بالصاعقة، دون أن يفهم أحد ما في الأمر، عاجزين عن قول أي شيء، وكأنهم قد فقدوا القدرة على الكلام. وفقط كوك تورسون تابعت البكاء فوق جثة زوجها الكريه وهي تقول:

ـ لقد كنت أعلم، أنك ستنتهي نهاية الكلاب، لأنك كنت كلباً طوال حياتك! ـ ثم توجهت كوك تورسون البائسة، قبيحة المنظر إلى بوستون، وهي تقول: ـ أقتلني أيضاً، أيها القاتل! اقتلني كما تقتل الكلاب. فأنا لم أر النور منذ ولادتي، فلماذا أحيا هذه الحياة! ـ وحاولت أن تقول شيئاً ما؛ أنها حذرت بازارباي، من مسألة اختطاف الذئاب الصغيرة، وقالت له إن هذا عمل شرير لا يعود عليه إلا بالمضرة، ولكن هذا الوحش لم يكن ليسمع من أحد، وليس لديه أي رادع كان، حتى اختطف أبناء الوحوش البرية ليبيعها ويشرب الخمرة بثمنها، وهنا اقترب منها راعيان، وأسكتاها ثم أبعداها عن المكان.

وعند ذلك ألقى بوستون نظرة غاضبة على الواقفين حوله، وقال بصوت رزين، وذي وقع خاص:

ـ كفى، فأنا الان أسير إلى المكان، الذي يجب عليّ أن أسير اليه، وسأخبر عما وقع بنفسي. أكرر ـ أنا شخصياً ذاهب إلى هناك! وأنتم جميعاً، عليكم أن تبقوا في أمكنتكم. أسمعتم؟!

لم ينبس أحد منهم بكلمة واحدة، إذ صمت الجميع مندهشين بما حصل، نظر إلى وجوه الجميع، وأدرك بوستون، أنه ومنذ هذه اللحظة، قد تجاوز الحد، وعزل نفسه عن الآخرين: كان يحيط به الناس المقربون والبسطاء، الذين كان يعمل معهم يومياً، وسنة بعد

سنة من أجل كسب العيش، كان يعرف كلاً منهم، كما يعرفونه، ويملك مع كل منهم علاقة خاصة. ولكن الآن، قد لاحظ بوستون على وجوههم شيئاً من الغربة، وأدرك أنه قد عزل عنهم إلى الأبد، وكأن لم تكن بينهم وبينه روابط سابقة، وكأنه بعث من عالم الأموات، وأصبح مخيفاً بالنسبة لهم.

قاد بوستون حصانه من مقوده، وابتعد عن المكان، دون أن ينظر إلى الخلف، واتجه نحو منطقة البحيرة، حتى يسلم نفسه هناك للسلطة.

سار عبر الطريق، منحني الرأس، وخلفه كان يسير حصانه الأمين دنكوليوك متعثراً أحياناً، وعابثاً بالعنان أحياناً أخرى.

هذه كانت عاقبة حياته . . .

ـ هذه هي نهاية الدنيا، ـ قال بوستون بصوت مسموع، وانقشعت أمامه الحقيقة الرهيبة: إن العالم، حتى الوقت الحاضر كان يتجسد في ذاته، ووصل هذا العالم نفسه إلى نهايته، فالسماء والأرض والجبال، والذئبة أكبارا ـ الأم العظيمة لكل البرية، وإرنازار، الذي بقي إلى الأبد في جليد مضيق جبل علا ـ مانغيو، ووريثه الأوحد ـ الصغير كينجوش الذي قتله بيده، وكذلك بازارباي المرفوض والمنبوذ في ذاته، وكل ما شاهده، وكل ما عاناه في حياته، ـ كل ذلك كان عالمه، الذي عاش فيه وله. وماذا الآن؟ لو أن كل شيء أخذ يسير، كما كان يسير منذ القدم، ولكن بدونه، فان هذا العالم، سيكون عالماً آخر. أما عالمه، فلن يتكرر، ولا يتجدد، ذهب ولن يبعث في أي نفس، ولا في أي شيء، وهذه كانت الأزمة الساحقة لذاته، وهذه نهاية الكون بالنسبة له . . .

ومن هذا الطريق السهلي الخالي، المؤدي إلى منطقة البحيرة، أراد بوستون أن يسير في اتجاه آخر، فعانق حصانه، محيطاً رقبته بيديه، ومستنداً إليه بكل ثقله. وأخذ يبكي بصوت عالٍ. مجترعا ما تحتوي لدى هذه المأساة من مرارة المصيبة.

ـ آه، يا دنكوليوك، أنت الوحيد الذي لا يفهم، ماذا فعلت! ـ تابع بوستون البكاء مخاطباً حصانه، وجسمه يهتز بأكمله من شدة النحيب. ـ فكيف لي أن أتصرف؟ قتلت إبني بيديّ، ولم أدفنه، وخرجت تاركاً المرأة الحبيبة وحيدة.

ثم لف بوستون مقود الحصان دنكوليوك على رقبته وثبت الركاب بحبل العنان فوق رقبة دنكوليوك، وثبت الأحزمة الخاصة بالركاب بالسرج، حتى لا تضرب الحصان على جانبيه عند المسير، وقال مودعاً حصانه العزيز دنكوليوك:

ـ إذهب، إذهب إلى البيت، إذهب حيثما تشاء! إننا لن نلتقي بعد الآن! ضرب

بوستـون الحصـان بكف يده على عجـزه، وتجـاوزه، فاستغرب الحصان هذه الحرية، وسار طليقاً بدلال.

تابع بوستون طريقه. . .

أما زرقة بحيرة إيسك ـ كول، فقد أخذت تقترب منه تدريجياً، أراد أن يذوب فيها، ويختفي ـ كان يريـد أن يحيـا، وأن لا يحيـا. مثله في هذا، مثل هذه التموجات، التي تظهر، وتختفي، وتظهر من جديد، منبعثة من ذاتها. . .

صـــدر

للدكتور ماجد علاء الدين

١ـ «عائد إلى حيفا» تأليف : غسان كنفاني .
ترجمة إلى الروسية ١٩٧٤

٢ـ «الضفدعة السائحة» قصة للأطفال ـ غارشين .
ترجمة إلى العربية ١٩٧٥

٣ـ «أكتوبر وحركة التحرر الوطني» ـ مجموعة مؤلفين .
ترجمة إلى العربية ١٩٧٥

٤ـ «الأقصوصة السوفييتية المعاصرة» تأليف وترجمة
طبعة أولى ١٩٨٣ دمشق
طبعة ثانية ١٩٨٤ دمشق
طبعة ثالثة ١٩٨٥ دمشق

٥ـ «الواقعية في الأدبين السوفييتي والعربي» تأليف
١٩٨٤ دمشق

٦ـ «كمب ديفيد : سياسة مصيرها الفشل» تأليف : فومين وزاخاروف .
ترجمة إلى العربية
طبعة أولى ١٩٨٤ دمشق
طبعة ثانية ١٩٨٥ دمشق

٧ـ «مغامرات بوراتينو أو المفتاح الذهبي» تأليف : الكسي تولستوي قصة للناشئة .
ترجمة إلى العربية ـ دمشق ١٩٨٥

٨ـ «المرآة والقرد» شعر قصصي للأطفال تأليف إ . كريلوف
ترجمة إلى العربية ـ دمشق .١٩٨٥

٩ـ «الوقواق والديك» شعر قصصي للأطفال ـ تأليف : إ . كريلوف .
ترجمة إلى العربية ـ دمشق ٩٨٥

١٠ـ «الذئب والثعلب» شعر قصصي للأطفال ـ تأليف : إ . كريلوف
ـ ترجمة إلى العربية ـ دمشق ١٩٨٥

١١ـ «مختارات من الشعر الروسي» ـ ترجمة وإعداد ـ دمشق ١٩٨٤

١٢ـ «البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية»
ـ تأليف : إ . بورتيانيكوف .
ترجمة إلى العربية ـ دمشق ١٩٨٥
١٣ـ «تيمور وفريقه» ـ قصة للناشئة ـ تأليف أركادي غايدار
ترجمة إلى العربية ـ دمشق ١٩٨٦
١٤ـ «الأخوة كينيدي» ـ تأليف : أ . غروميكو
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
١٥ـ «صفحات من حياة تولستوي ـ ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع محمد بدرخان
دمشق ١٩٨٧
١٦ـ «ملحمة العصر» ـ مجموعة شعرية ـ سافرونوف .
ترجمة إلى العربية دمشق ١٩٨٧
١٧ـ قصص من حياة دوستويفسكي» ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع محمد بدرخان

قيد الطباعة :

١ـ «الرموز المقدسة» ـ مجموعة شعرية ـ تأليف : ن . ريريخ
ترجمة إلى العربية
٢ـ «ابن سينا والعلوم الطبية» ـ تأليف : اسحاقي
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٣ـ «المدارس والاتجاهات الأدبية» ـ تأليف
٤ـ «غاغارين في القلب» ـ مذكرات والدة غاغارين
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٥ـ «الصهيونية العالمية في خدمة الامبريالية» ـ تأليف : ماجوريان
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع شحادة العبد المجيد
٦ـ «الروح المتمردة» ـ تأليف : م . ليرمنتوف
ترجمة إلى العربية بالاشتراك مع محمد بدرخان

مراجعة وتدقيق :

١ـ «ستالينغراد . . ملحمة العصر» ـ مذكرات المارشال تشويكوف
ترجمة : محمد عدنان مراد ـ دمشق ١٩٨٦
٢ـ مدخل إلى علم تصنيف المكتبات ـ اعداد برجس عزام
دمشق ١٩٨٧



الدكتور ماجد علاء الدين

المترجم في سطور:

- ولد عام ١٩٥١ في القطر العربي السوري - محافظة السويداء.
- انهى الدراسة الثانوية عام ١٩٦٨ .
- تخرج من جامعة موسكو عام ١٩٧٥ حصل على شهادة ماجستير في الأدب المقارن .
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة موسكو الحكومية عام ١٩٧٩ ، في اختصاص في الأدب المقارن.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- مؤلف عدة كتب في الأدب ومترجم اكثر من ٢٠ كتاب من الروسية الى العربية وبالعكس، وله الكثير من الدراسات في الصحف والمجلات .

يلومني بعض القـراء والنقـاد، لأن كتبي تنتهي بنهـايـات تراجيدية، ويقترحون عليَّ أن أجعلها سعيدة، وخاصة في رواياتي «السفينـة البيضـاء»، «الغرانق المبكرة» وكتابي هذا «النطع» الذي دخل، حسب وجهة نظر بعض النقاد، ضمن هذا الاطار التراجيدي.

ويجب القـول انه، بدون هذه النواحي التراجيدية من الصعب التحـدث عن المصـائب التي تحل بنـا، هنـا وهنـاك. والتحدث عن الـتراجيـديـا من جهـة نظـر فلسفية... لأنه لا توجد حياة ولا فن خارج الصـراع بين الانسـان والانسـان.. وبـين الانسـان وقوى الطبيعـة الأخـرى، ولـو اهتممت بنصائح الآخرين لما كانت كتبي تقـرأ كما رغبت لها.. ويـولـد العمـل الأدبي العظيم عندما يحاول الكاتب تفسير المشاكل العظمى للوجود البشري...

جنكيز ايتماتوف